

رحلة
بنيامين التطيلي

561 - 569 هـ / 1165 - 1173 م

ترجمة

عَزْرا حَدّاد

دراسة وتقديم

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

رحلـة بِنْيـامـين التَّطيلي

الرحّالة الرّابى بنيامين بن يونه التّطيلي النباري الأندلسي

٥٦١-٥٦٩هـ / ١١٦٥-١١٧٣م

ترجمها عن النّص العبري وعلّق على حواشيها

وكتب ملاحقها

عَزْرا حَدّاد

دراسة وتقديم

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

٩١٥,٦
ي ورح
ابن يونه، بنيامين بن يونه، ٠٠٠ - ٥٦٩هـ
رحلة بنيامين التطيلي / ترجمها وعلق على حواشيها وكتب ملاحقها عزرا حداد؛ دراسة وتقديم عبد الرحمن عبد الله الشيخ.- ط ١.- أبوظبي؛ المجمع الثقافي، ٢٠٠٢.
٤٠٥ ص.
١- الشرق الأوسط - وصف ورحلات.
٢- اليهود في الشرق الأوسط.
أ- عزرا حداد، مترجم.
ب- عبد الرحمن عبد الله الشيخ، مقدم.
ج- العنوان.
طبع لأول مرة سنة ١٩٤٥ بالمطبعة الشرقية في بغداد

أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380- هاتف: 6215300
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae



رحلة بِنْيامين التُّطيلي

أولاً

رحلة بنيامين التطيلى، دراسة وتعليقات

رحلة بنيامين التطيلي
دراسة وتعليقات

د. عبد الرحمن الشيخ

بدأ بنيامين التطيلي رحلته التي نحن بصددها في حدود سنة ١١٦٥م الموافقة لسنة ٥٦١هـ أو قرابة سنة ٤٩٢٦ من بدء الخليقة حسب التقويم العبري. وهذا يعني أنه حين بدأ رحلته خارجا من سَرَقُسْطه (سراكوزه) لم تكن سرقسطه تحت الحكم الإسلامي، فقد كان قد مضى – وقت خروجه منها – خمسون عاما على سقوطها في أيدي القوى المسيحية. وإذا كان بنيامين يهدف في الأساس إلى زيارة العالم الإسلامي زيارةَ تعرّف ومَعْرفة – كما ذكر المترجم الأستاذ عَزْرا حدّاد في مقدمته – باعتبار العالم الإسلامي – وهذا صحيح – كان هو الملجأ والملاذ ليهود شبه جزيرة أيبيريا* الذين كانوا يشهدون أيّاما سودا في كل منطقة ينتهي فيها الحكم الإسلامي، وباعتبار العالم الإسلامي هو الملجأ والملاذ ليهود سائر أوربا في العصور الوسطى الذين كان الأوربيون يعاملونهم معاملةً دونها بكثير معاملة الأنعام، وينظرون إليهم نظرةَ ملؤها الكراهية والاحتقار. لكن إذا كان التعرّف على العالم الإسلامي هو هدفه، فلماذا لم يتجه جنوباً ليجول في شبه الجزيرة الأيبيرية؟ ولماذا لم يَعبُر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) ليصل إلى طنجة أو سبتة ثم يتخذ طريقه عَبر المغرب العربي إلى مصر فسائر أنحاء العالم الإسلامي؟ ألم يكن هذا الطريق يبدو منطقيا أكثر من اتجاهه

---

* إسبانيا والبرتغال حالياً.

شمالاً فشمالاً بشرق ثم اتجاهه إلى إيطاليا فالدولة البيزنطية ، ليهبط بعد ذلك جنوبا إلى سائر بلاد العالم الإسلامي التي زارها أو قال إنه زارها ، ثم يتجه إلى الصين ليعود إلى شواطئ الهند فسواحل شبه الجزيرة العربية ثم يعبر البحر الأحمر ليصل إلى أسوان ويستمر هابطاً مع نهر النيل ليصل إلى القاهرة والفسطاط ويزور صحراء شبه جزيرة سيناء ثم يعود إلى قوص في صعيد مصر ثم يرجع إلى الفسطاط ثم يصل بطريق ما إلى الإسكندرية ومنها إلى صقلية. لماذا هذا الطريق الذي لايبدو أنه الأسهل؟ ثم لماذا تردده أكثر من مرة على مواضع بعينها في مصر التي قطعها من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال أكثر من مرّة؟

إن لدينا إجابةً واضحةً لتخلّي بنيامين عن الاتجاه جنوبا داخل شبه جزيرة أيبيريا . فقد أجمع كلُّ المؤرخين الأوربيين واليهود أنّ حِضْن الحكومات الإسلامية كان هو الحِضْن الوحيد الذي لا يأمن اليهودُ لحِضْن سواه طوال العصور الوسطى، وطوال قرنين في التاريخ الحديث (بعد سقوط غِرناطة) ، وكان الحكم الإسلامي يتراجع في شبه الجزيرة الأيبيرية تراجعاً واضحاً منذ القرن الحادى عشر للميلاد، وحتى لا تطول هذه الدراسة أكثر مما هو مُقدَّر لها نكتفي بتتبع الحال في الأندلس منذ قيام دولة الموحدين إلى قيام مملكة غرناطة (٥٥٢-٦٣٠هـ / ١١٥٧-١٢٣٢م) لأنّ بدايات هذه الفترة تسبق بقليل رحلة بنيامين كما أن نهايتها تتأخر بقليل بعد نهاية رحلته. وقد اعتمدنا في كثير مما نقدمه بهذا الصدد على أطلس تاريخ الإسلام لحسين مؤنس وإن

كانت الكتابات في هذا الموضوع كثيرة.

بعدوفاة خليفة الموحدين الرابع محمد الناصر تصدَّعت قوى الدولة الموحّديّة أو دولة الموحّدين - وهى الدولة التى خلفت دولة المرابطين في حكم المغرب والأندلس - وكان سبب هذا التصدّع هو الصّراع الذي نشب حول الخلافة ، وذلك لأن الخليفة الموحّدي الخامس وهو المستنصر عيَّن أخاه أبا العُلا إدريس المأمون على الأندلس ، وكان أبو العلا المأمون قصير النظر إذْ إنّه عندما وجد أخاه أبا عبد الله محمد والي مَرْسّيَه يَعْبُر إلى المغرب ويُطالب بالخلافة ويتلقّب بالعادل، سارع هو بدوره وجمع قواته وأعلن نفسه خليفة وتلقّب بالمأمون قرابة سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م وعبر إلى المغرب تاركاً الأندلس دون غطاء عسكري مما فتح البابَ واسعاً أمام تقدّم ممالك أسبانيا النصرانية.

والواقع أنَّ اهتزاز الحكم الإسلامي وبداية انحساره في الأندلس كان قد بدأ حتى منذ أيام المرابطين أو قبل ذلك، فقد كانت مملكة قشتالة وليون النصرانية قد تطوّرت من مجرَّد وحدة سياسية مُتنافسة مع غيرها من الوحدات إلى أكبر دولة في شبه جزيرة أيبيريا، نتيجة استيلائها على إمارة طليطلة، فتضاعف ثراؤها وقوتها، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى أرجون التي لم تكن في بدايتها سوى دويلة صغيرة من الدويلات المسيحية في الركن الشمالي الغربي من شبه الجزيرة ، فأصبحت مملكة كبيرة غنية بعد استيلائها على سرقسطة وضمّها بلاد الثغر الأعلى الأندلسي إلى أراضيها، وتم ذلك في سنة ٥١٢هـ/١١١٨م أى أيام المرابطين، وكان القائم بهذا الجهد العسكري الكبير هو

ألفونسو المحارب *Alfonso I Battalador* وقد سقطت سرقسطة دون حرب بسبب صراع أسرة بنى هود الحاكمة.

وقد دخل الموحّدون الأندلس في أواخر سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م كما أسلفنا، ولاقوا معارضة من بعض قبائل الأندلس من بقايا المرابطين (بنى غانية) ورغم أنّ التاريخ شهد لهم بانتصارات عظيمة (كمعركة الأرك المشهورة *alorocos*) ، إلاّ أن الخطّ العام للوجود الموحّدى في الأندلس كان مائلاً للانحدار.

ما كان بنيامين التطيلى اليهودي ليسلك هذا الطريق الجنوبي المضطرب . لكن أكان بنيامين يتوقع أن يسود الوجود الإسلامي في شرق أوربا أو في الممتلكات البيزنطية في أوربا عامة، فاتخذ – لهذا – الطريق الشمالي؟ ربما، خاصة وأن هذا الوجود أو هذا الامتداد الإسلامي في الأناضول وشرق أوربا كان متزامناً مع التراجع الإسلامي في شبه جزيرة أيبيريا بطريقة تدعو للدهشة والتأمّل،فمنذ أواخر القرن الحادي عشر للميلاد كان الوجود الإسلامي في تقهقر واضح في شبه جزيرة أيبيريا، ففي سنة ١٠٨٥ سقطت طليطلة، وفي الفترة نفسها تقريبا كان ألب أرسلان السلجوقي (١٠٦٣–١٠٧٢) يطرد البيزنطيين من معظم آسيا الصغرى، وطوال هذه الفترة وما بعدها كان الأتراك يهاجرون غربا إلى آسيا الصغرى بالذات مُتَتبعين خطى السلاجقة، أبناء عمومتهم، ومن الطرف الآخر للعالم الإسلامي سقطت قرطبة في سنة ١٢٣٦ ثم استمر الزحف المسيحي فسقطت إشبيلية في سنة ١٢٤٨ .
لقد بدا الإسلامُ في أيبيريا أو الطرف الغربي للعالم الإسلامي مُضَعْضَعاً

على وشك الانهيار. وفي سنة ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية في يد المسلمين الأتراك، ففزعت أوربا كلها واستدارت تاركة الانتصارات المسيحية في أيبيريا. إن الإسلام من هذا الباب القسطنطيني أصبح أقرب لأوربا من حبل الوريد. ففي الفترة التي قام فيها بنيامين برحلته كانت بشائر المد الإسلامي في الأناضول وشرق أوربا قد هلّت ولم يكن سقوط القسطنطينية هو بداية هذا المد.

ليس مستبعداً إذن أن يكون هذا الوجود الإسلامي الفعلي أو المُرْتقب هو دافع بنيامين لاتخاذ هذا الطريق الشمالي.. إنه البحث عن الحضن الإسلامي، وحتى لا تبدو هذه الأقوال من قبيل المبالغة نفضّل هنا الرجوع إلى مراجع كتبها يهود فالأستاذ عزرا حداد يذكر لنا بعد الرجوع للموسوعة اليهودية *Jewish Encyclopaedia* في طبعتها الصادرة سنة ١٩٠٢ وغيرها من المصادر أن اليهود في سرقسطة زاد عددهم في ظل الحكم الإسلامي وازدهرت أحوالهم وكثرت معابدهم، وبعد خروج المسلمين منها (أى سرقسطة) شهدوا أياما سودا وبلغت مأساتهم فيها الذروة في سنة ١٣٩١، وكانت سرقسطة - كما هو معروف - قد خرجت من أيدي المسلمين في سنة ١١١٨م (٥١٢هـ)

لم تكن بلدة بنيامين (تطيلة *Tudela*) ولا سرقسطة التي بدأ منها رحلته ضمن نطاق الأندلس أو أسبانيا المسلمة يوم خرج منها بادئاً رحلته التي نظن أن هدفها هو تقديم تقرير للمسئولين الدينيين اليهود في شبه جزيرة أيبيريا لتوضيح الأماكن التي يمكن أن يلجأ اليهودُ إليها هروباً من الاضطهاد المسيحي. وهذا ما سيتضح في أكثر من سياق في

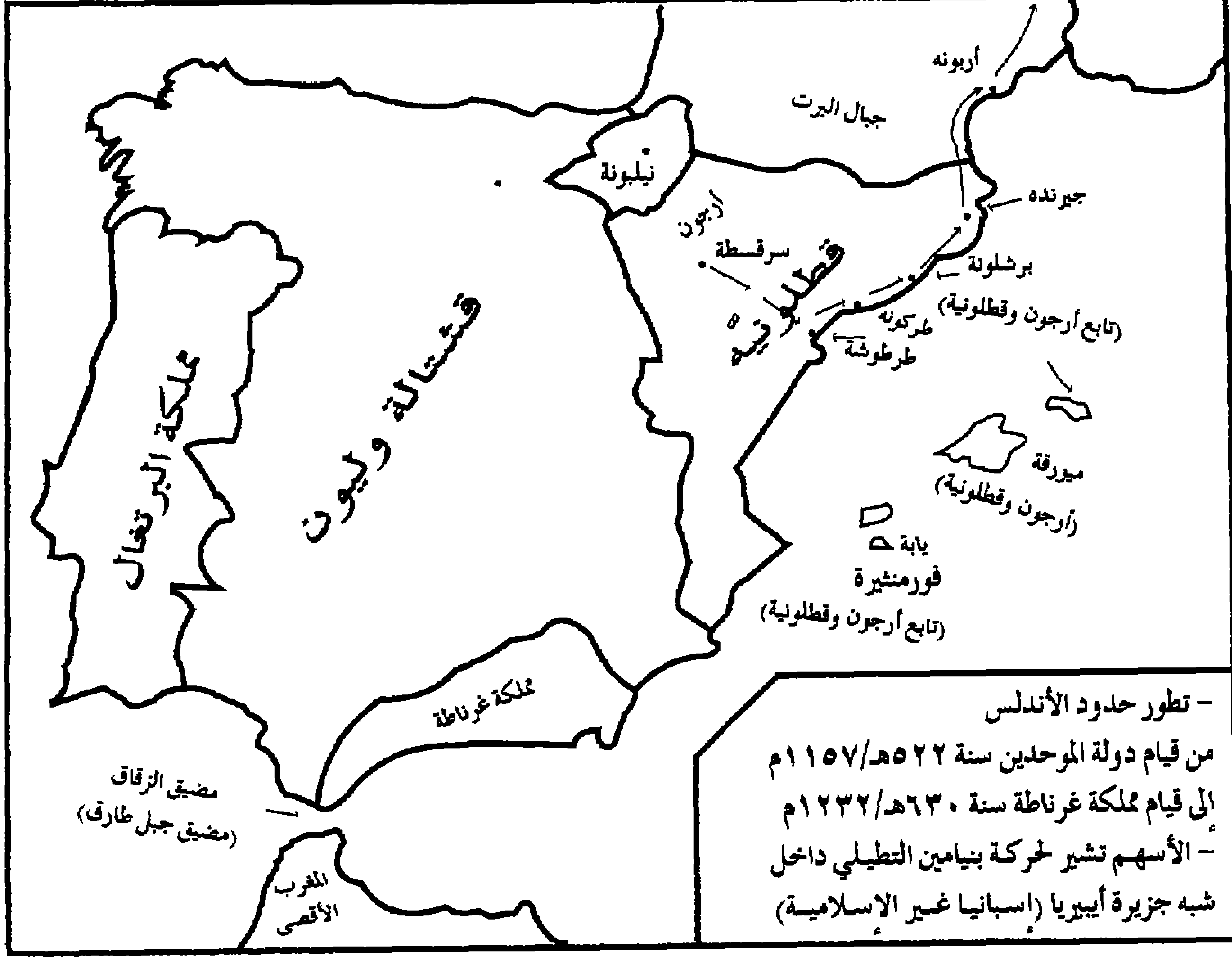
هذه الدراسة .

لقد كان اليهودُ من بين العناصر التي رحّبت بالفتح الإسلامي للأندلس بل ومدُّوا له يد العَوْن، لذا فقد ظلّ مسيحيو الأندلس يُعادونهم عداء مريرا، بل إن هناك من الدراسات ما يؤكد أنّ السلطات المسيحية بعد سقوط غرناطة – وطوال قرن ونيف – كانت لا تتهاون في إخراج اليهود بالذات ولم تكن تقبل منهم حتى التحوّل إلى النصرانية ، أما على المستوى الشعبي فقد كان شعب إسبانيا غير راضٍ عن طرد المسلمين لأنهم كانوا يمثلون طاقة عاملة لها شأنها بل كانت الأسر النصرانية تُخْبِئ المسلمين مما جعل السلطات المسيحية مضطرة لجلب جنود من أوربا من خارج إسبانيا للمعاونة في التفتيش على المسلمين وطردهم. نعلم أن هذه الفترة خارج نطاق الفترة الزمنية التي قام فيها بنيامين برحلته، لكن منهجنا في كتابة التاريخ أو بالأحرى فهمه لا يكتفي بالرجوع للوثائق والمصادر الروائية، وإنما بالإضافة إلى ذلك يستعين بالأحداث التاريخية التى وقعت بعد الفترة التي نؤرّخ لها، ويستعين باللغة المتداولة الآن، والوقائع الجارية الآن، والمعاني المبثوثة الآن لتفسير وقائع مضت، فحوادث التاريخ سيل مُسْتمر، وتقسيمها إلى قديم ووسيط وحديث من فِعْل البشر لا من فعل طبيعة الأحداث. . وكان هذا التقسيم لأسباب عمليّة لا لأسباب علمية خالصة أو لأسباب فلسفية محضة. لكن لابد على أي حال من وضع بعض المحاذير على هذا المنهج حتى لا تختلط الأمور.

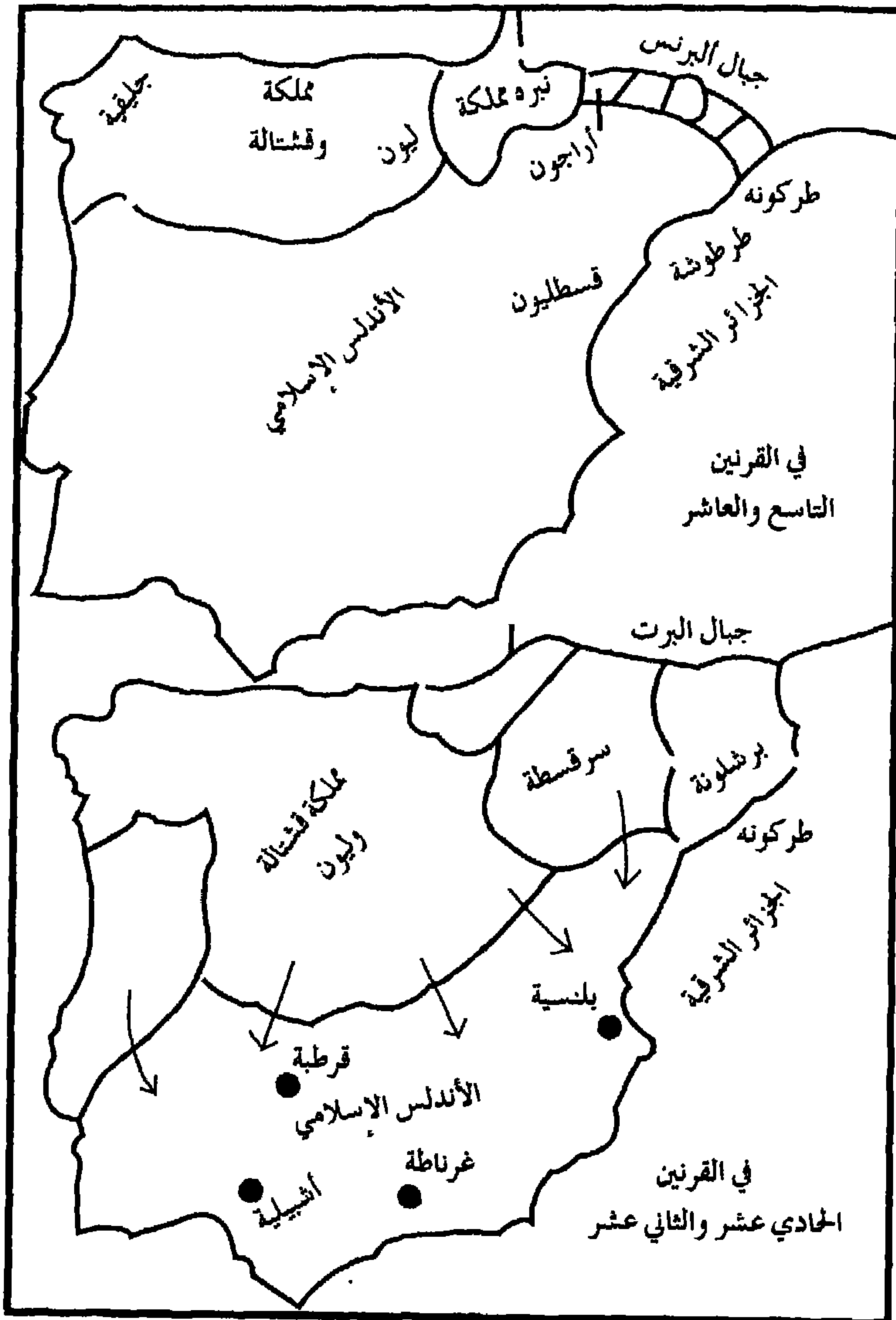
لذا فإننا نجتزئ بعض الصفحات من مبحث يتناول موقف أهل شبه

جزيرة أيبيريا من كلٍّ من المسلمين واليهود، بعد سقوط غرناطة، ولا ننفي أنّ تكونَ المشاعرُ ذاتها كانت موجودةً في أوقاتٍ سبقت:

«لا يتناول هذا البحث أفكارا... عن موقف الإسبان من المسلمين عقب سقوط غرناطه وطوال القرن السادس عشر وحتى أخرجوا من ديارهم نهائيا في مطلع القرن ١٧ . وتثبت هذه الدراسة من خلال وثائق منشورة. أن عامة الناس وأصحاب الأراضي والمصانع خاصة لم يؤيدوا إخراج المسلمين لما في ذلك من أضرار اقتصادية ستحيق بالبلاد، وهذا ما أثبته التاريخ بعد ذلك. لم يكن إخراج المسلمين عقب سقوط غرناطة – إذاً – مطلبا شعبيا وإنما مطلبٌ كنسي عارضه العامة، وعارضه حكام الولايات... فقد كان عداء الإسبان لغير المسيحيين منصباً في الأساس على اليهود لأسباب دينية وعرقية واقتصادية والذين أُجبروا على الخروج ولم يُقبل منهم حتى التحول للمسيحية هم اليهود وليس المسلمين الذين تُرِك لهم في البداية حرية الاختيار بين الإقامة والرحيل ثم ما لبث الكنسيون أن فرضوا رأيهم فأصبح الخيار محصورا بين الرحيل أو قبول التعميد، وفي مطلع القرن ١٧ أجبروا جميعاً على الرحيل».



– تطور حدود الأندلس
من قيام دولة الموحدين سنة ٥٢٢هـ/١١٥٧م
إلى قيام مملكة غرناطة سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م
– الأسهم تشير لحركة بنيامين التطيلي داخل
شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا غير الإسلامية)



جبال البرنس
جليقية
مملكة
وقشتالة
ليون
نبره مملكة
أراجون
طركونه
طرطوشة
قسطليون
الأندلس الإسلامي
الجزائر الشرقية
في القرنين
التاسع والعاشر
جبال البرت
مملكة قشتالة وليون
سرقسطة
برشلونة
طركونه
الجزائر الشرقية
بلنسية
قرطبة
الأندلس الإسلامي
غرناطة
أشبيلية
في القرنين
الحادي عشر والثاني عشر

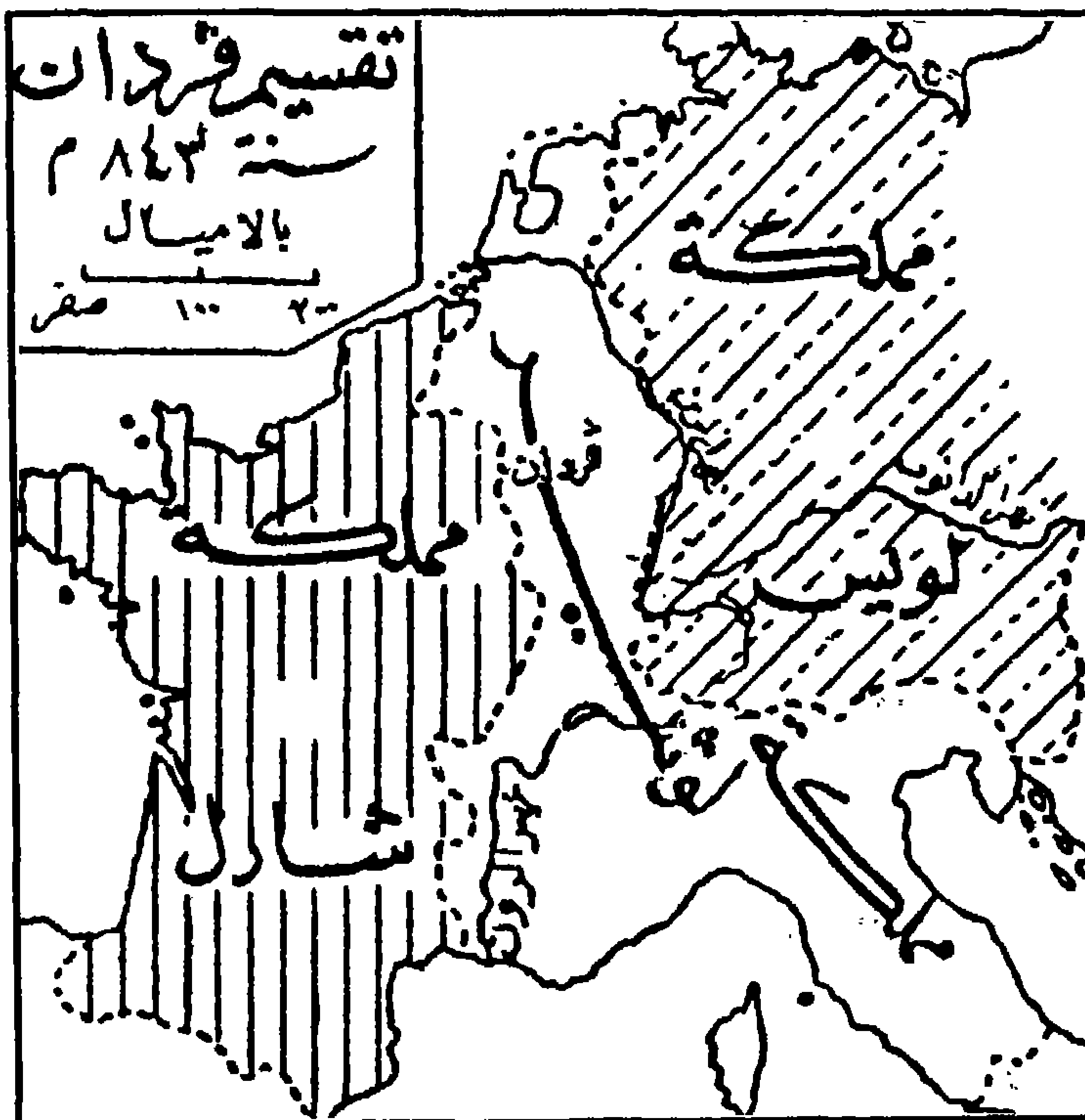
كما لم يُطل بنيامين المكوث في الأرض الأيبيرية التي فيها دَرَجَ وَشَبّ، نجده لم يُطل أيضاً في الأرض الفرنسية التي كانت تَشْهدُ حِقْبَةَ الملكيةِ الإقطاعيةِ إذ استطاع ملوكُ كابيه في فرنسا في الفترة من ١١٠٠ إلى ١٢٢٣ أن يجعلوا من أنفسهم ملوكاً إقطاعيين، وكان ملوك أُسرة كابيه يعتبرون أنفسهم – وهم بالفعل كذلك – خلفاء لشارلمان (الأسرة الكارولنجية التي خَلَفت الأسرة الميروفنجية) على مملكة الفرنجة الغربيين (الفرنجة الشرقيون كونوا فيما بعد الإمبراطورية الرومانية المقدسة) لكنَّهم في البداية كانوا ملوكاً ضعافاً، ولم يكن الكُونْتات (المفرد : كُونت) موظفين عندهم بل كانوا سادة أقوياء وخرج من أيدى الملوك ماكان للكارولنجيين من أراضٍ خاصّة، ولم يبق للملك سوى الهيبة التي بسطتها عليه الكنيسة الكاثوليكية في روما، وساعدت الكنيسة أسرة كابيه في تسلسل وراثة العرش بأن جعلت من حق الملك أن يتوِّج أكبر أبنائه مَلِكاً في أثناء حياته . وعلى أية حال لم يكن ملوك أسرة كابيه من القوة بحيث يُثيرون مخاوف السَّادة الإقطاعيِّين . لكن منذ فيليب الأول (١٠٦٠–١١٠٨) أدرك الملوكُ الفرنسيون أنّه ليس بمباركة الكنيسة ووراثة العرش وحدهما يكونون ملوكا أقوياء وإنما بالرجال والمال (الضِّياع) ومن هنا بدأ نمو الملكية الإقطاعية.

تلك هى الظروف التاريخية التي كانت عليها فرنسا عندما زار بنيامين أربونة وبيزيه *Bezier* ومونبليه *Monrpellier* ولونل *Lunel* وبوسكيار *Posquieres* ونوغرس *sr.Giles* وآرل *Arles* ومرسيليا

Marseilles وكلها جنوب شرق فرنسا أو في أطرافها مما يشير إلى أنها كانت مجرَّد منطقة عبور ولا تزيد تعليقات بنيامين على هذه المدن عن ذكر عدد اليهود بها - كما هو الحال في غالب تعليقاته.

ومن مرسيليا اتَّجه بنيامين بحراً إلى شبه الجزيرة الإيطالية ، وأبدى





* تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية وبداية ظهور الملكيات الإقطاعية وفي فرنسا زاد نفوذ الكنيسة في بداية هذه المرحلة ثم بدأ يقل شيئاً فشيئاً.

كثيراً من الملاحظات المفيدة والتي لا يمكن فهمها وتذوقها إلا بتتبع أصولها التاريخية في الأحداث السابقة عليها، وتتبع دلالاتها الأنثروبولوجية في الأحداث التي تلتها، وعادات الشعوب وتوجهاتها حتى في هذا التاريخ المعاصر. ونبدأ الآن بوضع شبه الجزيرة الإيطالية[١].

لم يكن فريدريك باربروسا واقعيا في نظرته لحدود حكمه المركزي، فقد أرسل في أواخر أيامه إلى صلاح الدين الأيوبي يقول: «أتزعمُ أنَّك لا تعرفُ أنّ أثيوبيا وموريتانيا وفارس وسوريا وبارتيا ويهوذا والسامرة وبلاد العرب وكلديا ومصر ذاتها، أتدعي أنَّك لا تعرف أنّ أرمينية ذاتها وأن عدداً لا حصر له من البلاد، خضعت لسلطاننا...» وهذه الفقرات تفسر دعاويه في إيطاليا إذ طالب بأن تكون له من الحقوق ما كان للإمبراطور الروماني الحقيقي... لقد أراد أن يعود إلى الزَّمن الغابر ليبعثَ أمجادَ الإمبراطورية القديمة، لكنَّ الظروفَ كانت قد تغيّرت والإمكانات لم تكن تساعد، فأثار بذلك عداوة القوى الثلاث الكبرى في إيطاليا في القرن الثاني عشر وهي النورمان والبابويه والكيانات اللومباردية، (وفي ظل إيطاليا التي تحكمها هذه القوى كانت رحلة بنيامين لإيطاليا)

---

(١) أعدنا تلخيص المادة التاريخية وعرضها من الكتابين التاليين لتوفرهما بين أيدينا، وإن كانت هذه المعلومات يمكن الوصول إليها من أية مراجع أخرى:

- سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ١٩٧٢
- السيد الباز العريني، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ١٩٦٨.

الامبراطورية الرومانية المقدسة
في عصر اسرة الهوهنشتاوفن
١١٣٨ - ١٢٥٤

شبه الجزيرة الإيطالية في أيام رحلة بنيامين لم يكن يربطها بالإمبراطورية الرومانية المقدسة سوى رباط شكلى ، فكان كل كيان من كياناتها يعمل لحسابه.

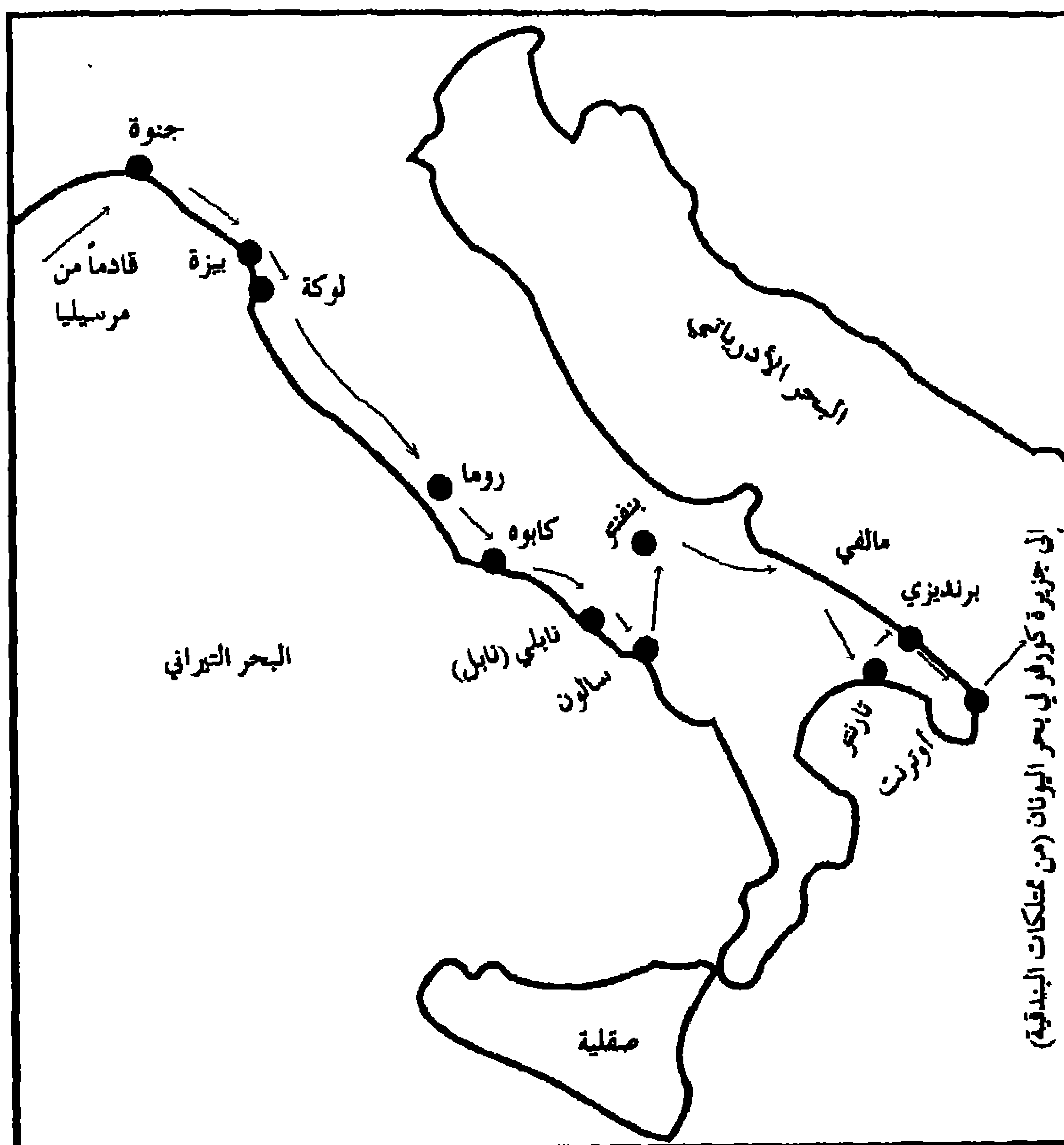
« . . . وفشل فريدريك في تحقيق خططه، ومع أنّه استولى على روما في سنة ١١٦٧ فإنّ معظم أوربا لم تقبل البابا الذي نصَّبهُ . . ولم يَعُد بوسعه الاستيلاء على صقلية النورمندية كما أنّ البابا اسكندر الثالث نجح في حَمْل القُومونات اللومبارديَّة على أنْ تَنْبُذ العداوات الإقطاعية وأن تتحد من أجل حريتها ، وفي سنة ١١٦٧ تألف حلف من ست عشرة مدينة منها فيرونا وبدوا والبندقية فضلاً عن المدن اللّومباردية – وعُرِفَ هذا الحلف بالعُصبة اللّومباردية *Societas Lombardia* وكان يهدف إلى الاحتفاظ بحرية القومونات . غير أنّه لم يشأ أنّ يُدمِّر نهائياً سلطة الإمبراطور . وفي سنة ١١٦٧ حلّت الهزيمةُ العسكرية بالإمبراطور في مواجهة اللُّمبارديين ، فصالح البابا اسكندر الثالث والنورمان واللمبارديين وتخلّى عن كلّ دعاويه في إيطاليا .

كان البابا الذي حّدثنا عنه بنيامين في رحلته هذه هو البابا اسكندر الثالث المستقل عن الإمبراطور والمختلف معه، بل والذي خاض الحرب ضدّه .

إلى هنا نكتفي بالعرض التاريخي البسيط لتوضيح دلالات الرحلة ولنستطرد بعد ذلك في معانٍ أَعْمق .

أوّل ما يستوقفنا قِلّةُ عدد اليهود في المدن الإيطالية من ناحية، والتزامه بذكر عددهم في كل مدينة وهو مالم يفعله عند حديثه عن شبه جزيرة أيبيريا وجنوب شرق فرنسا، فلم يكن في جنوة إلاّ يهوديان، ولعلّهما كانا مُتخفّيين أيْ لم يُعلنا هويتهما اليهودية . وعرض المعلومات هنا بصورة جدولية يجعلها أكثر وضوحا ويساعدنا على مزيد من الاستنتاجات :

مسلسل	المدينة	عدد اليهود
١	جنوة	٢
٢	بيزة	٢٠
٣	لوكه *Lucca*	٤٠
٤	روما	٢٠٠
٥	كابوه	٧
٦	فوزولى *Pouzzuoli*	(؟)
٧	نابل *Neapolis*	٥٠٠
٨	سلرن	٦٠٠
٩	أمالفى	٢٠
١٠	بنفنتو	٢٠٠
١١	مالفى	٢٠٠
١٢	أشقولى *Ascoli*	٤٠٠
١٣	ترانى *Trani*	٢٠٠
١٤	نيقولاس دى بارى	—
١٥	طارنت *Taranto*	٥٠٠
١٦	برنديزى	١٠
١٧	أوطرنت *Otranto*	٥٠٠
١٨	جزيرة قرفو *Corfu* (رغم وقوعها قبالة الساحل اليوناني إلا أنها من ممتلكات البندقية)	١
	الإجمالي	٣٣٩٩



خط سير بنيامين في شبه الجزيرة الإيطالية

وبطبيعة الحال ليس هذا كل ما في شبه الجزيرة الإيطالية من يهود، وإنما في المدن التي زارها فقط. ويلاحظ على هذه الأرقام أنَّ عدد اليهود يزداد كلما اتجهنا جنوبا أي أنه ينقص كلما اتجهنا شمالاً ، وتفسير ذلك أنَّ كثيراً من مناطق الشمال الإيطالي كانت قد حرّمت على اليهود الإقامة فيها في فترات سابقة، ولم تكن ترحب بإقامتهم في كلِّ الأحوال، ولعلَّ جنوة خير مثال على ذلك فقد حُظِرت فيها إقامة اليهود – على ما يظهر – في بداية القرن الحادي عشر للميلاد فيما يذكر الأستاذ عزرا حداد مترجم الكتاب. كما أنَّ الخروج من شبه الجزيرة الإيطالية هرباً إلى أي مكان آخر كان أسهل من ناحية الجنوب الإيطالي، والأهم أن جنوب إيطاليا أقرب إلى العالم الإسلامي الذي هو الملجأ والملاذ ليهود أوربا عند الضرورة ، في العصور الوسطى، وفي العصر الحديث بدءاً من سقوط غرناطة وبعد قيام الدولة العثمانية على نحو خاص[١]

ملحوظة ثانيةوهي أنّ مترجم الكتاب (عزْرا حدّاد) أوضح في تعليقاته أنَّ العُرف جرى أنْ يُحصي الباحثون والمؤرخون اليهود عددهم بالبيت أو الأسرة لا بعدد الأفراد، فلا يُحصى في هذه الحال إلاَّ رب الأسرة فقط، ومعنى هذا أن عدد اليهود – حتَّى لو لمّ يكونوا موجودين إلا في المدن الواردة آنفا – أكثر بكثير من رقم ٣٢٠٠ خاصةً

(١) راجع امثلة واضحة على ذلك في كتاب:

بول كولز، العثمانيون في أوروبا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (سلسلة الألف كتاب الثاني).

إذا علمنا أنَّ زيادة الإنجاب هي توجُّه يهودي كما كان في وقت من الأوقات توجهاً إسلاميا، مع فارق غير كبير في العوامل الكامنة خلف هذا التوجّه، ففي حالة المسلمين تُروى أحاديث كثيرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في الحث على التناكح لأنّه يؤدي إلى التناسل، مما يجعل النبي صلى الله عليه وسلم يُباهي بالمسلمين الأمم يوم القيامة، وبصرف النظر عن إساءة التفسير فقد ظل هذا بالإضافة لطبيعة الاقتصاد الزراعي قبل الميْكنة عاملاً موجها، أما في حالة اليهود فقد كان إحساسهم بقلة عددهم وأنهم شعب مختار دافعاً لهم للتناكح والتناسل ، لكنه لم يؤتِ النتيجة المرجوّة ربما بسبب التزاوج الداخلي أي داخل الجماعة العرقية الواحدة، لكثرة الخلافات العقائدية بين اليهود مما يجعل كل جماعة لا تعترف بالزواج الشرعي أو التلمودي من كثير من الجماعات أو الأعراق اليهودية الأخرى، مما جعل أحد الباحثين اليهود يتوقّع انشقاقا عرقيا أو قيام مجتمعين منفصلين داخل كيان إسرائيل بسبب نظم الزواج[١] والملحوظة الثالثة هي أنه ربما كانت هذه الأرقام التي ذكرها بنيامين غير حقيقية أو أنها مُكوَّدة؟ أو مشفرة بحيث لا يفهمها إلا اليهود، ذلك أن كتابه هذا لايمكن أن يدخل في أدب الرحلات بمعناه المتعارف عليه، فالرجُل كما سبق القَوّل لا يرى في المناطق التى زارها إلا اليهود، ولم يُسجِّل تقريباً إلا أعدادهم وما

(١) انظر: ألان انترمان: اليهود، عقيدتهم وشريعتهم ،ترجمة ودراسة وتعليق د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. تقديم د. أحمد شلبي. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة الألف كتاب الثاني)

ذكره من أشخاصهم لم يُترجم لهم وإنما ذكر أسماءهم ومهنهم ومناصبهم في سلك الكهنوت اليهودي على الأكثر، وكأنَّ لسانَ حاله يقول: من أراد مزيداً من المعلومات فعليه الاتصال بفلان في بلدة كذا.. إنَّ كتابه هذا بمثابة دليل تعارف بين يهود العالم، إذا حان وقتُ الهجرة أو الرَّحيل.

ملحوظة أخرى تُفسر تفاوت أعداد اليهود في مدن شبه الجزيرة الإيطالية وهي أنّها لم تكن كياناً سياسياً واحداً كما سبق أن أشرنا، وربما كان اختلاف مواقف الحكومات في شبه الجزيرة وراء هذا التباين، ولم يكن أهل جنوة وكل المدن التجارية يرتاحون لليهود لأسباب أخرى غير دينية ، كما كان أهل أسبانيا في أثناء فترة تقدمهم لا ينظرون لأهل المدن الإيطالية، والجنوبيين منهم خاصة نظرة ارتياح، وإذا كنّا قد تعرضنا في فقرة سابقة إلى أنّ إخراج المسلمين من الأندلس، لم يكن عملاً مرغوباً على المستوى الشعبي؛ وإنما كان توجها سياسيا حكوميا أيدته كنيسة روما الكاثوليكية – بعكس الحال بالنسبة إلى اليهود الذين لم يقبل الإسبانُ – حكومةً وشعباً – منهم إلا الرَّحيل، فإن أهل جنوة كانوا يُنافسُون اليهودَ في الكراهية التي حَظَوا بها عند أهل شبه جزيرة أيبيريا لاشتغالهم بأعمال السمسرة والصرافة وهي أمور لم يكن الإسبان – وغالبهم فلاحون – يفهمون فيها، ولسبب آخر يُضيفه بنيامين التطيلي نعرفه لأول مرة منه، وهو أنّ أهل جنوة كانوا يعملون في هذا الوقت الباكر (الثاني عشر للميلاد، وقبل ذلك) بالقرصنة ولم يكونوا ليميزوا بين سفن المسيحيين والمسلمين،

وإنما كان رجالهم يُهاجمون كلَّ ما كان يُتاح أمامهم. يقول بنيامين: «والجنويون مُسَيْطرون على البحار، يجوبونها بسفنهم الخاصّة المسمَّاة غاليش *Galleys* ويقومون بأعمال القرصنة على الروم والمسلمين، فيعودون إلى جنوة بالأسلاب والغنائم الوفيرة» وليس أَدَلَّ على أن التاريخ لا يموت من أنَّ هذه الفكرة عن أهل جنوة لا زالت كامنة في الضمير الأسباني حتى الآن – فكرة التاجر الجشع الذي هو على استعداد لأن يبيع العالم لا تمنعه قيمةُ دينية ولا وازعُ رحمة، وهي فكرة لا تختلفُ كثيراً عن الفكرة التي شاعت في وقت من الأوقات في تراث الشعوب وآدابها عن اليهوديٍّ الصراف المرابي – وإن كانت هذه الفكرة بدأت تتلاشى مع زيادة احتكاك الشعوب والثقافات.

ولم تكن هذه الفكرة قاصرة على جنوة دون غيرها من المدن التجارية الإيطالية، وإنما كانت شائعة بالنسبة للبندقية أيضاً، لكننا نركّز على جنوة لأنها كانت هى الأقرب لشبه جزيرة أيبيريا (بلد بنيامين التطيلى) لذا فقد كان توجّههم التجاري والمالي نحو شبه جزيرة أيبيريا، بينما كان للبنادقة ميادين أخرى رُبَّمَا كانت أَوْسع.

ولأنَّ توجهات الشعوب – بصرف النظر عن السياسات الرسمية – تُعد من المسائل الأساسية للتفسير الأنثروبولوجي للتاريخ، نفضِّل هنا إيراد فقرات من البحث الآنف ذكره، خاصّة أنَّ بنيامين لم يجد في جزيرة كورفو *Corfo* التابعة للبندقية إلا يهوديا واحداً.

«... كانت حركة جهاد البحر والحروب العثمانية في البحر المتوسط أحد العوامل الرئيسية التي وجهت أهل جنوة للعمل على استثمار

أموالهم في إسبانيا والبرتغال، وكان لهذا نتائج خطيرة في كل من جنوة والبرتغال وإسبانيا... ولم تكن جنوة – وكذلك البندقية – تقيم وزنا للمسائل العقائدية، فالمال والمال وحده هو المحرّك لهم في توجهاتهم السياسية بل والعسكرية. لقد تعاونوا مع المسلمين والمسيحيين على سواء، وقدموا العوْن للعثمانيين والأوربيين على سواء، مما دفع البابا بيوس الثاني في القرن الخامس عشر لأن يصف كل بندقي، وكل جنوي بأنه عبد للاستعمار التجاري «الوسِخ *sordid*» وذلك على حد تعبير البابا.

وقد عانى أهل إسبانيا بالذات من تجار وصيارفة جنوة، فقد كانوا – أي أهل إسبانيا – فلاحين لا يُتْقنون ألاعيب الصيارفة. ألا يُفسر هذا ما علّق به بنيامين على حال أهل جنوة رغم قلة تعليقاته في كتابه هذا الذي يُعَدُّ بمثابة تقرير عن يهود العالم في عصره (القرن الثاني عشر للميلاد)، ورغم أنَّ تعليقه صحيح من الناحية التاريخية إلا أنه (أي بنيامين) لم يكن هكذا في كل المواقف حريصاً على التعليق، ربما كان هذا ليؤكد المثل القائل (عدوّك ابن كارك). أما عن اليهود في روما – عُقْر دار المسيحية – فلم يكن اليهود ليتخلوا عن موقعهم فيها، فمنهم دائما نفر في موقع كل سلطة كبرى لا يتخلون عنه إلا إذا أجبروا على ذلك، فحول بعض الخلفاء العباسيين وجدناهم، وَحَوْل معظم الخلفاء الفاطميين وجدناهم، وفي بلاط البابوية لابد أن نجدهم، وما كان هذا ليروق للمجامع الكنسيّة غالباً، لكنّ المصالح غالباً ما تَغْلب فقد كان يحيئيل سليمان اليهودي مُستشاراً للبابا اسكندر الثالث (نص

كلمات عزرا حداد : وزيره) وكان منهم « شاب حسن المنظر على جانب من الذكاء وحصافة الرأى كثير التردد على قصر البابا بصفة كونه ناظر الأملاك الخاصة » وكان لليهود دور سياسى في روما إذ أيدوا البابا اسكندر الثالث رغم خلافه مع الإمبراطور، وعندما انتصر البابا وعاد من منفاه استقبله يهود روما حاملين أسفار التوراه! ويُركز بنيامين على أنّ معظم يهود روما كانوا رابيين* وعلماء في التوراة والتلمود .

أما الخرافات التي ردَّدها بنيامين من حيث نسبة تأسيس مواضع بعينها ليهودٍ أوائل، فقد فندها عزرا حداد بأسلوب علمي ما كنا لنقدر على مجاراته فيه لتنوع مصادره ، ولأنّه ابن الدار وهو أدرى بمساربها وما فيها .

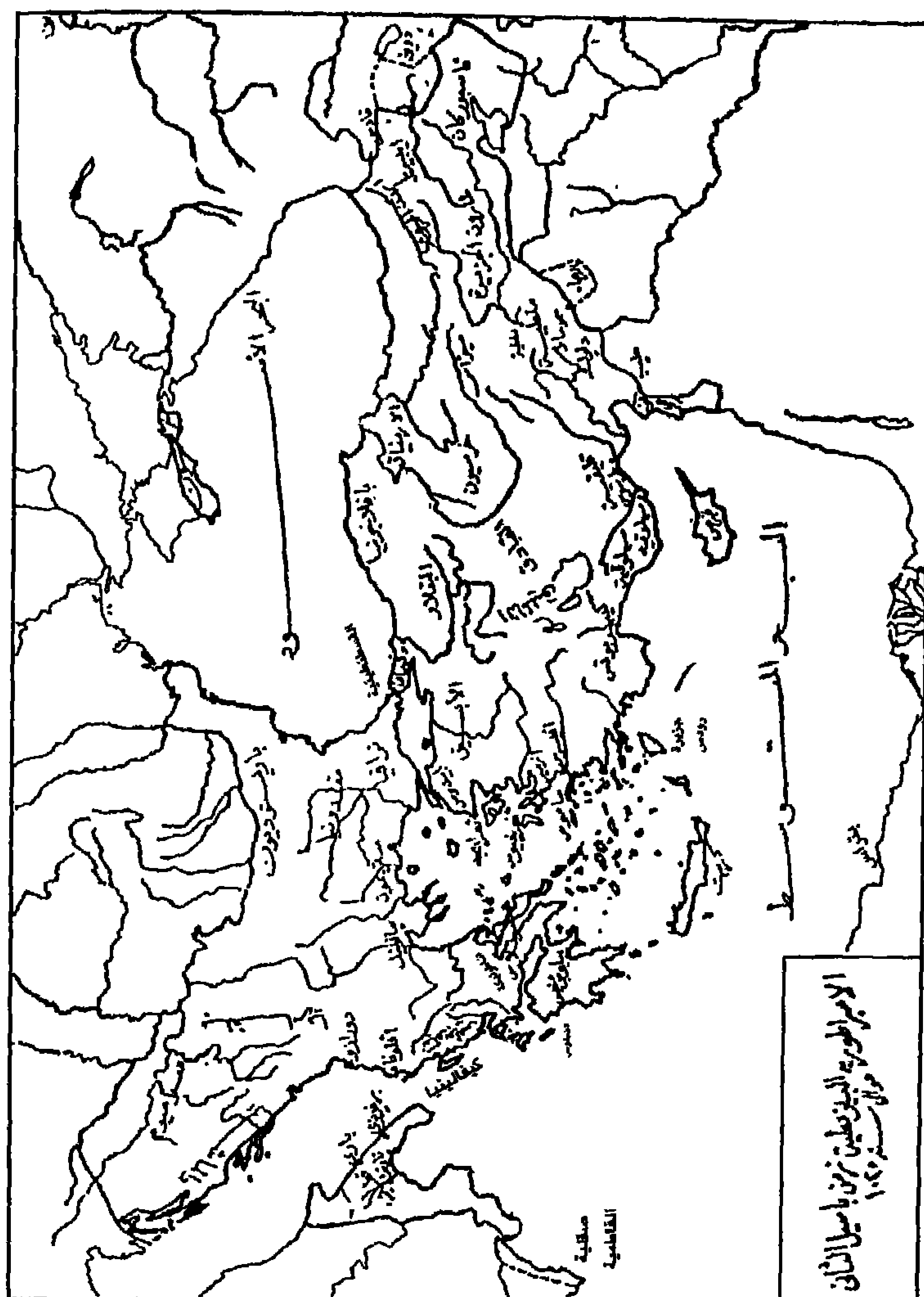
أما السبب الأخير - ولعله الأهم - الذي جعل يهود شبه الجزيرة الإيطالية يتركزون وقت رحلة بنيامين في جنوب إيطاليا أكثر من تركزهم في شمالها . فهو في الواقع أن هذه المنطقة كانت قد كادت منذ وقت غير بعيد (القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد) أن تصبح تحت حكم المسلمين، واليهود - كما سبق القول - كانوا يتتبعون المناطق التي يسودها الحكم الإسلامي للعيش في رحابه . كان ذلك طوال العصور الوسطى وشطر من التاريخ الحديث . وإذا كان اليهود قد ساعدوا المسلمين في فتح الأندلس ، فإنهم لم يقفوا من مسلمي

---

(١) اعتمدنا في إيراد الحقائق التاريخية عن الدولة البيزنطية على : السيد الباز العرينى، الدولة البيزنطية، بيروت، دار النهضة العربية ، ١٩٨٢ .

* اللفظ رابي (Rabbi) يعني الحاخام (المترجم)

صقلية موقف عداء، كما لم يكونوا مستائين من محاولات المسلمين فتح جنوب إيطاليا . ولم يتحالفوا مع الغزاة الصليبيين ضد العالم الإسلامي.. على كل حال لم يكد ينقضي القرن الحادي عشر حتى كان المسلمون قد خرجوا من صقليه، وبالتالي ضاع أملهم في الاستيلاء على جنوب إيطاليا، ذلك الأمل المفقود لهم ولليهود على سواء فكل الشواهد التاريخية تؤكد أن اليهود كانوا في هذه الفترة سيتخذون جانب المسلمين بشكل أو بآخر في أثناء صراعهم مع أوربا العصور الوسطى.



بنيامين في الدولة البيزنطية :

بعد أن غادر بنيامين كورفو *Corfu* – التابعة للبندقية رغم وقوعها على الساحل اليوناني – يكون قد دخل كيانا سياسياً كبيرا آخر. إنه الدولة البيزنطية ونبدأ الآن بإيراد أعداد اليهود في المدن والقرى البيزنطية من خلال جدول، لنتمكّن من الوصول إلى بعض النتائج:

مسلسل	المدينة والقرية	عدد اليهود
١	أرته (قرية)	١٠٠
٢	أخيلوس	١٠
٣	أناطوليكه	–
٤	بتراس	٥٠
٥	ليبنتو	١٠٠
٦	كريسه	٢٠٠
٧	قورنث	٣٠٠
٨	طيبة	٢٠٠٠
٩	نفروبنت	٢٠٠
١٠	يابشتريسة	١٠٠
١١	رابنكه	١٠٠
١٢	شينون بوتامس	٥٠
١٣	غرديكى	١٠ (؟)
١٤	أرميروس	٤٠٠

١٥		
	بسينه	١٠٠
١٦	سلانيك	٥٠٠
١٧	متريزي	٢٠
١٨	درامه	١٤٠
١٩	كرستوبولس	٢٠
٢٠	أبيدوس	—
٢١	القسطنطينية	١٥٠٠
٢٢	رودستو	٤٠٠
٢٣	غليوبولى	٢٠٠
٢٤	كالس	٥٠
٢٥	جزيرة مدلى	١٠٠ (؟)
٢٦	جزيرة خيوس	٤٠٠
٢٧	جزيرة صاموس	٣٠٠
٢٨	جزيرة رودس	٤٠٠
٢٩	جزيرة فبرس	١٠٠ (؟)
٣٠	فوريقوس	—
٣١	ملمستراس	—
——	الإجمالي	٧٨٥٠

وبطبيعة الحال فهذه الأرقام لا تمثل كل اليهود في الدولة البيزنطية وإنما في المدن التي زارها بنيامين فقط، ومع هذا فإنها لا تخلو من مؤشّرات نحاول استخلاصها فيما يلي:

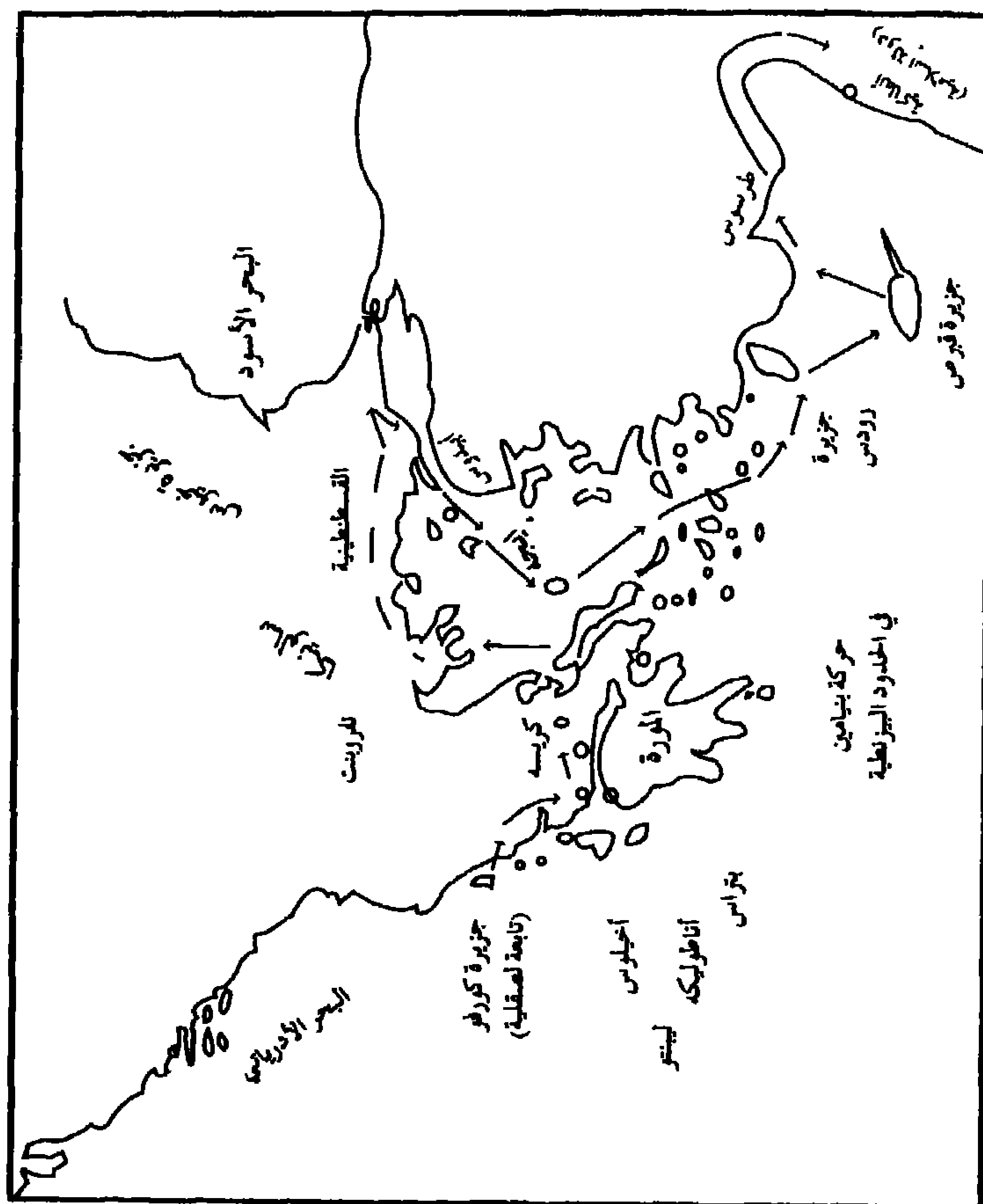
– في ٣١ مدينة وقرية بيزنطية وجد ٧٨٥٠ بينما وجدنا أن في ١٨ قرية ومدينة رومانية (في الإمبراطورية الرومانية المقدسة – إيطاليا بالتحديد) ٣٢٠٠ يهودي، ومعنى هذا أننا يمكن أن نستنتج مُطمئنين أنَّ يهود الدولة البيزنطية أكثر عدداً من يهود الدولة الرومانية المقدّسة، فلوْ كانت النسبة واحدة لكان ينبغي أَنْ يكون عدد يهود المدن البيزنطية ٥٥١١ أو أن يكون عدد يهود المدن الايطالية (التي زارها بنيامين): ٤٥٥٨ فهل زيادة عدد اليهود في الدولة البيزنطية متمشية تمشيا طبيعياً مع زيادة عدد السكان فيها بشكل عام (فالدولة البيزنطية بشكل عام كانت أكثر سكاناً من الممالك الإيطالية أو الجزء الجنوبي من الإمبراطورية الرومانية المقدسة) أم أن وراء هذه الزيادة أسباباً عقائديةً كأن يكونَ اليهودُ أقل تعرضاً للإهانة في رحاب الدولة البيزنطية؟ وإن كان الأمر كذلك، فهل هناك أسباب عقائدية تكمن خلف ذلك؟

ولا يمكن بطبيعة الحال اعتبار المدن والقرى التي أوْردها بنيامين سواء في شبه الجزيرة الإيطالية أم في الدولة البيزنطية عينة عشوائية، تُتيح لنا رقماً دقيقاً أو قريباً من الدقة عن العدد الفعلي لليهود، ذلك أنه من الواضح أنَّ بنيامين كان يتحرّى المناطق التى بها تجمعات يهودية، ولم يكن طريقة في رحلته هذه للعلم خالصاً أو للسياحة خالصةً .. فقد كان الرجل يتشمَّم رائحة اليهود، وأينما اشتم ريحهم توجَّه.

وهناك مؤشر آخر يؤكد أنّ تركز اليهود في الدولة البيزنطيّة كان أكثر من تركّزهم في الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومقر البابابويه، ذلك أنّ عدد اليهود في القسطنطينية (العاصمة) كما أَوْرد بنيامين هو ١٥٠٠ بينما هو في روما ٢٠٠ فقط، وإذا أضفنا لهذا أن يهود روما كانوا في غالبهم في خدمة البلاط البابابوى اتضح لنا أنَّ الوجود الحر - إن صَحّ التعبير - في القسطنطينية كان أكثر بكثير، فيهود القسطنطينية يعيشون في جيتو، ويمتهنون مُخْتلف المهن.

أما بالنسبة إلى حركة بنيامين في الدولة البيزنطية فيلاحظ أنه لم يتوغل في البر البيزنطي أو داخل البلاد وإنما كان دائما إما في الموانيء أو في جزر بحر إيجه وغيرها حتى وصل إلى القسطنطينية، ومنها عاد أيضاً سالكاً طريق بحر إيجة ماراً بجزره حتى قُبرص ومنها عاد إلى طرسوس أو طرشيش (أو ترشيش) على شاطيء المتوسط ومنها اتجه إلى أنطاكيه على الشاطئ الغربي للمتوسط وبذلك يكون قد دخل في حدود دولة المسلمين - الدولة العباسية لكن المنطقة التي جابها كانت - للأسف - تحت حكم الاستعمار الأوربي الصليبي، ومنها انطلق إلى دمشق وغيرها من بلاد الشام التي كانت تحت حكم الأيوبيين ذوى الولاء الأسمي للدولة العباسّية، وهو ما سنتناوله في الصفحات التالية.

****


البحر الأسود
القسطنطينية
سالونيكا
أبيدوس
جزيرة كورفو
(تابعة لصقلية)
كريسه
أخيلوس
ليبنتو
أناطوليكه
بتراس
المورة
حركة بنيامين
في الحدود البيزنطية
جزيرة
رودس
طرسوس
جزيرة قبرص
أنطاكية

تحليل بنيامين للأوضاع في الدولة البيزنطية :

لم يَنْعم اليهودُ في ظل الدولة البيزنطية – بشكل عام – بمعاملة حسنة، وكانوا يَصلُون إليها من موانيء البحر المتوسط – خاصة الإسكندريّة – للتجارة، وفي أواخر القرن التاسع للميلاد أجبر الإمبراطور باسيلوس (باسيل الأول ٨٦٧–٨٨٦ من الأسرة المقدونية) يهود القسطنطينية على التحوّل إلى المسيحية، وقتل عدداً كبيراً منهم ممن رفض التحول ، ولم يكن هذا قصرا على اليهود وإنما جرى في إطار خطة عامة اتبعها باسيل لنشر المسيحية في أرجاء إمبراطوريته .

« وفي زمن باسيل جرت محاولات لنشر المسيحية بين الشعوب الوثنية كما جرت محاولات لتحويل المخالفين للمذهب الكاثوليكي إلى الكاثوليكية ، والراجح أنه حدث في عهده أنْ حاولت الإمبراطورية البيزنطية أن تُحوّل الروس إلى المسيحية ، إذ يشير مصدر تاريخي إلى أنَّ باسيل حثّ الروس على أن يَقْبلوا التنصير، وأنْ يقروا رئيس الأساقفة الذي سامه لهم (عيَّنه لهم) أجناتيوس على أنه من العسير أن نقرر أية طائفة من الروس يشير إليها المصدر التاريخي، على أنه حدث أيضا في زمن باسيل الأول أن اعتنق المسيحية الجانب الأكبر من القبائل الصقلبية التي تنزل البيلوبونيز، وكذا الصقالبة الوثنيون الذين يُقيمون بجبال تايجيتوس *Taygetus* واعتنق المسيحية أيضا في زمن باسيل الصقالبة الذين أقاموا في غرب شبه جزيرة البلقان ،

فخضعوا بذلك لنفوذ بيزنطه وسلطانها، وألْزم باسيل اليهود على اعتناق المسيحية»[١]

من هذا النص الذي أورده المؤلف الباز العريني اعتماداً على *Avasiliev* في كتابه *The Byzantine Empire* – يتّضح أنّ الدعوة إلى المسيحية وفقا لسياسة باسيل الأول اتخذت شكل المفاوضات السياسية والتبشير الديني باستثناء اليهود ، فهم الذين كما قال عزرا حداد في تعليقاته : كانوا أمام خيارين لا ثالث لهما إمّا اعتناق المسيحية وإما القتل.

على أن الجدير بالملاحظة أن شدّة وطأة مسيحيي أوربا على اليهود كانت متزامنة مع توتر علاقاتهم أي علاقات مسيحيي أوربا مع المسلمين، وكانت الحملات الصليبية المتوجِّهة إلى العالم الإسلامي على سبيل المثال، تذبح من تقابلهم من اليهود في طريقها، باعتبارهم مخالفين لهم في الدين. هذا جائز. وباعتبارهم حلفاء للمسلمين. هذا جائز ويكاد يكون مؤكدًا. باعتبارهم (أي اليهود) أقرب – عقائديا – إلى المسلمين. هذا أيضا جائز. ولأن التاريخ سيْل مستمر بحاضره وماضيه ومستقبله، فليس خروجاً عن المنهج التاريخي السليم أن نُدلل على ذلك بأحداث لاحقة، فقد وجدنا أن أحد الرحالة الأوربيين في القرن السابع عشر للميلاد، يصف نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بأنّه من أهل السبت *sabarhero* يقصد أنه يهودي، كما كان

---

(١) الباز العريني، الدولة البيزنطية ، ص ٣٣٣-٣٣٤.

يشير للمسلمين بأنهم من أهل السبت، وعندما هرب من الجزائر إلى تركيا كان أخْشَى ما يخشاه أنْ يموت هناك فيتم دفنه في مقابر أهل السبت، ويقصد المسلمين[١].

لا يمكننا إذن الفصل بين قتل اليهود في الدولة البيزنطية وإجبارهم على اعتناق المسيحية، وحروبها مع المسلمين في الشرق ، وهو ما نفضل نقله من أحد المراجع المتخصصة في الدولة البيزنطية – أعنى مزامنة حروب باسيل مع اليهود من ناحية، وحروبه مع المسلمين من ناحية أخرى.

الحرب ضد المسلمين في الشرق :

الواقع أنه تهيأ لباسيل من الأحوال المواتية لقتال المسلمين مالم يتهيأ لإمبراطور قبله، فإلى جانب ما يربطه من علاقات سلمية مع جيرانه المسيحيين (أرمينيا، روسيا وبلغاريا، والبندقية والإمبراطورية الغربية)، سادت الفتن الداخلية في أنحاء العالم الإسلامي، فازداد نفوذ الترك في دار الخلافة العباسية ببغداد، واستقل أحمد بن طولون بمصر سنة ٨٦٨م، ونشبت الحرب الداخلية في شمال أفريقية واشتد الصراع بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس، ومع ذلك لم يتحقق للإمبراطورية البيزنطية كل ما تصبو إليه من آمال، وواصل البيزنطيون الزحف نحو

---

(١) جوزيف بتس، رحلة إلى مصر والحجاز . الألف كتاب الثاني، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الشرق .فاندفع باسيل بجيشه، حتى بلغ إقليم الفرات ، فاستولى سنة ٨٧٣، على زبطرة وسموساط، ومع ذلك تعرض باسيل لهزيمة ساحقة، حين حاول الاستيلاء على حصن ملطية الذي يعتبر من المعاقل الهامة. وعلى الرغم من أن باسيل اكتفى بهذا الانتصار الجزئي في هذه الحملة، وفيما تلاها من الحملات التي توجهت إلى أقاليم الفرات وإلى أطراف طوروس، فإن عمله يعتبر بداية مرحلة جديدة من مراحل الزحف والتقدم المنتظم، التي قامت به الإمبراطورية البيزنطية على الأطراف الشرقية. يضاف إلى ذلك أن ما أصاب الدولة الإسلامية من الضعف، أسهم في نمو أرمينيا، إذ اعترف بسلطة آشوت الأول وقرر اعتباره ملكاً، كل من الخليفة، سنة ٨٨٥، والإمبراطور البيزنطي سنة ٨٨٧ ، فكان ذلك الاعتراف بداية مرحلة من مراحل توسع أرمينية زمن الأسرة البغراطية *Bagratuni* الوطنية».

وكانت الدولة البيزنطية بعد ذلك هي السبب الظاهر على الأقل لانطلاق حركة الحروب الصليبية ضد المسلمين، ونفضل هنا نقل التحليل الموجز الذي أورده حسين مؤنس في عمله المهم (أطلس تاريخ الإسلام)، يقول مؤنس:

« تعتبر الحروب الصليبية من أعاظم الحوادث في التاريخ الإسلامي العام، وهي كذلك من أكبر حوادث التاريخ العالمي، لأن الذي فكر في الحروب الصليبية وقام بها هو الغرب المسيحي بتوجيه أولي من البابوية، بغرض الاستيلاء على المقدسات المسيحية في فلسطين وخاصة مدينة القدس وقبر المسيح عيسى بن مريم في بيت لحم القريبة من القدس.

والحـركـة بدأت في أواخـر القـرن الخـامس الهـجـري / الحـادي عـشـر الميـلادي، واستـمـرت في عنف إلى التـاسع الهـجـري / الخـامس عـشـر الميلادي».

«... وقد ذكرنا في فصل سابق كيف أن السلطان السلجوقى ألب أرسلان انتصر على الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع في موقعه ملاذ كرد سنة ١٠٧١م في أقصى شمالي أذربيجان، وفتح الطريق أمام قبائل الأتراك لتدخل آسيا الصغرى التي كانت معتبرة إذ ذاك أراضي الدولة البيزنطية، بما في ذلك جزء كبير من بلاد الأرمن، وكان الأرمن حينذاك منتشرين على مساحات واسعة تمتد من شرق البحر الأسود جنوباً إلى شمالى بلاد الجزيرة والموصل ، وعقب انتصار ملاذكرد تدفقت جموع من الأتراك السلاجقة فدخلت آسيا الصغرى، واستقرت في شرقها، وأنشأت فيها سلطنة سلجوقية عرفت باسم سلطنة سلاجقة الروم، وأولهم قلج أرسلان، وأخذت هذه السلطنة تمتد شرقاً حتى استحوذت على النصف الشرقي من آسيا الصغرى، وجعلت عاصمتها في مدينة قـونيـة، وأخـذت تزحف إلى الغـرب، وهذا هو الخطر الذي جـعل ألكسيوس كومتين يستغيث بالبابوية، على الرغم من أنه كان هناك انشقاق ديني وسياسي بين الدولة البيزنطية والكنيسة الكاثوليكية في رومـا سنة ١٠٥٤م. وهذا هو الانشـقـاق الديني الواسع الذي يوصف بالكبير *The Great* وبدلاً من أن يبادر البابا جريجوري بالاستجابة لما طلبه الإمبراطور البيزنطي فكر في استنهاض همم الرهبان الكونيين وبقية رجال الكنيسة في الغرب للدعوة إلى توحيد الغرب الأوربي تحت لواء

البابوية وإنشاء مملكة مسيحية دينية واحدة يسيطر عليها البابوات. ».

لقد قام بنيامين برحلته في القرن الثاني عشر للميلاد وكانت الدولة البيزنطية كلما تقدم بها الزمن ازدادت وهناً على وهن، وهو (بنيامين) يقدمها لنا على أنها دولة واهنة في سبيلها للموت، ويقدم لنا الحياة الاجتماعية فيها حياة مُترفة ناعمة خادعة كاذبة لايمكن أن تُثمر عزا وسؤدداً.. وفي ضوء ما أوردناه آنفاً عن الظروف السيئة التي كان يعاني منها اليهود في رحاب هذه الدولة، قد يظن القارئ أن بنيامين كان متحاملا في وصفه لأوضاع الدولة البيزنطية في القرن الثاني عشر، لكن هذا غير صحيح بالمرة فقد وصف بنيامين أمور هذه الدولة بدقة، وحدَّد بوضوح أسباب انهيارها بعد ذلك بشكل دقيق، وسنورد فيما يلي عرضا لأهم هذه الأسباب كما أوردها:

* البذخ الشديد والترف الزائد عن الحد، وإنفاق الأموال في غير مواضعها، ومُراعاة الشكليات الزائفة ومظاهر الأبهة، ويعطي بنيامين أمثلة لهذا مما كان شائعاً في عصر مانوئيل الأول قومنينوس *Manuel I Commnens* الإمبراطور البيزنطي (١١٢٠-١١٨٠) الذي زار القسطنطينية في عهده، ففي البيع والكنائس كنوزٌ لا حصر لها... وبظاهر القصر الملكي الملعب المعروف باسم إيبودرمي *Hippodrome* (ملتقى أرباب الحكم والطبقات الراقية)... وفي هذا الملعب أُقيم مهرجان كبير في عيد الميلاد احتفالاً بزواج الإمبراطور مانويل قومنينوس من مارية ابنة أمير أنطاكية... وبضاحية القصور الملكية قصر منيف شيده الملك مانويل لسكناه على شاطيء البحر، وهذا

القصر يُعرف باسم بلاشرنس أو بلاط مانويل *Emanuellis Palatium* فيه الأساطين والحيطان الموشّاة بالتبرّ الخالص والنقوش البديعة... وفي القصر عرش من خالص الذهب مفصص بالأحجار الكريمة يتدلى من أعلاه بما يحاذي هامة الرأس تاج من ذهب مُعَلَّق بسلاسل من ذهب خالص مرصع بالجواهر النادرة الثمينة.. والروم (البيزنطيون) في هذه المملكة (الدولة البيزنطية) معروفون بالغنى والمال الكثير من ذهب وجواهر، يرتدون الحلل الزاهية من حرير مقصّب بالذهب وسائر المعادن النفيسة حتى لتحسب الواحد منهم وهو ممتط جواده أميرا خطيرا...

* والأهم من ذلك أن هذا الترف الزائد عن الحد جعل أهالي البلاد «واهني العزيمة كالنساء» كما أن هذا الترف أقعدهم عن الحرب والقتال، فكانت جيوشهم تضم كثيرا من العساكر المرتزقة إذ إن الروم (البيزنطيين) يستأجرون جماعات من الأجانب «البربر» يستعينون بهم في مناجزة السلاجقة الأتراك الذين يُسَميهم بنيامين باسم التوغرميين وهو اسم لا يستخدمه غير اليهود ويشرح عزرا حداد هذا المسمى قائلاً إن اليهود يسمون التركمان بهذا الاسم نسبة إلى توغرمة أو توجرمة أحد أحفاد يافث بن نوح كما ورد في سفر التكوين:

«وهذه مواليد بني نوح . سام وحام ويافث . وولد لهم بنون بعد الطوفان بنو يافث جومر وماجوج ومادای وياوان وتوبال وماشك وتيراس. وبنو جومر اشكناز وريفاث وتوجرمة. وبنو ياوان أليشة وترشيش وكتيم ودودانيم. من هؤلاء تفرقت جزائر الأمم بأراضيهم كل إنسان كلسانه حسب قبائلهم بأممهم»

ويرجح حداد أن بلاد توغرمة هذه كانت في الجهة الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى (تركيا الحالية)، ويقول إن لفظة التوغرميين العبرية محرفة من لفظ (تراكمين) بالكاف الفارسية (التي هي عوان بين الكاف والشين) .

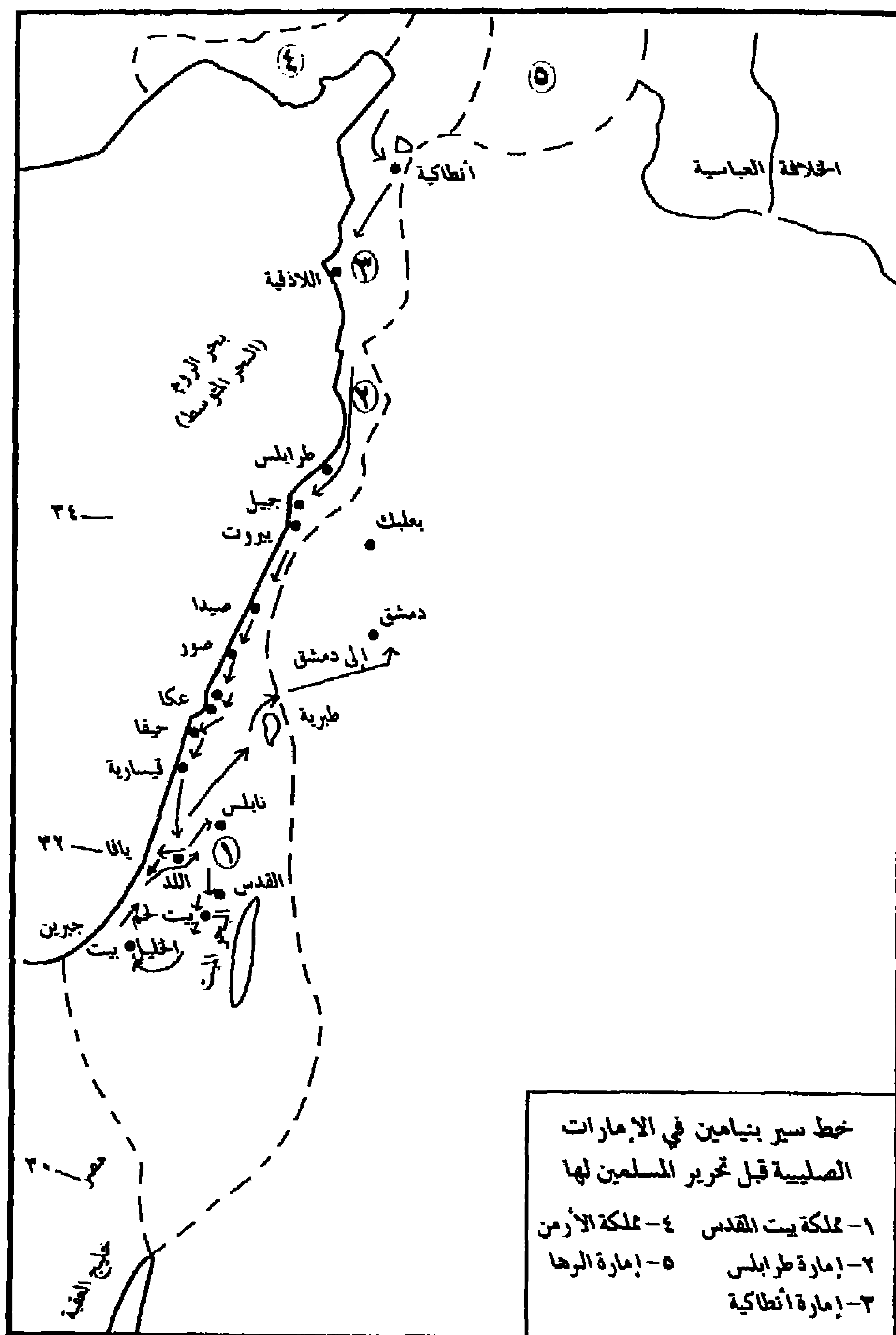
***

*** حركة بنيامين في مناطق الوجود الصليبي بالشام:**

لا نكاد نجد يهودا في مناطق الوجود الصليبي في الشام في أثناء رحلة بنيامين اللهم إلا الطائفة السَّامرية في طرابلس وهؤلاء لم يكن اليهود يعترفون بهم كيهود ، وإنما ينظرون إليهم كطائفة تكاد تكون على دين مستقل هو الدين السامري، فالتوراة غير التوراة ، والتلمود لا يُقيم له السامريون وزناً، وبنيامين لا ينظر إليهم بود، ومُترجم الكتاب في مُلحقة لا يتعاطف معهم، فليس بمستبعدٍ أن يكون الصليبيون قد وضعوا ذلك في الاعتبار ، لذا وجدنا أكبر تجمع يهودي في البلاد التي كان فيها وجود صليبي هو التجمع السامري في نابلس ، ويحدثنا عبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر في حكم صلاح الدين الأيوبي أنَّ السامريين يعتقدون أنّ نابلس وليس القدس هي موضع المعبد المقدس - وربما أيضا كان لهذا أثره في عدم اضطهاد الصليبيين لهم في عصر كانت الأفكار الدينية يمكن توجيهها ببساطة لخدمة أغراض سياسية . ثم إننا علمنا من المصادر (ذكرنا ذلك آنفا) أنَّ الحملات الصليبية كانت تقتل اليهود في المدن والقرى الأوروبية التي كانت تمر بها .

فكيف بقي هذا العدد القليل من اليهود في ظل الحكم الصليبي؟ ثم كيف تحرك بنيامين بحرية في هذه المناطق؟ أيمكن أن يكون بنيامين قد اجتاز هذه المنطقة مُتنكراً كمسيحي؟ ربما أو حتى كمسلم؟ ربما أيضا خاصة وأن الحروب الصليبية كان قد مضى على بدايتها أكثر من ستين عاما (بدأت ١٠٩٨) ويُشيرُ الباحثون إلى أن العلاقات التجارية بين الصليبيين والمسلمين، بل والعلاقات الاجتماعية لم تنقطع بين فترات الحروب، وتناولها بعض الباحثين (د. عاشور مثلا) كصفحة متكاملة من (العلاقات) فيها الجوانب الحربية والاقتصادية والاجتماعية. فلم يكن محظوراً في ظل ظروف مُعينة أن يتجول المسلم في مناطق الحكم الصليبي.

وما كان بنيامين ليستطيع أن يكتب كل آرائه، أو يبث آلامه من معاملة الصليبيين في رحلتة هذه لأسباب لا تخفى، لكن تعليقات عزرا حداد أكملت هذا النقص، أما نحن فلجأنا إلى لغة الأرقام نستفتيها ونخلص منها بالنتائج وهذا واضح في الصفحات التاليات.


الخلافة العباسية
أنطاكية
اللاذقية
بحر الروم (البحر المتوسط)
طرابلس
جبيل
بيروت
بعلبك
٣٤
صيدا
دمشق
صور
إلى دمشق
عكا
طبرية
حيفا
قيسارية
نابلس
يافا
٣٢
اللد
القدس
بيت لحم
جبرين
بيت الخليل
مصر
٣٠
خليج العقبة
خط سير بنيامين في الإمارات الصليبية قبل تحرير المسلمين لها
١- مملكة بيت المقدس
٢- إمارة طرابلس
٣- إمارة أنطاكية
٤- مملكة الأرمن
٥- إمارة الرها

مسلسل	اسم المدينة أو القرية	عدد اليهود
١	أنطاكية	١٠
٢	الليكة (اللاذقية)	٢٠٠
٣	جبلة	—
٤	جبيل	١٥٠
٥	بيروت	٥٠
٦	صيدا	٢٠
٧	صرفنده	—
٨	صور الجديدة	٤٠٠
٩	عكاء	٢٠٠
١٠	حيفا	—
١١	كفر ناحوم	—
١٢	قيسارية	٢٠٠
١٣	قاقون (كيلا)	—
١٤	اللّد	١
١٥	سبسطية (السامرة القديمة)	—
١٦	نابلس	١٠٠٠
١٧	جبل جلبوع	—
١٨	وادي أيلون	—
١٩	جبل المورية	—
٢٠	بيت المقدس	٢٠٠

٢١	بيت لحم	١١
٢٢	الخليل	—
٢٣	بيت جبرين	٣
٢٤	قلعة الحصن	٣٠٠
٢٥	سنت صموئيل (سيلون)	—
٢٦	بيسان	—
٢٧	بيت النبى	٢
٢٨	الرملة	٣٠٠
٢٩	يافا	١
٣٠	إيلين	—
٣١	أشدود	—
٣٢	عسقلان	٢٠٠
٣٣	زيدين (زرين)	١
٣٤	صفورية	—
٣٥	طبرية	١٠٠
٣٦	تبنين	—
٣٧	جوش	٢٠
٣٨	ميرون	—
٣٩	علمه	—
٤٠	قادس	—
٤١	بلنياس	—
	المجموع	٣٣٦٩

من هذا الجدول يتضح ما يلى :

* أنَّ عدد اليهود في المدن والقرى التي زارها بنيامين فيما يُعرف اليوم بلواء الإسكندرونة والسواحل السورية ولبنان وفلسطين بمعناها الجغرافي الواسع، كان قرابة ٣٣٦٨ يهودي في ٤١ مدينة وقرية، ولأنَّ بنيامين كان يتحرَّى التجمعات اليهودية فيمكننا القول : إنهم في المناطق الآنف ذكرها جميعا (فلسطين وسواحل المتوسط) لم يكونوا ليزيدوا عن ذلك كثيرا.

وإذا علمنا أن عدد اليهود في التجمعات السكنية التي زارها في الدولة البيزنطية كان ٧٨٥٠ في ٣١ تجمعا (قرية أو مدينة) اتضح بجلاء أنَّ نسبة الوجود اليهودي في الدولة البيزنطية كان أعلى بكثير من نسبة وجودهم في فلسطين وسواحل المتوسط الشرقية في ظل الحكم الصليبي ، فلكي تكون النسبة واحدة كان من المفترض أن يكون عدد اليهود في التجمعات التي زارها بنيامين في فلسطين وسواحل المتوسط الشرقية هو ٧٨٥٠ على الأقل.

* أنَّ عدد اليهود في فلسطين التاريخية كان ضئيلاً جدا في ظل الحكم الصليبي لا يتعدى الألفين ، في ٣٥ تجمعاً سكانياً (إذا حذفنا التجمعات السكنية التي مر عليها بنيامين في مناطق ما يعرف الآن باسم لبنان والساحل السوري ولواء الإسكندرونه التركي)

* وإذا أضفنا لهذا أنَّ هناك ألفا من أهل نابلس رفض بنيامين أن يعتبرهم يهودا وهم من طائفة الكوتيين (السامريين) الذين يتبعون أسفار موسى ولا يؤمنون بغيرها أي يرفضون التلمود وغيره من كتابات

الرابيين (الحاخامات) والمفسرين وهم لا يتزوجون من غير بنات نحلتهم ولا يختلطون مع اليهود الآخرين... ويقول بنيامين مؤكدا أنهم غرباء عن بني إسرائيل .. وهم يبتعدون عن كل ما يُدنّسهم أى يبالغون في الطهارة .. وإذا قصدوا الصلاة خلعوا ثيابهم واغتسلوا بالماء واستبدلوها بثياب غيرها.. وهذا جاري عادتهم يوميا. نقول: إذا حذفنا الألف سامري آخذين في اعتبارنا ما يقوله بنيامين لأصبح عدد اليهود على طول مناطق الساحل الشرقي للبحر المتوسط بما فيها فلسطين لا يزيد عن الألف يهودي في ظل الحكم الصليبي. هذا عجيب!! أين ذهب اليهود؟ نؤجل هذا السؤال مؤقتا لحين الحديث عن طائفة السامريين (الكوتيين) الذين رفض بنيامين اعتبارهم يهودا؟ والذين تلاشوا بعد ذلك حتى أن عزرا حداد مترجم هذا الكتاب قال: في الملحق الذي أعده عنهم ما يفيد أنَّهم أصبحوا كالبقايا الأثرية ولم يَعُد لهم بعد ذلك وجود. فواضح أيضاً أن عزرا حداد – مثل بنيامين من قبله – لا يحبهم.

إن هؤلاء السامريين في نابلس لم يتعرضوا لاضطهاد شديد من المسيحيين لأن اليهود لم يكونوا يعترفون بهم كنسل إسرائيل أو كيهود. أيكونون قد أثبتوا أنهم لم يكونوا في فلسطين يوم (صَلْب) المسيح كما فعل اليهود القرَّاءون الموجودون في محيط مسيحي لينجوا من الاضطهاد؟ ربما، خاصة وأنهم يعتقدون أن المسيح (المنتظر) سيكون من نسل يُوسف (عليه السلام) وليس من نسل داود كما يعتقد سائر اليهود ، وبالتالي فقد كانوا مستقرين في مصر ولا علاقة

لهم (بصلب) المسيح عليه السلام؟ ربما، لكن يبقى السؤال الكبير: أين هم؟ لماذا – دون سواهم من اليهود – انقرضوا؟ هنا نستعين بالدليل المنطقي والأنثروبولوجي.

فالسامريون (الكوتيون) كانوا يبالغون في الطهاره. إنهم – قبل الصلاة – كانوا يتجردون من لباسهم تماما ليلبسوا لباسا جديدا خاصاً بالصّلاة، وكانوا يستحمون ولا يكتفون بالوضوء. ونحن نعلم أنه إلى عهد قريب (في القرن العشرين) كان عدد كبير من المسلمين في شمال اليمن أو جنوب الجزيرة العربية يفعلون شيئاً كهذا. فأنت ترى المسلم من هذا النوع وقد غسل نصفه الأسفل جيدا وتوضأ، ثم خلع سرواله (لباسه) وحمله بيده ودخل المسجد وسرواله (لباسه) في يده، ثم هو يطرح سرواله (لباسه) أمامه في المسجد ويبدأ في الصلاة، حتى إذا ما انتهى من صلاته لبس سرواله (لباسه) مرة أُخرى في المسجد، وفي حالة الصلاة الجامعة في المسجد تجد الصورة كالتالي: المسلمون يقفون صفوفاً وأمام كل منهم لباسه (سرواله)، فهم لا يصلّون في سراويلهم خشية أن يكون قد أصابها ما جعلها غير طاهرة.. وبعد انتهاء الصلاة والتسليم ترى روّاد المسجد كلهم وقد انهمك الواحد منهم في رفع ثوبه وارتداء سرواله، وكلٌّ حريص يستدير للحائط مرة ولأحد الأعمدة مرة أخرى حتى لا يرى أحدٌ عَوْرته... وفي الجيل الماضي كنا نرى بعض الفلاحين في مصر إذا شرع أحدهم في الصلاة في الحقل خلع سرواله.. فإذا رأيته وقف على حين غفله وخلع سرواله، فلا تَظُنّن السُّوء.. إنّه سيصلّي.

هذه الظواهر التي وجدت في وقت لاحق وظلَّ بعضها إلى عهد قريب جدا ، ألا يمكن أن تكون دليلاً على أنَّ الكوتيين (السامريين) قد تحولوا إلى الإسلام تدريجيا وانتشروا في العالم الإسلامي، في اليمن وفي مصر وفي غير اليمن ومصر، وإلا كيف نُفسِّر هذا التشدد الشديد في مراعاة الطهارة عند الصلاة في دين يسمح بالصلاة بمجرد التيمم إذا عزَّ الماء؟ وبالاستجمار بحجر أو سواه لتطهير قُبُله وَدُبُره بعد قضاء الحاجة إذا عزَّ الماء! ولم نسمع أن النبيﷺ أو صحابته كانوا يصفون سراويلهم أمامهم في المسجد . أليست هذه بقايا ممارسات قديمة للمتحولين إلى الإسلام . أهذا التفسير أفضل أم القول بأن السّامريين (الكوتيين) قد انقرضوا لعدم إيمانهم بالتلمود وكتب الحاخامات الأخرى مكتفين بأسفار موسى* . إنّ تأمل ملامح الحاضر يُعد دليلاً تاريخياً لا يقل في أهميته عن الوثيقة والأثر، وعلى هذا سنضمِّن هذه الدراسة وثيقتين تشيران إلى حركة بين اليهود أنفسهم للتحول للإسلام في القرنين السادس والسابع الهجريين (١٣,١٢ للميلاد) لأسباب تاريخية سنوضِّحها .

لقد شهدت مرحلةُ إخراج المسلمين من الأندلس، وتوغل الإسلام – في المقابل – في آسيا الصغرى وشرق أوروبا، ومرحلة الاحتكاك الحضاري العنيف بين الشرق والغرب ممثلاً في الحروب الصليبية – شهدت تأثيرا وتأثرا بين الأديان الثلاثة، بل وأدّت إلى ظهور عقائد

---

* قرأتُ في أحد أعداد جريدة الأهرام (يوليو ٢٠٠٠) أن هناك طائفة سامريّة صغيرة جداً لا تزال توجد في إسرائيل (عبد الرحمن)

مركبة من أكثر من دين، فقد أسَّس درزي الداعية الاسماعيلي الفاطمي ومبعوث الحاكم بأمر الله العقيدة الحاكمية أو الدرزية التي هي مزاج من الإسلام والمسيحية بالإضافة لجانب غَيْبى سرّي ، فهم فيما تقول دائرة المعارف الإسلامية (مادة دروز) مسلمون مع المسلمين ومسيحيون مع المسيحيين، ولا زال المثل الشعبي الشامي قائما شاملاً في محتواه المضامين التاريخية (مثل الدرزي* ، مع الحيط القائم) . . ولم يتعرض الدروز لاضطهاد الصليبيين في أثناء فترة الحروب الصليبية، وربما كانت ظروف العصر بالإضافة لأسباب أخرى هى التي أدّت لظهور هذه التركيبة الدينية . . أعنى أنه كان عصر صراع ديني لا يرحم بين أتباع الدين الواحد (المذاهب المختلفة في أوربا المسيحية وإلى حد ما في الشرق الإسلامي)

ويبدو أنّ بنيامين قد بالغ كثيرا في ذكر عيوب الدروز فذكر أنهم « في خصام مستمر مع أهل صيدا، وأنهم لا دينَ يُعرف لهم . . . وهم إباحيون . . ومن عقائدهم السقيمة أن الروح الزكية إذا فارقت الجسم عند الوفاة حلّت في جسم طفل آدمي يُولد في تلك اللحظة، أمّا الروح الشريرة فتحل في جسم كلب أو حمار . . وعلاقتهم طيبة باليهود » وقد علّق المترجم اليهودي عزرا حدّاد على ذلك بأن ذكر أنَّ دروز اليوم براء من ذلك ففيهم كلّ مزايا العرب، ونحن نردد بدورنا ما قاله حدَّاد . ويشير بنيامين إلى قلعة جبلة التي تقيم بظاهرها طائفة الحشيشيين

---

* ينطقونها بتشديد الدال وكسرها .

(الحشاشين) ، ويعلق حداد على ذلك بأنهم الطائفة الإسماعيلية المعروفة ويصفهم بنيامين بأنَّهم زنادقة لا يؤمنون بدين محمد ويتبعون تعاليم شيخهم (حمدان قرمط) وهم في نزاع مستمر مع النصارى من الإفرنج وأمير طرابلس الشام.

* نعود لحديث الأرقام فإنه إذا كان بنيامين قد وجد في القدس ٢٠٠ يهودي فقد قلَّ عددهم بعد رحيله بوقت غير طويل فعزرا حداد ينقل عن رحَّالة يهودي آخر هو فتاحية زار القدس بعد بنيامين بعشر سنوات فلم يجد فيها إلا يهوديا واحدا يُدعى إبراهيم الصباغ كان - فيما يقول فتاحيه يؤدي للملك ضريبة فادحة ليسمح له بالبقاء، أما فيلكس فابرى *Felix Fabri* الحاج المسيحي الذي زار القدس بعد أن استعادها صلاح الدين الأيوبي في سنة ١١٨٧ فوجد فيها ٥٠٠ يهودي وزهاء ألف مسيحي.. لقد عاد اليهود إذن في ركاب المسلمين فيما يقول عزرا حداد. ليس غريبا إذن أن ينظر مسيحيو هذه الفترة وحتى القرن السابع عشر للميلاد - على الأقل - للمسلمين واليهود على أنهم حلفاء، فهل التحالف الأوروبي اليهودي اليوم نوع من تصفية الحسابات التاريخية؟ وهل هو حقا تحالف سيدوم؟

بنيامين في الدولة الإسلامية (العباسية):

اتجه بنيامين بعد ذلك إلى دمشق فدخل بذلك بلادا يحكمها نور الدين زنكي مع ولاء شكلي للخليفة العباسي في بغداد، وكان نور الدين هو القوة الأساسية في الشام في الفترة من ٥٤١ إلى سنة ٥٦٩هـ/١١٣٥-١١٦٣م، وكان الخليفة العباسي الذي زار بنيامين البلاد في عهده هو المستنجد العباسي ٥٥٥-٥٦٦هـ/ ١١٦٠-١١٧٠م وربما يكون قد عاصر شطراً من حكم الخليفة التالي له وهو المستضئ ٥٦٦-٥٧٥هـ / ١١٧٠-١١٨٠م وإن كان هذا غير مؤكد، فحديثه في الغالب عن المستنجد، وكان كلا الخليفتين مهيض الجناح لا تأثير لهما في مجريات الأمور كما سنوضح فيما بعد. ويهمنا هنا تزايد أعداد اليهود بشكل رهيب مقارنة بأعدادهم في سواحل الشام التي كانت تحت حكم الصليبيين وفي مملكة بيت المقدس. ولغة الأرقام هنا تساعدنا على استخلاص النتائج.

مسلسل	المدينة	عدد اليهود	ملاحظات
١	دمشق	٣٠٠٠	من اليهود التلموديين فقط
		+	
		٢٠٠	من القرائين ولا يعتبرهم بنيامين يهودا
		+	
		٤٠٠	من السامريين
			ولا يعتبرهم بنيامين يهودا
٢	جلعد	٦٠	
٣	صرخد	—	
٤	بعلبك	—	
٥	تدمر	٢٠٠٠	
٦	القريتين	١	
٧	حمص	٢٠	
٨	حماه	—	
٩	شيزر		
١٠	لطمين	—	
١١	حلب	١٥٠٠	
١٢	بالس	١٠	
١٣	قلعة جعبر	١٠٠٠	
١٤	الرقة	٧٠٠	
١٥	حران	٢٠	

١٦	رأس العين	٢٠٠	
١٧	نصيبين	١٠٠٠	
١٨	جزيرة ابن عمر	٤٠٠٠	
١٩	الموصل	٧٠٠	
٢٠	الرحبة	١٠٠٠	
٢١	قرقيساء	٥٠٠	
٢٢	الأنبار	١٠٠٠	
٢٣	حربى	١٥٫٠٠٠	
٢٤	عكبرى	١٠٫٠٠٠	
٢٥	بغداد	٤٠٫٠٠٠	
٢٦	جاهيجان	٥٫٠٠٠	
٢٧	خرائب بابل	—	
٢٨	الحلّه	١٠٫٠٠٠	
٢٩	برس نمرود	—	
٣٠	نفاحة	٢٠٠	
٣١	مرقد حزقيال	؟	
٣٢	الفوسنان	٣٠٠	
٣٣	عين شفاثه	—	
٣٤	كفر الكرم	—	
٣٥	الكوفة	٧٠٠٠	
٣٦	سورا	—	

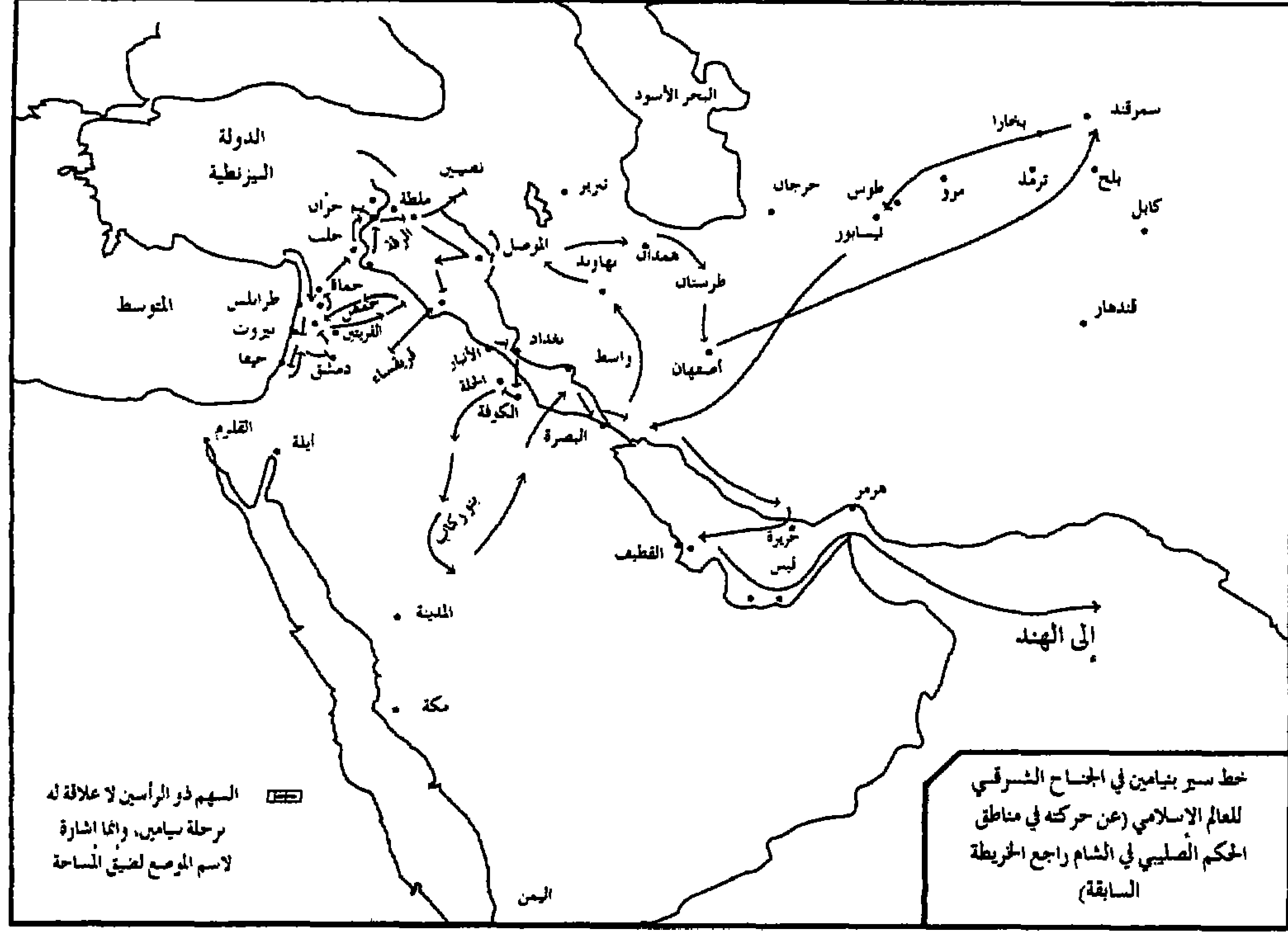
٣٧	شفياثيب	—	
٣٨	مدن وصحاري		
	شبه الجزيرة العربية	٣٠٠ر٠٠٠	
		+	
٣٩	مدن وصحارى		
	شبه الجزيرة العربية	١٠٠ر٠٠٠	
		+	
٤٠	مدن وصحاري		
	شبه الجزيرة العربية	٥٠ر٠٠٠	
		+	
٤١	مدن وصحارى		
	شبه الجزيرة العربية	٣٠٠٠	
٤٢	واسط	١٠ر٠٠٠	
٤٣	البصرة	١٠ر٠٠٠	
٤٤	نهر سمره	١٥٠٠	
٤٥	خوزستان	٧٠٠٠	
	(شرق شط العرب)		
٤٦	رودبار	٢٠ر٠٠٠	
٤٧	نهاوند	—	
٤٨	مواطن الحشاشين	٤٠٠٠	
٤٩	العمادية	٢٥ر٠٠٠	

٥٠	همذان	٥٠ر٠٠٠	
٥١	طبرستان	٤ر٠٠٠	
٥٢	أصبهان	١٥ر٠٠٠	
٥٣	شيراز	١٠ر٠٠٠	
٥٤	خيوه	٨ر٠٠٠	
٥٥	سمرقند	٥٠ر٠٠٠	
٥٦	نيسابور	٥ر٠٠٠(؟)	
٥٧	جزيرة قيس	٥٠٠	
٥٨	القطيف	٥٠٠٠	
	الإجمالي	٧٨٢ر٨١١	

قرابة ثلاثة أرباع المليون يهودي في ظل الحكم العباسي والدول الإسلامية التابعة له اسميا، وإذا أخذنا بملاحظة عزرا حداد التي مؤداها أن المؤرخين والكتاب اليهود جرى العرف لديهم على الإحصاء بعدد أرباب البيوت لا بعدد الأشخاص لكان هذا الرقم أكثر بكثير. يا إلهي، لكأنما يهود العالم كله قد تجمعوا في ديار المسلمين طلبا للأمان وإذا وضعنا في الاعتبار أن هذا الرقم المهول لايشمل يهود اليمن ومصر لأن بنيامين تعرض لهم في موضع آخر وهو في طريق عودته لأوربا، اتضح لنا كم هو كبير هذا الرقم، ولايمكن تفسير ذلك إلا بالظروف الناريخية وهو ماسنتعرض له ولغيره في نقاط كالتالي:

– كأنما كانت الحروب الصليبية مكنسة كبيرة كنس بها الصليبيون يهود العالم المعروف وقتئذ من الغرب ليلقوهم في الشرق. ولا تفسير لهذا العدد الكبير من اليهود في الشام والعراق والدويلات التابعة – اسما – للخلافة العباسية سوى ذلك.

– في الفترة من ٣٣٤هـ إلى ٤٤٧هـ/ ٩٤٦–١٠٥٥م كان سلاطين بني بويه الشيعة المغالين هم الحكام الحقيقيين في كل العراق، بلاد الخليفة العباسي السني ، وكان الخلفاء ألعوبة في أيديهم، ومع أنهم شيعه فقد رفضوا إقامة خلافة فاطمية في بغداد خوفاً من أن يستأثر الفاطميون بالحكم دونهم وأبقوا على الخلافة العباسية. في ظل هذه الظروف هل يُسمح للخليفة بأن يتحرك بحرية أو يكون له بطانة أو حاشية من المسلمين؟ هذا بالطبع خطر على السلاطين البويهيين، لكن لا مانع من أن تكون له بطانة أو صحبة بيهود أو مسيحيين يُدارسهم



خط سير بنيامين في الجناح الشرقي للعالم الإسلامي (عن حركته في مناطق الحكم الصليبي في الشام راجع الخريطة السابقة)
السهم ذو الرأسين لا علاقة له برحلة بنيامين، وإنما إشارة لاسم الموضع لضيق المساحة
الدولة البيزنطية
المتوسط
البحر الأسود
طرابلس
بيروت
حيفا
دمشق
حماة
حلب
حران
ملطية
نصيبين
الموصل
تبريز
بغداد
الأنبار
الحلة
الكوفة
البصرة
واسط
نهاوند
همدان
طبرستان
أصفهان
جرجان
طوس
نيسابور
مرو
ترمذ
بخارا
سمرقند
بلخ
كابل
قندهار
هرمز
جزيرة
قيس
القطيف
إلى الهند
القلزم
أيلة
المدينة
مكة
اليمن

ويُقارن معهم الأديان . . فهذا لا خطر منه على بني بويه . وقد وجدنا شيئا كهذا مع اختلاف الظروف والبواعث في الدولة الفاطمية في مصر التي وجد خلفاؤها أنهم في محيط سني، فجمعوا حولهم اليهود والمسيحيين واستعانوا بهم كثيرا مما كان له نتائج مهمة جدا سنتحدث عنها في حينه.

– رغم استيلاء السلاجقة الأتراك على مُلك بني بويه في العراق، واستيلائهم قبل ذلك على الولايات الغربية للدولة الغزنوية، ودخولهم بغداد في سنة ٤٤٧هـ إلا أن أحد الأمراء وهو الحارث أرسلان البساسيري انتهز ضعف الخليفة العباسي وانشغال طغرل بك أول ملوك السلاجقة بفتح بعض بلاد العراق فدخل بغداد في سنة ٤٥٠هـ وأقام الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي أي أنه أعلن تبعيته للخلافة الفاطمية، وهكذا أصبح الخليفة العباسي في قبضة الشيعة، وسار البساسيري في بغداد سيرة الفاطميين في مصر بالتحبب إلى الناس وتقديم الطعام والأموال ، لكن الخليفة العباسي استنجد بطغرل بك الذي قدم بغداد وقتل البساسيري، وبذلك أصبح الخليفة العباسي في قبضة السلاجقة يتصرفون معه كما يشاؤون.

– والآن وقد أصبح الخلفاء العباسيون تحت سيطرة السلاجقة فقد سيطر نوابهم العسكريون على الحكم في العراق وأرسلوا حملاتهم إلى الشام لاستعادة ملك بني العباس (أو بالأحرى مد سلطان السلاجقة) في المناطق التي سيطر عليها الفاطميون ، فأصبحت الرملة وبيت المقدس ثم بعد ذلك دمشق في قبضتهم وكان الخلفاء في هذه الأثناء يشرفون

على بناء القصور والاستماع إلى الغناء ومجالسة العلماء ، وقد تزاوج السلاطين السلاجقة من بنات الخلفاء وحدث العكس أيضا فتحسنت العلاقة لكن هذا لا يمنع من أن السلاجقة كانوا يراقبون شعبية الخليفة العباسي واتصالاته ، خوفاً من ازدياد جماهيريته .

وانقسم ملك السلاجقة إلى أتابكيات (إمارات صغيرة) منها في الشام عدة أتابكيات . وفي ظل هذه الظروف كانت زيارة بنيامين إلى الشام والعراق .

– نحن إذاً لا نستنكر ما قاله بنيامين عن الخليفة العباسي المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله العباسي من أنه كان يعيش عيشة هنية في قصر فخم واسع الأرجاء ذي حديقة غناء بها موضع لصيد الطير وبرك لصيد الأسماك، وأن له حاشية تضم بعض اليهود علموه اللغة العبرية قراءة وكتابة . .

لقد كانت علاقة الخلفاء بالسلاطين السلاجقة في هذا الوقت – كما سبق أن ذكرنا – قد تحسنت كثيراً نسباً وصهراً وأغرقهم السلاجقة في الفراغ والملذات، ووقروهم وشرفوهم ورفعوهم شريطة ألا يكون لهم سلطان سياسي .

وحكاية أن المسلمين لا يشاهدون الخليفة إلا مرة في العام مسألة معقولة ، فهي تدبير احترازي اتخذه السلاجقة لإبعاده عن الجماهير، وليست مسألة لها علاقة بالتوقير أو الاحترام كما توهم بنيامين. إنه نوع من العَزْل السياسي المهذب .

لكن ليس هناك خطورة سياسية كما سبق القول من اندماج الخليفة

بغير المسلمين ، لذا نرى رأس الجالوت أى رئيس الجالية اليهودية عندما يقابل الخليفة تحفة الحاشية والفرسان ويجلس قبالته مباشرة. ورأس الجالوت هذا يدبر أمور ٤٠٫٠٠٠ يهودي في بغداد وحدها .

– وما ذكره بنيامين عن يهود في شبه جزيرة العرب يثير حساسية شديدة، لذلك أراح الأستاذ المترجم عَزْرا حداد نفسه بالتشكك في زيارة بنيامين لشبه الجزيرة العربية، والواقع أن الظروف التاريخية للحروب الصليبية تجعلنا لا نستبعد ذلك مع بعض الإيضاحات ، أولها أن هؤلاء اليهود الذين توغلوا في البادية هرباً من الحروب الصليبية قد يكونون تحولوا للإسلام فعلاً أو تظاهروا بذلك ثم – وهذا طبيعي – أسلم أبناؤهم حقاً بمرور الأيام، خاصة أن بني ركاب الذين ذكرهم بنيامين كانوا ذوي طبيعة بدوية خالصة، وأنهم كانوا يخرجون مع القبائل العربية الأخرى للغزو والكسب في الأماكن البعيدة . . لقد ذابوا إذن مع العرب الآخرين، فالظروف الاجتماعية المتشابهة، خاصة إذا كانت بقوة الظروف البدوية غالبا ما تؤدي إلى توحيد العقائد، وقد أشار الرحالة فاريتما (الحاج يونس) إلى وجود بدو يهود في جبال قريبة من المدينة المنورة، ووصفهم وصفاً بشعاً، لكن الحقيقة أنَّ ما ذكره ينطبق على بعض القبائل ذات الطابع الانعزالي أي التي لا تُحب الاختلاط بالآخرين، وقد تصف بعض القبائل القبائلَ التي تكرهها أو تغار منها بأنها يهود . . على أية حال فيبدو أن الصحراء صهرت هؤلاء اليهود وجعلتهم من المسلمين خاصة أن الخلاف في العقائد الأساسية

ليس كبيرا فيما عدا حكاية الشعب المختار.

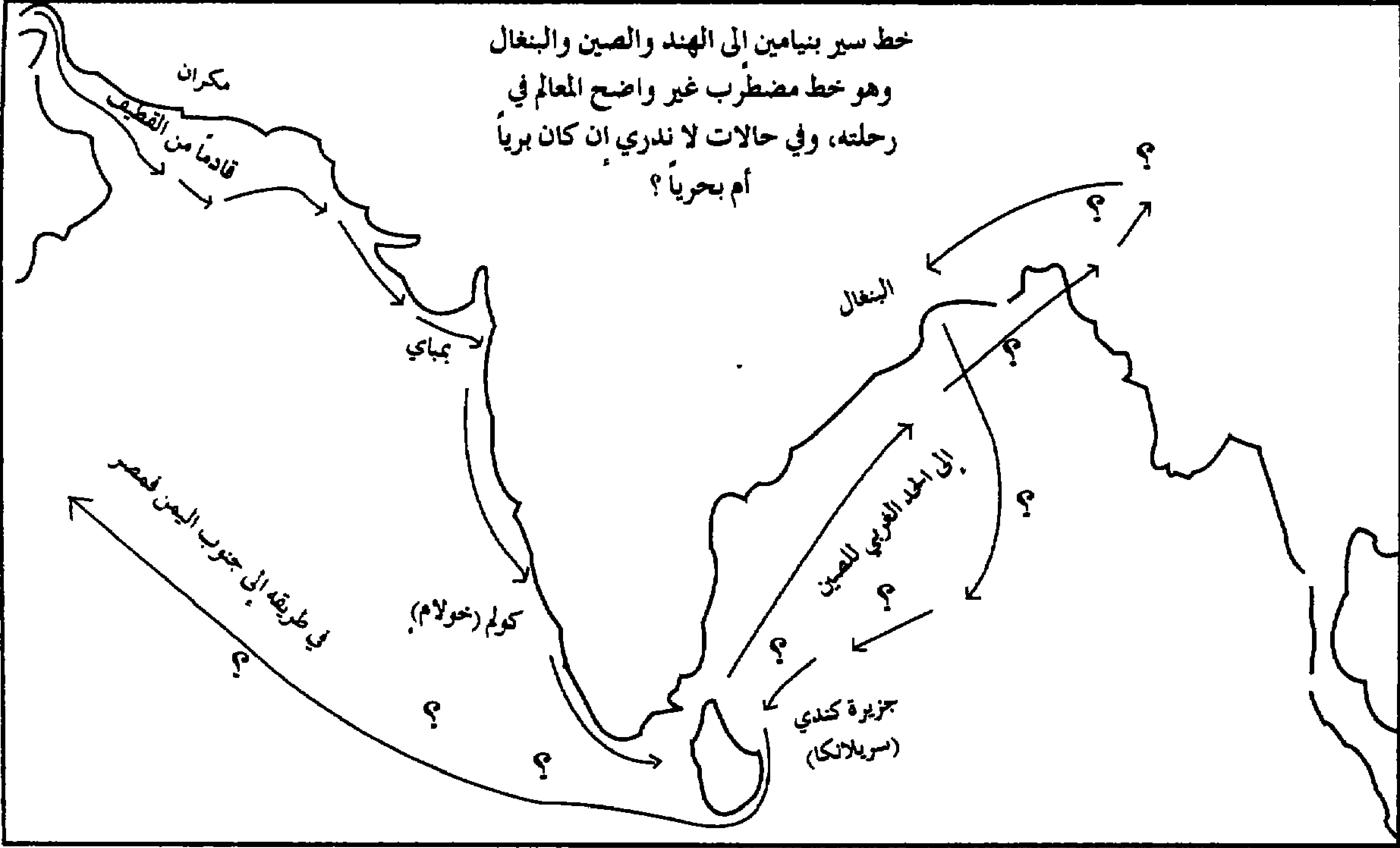
- التحالف بين الحشاشين الإسماعيلية واليهود الذي أورده بنيامين عند حديثه عن أرض الملاحدة، أمر مقبول تماما، ولأن بنيامين رجل غريب وافد فهو - فيما يبدو - لم يكن يدرك التبادل الثقافي والعقائدي بين الإسماعيلية واليهود.. وهو ما سنشير إليه في موضع آخر.

****

خط سير بنيامين في الهند وشرق آسيا :

فيما يلي جدول بأعداد اليهود كما ذكرهم في المدن التي زارها (أو قال إنه زارها)

المدينة	العدد
خولام (كولم)	أقل من مائة
جزيرة كندي (سيلان)	٣٠٠٠
الصين	لم يذكر
البنغال	١٠٠٠


خط سير بنيامين إلى الهند والصين والبنغال
وهو خط مضطرب غير واضح المعالم في
رحلته، وفي حالات لا ندري إن كان برياً
أم بحرياً ؟
مكران
قادماً من القطيف
بمباي
كولم (خولام)
في طريقه إلى جنوب اليمن فمصر
البنغال
إلى الحد الغربي للصين
جزيرة كندي
(سريلانكا)

خط سير بنيامين إلى جنوب اليمن ثم مصر :

١– خولان	—
٢– عدن	عدد غفير ولم يحدد، والمترجم يعلق بأنه خلط بين عدن وموقع آخر بعيد
٣– أسوان	—
٤– حلوان	٣٠٠
٥– الزويله	—
٦– قوص	٣٠٫٠٠٠ وعلق المترجم بما يفيد أن هذا خطأ من الناسخ
٧– مصر (العاصمة)	٢٠٠٠
٨– بلبيس	٣٠٠٠
٩– عين شمس	—
١٠– أبو تيج	٢٠٠
١١– بنها	٦٠
١٢– سمناط (سمنود)	٢٠٠
١٣– الدميرة (قرب دمياط)	٧٠٠
١٤– المحلة	٥٠٠
١٥– الإسكندرية	٣٠٠٠
١٦– دمياط	٢٠٠
١٧– سنباط	—
١٨– إيلة	—
١٩– حصى الخطاطين	—

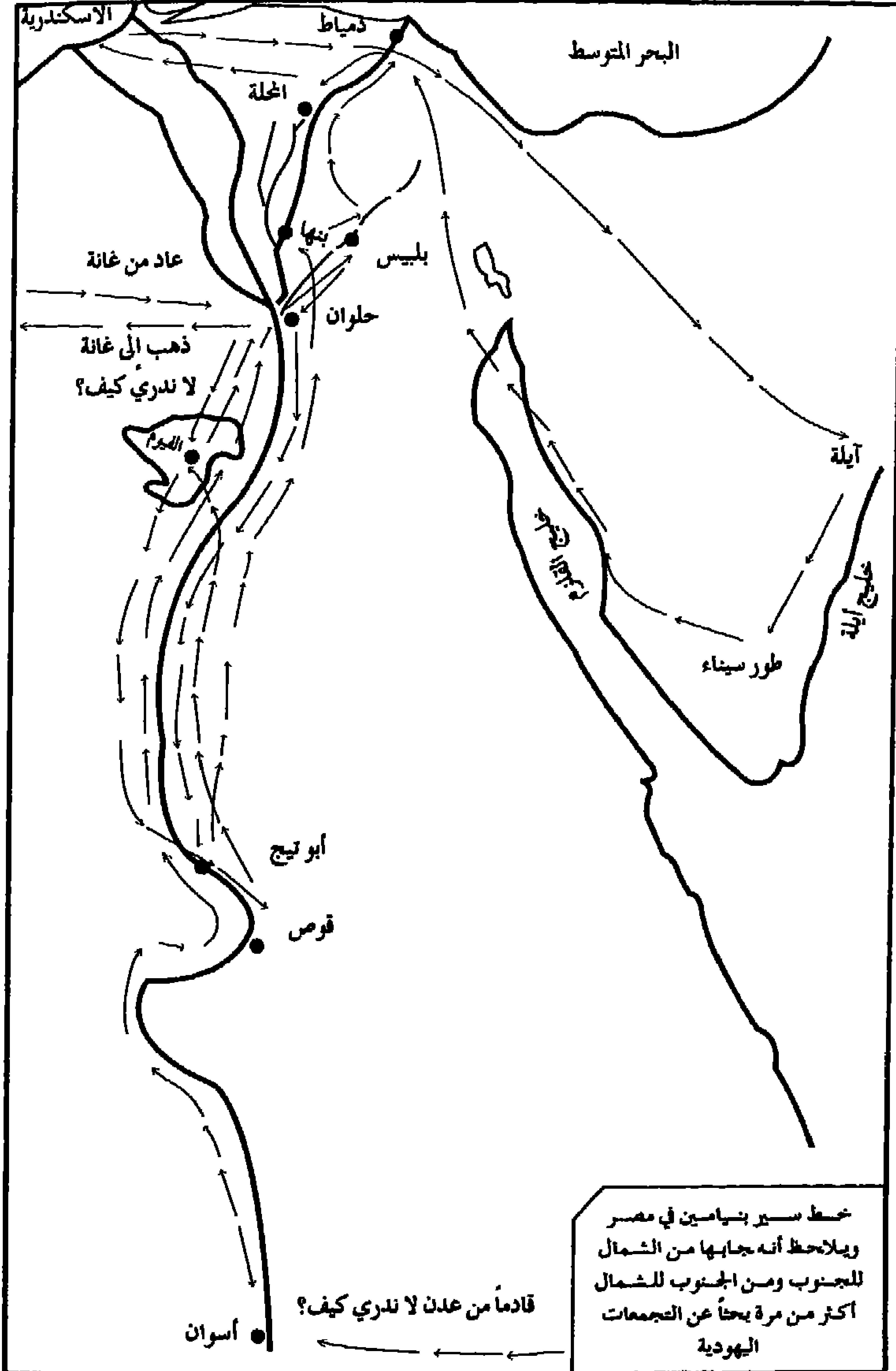
ـ كانت حركة بنيامين في مصر مُريبة نحواً ما، فقد زار بعض المدن أكثر من مرة، كما أن خط سيره فيها معقد أو مركب كما هو واضح من الخريطة. لقد خرج من أسوان إلى قوص ولما وصل إلى شمال مصر عاد مرة أخرى إلى قوص، ثم إنه لما وصل إلى الإسكندرية عاد فتوجه إلى دمياط، ووصل إلى خليج العقبة فطور سيناء، فدمياط فقوص مرة أخرى، فالإسكندرية فدمياط، وهو قد اتخذ طريقه إلى غرب أفريقيا (إمبراطورية غانه الوسيطة وهي غير دولة غانا الحالية ، فالإمبراطورية الوسيطة كانت إلى الغرب من مملكة مالي الوسيطة ولم تكن دولة ساحلية ـ انظر الخريطة) . أهذه حركة سائح؟ أم تراه كان ينقل رسائل بين يهود البلاد أو يوزع عليهم تعليمات؟!

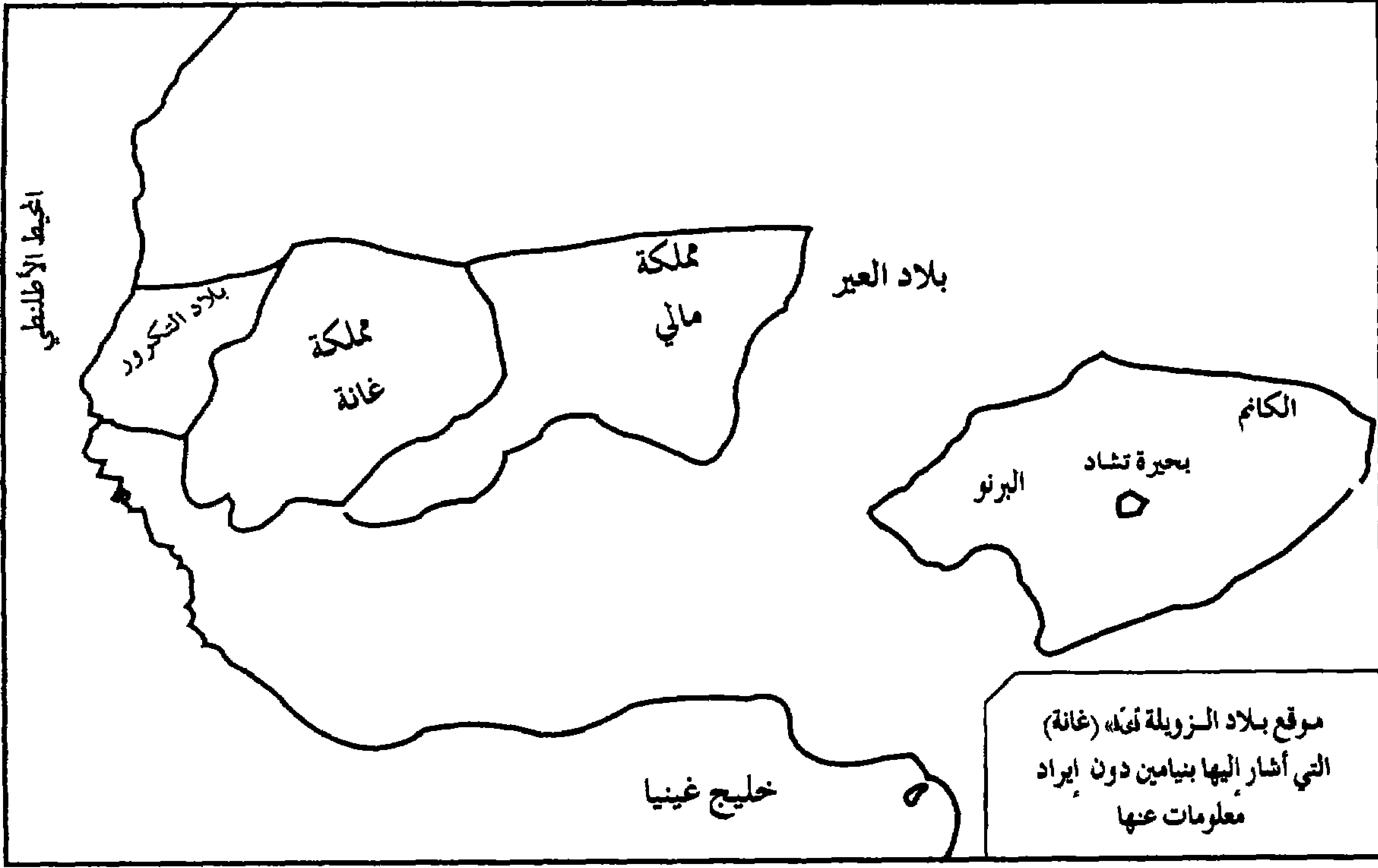
ـ وقد لاحظ بعض الباحثين المصريين (سلسلة تاريخ المصريين ـ أهل الذمة في العصر الفاطمي) أن عدد اليهود في مصر في مطلع الدولة الأيوبية وأواخر الدولة الفاطمية قد تناقص كثيرا، وذلك اعتمادا على الأرقام التي أوردها بنيامين التطيلي في رحلته هذه والتي صنفناها بطريقة جدولية فيما سبق.

وهي ملاحظة جديرة بالتأمل وفي حاجة إلى تفسير .

ـــ أيمكن أن يكون السبب هو أن الرحالة والمؤرخين اليهود قد تعودوا أن يحصوا عدد اليهود وفقاً للأسر أو أرباب البيوت وليس وفقا لعدد النفوس وهو مالا يأخذ به الباحثون والرحالة المسلمون عندما يذكرون أرقاما عن عدد السكان؟ الواقع أن هذا لا يصلح تفسيراً للظاهرة فالنسبة ستظل ثابتة إذا قورنت بعدد اليهود في الشام والعراق،

فهو عندما ذكر أعداد اليهود في الشام والعراق وغيرهما اتبع الطريقة نفسها في الإحصاء.





موقع بلاد الـزويلة لعنة» (غانة)
التي أشار إليها بنيامين دون إيراد
معلومات عنها

أيمكن أن يكون اليهود قد تعرَّضوا لاضطهاد شديد في مصر في أثناء الدولة الفاطمية فهاجروا منها هجرات جماعية؟ والحقيقة أن المراجع التي تناولت التاريخ الفاطمي أو الأيوبي لم تشر إلى مثل هذه الهجرة الجماعية. أما فيما يتعلق باضطهاد اليهود والمسيحيين في أثناء الحكم الفاطمي ، فهو بالتأكيد حديث خرافة. فقد شغل اليهود والقبط أرقى المناصب، وكان منهم زوجات الخلفاء الفاطميين وأمهاتهم.. أما ما يُقال عن هدم الكنائس وما إلى ذلك، فلا يستطيع فهمه إلا من فهم طبيعة المذهب الإسماعيلي الشيعي (الفاطمي) ؛ فقد كانت بعض الكنائس يُؤمر بهدمها ثم بعد فترة يُؤمر بإعادة بنائها.. يبدو أنها الكنائس الآيلة للسقوط هي تلك التي يؤمر بهدمها. وكانت هناك أوامر بتحول يهود أو مسيحيين قَسْرا للإسلام ثم أوامر بالسماح لهم بالعودة لدينهم.. وكل هذا لا يمكن فهمه إلا من خلال مبدأ (اكتم ذهبك ومذهبك وذهابك) وإلا من خلال أنَّ الفاطميين الشيعة كانوا يحكمون غالبية من السنّة؟ ولم تكن مثل هذه الأوامر الشكلية تحقق غرضها وإنما كانت إرضاءً ظاهرياً لبعض متعصبي السنة. وكيف يفقد الفاطميون مودة اليهود والنصارى وهم يحكمون شعباً من السنة تقبل ببساطة شديدة إلغاء كل مظاهر التشيع ممثلة في إضافة (حي على خير العمل) في الأذان وغير ذلك بمجرد قيام الدولة الأيوبية؟ ولم ينتحب لإلغاء الدعاء للخليفة الفاطمي في خطب صلاة الجمعة؟ ... الخ. وكيف يفقد الفاطميون مودة اليهود النصارى والمناصب الكبيرة فيهم، والطبيب منهم، وأمين الخزانة

منهم، وقيم الأموال منهم... أنصدق كلمات يرويها مؤرخون لم يتعمقوا في الأمور والعوامل الكامنة وراءها ونُكذب ما نراه رأي العين؟ ولازالت الكنائس التاريخية قائمة أمامنا في غالبها شاهدا على ذلك!

لنستبعد- إذاً مسألة الاضطهاد الديني هذه كسبب لقلة عدد اليهود في مصر في أواخر عهد الدولة الفاطمية وبداية الأيوبية!

ـــ والحقيقة أنّ العصر الفاطمي شهد – فيما يبدو – نوعاً من المفاوضات أو المساومات لإيجاد دين وسط بين اليهودية والإسلام من ناحية، وبين المسيحية والإسلام من ناحية أخرى، أو بتعبير آخر التوصل عبر مفاوضات ومناقشات ومراعاة للمصالح – لإيجاد صيغة دينية وسطية مقبولة للطرفين (المسيحي الإسلامي أو اليهودي الإسلامي) . فعلى سبيل المثال بماذا نفسر الظواهر الآتية:

* قائمة المحرمات التي حرمها الحاكم بأمر الله الفاطمي في الطعام كانت تشمل الأسماك التي لا قشور لها وهو محرَّم بالفعل في العهد القديم – سفر التثنية، ألا يمكن أن يكون هذا طلباً أو شرطاً وضعه يعقوب بن كلس الوزير اليهودي ذو الشأن الكبير لكي يتحول للإسلام، ولم يجد الحاكم غضاضة في قبول هذا الطلب من ابن كلس أو من حاشيته من اليهود للوصول إلى قائمة محرَّمات مشتركة فيما يتعلق بالأطعمة تكون محرَّمة من الطرفين، وبذلك يتحول اليهود للإسلام دون أن يفقدوا شريعتهم.

* عندما أصدر الحاكم بأمر الله الفاطمي أمره بألا يعمل أحد بالنهار، وأن العمل لا يكون إلا ليلاً، لم يسأل أحد من الباحثين الذين

كتبوا عنه نفسه: لماذا أمر الحاكم بهذا الأمر؟ قال المدافعون عنه إن ذلك لأن القاهرة كانت حارة نهاراً، وأن الجو ليلاً كان جميلا، وما أحلى العمل على ضوء الفوانيس! وقال المهاجمون له إنه مجنون.

الواقع أنه ليس مجنونا، كما أن إبطال العمل نهارا معناه أيضاً اضطراب أمر الصلاة نهارا، ولابد أن الناس سينامون بالنهار ليتمكنوا من السهر ليلا. لابد من سبب آخر: إنه شرط بين الحاكم أو المسلمين الإسماعيلية من ناحية، واليهود من ناحية أخرى، لمراعاة حرمة يوم السبت، الذي هو اليوم الذي (استراح) فيه الرّب بعد خلق السماوات والأرض، وله – أي لهذا اليوم – حُرمة كبيرة عند اليهود، لم يتم التهاون فيها جزئياً إلا في أوقات لاحقة، لكن لماذا بقية الأيام أيضاً؟ إذن ماذا كنتم تظنون أيخص الفاطميون السبت وحده وبذلك تستنتج العامة أنهم تركوا الإسلام وتحولوا لليهودية. وكيف يدوم السلطان؟ لابد إذن أنّ حواراً على هذا النحو تم بين اليهود من ناحية والسلطان والدعاة الإسماعيلية من ناحية أخرى:

ابن كلس (واليهود): لكن للسبت عندنا حرمة كبيرة

الدعاة الإسماعيلية: نحترم السبت وتحترمون الجمعة

ابن كلس (واليهود): نحن لا نعمل يوم السبت.

الدعاة الإسماعيلية: يُحرّم الإمام العمل يوم السبت. لكن كيف؟

ابن كلس (واليهود): الجو في القاهرة حار، ليكن ذلك هو السبب في ألا يعمل الناس نهارا، والليل سكون نحن أدرى كيف نقضيه

الدعاة الإسماعيلية: عظيم! لكن لماذا السبت بالذات أليست

الحرارة في نهار السبت كالحرارة في الأيام الأخرى؟!

ابن كلس (واليهود) : لماذا لا يعّمم مولانا الإمام ذلك بالنسبة لكل الأيام .

الدعاة الإسماعيلية : بارك الله فيكم .. هذا هو الحل، وبذلك نراعى حرمة السبت، وتشهدون صلاة الجمعة، وسيجزل لكم مولانا الإمام العطاء

ابن كلس (واليهود) : أدام الله عمر الإمام ، سرَّ الله سليل النبي!

وبمفاوضات على هذا النَّسق ثم تسوية المسائل الخلافية الظاهرية، وهي المهم، أما المسائل العقائدية فالاعتقاد في الله واحد، وحكاية (عزير ابن الله) هذه لم تكن هي عقيدة غالب اليهود، أو كانت عقيده الجهلة منهم ثم تخلصوا منها . ومحرّمات الزواج تكاد تكون واحدة، والتمسك بالطهارة تكاد تكون واحدة .

ونحن نميلُ دائما لاستخدام الدليل الأنثروبولوجي في البحوث التاريخية أي تأمل الوضع الحاضر للخلوص منه - دون تعنت - بأدلة لإثبات وقائع تاريخية . أليس عدد كبير من الفلاحين - بل وبعض سكان المدن - كانوا إلى عهد قريب - وربما إلى الآن - يأنفون من أكل لحم السمك الثعبان . والقراميط بل والجمبري (الربيان) إنهم مسلمون الآن، لكنَّ هذا تراث توارثوه من أجداد يهود أسلموا بناء على اتفاقات في عهد الدولة الفاطمية أما حُرمة السبت فقد تلاشت بالتدريج بحكم ضرورات الحياة حتى عند عدد كبير من اليهود المعاصرين.

ثم أليس (الفطير المشلتت) أو (الفطير) عموما لازال مرتبطا في

بعض بيوت الريف التقليدية بالأعياد والمناسبات السعيدة؟! أليس هذا تقليدا يهوديا بالنسبة لبعض الأعياد حيث يُستعاض عن الخبز (ذي الخميرة) بالفطير (الذي لم يختمر عجينه)؟! إنها بقايا اتفاقات الصيغة الوسطية بين الدِّينين اليهودي والإسلامي.

لقد كان الفاطميون حريصين على إيجاد مسلمين جدد يعتمدون عليهم بدلاً من الأغلبية السنية المعادية لهم، وبالفعل نجحت سياستهم نجاحا مذهلاً حتى إننا لا نستطيع أن نقول : إن الإسلام قد أصبح دين الغالبية العظمى من سكان مصر إلا في عهدهم.

وعلى النحو نفسه جرى الأمر بالنسبة للمسيحيين لكن هذا ليس موضوعنا الآن.

كانت هناك إذن حركة تحول جماهيرية بين اليهود المصريين للإسلام وفقاً لهذه الصيغة الوسطية ، وهذا هو التفسير الوحيد للملاحظة التي أوردها بعض الباحثين المصريين المعاصرين من أن الأرقام التي أوردها بنيامين عن عدد اليهود في مصر أقل بكثير مما أورده المؤرخون الذين تحدثوا عن اليهود في بداية الدولة الفاطمية.

أما لماذا لم تكن حركة التحول اليهودية هذه للإسلام مشهورة معروفة، فالسبب بسيط وهو أنه كان مما يُقَلِّل كثيرا من قيمة الشخص – على المستوى الشعبي – أن يُعرف أن (أصله يهودي) بما تنطوي عليه هذه العبارة من مفاهيم كامنة في الفكر الشعبي – وإن كان هذا بطبيعة الحال أمراً لا مبرر له.

ولأن بعض المشتغلين بالتاريخ قد لا يفهمون كثيرا مسألة الدليل

الأنثروبولوجي هذه، فإننا نسوق لهم وثيقتين، يتضح منهما بشكل جلي محاولة المواءمة بين الدينين للخلوص بصيغة وسطية لا تمنع التحول للإسلام. الوثيقة الأولى لشموئيل بن يهوذا، والصيغة العربية للاسم شموئيل هى السموْءل، ويتضح لنا من السياق أنه كان من الدعاة الإسماعيلية فهو يُحدِّثنا عن «الإمام» وظلّ الله في الأرض... الخ.

وكتابه هو (بذل المجهود في إفحام اليهود) واسمه كاملا هو السموءل بن يهوذا يحيى بن عباس المغربي الأندلسي الطبيب والفيلسوف . قدم أبوه إلى الشرق الإسلامي وتضلع السموءل في الرياضيات والطب والأديان. وطاف مع أبيه بلاد المشرق واستقر في بغداد فترة ثم رحل إلى أذربيجان حيث أقام في مراغة، وفيها أسلم، وكان قبل إسلامه قد بلغ درجة عالية في الكهنوت اليهودي. وله كتاب آخر غير الكتاب الذي نحن بصدده وهو (الديانة اليهودية).

وكان السَّموْءل من بيت دين، فقد كان أبوه فيما يقول هو هو الرّاب يهوذا بن أيوب من مدينة فاس التى بأقصى المغرب. والرَّاب لقب ليس باسم، وتفسيره الحَبْر، وكانَ عالماً بالتَّوراة وشاعراً ينظم الشعر بالعبرية ، وكان اسمه المَدْعُو به بين أبناء العربيه هو أبو البقاء بن يحيى بن عباس ذلك أنَّ كثيراً من اليهود بالمغرب والأندلس كان لهم اسمان، واحد عبري وآخر عربي ، وإن كان الاسم العربي غالبا ما يكون قريبا من الاسم العبري لأنه مُشْتق منه. وتزوَّج والد السموءل من أُمّ السموءل ببغداد وأصلها من البصرة وكانت بارعة في علوم التوراة وبارعة

بالكتابة بالخط العبري وهى بنت إسحق بن إبراهيم البصرى اللاوي أعنى سَبْط لاوي .

يقول السموءل «وكان إسحق هذا ذا علوم يدّرسُها ببغداد، وكانت أمه نفيسة بنت أبي نصر الداودي المصري، وهذا الداودي من رؤسائهم المشهورين وذريته إلى الآن بمصر، وكان اسم أمي على اسم أُم شموائيل (السموءل) النبي عليه السلام.

وللسموءل كتب أخرى منها : الطب، الجبر والمقابلة وكان خبيراً بالجواهر والأحجار الكريمة. وتوفى بمراغه من أعمال أذربيجان سنة ٥٧٠هـ   ٠

وفيما يلي نص طويل من هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله عدة للقاء الله

أما بعد الحمد لله على ما ألهم به من الهداية ، وعصم عنه من الغواية. والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله الطاهرين.

فإن سبيل من فضل من العباد بالفطانة والرشاد، أن يجد في البحث عن أحوال المعاد، والتأمل لما أخذه عن الآباء والأجداد، بين الامتحان والانتقاد، فإن رآه فضيلة سما لإدراكها، وإن ألفاه رذيلة نجا من أشراكها ، لتضحى حقائبه بطانا من الزاد، فإن هاتف الموت لبالمرصاد، ولن تحمد العقبى لمضيع في تحصين شرعه، وموزع مواقيته على ما ينقاد إليه بطبعه. ولن يظفر بضالة الحق إلا ناشدوها، ولن يهدج الأباطيل على أنفسهم إلا معتدوها.

والغرض الأقصى من إنشاء هذه الكلمة: الرد على أهل اللجاج والعناد، وأن يظهر ما يعور كلمتهم من الفساد، على أن الأئمة – ضوعف ثوابهم – قد انتدبوا لذلك، وسلكوا في مناظرتهم اليهود أنواع المسالك، إلا أن أكثر مانوظروا به لا يكادون يفهمونه أو لا يلتزمونه. وقد جعل الله إلى إفحامهم طريقاً مما يتداولونه في أيديهم: من نص تنزيلهم، وإعمالهم كتاب الله عند تبديلهم، ليكون حجة عليهم موجودة في أيديهم . وهذا أول ما ابتدئ به من إلزامهم .

النسخ من نص كتابهم وما تقتضيه أصولهم :

أقول لهم : هل كان قبل نزول التوراة شرع أم لا؟ فإن جحدوا كذَّبوا بما نطق به الجزء الثاني من السفر الأول من التوراة . إذ شرع الله على نوح عليه السلام القصاص في القتل، ذلك قوله تعالى:

نص التوراة : (شُوفَيخ دامِ ها أذم باذام دامو يستافيخ كي يصيلم ألوهيم عاسا إت هاذام) .

تفسيره : سافك دم الإنسان فليحكم بسفك دمه . لأن الله تعالى خلق آدم بصورة شريفة .

وما يشهد به الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة . إذ شرع على إبراهيم ختان المولود في اليوم الثامن من ميلاده . وهذه وأمثالها شرائع، لأن الشرع لا يخرج عن كونه أمراً ونهياً من الله لعباده، سواء نزل على لسان رسول، أو كتب في أسفار ، أو ألواح أو غير ذلك . فإذا أقروا بأنه قد كان شرع . قلنا لهم: ما تقولون في التوراة؟ هل أتت بزيادة على تلك الشرائع أم لا؟ فإن قالوا : لا . فقد صارت عبثاً . إذ لا زيادة فيها على ما تقدم، ولم تغن شيئاً، فلا يجوز أن تكون صادرة عن الله . فليزمكم أن التوراة ليست من عند الله تعالى . وذلك كفر على مذهبكم .

وإن كانت التوراة أتت بزيادة، فهل في تلك الزيادة تحرم ما كان مباحاً أم لا؟ فإن أنكروا ذلك بطل قولهم من وجهين:

أحدهما : أن التوراة حرمت الأعمال الصناعية في يوم السبت بعد

أن كان مباحاً ، وهذا بعينه هو النسخ.

والثاني : أنه لا معنى لزيادة في الشرع إلا تحريم ما تقدمت إباحته، أو إباحة ما تقدم تحريمه.

فإن قالوا : إن الحكيم لا يحظر ، أي لا يحرم شيئاً، ثم يبيحه، لأن ذلك إن جاز مثله كان كمن أمر بشئ وضده.

فالجواب : أن من أمر بشيء وضده في زمانين مختلفين غير متناقض في أوامره، وإنما يكون كذلك لو كان الأمران في وقت واحد.

فإن قالوا : إن التوراة حظرت أموراً كانت مباحة من قبل، ولم تات بإباحة محظور، والنسخ المكروه هو إباحة المحظور. لأن من أبيح له شيء فامتنع عنه وحظره على نفسه فليس بمخالف. وإنما المخالف من منع من شيء فأتاه باستباحته المحظور.

فالجواب : أن من أحل ماحظره الشرع في طبقة المحرم لما أحله الشرع. إذ كل منهما قد خالف المشروع. ولم يقرأ الكلمة على معاهدها. فإذا جاز أن يأتي شرع التوراة بتحريم ماكان إبراهيم عليه السلام ومن تقدمه عن استباحته، فجائز أن تأتي شريعة أخرى بتحليل ما كان في التوراة محظوراً.

وأيضاً : فلا تخلو المحظورات من أن يكون تحريمها مفترضاً في كل الأزمنة، لأن الله سبحانه يكره ذلك المحظور لعينه. وإما أن لا يكرهه الله لعينه، بل نهى عنه في بعض الأزمنة. فإن كان الله نهى عن عمل الصناعات في يوم السبت لعين السبت، فينبغي أن يكون هذا التحريم على ابراهيم ونوح وآدم أيضاً، لأن عين السبت كانت أيضاً موجودة في

زمانهم وهي على التحريم. وإذا كان ذلك غير محرم على إبراهيم ومن تقدمه فليس النهي عنه لعينه، أعني في جميع أوقات وجود عينه، وإذا لزمكم أن تحريم الصناعة في يوم السبت ليس تحريماً في جميع أوقات السبت، فليس يمتنع أن ينسخ هذا التحريم في زمن آخر وإذا ظهر قائم بمعجزات الرسالة وأعلام النبوة في زمن آخر بعد فترة طويلة فجائز أن يأتي بنسخ كثير من أحكام الشريعة، سواء حظر مباحاتها أو أباح محظوراتها . وكيف يجوز أن تحاج بالبينة باعتراض فيما ورد به من أمر ونهي، سواء وافق العقول البشرية أو باينها، ولاسيما أن الخصوم قد طالما تعبدوا بفرائض مباينة للعقول، كطهارة أنجاسهم برماد البقرة التي كان الإمام الهاروني يحرقها قبيل أوان الحج، ونجاسة ظاهرهم بذلك الرماد بعينه. على أن الذي يروم تنزيله منزلة هذا أقرب كثيراً إلى العقل فإن الأفعال والأوامر الإلهية منزهة عن الوقوف عند مقتضى العقول البشرية.

وإذا كانت التعبدات الشرعية غير عائدة بنفع لله عز وجل، ولا دافعة عنه ضرراً لتنزيهه سبحانه وتعالى عن الانتفاع والتأذي بشئ، فما الذي يحيل أو يمنع كونه تعالى يأمر أمة بشريعة، ثم ينهى أمة أخرى عنها، أو يحرم محظوراً على قوم ويحله لأولادهم ثم يحظره ثانياً على من يجيء بعدهم؟ وكيف يجوز للمتعبد أن يعارض الرسول في تحليله ماكان حراماً على قوم، ويستدل بذلك على كذبه بعد أن جاء بالبينة، وأوغب العقلاء تصديقه وتحكيمه، أليس هذا تحكماً وضلالا، وعدولا عن الحق؟.

إفحام اليهود والنصارى بالحجج العقلية وإلزامهم الإسلام:

لا يسع عاقلا أن يكذب نبياً ذا دعوة شائعة ، وكلمة قائمة، ويصدق غيره. لأنه لم ير أحدهما ، ولا شاهد معجزاته. فإذا خص أحدهما بالتصديق ، والآخر بالتكذيب ، فقد تعين عليه الملام والإزراء عقلا. ولنضرب لذلك مثلا:

إذا سألنا يهودياً عن موسى عليه السلام، وهل رآه وعاين معجزاته فهو بالضرورة يقر بأنه لم يشاهد شيئاً من ذلك عياناً.

فنقول له : بماذا عرفت نبوة موسى وصدقه؟ فإن قال: إن التواتر قد حقق ذلك، وشهادات الأمم بصحته دليل ثابت في العقل كما قد ثبت عقلا وجود بلاد وأنهار لم نشاهدها وإنما تحققنا وجودها بتواتر الأنباء والأخبار.

قلنا : إن هذا التواتر موجود لمحمد ﷺ وعيسى عليه السلام، كما هو موجود لموسى عليه السلام، فيلزمك التصديق بهما.

وإن قال اليهودي : إن شهادة أبي عندي بنبوة موسى هي شبه تصديق بنبوته.

قلنا له : ولم كان أبوك عندك صادقاً في ذلك، معصوماً عن الكذب؟ وأنت ترى الكفار أيضا يعلمهم آباؤهم ماهو كفر عندك إما تعصبا من أحدهم لدينه، وكراهية لمباينة طائفته، ومفارقة قومه وعشيرته، وإما لأن أباه وأشياخه نقلوه إليه فتلقنه منهم، معتقداً فيه الهداية والنجاة. فإذا كنت يا هذا قد ترى جميع المذاهب التي تكفر بها قد أخذها أبناؤها عن آبائهم كأخذ مذهبك عن أبيك وكنت عالما

أن ماهم عليه ضلال وجهل. فيلزمك أن تبحث عما أخذته عن أبيك من أن تكون هذه حالتك.

فإن قال: إن الذي أخذته عن أبي أصح مما أخذه الناس عن آبائهم. لزمه أن يقيم البرهان على نبوة موسى من غير تقليد لأبيه لأنه قد ادعى صحة ذلك بغير تقليد. وإن زعم أن العلة في صحة ما نقله عن أبيه أنه رجح أباه على آباء الناس أصدق والمعرفة كما يدعي اليهود في حق آبائهم، لزمه أن يأتي بالدليل على أن أباه أعقل من سائر آباء الناس، وأفضل. فإن هو ادعى ذلك فقد كذب فيه. لأن من ادعى مثل هذا يجب أن يستدل على فضائله بآثاره، وقول اليهود باطل. فإنهم ليس لهم من الآثار في العالم ما ليس لغيرهم مثله، بل هم على الحقيقة لا ذكر لهم بين الأمم الذين استخرجوا العلوم الدقيقة ودونوها لمن يأتي بعدهم وجميع ما نسب إليهم من العلوم ما استفادوه من علوم غيرهم لا يضاهي بعض الفنون الحكمية التي استخرجها حكماء اليونان، والعلوم التي استنبطها النبط وأما تصانيف المسلمين فيستحيل لكثرتها أن يقف أحد من الناس على جميع ما صنفوه في أحد الفنون العلمية لسعته وكثرته. وإذا كان هذا موقعهم من الأمم فقد بطل قولهم إن آباءهم أعقل الناس وأفضلهم وأحكمهم. ولهم أسوة بسائر آباء الناس المماثلين لهم من ولد سام بن نوح عليهما السلام.

فإذا أقروا بتأسّي آبائهم بآباء غيرهم، وقد علموا أن آباء غيرهم قد لقنوهم الكفر. لزمهم أن شهادة الآباء لا يجوز أن تكون حجة في صحة الدين. فلا يبقى لهم حجّة في نبوة موسى إلا شهادة التواتر،

وهذا التواتر موجود لعيسى ومحمد، كوجوده لموسى.

وإذا كانوا قد آمنوا بموسى لشهادة التواتر بنبوته، فقد لزمهم التصديق بنبوة المسيح والمصطفى عليهما السلام.

وجه آخر في إثبات النسخ وأصولها :

نقول لهم : فهل أنتم اليوم على ملة موسى عليه السلام؟

فإن قالوا : نعم . قلنا لهم : أليس في التوراة «أن من مس عظما، أو وطئ قبراً، أو حضر ميتاً عند موته، فإنه يصير من النجاسة في حال لا طهارة له منها، إلا برماد البقرة التي كان الإمام الهاروني يحرقها» فلا يمكنهم مخالفة ذلك، لأنه نص ما يتداولونه.

فنقول لهم : فهل أنتم اليوم على ذلك ؟ فيقولون : لا نقدر على ذلك.

فنقول لهم : فكيف جعلتم أن من لمس العظم والقبر والميت فهو طاهر يصلح للصلاة وحمل المصحف ، والذي في كتابكم خلافه؟

فإن قالوا : لأنا عدمنا أسباب الطهارة، وهي رماد البقرة، والإمام المطهر المستغفر.

قلنا : فهل ترون هذا الأمر مع عجزكم عنه مما تستغنون عنه في الطهارة أم لا؟

فإن قالوا : نعم . قد نستغني عنه. فقد أقروا بالنسخ لتلك الفريضة لحال اقتضاها هذا الزمان.

وإن قالوا : لا نستغني في الطهارة عن ذلك الطهور ، فقد أقروا بأنهم الأنجاس أبداً، ماداموا لا يقدرون على سبب الطهارة.

فنقول لهم : فإذا كنتم أنجاساً على رأيكم وأصولكم، فما بالكم تعتزلون الحائض بعد انقطاع الحيض وارتفاعه سبعة أيام، اعتزالا تفرطون فيه إلى حد أن أحدكم لو لمس ثوبه ثوب المرأة الحائض لاستنجستموه مع ثوبه؟

فإن قالوا : لأن ذلك من أحكام التوراة.

قلنا : أليس في التوراة أن ذلك يراد به الطهارة؟ فإذا كانت الطهارة قد فاتتكم فإن النجاسة التي أنتم فيها على معتقدكم لا ترتفع بالغسل كنجاسة الحيض، فهي كذلك أشد من نجاسة الحيض، لما أنكم ترون أن الحائض طاهر إذا كانت من غير ملتكم ، ولا تستنجسون لامسها، ولا الثوب الذي تلمسه، وتخصيص الأمر، أعني نجاسة الحائض لطائفتكم مما ليس في التوراة، فهذا كله منكم نسخ أو تبديل.

فإن قالوا : إن هذا وإن كان النص غير ناطق به فقد جاء في الفقه.

قلنا لهم : فما تقولون في فقهائكم. هل الذي اختلفوا فيه من مسائل الخلاف والمذهب - على كثرتها لديكم - كان ثمرة اجتهاد واستدلال منقولا بعينه؟ فهم يقولون: إن جميع مافي كتب فقهنا نقله الفقهاء عن الأخبار عن الثقات من السلف، عن يوشع بن نون عن موسى الكليم عليهما السلام عن الله تعالى. فيلزمكم في هذه المسألة الواحدة التي اختلف فيها اثنان من فقهائكم أن يكون كل واحد

منهما ينقل مذهبه فيها نقلا مستنداً إلى الله عز وجل. وفي ذلك من الشناعة اللازمة أن يجعلوا الله قد أمر في تلك المسألة بشيء وخلافه وهو النسخ الذي يدفعونه بعينه.

فإن قالوا : إن الخلاف غير مستبعد، لأن الأولين كانوا بعد اختلافهم في المذهب في المسألة يرجعون بها إلى أصل واحد هو المقطوع به.

قلنا : إن رجوعهم بعد الاختلاف إلى الاتفاق على مذهب واحد إما لأن أحدهم رجع عما نقل أو طعن في نقله، فيلزمه السقوط عن العدالة، ولا يجوز لكم أن تعاودوا الالتفات إلى نقله، وإما أن يكون الفقهاء اجتمعوا على نسخ أحد المذهبين، أو تكون رواية أحدهما ناسخة لرواية الآخر، وما من الفقهاء إلا قد ألغى مذهبه في مسائل كثيرة، وهذا جنون ممن لا يقر بالنسخ[1] ، ولا يرى كلام أصحاب الخلاف اجتهاداً ونظراً ، بل نقلاً محضا.

---

(١) ليس كل ما تقدم نسخ وإنما هو تدرج في التشريع طبقاً لما تقتضيه حاجة الإنسان وتطوره إلى أن اكتمل التشريع الإلهي حال اكتمال العقل البشري والنضج الإنساني بظهور محمد رسول الله ونزول القرآن الكريم الذي اشتمل على كل التشريعات التي سبقته بعد ان هذبها وجعلها صالحة لكل زمان وعصر.

إلزامهم النسخ بوجه آخر :

نقـول لهـم : مـا تقـولون في صلواتكم وصـومكم، هل هى التي فارقكم عليها موسى عليه السلام.

فإن قالوا : نعم قلنا : فهل كان موسى وأمته يقولون في صلاتهم كما تقولون : (تقاع شوفار كاذول لحيروا ثلتووسانيس لقبو صينو وقصلنو باحدً تيارهْ باع كنفوث ها ارص ال نوى قد شيخا ياروح أنا أدوناى مقبيص ندحى عموا ياروح برائل).

تفسيره : اللهم اضرب بطوق عظيم لعنقنا، واقبضنا جميعاً من أربعة أقطار الأرض إلى قدسك، سبحانك ياجامع تشتيت قوم بنى إسرائيل.

أم هل كانوا على عهد موسى عليه السلام يقولون كما تقولون في كل يوم:

(هاشيْب شُوفَطينو كبار شيونا ويوعَصينو كبتحلا وبن أشير برشا لايم عير قد شخا يحيتوونا حمينو بلسنا ناياروخ أنا أدوناى بوى بروشا لايم)

تفسيره : رد حكامنا كالأولين ، ومسراتنا كالابتداء، وابن يروشليم قرية قدسك في أيامنا وأعزنا ببنائها. سبحانك ياباني يروشليم.

أما هذه فصول شاهدة بأنكم لفقتموها بعد زوال الدولة؟

وأما صوم إحراق بيت المقدس وصوم حصاره وصوم كداليا الذي جعلتموه فرضاً ، هل كان موسى يصومها وأمر بها هو أو خليفته يوشع

بن نون؟ أو صوم صلب هامان، هل هذه الأمور مفترضة بالتوراة، أو زيدت لأسباب اقتضت زيادتها في هذه الأعصار؟

فإن قالوا : وكيف يلزمنا النسخ بهذه الآي. قلنا : لأن التوراة بهذه الآية نطقت ، وهي : (لوثوا سيفوا عل هدّا بارا شيرا نوضى مصوى أتخيم ولو تغرعد ممينو).

تفسيره : لا تزيدوا على الأمر الذي أنا موصيكم به شيئاً، وإذا زدتم أشياء من الفرائض فقد نسختم تلك الآية.

إثبات النسخ على وجه آخر :

نقول لهم : أليس عندكم أنّ الله اختار من بني إسرائيل الأبكار ليكونوا خواص في الخدمة للأقداس. فيقولون : بلى. فنقول لهم : أليس عندكم أيضاً أن موسى لما نزل من الجبل ومعه الألواح ووجد القوم عاكفين على العجل، وقف بطرف العسكر ونادى : «من كان لله تعالى فليحضرني» فانضم إليه بنو لاوى ولم ينضم إليه البكور، على أن مناداته وإن كان لفظها يقتضي العموم لم يكن أشار بها إلا إلى البكور، إذ هم خاصة الله يومئذ، دون أولاد لاوي. فلما خذله البكور ونصره أولاد لاوى قال الله لموسى : (واأقاح اث هلويم ثاحث كل نحور بني إسرائيل).

تفسيره : وقد أخذت اللاوين عوضاً عن كل بكر في بني إسرائيل.

وفي عـقـيب نزول هذه الآية أليس إن الله عـزل الأبكار عن ولاية الاختصاص وأخذ أولاد لاوي عوضاً عنهم؟ فهم لا يقدرون على إنكار ذلك. وهذا يلزمهم منه القول بالبدء أو النسخ.

إلزامهم نبوة المسيح (عليه السلام) :

نقول لهم : أليس في التوراة التي في أيديكم :

(لو باسنور شيبط منجهوزا ومحوقق مين دغلاو)

تفسيره : لا يزول الملك من آل يهود أو الراسم من بين ظهرانيهم إلى أن يأتي المسيح، فلا يقدرون على جحده.

فنقول لهم : أما علمتم أنكم أصحاب دولة وملك إلى ظهور المسيح ثم انقضى ملككم . فإن لم يكن لكم ملك فقد لزمكم من التوراة أن المسيح قد أرسل .

وأيضاً : فإنا نقول لهم : أليس منذ بعث المسيح عيسى عليه السلام استولت ملوك الروم على اليهود وبيت المقدس، وانقضت دولهم، وتفرق شملهم، فلا يقدرون على جحد ذلك إلا بالبهتان، ويلزمهم على أصلهم الذي في التوراة: أن عيسى ابن مريم هو المسيح الذي ينتظرونه.

إلزامهم نبوته ونبوة المصطفى عليهما السلام:

نقول لهم : ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

فيقولون : ولد يوسف النجار سفاحا . كان قد عرف اسم الله الأعظم. فاستخدم كثيراً من الأشياء[١] .

فنقول لهم : أليس عندكم في أصح نقلكم : أن موسى عليه السلام قد أطلعه الله تعالى على الاسم المركب من اثنين وأربعين حرفاً، وبه شق البحر، وعمل المعجزات؟ فلا يقدرون على إنكار ذلك.

فنقول لهم : فإذا كان موسى قد عمل المعجزات بأسماء الله تعالى، فلم صدقتم نبوته وكذبتم نبوة عيسى؟

فيقولون : لأن الله تعالى علم موسى الأسماء، وعيسى لم يتعلمها من الوحي، ولكنه تعلمها من حيطان بيت المقدس.

فنقول لهم : فإذا كان الأمر الذي يتوصل به إلى عمل المعجزات قد يصل إليه من لا يختصه الله به، ولا يريد تعليمه إياه. فبأي شئ جاز تصديق موسى، فيقولون : لأنه أخذها عن ربه؟

فنقول : وبأي شئ عرفتم أنه أخذها عن ربه؟ فيقولون : بما تواتر من أخبار أسلافنا؟

وأيضاً فإنا نلجئهم إلى نقل أسلافهم، ونقول لهم: بماذا عرفتم نبوة موسى؟ فإن قالوا : بما عمله من المعجزات . قلنا لهم: وهل فيكم من

---

(١) وكيف تمكن من معرفة اسم الله وهو ابن السفاح كما تزعمون؟

رأى هذه المعجزات؟ أليس هذا لعمري طريقاً إلى تصديق النبوة، لأن هذا كان يلزمكم منه أن تكون معجزات الأنبياء عليهم السلام باقية من بعدهم، ليراها كل جيل بعد جيل ، فيؤمنوا به وليس ذلك بواجب، لأنه إذا اشتهر النبي في عصر، وصحت نبوته في ذلك العصر بالمعجزات التي ظهرت منه لأهل عصره، ووصل خبره لأهل عصر آخر، وجب عليهم تصديق نبوته واتباعه . لأن المتواترات والمشهورات مما يجب قبولها في العقل. وموسى عليه السلام ومحمد وعيسى صلوات الله عليهم في هذا الأمر متساوون.

ونقول : تواتر الشهادات بنبوة موسى أضعف من تواتر الشهادات بنبوة عيسى ومحمد عليهما السلام. لأن شهادة المسلمين والنصارى بنبوة موسى ليست إلا بسبب أن كتابيهما يشهدان له بذلك ، فتصديقهم بنبوة موسى فرع عن تصديقهم بكتابيهما. وأما معجزات القرآن فإنها باقية، وإذا كانت باقية فتلك فضيلة زائدة لا تحتاج إلى كونها سبب الإيمان . فأما من أعطي ذوق الفصاحة فإن إيمانه بإعجاز القرآن إيمان من شاهد المعجزات ، لامن اعتمد على الخبر، إلا أن هذه درجة لم يرشح لها كل أحد.

فإن قالوا : إن نبينا يشهد له جميع الأمم، فإن التواتر به أقوى، فكيف تقولون إنه أضعف؟ قلنا : كل اجتماع شهادات الأمم صحيح لديكم؟ فإن قالوا: نعم. قلنا : فإن الأمم الذين قبلتم شهاداتهم مجتمعون على تكفيركم وتضليلكم. فيلزمكم ذلك، لأن شهادتهم عندكم مقبولة.

فإن قالوا : لا نقبل شهادة أحد . لم يبق لهم تواتر إلا من طائفتهم، وهي أقل الطوائف عدداً. فيصير تواترهم وشرعهم لذلك أضعف الشرائع. ويلزمهم مما تقدم أن كل من أظهر معجزات شهد بها التواتر مصدق في مقالته ويلزمهم من ذلك : التصديق بنبوة المسيح والمصطفى عليهما الصلاة والسلام.

فصل فيما يحكونه من عيسى عليه السلام:

هم يزعمون أنه كان من العلماء، وأنه كان يطبب المرضى بالأدوية، ويوهمهم أن الانتفاع المُنال حصل لهم بدعائه. وأنه أبرأ جماعة من المرضى من أسقامهم في يوم السبت فأنكرت عليه اليهود ذلك، فقال لهم: أخبروني عن الشاة من الغنم: إن وقعت في البئر يوم السبت، أما تنزلون إليها وتحلون السبت لتخليصها؟ قالوا : بلى. قال: فلماذا أحللتم السبت لتخليص الغنم، ولا تحلونه لتخليص الإنسان الذي هو أكبر حرمة من الغنم؟ فأفحمهم ولم يؤمنوا.

وأيضاً ، فإنهم يحكون عنه : أنه كان مع جماعة من تلاميذه في جبل، ولم يحضرهم الطعام . فأذن لهم في تناول الحشيش في يوم السبت . فقال لهم أرأيتم لو أن أحدكم كان وحيداً مع قوم على غير ملته، وأمروه بقطع النبات في يوم السبت وإلقائه لدوابهم ألستم تجيزون له قطع النبات؟ قالوا : بلى. قال فإن هؤلاء القوم أمرتهم بقطع النبات ليأكلوه لينقذوا به أنفسهم ، لا للطعن في أمر السبت كل ذلك

ملاطفة منه لعقولهم التي لا ينطبع فيها النسخ.

لئن كان كل ما يحكونه من ذلك صحيحاً ، فلعله كان في ابتداء أمر المسيح عليه السلام.

ذكر الآيات والعلامات :

التي في التوراة الدالة على نبوة سيدنا محمد ﷺ إنهم لا يقدرون على أن يحجدوا هذه الآية من الجزء الثاني من السفر الخامس من التوراة : (لاهيم وهى تابى أقيم مقارب احيحيم كاموخا ابلا وشيماعون).

تفسيره : نبياً أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك به فليؤمنوا. وإنما أشار بهذا إلى أنهم يؤمنون بمحمد ﷺ.

فإن قالوا : إنه قال : من وسط إخوتهم ، وليس في عادة كتابنا أنه يعني بقوله «إخوتهم» إلا بني إسرائيل.

قلنا : بلى، قد جاء في التوراة «إخوتهم» لبنى العيص. وذلك في الجزء الأول من السفر الخامس وهو قوله :

(ايم عوبريم بقبول احيحيم بنى عيسى وهيوشيم بسيعير).

تفسيره : أنتم عابرون في تخوم إخوتكم بنى العيص المقيمين في سعير، إياكم أن تطمعوا في شئ من أرضهم.

فإذا كان بنو العيص إخوة لبنى إسرائيل ، لأن العيص وإسرائيل ولدا إسحاق ، فكذلك بنو إسماعيل إخوة لجميع ولد إبراهيم.

وإن قالوا : إن هذا القول إنما أشير به إلى شموائيل النبي عليه السلام. لأنه قال «من وسط إخوتهم مثلك» وشموائيل كان مثل موسى لأنه من أولاد لاوى، يعنون من السبط الذي كان منه موسى عليه السلام.

قلنا لهم : فإن كنتم صادقين فأي حاجة بكم إلى أن يوصيكم بشموائيل، وأنتم تقولون : إن شموائيل لم يأت بزيادة ولا نسخ؟ أشفق من أن لا تقبلوه: لأنه إنما أرسل ليقوي أيديكم على أهل فلسطين ، وليردكم إلى شرع التوراة. وبين صفته؟ فأنتم أسبق الناس إلى الإيمان، به لأنه إنما يخاف تكذيبكم لمن ينسخ مذهبكم ، وبغير أوضاع ديانتكم ، فالوصية بالإيمان به مما لا يستغني مثلكم عنه. ولذلك لم يكن بموسى حاجة إلى أن يوصيكم بالإيمان بنبوة أرميا وأشعيا وغيرهما من الأنبياء.

وهذا دليل على أن التوراة أمرتهم في هذا الفصل بالإيمان بالمصطفى وأتباعه ﷺ.

الإشارة إلى اسمه ﷺ في التوراة :

قال الله تعالى في الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة ، مخاطباً لإبراهيم الخليل عليه السلام : «وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاءك، قد باركت فيه وأثمره وأكثره جداً جداً».

ذلك قوله (وليشماعيل أشمعتيخا هنى بيراختى اوثووهفريتى اوثو

وهربيتي بمادماد)

فهذه الكلمة «بمادماد» إذا عددنا حساب حروفها بالجمل وجدناه اثنين وتسعين، وذلك عدد حساب حروف «محمد» ﷺ. فإنه أيضاً اثنان وتسعون. وإنما جعل ذلك في هذا الموضع ملغزاً. لأنه لو صرح به لبدلته اليهود وأسقطته من التوراة. كما عملوا في غير ذلك.

فإن قالوا: إنما يوجد في التوراة عدة كلمات مما يكون حساب حروفه متساوياً لعدد حساب حروف اسم زيد، وعمرو، وخالد، فيكونون أنبياء؟

فالجواب: أن الأمر كما يقولون لو كان لهذه الآية أسوة بغيرها من كلمات التوراة، لكنا نقيم البراهين والأدلة على أنه لا أسوة لهذه الكلمة بغيرها في سائر التوراة. وذلك أنه ليس في التوراة من الآيات ما حاز به إسماعيل الشرف كهذه الآية. لأنها وعد من الله تعالى لإبراهيم بما يكون من شرف إسماعيل، وليس في التوراة آية أخرى مشتملة على شرف لقبيلة زيد وعمرو وخالد وبكر، كما أنه ليس في هذه الآية كلمة تساوي «بمادماد» التي معناها «جدا جدا» وذلك أنها كلمة المبالغة من الله سبحانه وتعالى، فلا أسوة لها من كلمات الآية المذكورة. وإذا كانت هذه الآية أعظم الآيات مبالغة في حق إسماعيل وأولاده، وكانت تلك الكلمة أعظم مبالغة من باقي كلمات تلك الآية، فلا عجب أن تتضمن الإشارة إلى أجل أولاد إسماعيل شرفاً، وأعظمهم قدراً ﷺ.

وإذ قد بينا أنه ليس لهذه الكلمة أسوة بغيرها من كلمات هذه

الآية، ولا لهذه الآية أسوة بغيرها من آيات التوراة فقد بطل اعتراضهم.

ذكر الموضع الذي أشير فيه إلى :

نبوة الكليم والمسيح والمصطفى عليهم السلام وهو :

(وامارادوناى اتكلى وريفور يعاريه سيعير انخرى لانا استخى بعبوريته على طوردفار ان وعمه ربوان قد يشيز) .

تفسيره : قال الله تعالى « من سيناء تجلى، وأشرق نوره من سيعير، واطلع من جبال فاران ، ومعه ربوات المقدسين » .

وهم يعلمون أن جبل سيعير هو جبل الشراة الذي فيه بنو العيص الذين آمنوا بالمسيح عيسى عليه السلام. بل في هذا الجبل كان مقام المسيح عليه السلام . وهم يعلمون أن سيناء هو جبل الطور، لكنهم لا يعلمون أن جبل فاران هو جبل مكة . وفي الإشارة إلى هذه الأماكن الثلاثة التي كانت مقام نبوة هؤلاء الأنبياء للعقلاء أن يبحثوا عن تأويله المؤدى إلى الأمر باتباع مقالتهم.

فأما الدليل الواضح من التوراة على أن جبل فاران هو جبل مكة : فهو أن إسماعيل لما فارق أباه الخليل عليهما السلام سكن إسماعيل في برية فاران، ونطقت التوراة بذلك في قوله :

(وبيثب بمديار فاران وتقاح لواموا أشامنا يرص مصرايم) .

تفسيره : وأقام في برية فاران وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر.

فقد ثبت من التوراة أن جبل فاران مسكن لآل إسماعيل. وإذا

كانت التوراة قد أشارت في الآية التي تقدم ذكرها إلى نبوة تنزل على جبل فاران لزم أن تلك النبوة على آل إسماعيل، لأنهم سكان فاران. وقد علم الناس قاطبة أن المشار إليه بالنبوة من ولد إسماعيل هو محمد ﷺ، وأنه بعث من مكة التي كان فيها مقام إبراهيم وإسماعيل. فدل ذلك على أن جبال فاران هي جبال مكة، وأن التوراة أشارت في هذه المواضع إلى نبوة المصطفى ﷺ وبشرت به، إلا أن اليهود - لجهلهم وضلالهم - لا يجوزون الجمع بين هاتين العبارتين من الآيتين، بل يسلمون بالمقدمتين ويجحدون النتيجة، لفرط جهلهم. وقد شهدت عليهم التوراة بالإفلاس من الفطنة والرأي وذلك قوله تعالى: (كي غوى أو باذ عيصون هما وابن باهيم تسونا)

تفسيره: إنهم لشعب عادم الرأي، وليس فيهم فطانة.

في إبطال ما يدعون من محبة الله تعالى إياهم:

هم يزعمون أن الله سبحانه وتعالى يحبهم دون جميع الناس، ويحب طائفتهم وسلالتهم، وأن الأنبياء والصالحين لا يختارهم الله تعالى إلا منه، ونحن نناظرهم على ذلك.

فنقول لهم: ما قولكم في أيوب النبي عليه السلام؟ أتقرون بنبوته؟ فيقولون: نعم.

فنقول لهم: ما تقولون في جمهور بني إسرائيل، أعني التسعة أسباط والنصف الذين أغواهم برعام بن نباط الذي خرج على ولد سليمان بن داود، ووضع لهم الكبشين من الذهب وعكف على

عبادتهم جماعة من بني إسرائيل وأهل جميع ولاية دار ملكهم الملقب يومئذ شورمون، إلى أن جرت الحرب بينهم وبين السبطيين والنصف الذين كانوا مؤمنين مع ولد سليمان ببيت المقدس، وقتل معهم في معركة واحدة خمسمائة ألف إنسان. فما تقولون في أولئك القتلى بأسرهم، وفي التسعة أسباط ونصف، هل كان الله يحبهم لأنهم إسرائيليون؟

فيقولون : لا ، لأنهم كفار.

فنقول لهم : أليس عندكم في التوراة ، أنه لا فرق بين الدخيل في دينكم وبين الصريح النسب منكم؟ فيقولون : بلى، لأن التوراة ناطقة بهذا:

(ككيركا از راخ كاخيم بيهى لقي أدوناي)

تفسيره : إن الأجنبي والصريح النسب سواء بينكم عند الله.

(توراحات ومتنفاط ايحاد يهى لاخيم ولكيرهكار بتوححيم).

تفسيره : شريعة واحدة وحكم واحد يكن لكم وللغريب الساكن فيما بينكم.

وبهذا اضطررناهم إلى الإقرار بأن الله لا يحب الضالين منهم ويحب المؤمنين من غير طائفتهم، ويتخذ أولياءه وأنبياءه من غير سلالتهم، فقد نفوا ما ادعوه من اختصاص محبة الله سبحانه وتعالى لطائفتهم من بين المخلوقين.

فصل في ذكر طرف من كفرهم وتبديلهم

إن سبيل ذوي التحصيل أن يجتنبوا الرذائل، وينفروا مما قبح في العقول السليمة، ورجح زيفه عند الأفهام المستقيمة. ولهذه الطائفة من الفنون الضلالية والاختلال ما تبنو عن مثله العقول، ويخالفه المشروع والمعقول.

فمن ذلك: أنهم مع ذهاب دولتهم وتفرق شملهم وعملهم بالغضب الممدود عليهم، يقولون كل يوم في صلواتهم: إنهم أبناء الله وأحباؤه، وذلك قولهم كل يوم في الصلاة:

(اهباث عولام اهبثانو أدوناي الوهينو).

تفسيره: الدهر أحبتنا يا إلهنا.

(هثبيوا بينو التورانخينا).

تفسيره: ارددنا يا أبانا إلى شريعتك.

(أبينوا ملكينو الوهينو).

تفسيره: ياأبانا باملكنا ياإلهنا.

(أناأدوناي أبينوا كوالينوا).

تفسيره: أنت اللهم أبونا منقذنا.

(وايث كل رود في يانخا واويبى عدا شخا كوالام كساموا أيام إيجاد ميهم لونوا اثار)

تفسيره: وجميع الذين اقتفوا أثر نبيك واعداً جماعتك كلهم عبروا البحر واحد منهم لم يبق.

ويمثلون أنفسهم بعناقيد العنب، وسائر الأمم بالشوك المحيط بأعالي حيطان الكرم. وهذا من قلة عقولهم ونظرهم، فإن المعتني بمصالح الكرم إنما يجعل على حيطانه الشوك حفظاً وحياطة للكرم. ولسنا نرى لليهود من بقية الأمم إلا الضرر والذل والصغار، وذلك مبطل لقولهم. وينتظرون فإنما يأتيهم من نسل داود: إذا حرك شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم ولا يبقى إلا اليهود وأن هذا المنتظر بزعمهم هو المسيح الذي وعدوا به. وقد كان الأنبياء عليهم السلام ضربوا لهم أمثالا أشاروا بها إلى جلالة دين المسيح عليه السلام وخضوع الجبارين لأهل ملته وإتيانه بالنسخ العظيم.

فمن ذلك قول أشعيا في نبوته :

(وغارزائب عم كبيش يحذا ويربضوا شنيهيم وفارا واذوب ترعينا وارباكبا فارابوخل تبين).

تفسيره : أن الذئب والكبش يرعيان جميعاً ويربضان معاً، وأن البقرة والدب يرعيان جميعاً، وأن الأسد يأكل التبن كالبقرة.

فلم يفهموا من تلك الأمثال إلا صورها الحسية دون معانيها العقلية، فتأولوها على الإيمان بالمسيح عند مبعثه، وأقاموا ينتظرون الأسد يأكل التبن، ونصح لهم حينئذ العلائم بمبعث المسيح.

ويعتقدون أيضاً أن هذا المنتظر متى جاءهم يجمعهم بأسرهم إلى القدس، وتصير لهم الدولة ويخلو العالم من سواهم، فيحجم الموت عن جنابهم المدة الطويلة. وسبيلهم أن يعولوا على متابعة الأسود في غاباتها، وطرح التبن بين أيديها، ليعلموا وقت أكلها إياه.

وأيضاً، إنهم في العشر الأول من الشهر الأول من كل سنة، يقولون في صلاتهم:

(الوهيبود الوهي ايوثينو ماوخ على كل بوشي تبيل أرصيحا ويماركول اشبرنشا ماباقو أدوناي الوهي بسرائيل مالاخ وملخوثو ايلول ماشالا).

تفسيره : يا إلهنا وإله آبائنا املك على جميع أهل الأرض ليقول كل ذي نسمة الله إله إسرائيل قد ملك ومملكته في الكل متسلطنة.

ويقولون في هذه الصلوات أيضاً: وسيكون لله الملك وفي ذلك اليوم يكون الله واحد. ويعنون بذلك أنه لا يظهر أن الملك لله إلا إذا صارت الدولة إلى اليهود الذين هم أمته وصفوته. فأما مادامت الدولة لغير اليهود فإن الله خامل الذكر عند الأمم، وأنه مطعون في ملكه، مشكوك في قدرته. فهذا معنى قولهم: اللهم املك على جميع أهل الأرض ومعنى قولهم : وسيكون الملك لله.

ومما ينخرط في هذا السلك قولهم :

(لا مايومر وهو كوييم إلى أنا الوهيم).

تفسيره: لم تقول الأمم أين إلههم؟)

(وقولهم عور إلا ما يشنان أدوناي هاقيصا مشاثيخا).

تفسيره : انتبه، لم تنام يارب؟ استيقظ من رقدتك؟.

وهؤلاء إنما نطقوا بهذه الهذيانات والكفريات من شدة الضجر من الذل والعبودية والصغار، وانتظار فرج لا يزداد منهم إلا بعداً، فأوقعهم ذلك في الطيش والضجر، وأخرجهم إلى نوع من الزندقة والهذيان

الذي لا تستحسنه إلا عقولهم الركيكة . فتجرؤوا على الله بهذه المناجاة القبيحة، كأنهم ينخون الله بذلك لينخى لهم ويحمي لنفسه، لأنهم إذا ناجوا ربهم بذلك فكأنهم يخبرونه بأنه قد اختار الخمول لنفسه وينخونه للنباهة واشتهار الصيت، فترى أحدهم إذا تلا هذه الكلمات في الصلاة يقشعر جلده، ولايشك في أن كلماته تقع عند الله تعالى بموقع عظيم، وإنه يؤثِّر في ربه، ويحركه بذلك ، ويهزه وينخيه. وهؤلاء على الحقيقة ينبغي أن يرحم جهلهم وضعف عقولهم.

وأيضاً، فإن عندهم في توراتهم: أن موسى صعد الجبل مع مشايخ أمته فأبصروا الله جهرة، وتحت رجليه كرسي منظره كمنظر البللور، ذلك قوله:

(وتراءى ويث الوهي يسرائيل وثاحث رعلاى كراى كيناث هشيفير وخعيصم هشامايم لاطوهره).

ويزعمون أن اللوحين مكتوبين بأصبع الله، ذلك قولهم (بأصباع الوهيم) ويطول الكتاب إن عددنا ماعندهم من كفريات التجسيم ، على أن أحبارهم قد تهذبوا كثيراً عن معتقد آبائهم بما استفادوه من عندهم ، بما يدفع عنهم إنكار المسلمين عليهم، ما تقتضيه الألفاظ التي فسروها ونقلوها، وصاروا متى سئلوا عما عندهم من هذه الفضائح استتروا بالجحد والبهتان، خوفا من فظيع ما يلزمهم من الشناعة.

ومن ذلك : أنهم ينسبون الله تعالى إلى الندم على ما يفعل.

فمن ذلك قولهم في التوراة التي في أيديهم:

(ويناجم أدوناي كي عاسا اث أذام أرض ويتعصب ال لبو)

تفسيره: وندم الله على خلق البشر في الأرض وشق عليه.

وقد أفرط المترجم في تعصبه وتحريفه للألفاظ عن موجب اللغة، وفسر (ويناجم أدوناي وناب أدوناي تميمريه) يعني . غار الله في رأيه.

وهذا التأويل أيضا وإن كان غير موافق اللغة فهو أيضا كفر، مناقض لما يدفعونه من البدء والنسخ.

وأما الدليل على تفسيره (وبتعصيب ال لبوه) وشق عليه. فهو ماجاء في مخاطبة حواء (بتعصيب تيلدي بانيم)

تفسيره : بمشقة تلدين الأولاد.

فقد تبين أن «العصيب» عندهم في اللسان العبراني : هو المشقة. وهذه الآية عندهم في قوم نوح، زعموا أن الله تعالى لما رأى فساد قوم نوح، وأن شرهم وكفرهم قد عظم ندم على خلق البشر وشق عليه. ولا يعلم البله أن من يقول بهذه المقالة يلزمه أن الله كان قبل أن يخلق البشر لم يكن عالما مما سيكون من قوم نوح وغير ذلك من النقص تعالى الله عما يكفرون.

وعندهم : أن الله تعالى قال لشموائيل النبي عليه السلام (ات أول لميلخ على يسرائيل).

تفسيره : ندمت إذ وليت شاءول على يسرائيل.

وفي موضع آخر من سفر شموائيل (وأدوناي يخام كي همليح اث شاءول على يسرائيل).

تفسيره : والله ندم على تمليكه شاءول على إسرائيل.

وأيضاً فإن عندهم في كتابهم أن نوحاً النبي عليه السلام لما خرج من السفينة بدأ ببناء مذبح لله تعالى وقرب عليه قرابين. ويتلو ذلك (ويارح أدوناي ايث ريخ هينحمورح ويومز أدوناي ال لبوا اوسيف عود لقليل اث لماذا ماياعيور هاااذام كي يبصر كيب هاااذام راغ منعورا وولو اوسيف عوز لهكوث اث كل حاى طااشير عاسيثى).

تفسيره: فاستنشق الله تعالى رائحة القتار. فقال الله تعالى، في ذاته : لن أعاود لعنة الأرض بسبب الناس لأن خاطر البشري مطبوع على الردة. ولن أعاود إهلاك جميع الحيوان كما صنعت.

ولسنا نرى أن هذه الكفريات كانت في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام ولا نقول أيضاً: إن اليهود قصدوا تغييرها وإفسادها بل الحق أولى ما اتبع ونحن نذكر الآن حقيقة سبب تبديل التوراة.... الخ

وهكذا يستمر شموئيل (السموْءل) المتحول للإسلام بلهجته عالية النّبرة هذه. لكن لدينا وثيقة أخرى ليهودي آخر أسلم وراح يُبرر لغيره من اليهود سبب إسلامه، إذْ يبدو أنهم أنبوه على ذلك، وكان هذا اليهودي المتحول وهو الحَبْر إسرائيل بن شموئيل (السموءل) الأورشليمي خفيف الظل حقّا، ووثيقته كما هو واضح من لهجتها تشير إلى اتجاه للتحول للإسلام، كان قبله، كما كان قائماً في زمانه.. وإليكم هذه الوثيقة التي تعود إلى القرن الثالث عشر للميلاد:

الرسالة السُّبْعيّة الحاوية الضوابط الإرشادية

بإبطال الديانة اليهودية

للحَبْر إسرائيل بن شموئيل الأورشليمي

«الحمد لله الذي اختص لذاته العلية بقوله السامى (لا يُسأل عما يَفْعل وهم يُسألون) وجعل الناس أحزابا وفرقا، وقد تراهم بجهل وعلم كافة إليه يسألون (؟) وأرسل إليهم رسلاً وأنبياء جمة، وأحصى معناهم بمحمد خاتم المرسلين. وأمرنا بالصلاة والسلام عليهم وعلى آلهم وأصحابهم أجمعين. أما بعد فهذه الرسالة المسمّاة بالسبعينية ، الحاوية لسبعين من القضايا التنبيهية قد تتعلّق بجواب يفيد المعرفة ، واستدلالاً لزوميا للأحكام التوراتية بالشّرائع القرآنيّة، على سؤال يَرِدُ من أحبار اليهود البّواقي من الملّة الإسرائيلية إلى رجلٌ مهتدٍ إلى الديانة المحمدّيّة.

صورة السؤال : ألا يا حبيبى : ما الذي ألجأك إلى أن تترك دين آبائك وأجدادك وتوراتهم وشريعتهم وتنتقل إلى دين الكوثيم دين الإسلام، الذي كنت تبغضه وتشنؤه ، كما نحن الآن جماعة اليهود ونكره الدخول فيه؟

صورة الجواب :

ألا يا بنى إسرائيل، يا أقربائي وبنى جنسي : إني أعلمكم أن الذي ألجأني إلى أنْ أترك ما عندكم وأدخل في دين الإسلام هو مركب من سبعة قضايا :

أولها : أنّي فحصت الفحص البليغ وتركت الغرض والعناد القبيح

فوجدت كلام الأنبياء عليهم السلام وإشاراتهم عن هذا النبي العظيم محمد الذي اتبعتُه هى منطبقة عليه من كل الجهات، ثم هذه النبؤءات التي رأيتها في كتب الأنبياء وسمعتها . فعلى ظني أنَّه ليس عليها مَرد مطلقا ولا ناقص بوجه الحق، وهي من سيدنا موسى وأشعيا وداود وزكريا وغيرهم ثم مفردات هذه الشهادة مفنَّدة في محلات كثيرة من كتب المباحثات والمجادلات في هذا المعنى مأخوذة من التوراة عَيْنها.

فمن جملة ما ذكرت التوراة في سفر التكوين المسمى بالعبراني «باراشيب» بأن لسيدنا إسحق جد الأنبياء بركة واحدة وذكرت لسيدنا إسماعيل جملة بركات ، وعليكم يا أحبائي بمراجعتها.

وثانيها : أنّه قبل مطالعتي لهذه البراهين كان دائما يخطر لفكري – كما الآن يخطر لفكركم – وكنت أقول لذاتي بأن توراتنا وزَبُورنا ونبوّات أنبيائنا لم يوجد فيها أدنى إشارة إلى نبي المسلمين.

ولكن بعد مدَّة مديدة من الزمان راجعتُ ذاتي وقلتُ في عقلي: وَيّه .. وَيّه. كيف نبي مثل هذا الذي تبعته ألوفٌ وكرَّات ومليونات وشعوبه وأمته أكثر بكرَّات من شعوب موسى، وتبشيره للناس وإنذاره بترك الكفر والحث على الإيمان بالله ومجاهدته وغيرته الشهيرة، أيُهمل ويُترك، وينسى من الذكر عند أنبياء بني إسرائيل؟ فهذا القول بهذا الشكل الذي يعلمنا فيه أحبارنا والحاخاميم هو مضاد لكل عقل سليم، بحيث أن أنبياء بني إسرائيل أنبأوا عن أشياء كثيرة وكلية وجزئية، والإشارة عن هذا النبي (محمد) هي من الأشياء الكلية

اللازمة ، فكيف يتركونها وينسونها وَيْه.. وَيه.. أنا لا يقبل عقلي كلام الحاخاميم الباطل وتأويلهم.

فالتزمت عندما امتلأ فكري من هذا الميزان أن أُفَتِّش وأفحص بزيادة عما كُنت أفحص من قبل، فوجدتُ كما قدَّمتُ. وقلت إن معاني كثيرة وإشارات غزيرة موجودة في التوراة تشير إلى هذا النبي العظيم محمد ، وهذه هي التي كانت من جملة الأسباب التي أحوجتني أن أترك الشريعة التوراتية وأتبع الشريعة القرآنيّة المُهَنْدمة بغاية الهندام، والمنتظم إليها أخص ما يوجد في الشرائع السابقة.

وثالثها: اعلموا يا أقربائي وبني جنسي، أني أخبركم أن الذي حملني بعد ذلك أن أتبع هذا النبي الجليل محمد : من كوني نظرت أنّ جماعة اليهود على بكرة أبيهم في كل مَصْر ومكان عائشون بغير شريعة التوراة ولا عاملون بأحكامها اللازمة كونهم لا يستطيعون العمل بها، لا ، بل ممتنع، وقد تصرمت عنهم بالطبع وتلاشت وهي باقية بالورق فقط، ويظهر من ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد استخدمها إلى أزمنة معلومة محدودة غير راض بخلودها. لا، بل إنه راض بانقضائها وتبديلها.

والبرهان على ذلك هو من المشاهدات والمتواترات والتجريبات والحدْسيّات والأوليات. إذ إننا نرى أن أعمدة وأركان هذه الشريعة الموسوية التي كانت مُسْتَندة عليها وفيها قوامها واستيلاؤها قد انهدمت بالكُلِّية وعدمت ، مثل إبادة الملك والرياسة وعدم وجود الأنبياء وإبطال الكهنوت وخراب الهيكل السليماني وهدم المذبح واندثار الذبائح

ومَحْق الأسباط وما يتعلق بهم لأن هذه الأعمدة والأركان قد ربط بها الله سبحانه وتعالى جميع ما يلزم من القضايا الدينية المشروعة في التوراة حتى الأحكام المدنية، لكي - إذا عدمت هذه اللوازم الركنية بطلت - (كما هو مشاهد الآن) - نستدل من انعدامها على بطلان الديانة جميعها، بحيث تعلق الدين بها، والبرهان على ذلك واضح جدا وأجلى من ضياء الشمس بضحاها ومشاهد تحت حواسنا بفناها. إذْ إنّ اللهَ سبحانه قد نزع الملك منكم والاستيلاء الذي به كنتم تجرون الأحكام الدينية والمدنية وأبطل وجود الأنبياء من سلسلتكم على الإطلاق التي كانت تسوسكم وتنصحكم وتعلمكم وتنبئكم علىْ ماكان وما يكون وتصنع المعجزات لكي تثبت لكم أن الذي كانت تخاطبكم - هو وحي من عند الله. وهذه الكثرة من الأنبياء قد كانت موجودة خاصة عند أمتكم بالحصر، وليست عند من سواها، وآباء الكهنة ورؤساء الكهنة والكهنوت الذي كان لا يتم الخلاص لليهود ولا الغفران إلا بهم وعلى أيديهم، وحتى لا يجوز العمل الذي كانوا يعملونه في الاستغفارات والتخلص من السيئات إلاّ بواسطتهم، وهدم المذبح والهيكل الذي عمّرهُ سليمان اللذيْن كانا لا تَتِمّ أعمال القرابين إلا بهما . ومحق الله سبحانه وتعالى وهدم معرفة الأسباط ورتبهم ووظائفهم المتعلقة بالخدمات الدينية والأحكام الحرسية والملكية.

ورابعها : وهي الأغرب من كلٍّ ماذكرناه - أن « أشداي أصباؤت أهيه شراهيه » حين وضع شريعة التوراة وفرضها قد جعل على الأمة اليهودية شرائع ووصايا يجمع عددها ستمائة وثلاث عشرة وصية،

وهذه الوصايا الحاوية على هذا العدد قد ربطها، وحكم حُكما صارما على من لم يعملها بستمائة وثلاث عشرة لعنة، لأنه يُقال في سفر التثنية، الاشتراع في الإصحاح السابع والعشرين والثامن والعشرين «ملعونا يكون من لا يعملها واحدة واحدة» ثم إن هذا الإله سبحانه وتعالى الذي من جملة أسمائه بالعبرانى «الألوهيم» «الأدوناى» قد وضع على من يخالف هذه الوصايا ولا يعمل بها واسطة للتخلص من تلك اللعنة المترتبة على المخالف: تطهيرات وتكفيرات وغفرانات وذبائح وقرابين بأعداد من الحيوانات والطيور المعلومات. وحصر هذا الألوهيم الياهو في هذه المذكورات أن تصنع وتقرب ضمن الهيكل والمذبح ورسم أيضا بأن من يقدّم قربانا خارج الهيكلُ يقتَل . وأمر بأن تكون القرابين مقدمة له تعالى على أيادي الأحبار ورؤساء كهنتهم. وكان كل من يتعدى ويخالف وصية من هذه الوصايا وتلزمه لعنة من هذه اللعنات يخلص منها بواسطة الكهنة ورؤساء الكهنة والهيكل والمذبح وباقي المذكورات . كما سبق القول. وأما الآن يا أقربائي وبنى جنسي، قد رأيت أن عامة اليهود الباقية من بنى إسرائيل عندما يخالفون وصية من هذه الوصايا وتلزمهم لعنة من هذه اللعنات المشروحة من سيدنا موسى في التوراة ليس لهم وجهة للتخلص منها مطلقا . وهم حزنانين* من كونهم لا يمكنهم العمل بكامل الوصايا المشروحة، ومتحققون أنهم تحت مخالفتهم، وثقيل عليهم حمل اللعنات الموضوعة عليهم. ويمتنع أيضاً فرارهم بالتطهيرات والتخلص

* هذه وثيقة لا يجب تغير نصها رغم ما فيها من بعض الأخطاء اللغوية.

من قصاصها ماداموا تحت نيرها، لأن الباب مسدود بواسطة ما أنا عازم على شرحه. ويه.. ويه..! يا أسفاه.. يا حسرتاه، لأن الهيكل الذي عمّرهُ سليمان الذي هو مثال القبّة الموسوية مع المذبح اللذين لا تكون هذه القرابين إلا بهما قد خربا وانهدما، والذبائح والقرابين مع الكهنة ورؤساء الكهنة الذين كانوا يعملونها في الهيكل والمذبح للفداء والتطهير مع باقي ما ذكرناه من النبوة والملك والأسباط ومتعلقاتهم قد اضمحلوا وتلاشوا وما بقي لهم أثر بالكلية ، فمن انعدام ما ذكرناه إفرادا وإجماعا، وبطلانه ما عاد يمكن للباقي من الشعب الإسرائيلي التخفف من الخطايا ومن المرتب عليهم من القصاصات . لا ، بل وممتنع عليكم يا أحبائي التقرب إلى الله، بحيث التزمتم تبعة لعنات شريعتكم التوراتية مع عدم مكنتكم أيضا التطهيرات المربوطة عليها، وهذا القول ليس هو قولي ولا يجوز عندي أن ألعن ، بل هي لعنات شريعتكم وتوراتكم....

وخامسها: يا أحبائي، ليس خافيكم أن في الزمان الماضي قد جاء سيدنا عيسى فاستكبرتم... وقد وعد سيدنا عيسى بمجئ محمد وأشار إليه بإشارات كثيرة. إنه قد سماه «الفارقليط» وهي كلمة يونانية، وترجمتها للعربي الداعي، وبسبب هذه الإشارات أسلم عبد الله بن سلام وكعب الأحبار وغيرهما كثير.

وسادسها: وإذ رأى الأحبار والحاخاميم الكثير من جماعتهم اليهود الموجودين في تلك الأعصار تابعين لدين هذين الرجلين النبيين العظيمين، وما بقى عندهم إلاّ القليل من الناس كما هو مشاهد، فقد

شرعوا في عمل تحريفات وتأويلات وتفسيرات مخالفة لمضامين الشهادة الواردة في التوراة بحقهما. واخترعوا آراء مستحدثة، حتى قد رأوا أن يُبقوا الباقين في دينهم إلى الآن. ومع ذلك لما كنت أتردد عندكم كنت أرى أن بعضاً منكم مذبذبين ومنقسمة آراؤهم في الكثير مما ذكرته، وهم من الناس العقلاء، وبعض منهم عارفون الحق ولكنهم مربوطون في وظائفهم الدينية والأموال والأولاد والعيال، وبعضهم مُغفّلون غير مبالين من دخولهم تحت هذه اللعنات المذكورة التي يلتزم الدخول تحت نيرها جمهورهم بلا محالة بحيث لايمكنهم عمل الوصايا المربوطة على من لم يعملها هذه اللعنات ، مع عدم إمكان عمل الوسائط بالقرابين التي كانت تخلِّص الناس منها.

ثم ومن أقوى هذه الآراء المستحدثة قد اخترعوا لهم رأياً أبتر ليس له سند من التوراة مطلقا، لا من موسى ولا من موسى وهو التقميص. أعنى أن الإنسان اليهودي عندما يموت وهو غير مكمل الوصايا المشروحة، ومدين إلى الكثير منها ووقع تحت هذه اللعنات فيلزمه الرجوع للدنيا ثاني مرّة أو ثالث مرة أو إلى أكثر من ذلك إلى أن يُكمل كل الوصايا ويتخلص من جرثومة هذه اللعنات رويدا رويدا، ثم لما فحصت ودققت واتصلت إلى معرفة هذه القواعد الدينية ورأيت أنها حديثة ولا سند لها من التوراة قلت لنفسي: وَيْه! وَيْه! ماالذي يحملك على القعود في هذه الشريعة ....

وسابعا : أني قلت لنفسي : ياترى ما الذي يمنعني من اتباع الحق؟ فقلت : لا مانع

ثم قلت : وما هو الفرق الحاصل فيما بين ديانتي وبين الديانة المحمدية؟ فأجبت ذاتي وقلت : إن الفروقات الباقية اللازمة والضرورية في هذا المعنى غير المتقدم شرحهنّ سبعة:

الفرق الأول : هو ترك فرائض المأكولات التي حرمتها الحاخاميم وأثقالها.

الثاني : التخلص من هذه اللعنات ونكباتها.

الثالث : أن أطرح التجديف الذي كنت أتكلمه بحق عيسى وأمه وغيرهما من حوارييه وتعليماته.

الرابع : أن أقر أن عيسى نبي ورسول من عند الله برسالة معلنة بأفرادها.

الخامس : أن أقلع البغضة المزروعة في قلبي بحق الأمم من الناس وهي معي عن آبائي وأجدادي، وبحق محمد المصطفى بنوع أبلغ الحاوي أكثر المحامد وصفاتها.

السادس : الاعتراف بنبوة محمد ﷺ.

السابع : أعترف بأنه جاء بشريعة عدلية وفضيلة كاملة حاوية معنى جوهريات ماجاء في الشرائع السابقة..

هذا هو الذي يزيدُ عليّ ويلزمني إذ إن إيماني بوحدانية الله هو هو وختاني بمطهوري هو هو، وبُعدي عن المرأة في أوقات معلومة هو هو وتطهيراتي وإسقاط غسلي هي هي وكثير من الأحكام التوراتية، كأوجه الزواج المربوط بالقرابات عدا وجهين زائدين هي هي ، واعترافي بموسى ونوح وإبراهيم وباقي الأنبياء هوهو. والشرائع العدلية كالعين

بالعين والسن بالسن هي هي. وقد رأيتُ كل ما يلزم ويتعلق اتباعه لذلك هو هو.. ومن بعد وقوفكم على جوابي هذا أرجو أن تعذروني وإن كان يغيب عنكم شئ اطلبوا إلى الله تعالى أن يرشدكم ويأتيكم بالبيان.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

*****

ويشير توماس أرنولد في كتابه الشهير (الدعوة للإسلام)* إلى عدد من المتحولين للإسلام ممن كتبوا كتبا، لكنه لم يحدد بالنسبة لبعضهم إن كان قد تحول من المسيحية أم من اليهودية

****

* ترجمة حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧١، ص٤٧

ثانياً

مقدمة عزرا حدّاد

مترجم النص من العِبْريّة

مقدمة المترجم

منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم أر أحلى من حديث المنازل

«أبو العلاء المعري»

-١-

هذا كتاب «رحلة بنيامين» * أقدمه إلى الناطقين بالضاد تلبية لرغبة أبداها عدد من إخواني أدباء العراق ومؤرخيه، لما احتوته هذه الرحلة من معلومات مهمة عن أحوال العالم عامة والشرق الإسلامي خاصة، في عصر من أخطر العصور التاريخية في الشرق والغرب - القرن السادس للهجرة والثاني عشر للميلاد - مما يجعلها في مصاف أهم الرحلات القديمة، وأوثق المصادر التاريخية المعروفة.

ولقد كانت كتب الرحلات ويوميات الأسفار، ولاتزال، من أهم الوثائق المعول عليها في كتابة التاريخ قديمه وحديثه. وروايات الرواد وحكايات الجوابين من أخص ما يعنى به المؤرخون عند تدقيقهم وتمحيصهم الحوادث التاريخية في كل زمان ومكان. فالرحالة بفضل مشاهدته الأماكن والبقاع التي يرتادها عياناً، واتصاله اتصالاً قاصداً بأهل الأقطار التي يجوبها، واطلاعه عن كثب على أحوالها وسير أمورها وإدارتها؛ ليعطينا عن أوضاع الأمم سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، في مختلف العصور، صورة واضحة قريبة من الواقع، تسهّل مهمة المؤرخ المعتكف بين جدران خزانته، يجوس خلال الكتب والسجلات والوثائق.

---

* كتابات بنيامين أقرب إلى التقارير منها إلى أدب الرحلات. (عبد الرحمن).

وكتب الرحلات ، على ما قد يتخللها من نقائص وهفوات ، وعلى ما قد يشوبها أحياناً من مبالغات وأخذ الأمور بشكلها السطحي الظاهر؛ لا تقل أهمية لطلاب التأريخ عن كثير من الوثائق المحفورة على أحجار الأوابد وجدران القصور والمعابد الأثرية التي يعمل النقابون على اكتناه أسرارها وحل رموزها وطلاسمها، واجتلاء خباياها وما تعقّد من معضلاتها. لأن بعض هذه الكتابات قد تكون بعيدة عن كبد الحقيقة أو قد تكون موحى بها من ملك متنفذ أو أمير متحكم أراد أن يشيد بعظمته ويقص على المتأخرين أحاديث فتوحاته وغزواته، وأقاصيص سؤدده وسلطانه؛ بعبارات كلها أو جلها إغراق وإسفاف في التصوير. والمؤرخ إذا أخذ مثل هذه الكتابات على علاتها من غير تمحيص وروية وتدقيق؛ شذ عن جادة الصواب وحاد، غير قاصد، عن محجة الحقيقة التي يجدُّ في طلبها.

أما الجوّابون* ، وأكثرهم لا يمت إلى ذوي السلطان بصلة، فكان شأنهم عند تسجيل مشاهداتهم غير ذلك. فهم لم يركبوا الأهوال ويتجشموا مشاق السفر إلى الأقطار السحيقة، في عصور تباعدت الشقة بين بلدانها ووعرت المسالك وعسرت طرق المواصلات؛ لنظم قصائد المديح ونسج عبارات الثناء لأرباب القصور وأصحاب التيجان. إنما كانوا يعنون بالدرجة الأولى، في دراسة أحوال البلدان التي يجوبونها ومعرفة سهلها ووعرها وجبالها وحزونها وأوديتها وأنهارها وخيراتها وغلتها والوقوف على محاسنها ومساوئها وتقدمها أو

* بتشديد الواو وفتحها أي الرحّالة

انحطاطها وسيرة أهليها وعقائدهم ودرجة حضارتهم ومدنيتهم وطرق معيشتهم وأسباب رزقهم وما اتصفوا به من أخلاق وعادات وخمول ونشاط وقعود ونهوض، وما إلى ذلك من أحوال لها الأثر المباشر في سير التأريخ وتطور الأحداث. فتراهم يمتدحون ما يجدر بالمدح ويشجبون ما يستحق الذم من غير ما خوف أو رقابة، فتخرج لنا الصورة التي يرسمونها للبلدان والأقطار التي ارتادوها ، في غالب الأحيان ، قريبة من الواقع ، دانية من الحقيقة ، وبذلك كانت خدمتهم للتأريخ والمؤرخين عظيمة وافية.

٢- جغرافيو المسلمين وروادهم في القرون الوسطى

في عصور الإسلام الزاهرة، امتدت الفتوحات العربية والغزوات الإسلامية إلى الهند وتخوم الصين شرقاً وجبال البرانس وشواطئ بحر الظلمات (الأطلنطي) غرباً. فلما هدأت تلك الموجة الجارفة من الغزوات ، واستقرت الحدود بعض الاستقرار في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) كانت حدود مملكة الإسلام، كما يعينها ابن حوقل، تمتد «من الهند وبحر فارس شرقاً ومملكة السودان الذين يسكنون على المحيط الأطلسي غرباً وبلاد الروم وما يتصل بها شمالاً وبحر فارس جنوباً»[1] وكان طبيعياً ، بل نتيجة محتومة ، أن تتضعضع الوحدة السياسية في هذه الأقطار الشاسعة بعد أن دامت ردحاً من الزمن ، وأن

---

(١) المسالك والممالك لابن حوقل. طبعة ليدن ١٨٧٢ ص ١٠-١١.

تتجزأ مملكة الإسلام إلى دول صغيرة أو كبيرة بمقتضى الأحوال والظروف وتغلُّب الأمراء. وانتهت الإمبراطورية العربية إلى مثل ما انتهت إليه من قبلها امبراطورية الإسكندر وإمبراطورية الرومان، فلم يعد من الميسور إدارة تلك الرقعة الشاسعة التي لم تكن تقطع من شرقيها إلى غربيها - على ما يرويه المقدسي - بأقل من عشرة أشهر، من حكومة مركزية واحدة. وقد يكون لتباين الأهواء والمشارب السياسية والميول المذهبية أثر كبير نضيفه إلى المؤثرات الجغرافية والإقليمية لتعيين أسباب هذا التجزؤ أو التعجيل به على الأقل. لكنه قد حدث فعلا؛ وقبل مسلمو تلك الأجيال الأمر الواقع وسلَّموا به.

على أن هذه الأقطار الشاسعة التي فرّقت ما بينها الحدود الإدارية المصطنعة والتخوم السياسية المستحدثة، كانت تربطها أواصر وحدة روحية تخطت الحدود المرسومة والحواجز الموهومة. تلك هي رابطة الدين، وصلة المعتقد والعرف، وقرابة الدم والعنصر ووشائج العقل والفكر واللغة والثقافة. فقد استطاعت الفتوحات الإسلامية - وهذا ما يميزها عن غيرها من غزوات الأقدمين - أن تسبك تلك الأقطار المترامية في قالب روحي محكم البنيان، وتلحمها بلحمة دين موحد لم تستطع تقلبات الأحداث السياسية فصم عروته الوثقى أو تفريق كلمته المثلى. فكان المسلم، حيثما تنقل داخل حدود هذه المملكة، يجد نفسه بين إخوان له، يظله ما يظلهم من دين ويسري عليه ما يسري عليهم من شرع وعرف وعادات. وأينما ألقى عصا الترحال من أصبهان وبغداد شرقاً والقاهرة وغرناطة غرباً، وجد الجامع الذي يؤدي

فيه فريضة الصلاة. والرباط الموقوف على إيوائه وإطعامه إذا جاع، والمدرسة التي يتلقى فيها علوم الدين والدنيا، والمارستان الذي يعالجه إذا ما ألم به مرض.

مثل هذه العناية التي كان المسلم يلقاها أو يتوقع أن يجدها في مختلف الأقطار الإسلامية، والرغبة الملحة التي كانت تحمل الكثير من المسلمين إلى الاطلاع على شؤون تلك الرقعة التي تربط ما بينها وشائج الدين والقربى ودرس أحوالها عن كثب، كانت الحافز المهم لشد الرحال للسفر والتجوال بين تلك البلدان المتباعدة شرقاً وغرباً. فمنهم من كان يرحل للعلم والوقوف على جغرافية الممالك الإسلامية والتعرف إلى أصول إدارتها ودرجة رفاهة أهليها وخيرات بلادهم وزروعهم وصناعتهم وتجارتهم؛ وبالإجمال درس أحوالهم العمومية من كافة الوجوه. ومنهم من كان يرحل للتجارة والبيع والشراء وتبادل السلع فدوّن عدد منهم وصف البلاد التي هبطوا إليها وقيّدوا مشاهداتهم في المدن التي زاروها والمسافات التي قطعوها والصعاب التي اجتازوها، ورسموا طبيعة تلك البلدان مع ذكر أنهارها وجبالها وحزونها ووهادها وطرق مواصلاتها وقناطرها وأوضاع أهليها، وما امتازوا به من أخلاق وعادات، فمدحوا ما يستحق المديح وعابوا ما يجدر به الذم والانتقاد، ومن ثم جاءتنا هذه المجموعة النفيسة من كتب الجغرافية والرحلات ومعاجم البلدان، وكلها من تدوين أولئك الفطاحل الذين تجشموا الصعاب وركبوا متون الأخطار فجابوا الأقطار المختلفة وشاهدوا وسجّلوا كل كبيرة وصغيرة وقيدوا كل شاردة وواردة؛ وبذلك أدّوا للجغرافية

والتأريخ خدمة تذكر فتشكر على مرّ العصور وكرّ السنين.

وهناك عامل ديني مهم، عدا الدافع العلمي والمقصد التجاري، كان حافزاً للمسلم على التجوال والترحال. تلك هي فريضة حج بيت الله الحرام الواجبة على كل من استطاع إليه سبيلاً من المسلمين. فكان الخلفاء والسلاطين والأمراء يعنون العناية الفائقة بتنظيم طرق الحج وتعبيدها وتوفير آبارها وموارد مياهها وتوطيد الأمن في ربوعها وضمان راحة الحجيج وسلامتهم، بقدر ما تسمح به الظروف والأحوال، رعاية منهم لهذه الفريضة المقدسة. فكانت قوافل الحج تسلك في ذهابها وإيابها سبلاً مطروقة ومسالك مألوفة؛ فيها كلُّ التسهيلات التي كان من الميسور توفيرها في تلك العصور. وإننا لنرى عددا من الرحالين العرب والمسلمين في القرون الوسطى يرافقون هذه القوافل ويتبينون مسالكها ومفاوزها ويدوّنون ملاحظاتهم ومشاهداتهم ليستفيد منها الخلف.

ونحن إذ كنا بصدد عرض عام لا التفصيل والإسهاب؛ ومهمتنا تنحصر بالأوضاع التي كانت تسود مملكة الإسلام في القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد)؛ اكتفينا بذكر عدد من مشاهير جغرافيي المسلمين ورحاليهم في ذلك العصر وما إليه. فمنهم من الجغرافيين، ابن خرداذبه صاحب كتاب «المسالك والممالك» (٢٥٠هـ - ٨٦٤م) واليعقوبي الذي وضع جغرافيته في القرن الرابع للهجرة والعاشر للميلاد. وقدامة بن جعفر المتوفى سنة (٣١٠-٩٢٢م) والبلخي المتوفى سنة (٣٤٦هـ- ٩٣٤م) وابن حوقل المتوفى سنة

(٣٧١هـ - ٩٨١م) وأبو دلف ابن المهلهل صاحب « عجائب البلدان » من القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) والمسعودي المتوفى سنة (٣٦٧هـ ٩٥٧م) وأبو الريحان محمد البيروني (٣٦٩ - ٤٤١هـ . و٩٧٩-١٠٤٩م) وياقوت الحموي صاحب « معجم البلدان » (٥٧٥- ٦٢٧هـ . و١١٧٩-١٢٢٩م).

ومن كبار الرحالين الذين وصلت إلينا أسفارهم وتنقلاتهم، ناصر خسرو صاحب « السفرنامة » المتوفى سنة (٥٤٢هـ - ١٠٦٠م) . وأبو الحسين محمد بن جبير الأندلسي المتوفى سنة (٦١٤هـ - ١٢١٧م) وعلي الهروي صاحب « إشارات إلى معرفة الزيارات » المتوفى في حلب سنة (٦١١هـ ٠ ١٢١٤م) وأسامة بن منقذ صاحب « الاعتبار » المتوفي سنة (٥٨٤هـ ١١٨٨م) . وعبد اللطيف البغدادي صاحب « الإفادة والاعتبار » من القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد. وابن سعيد المغربي صاحب « المغرب » من القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد، وابن بطوطة الرحالة المعروف المتوفى سنة (٧٧٠هـ ١٣٦٨ / ١٣٦٩م) وأضرابهم كثيرون من الذين وصلت إلينا كتبهم وأخبار تجوالهم وأسفارهم وخلفوا لنا هذه الثروة القيمة - مكتبة الجغرافية العربية.

٣- الرواد اليهود في القرون الوسطى

إن اليهود في أسبانية والشرق، خالطوا العرب في عصورهم الذهبية، وتأثروا بتفكيرهم واقتبسوا لغتهم وتحلّوا بآدابهم، وضربوا بسهم وافر في جميع نواحي نشاط الفكر العربي. لذا لم تكن الأسفار البعيدة والرحلات المديدة غريبة عنهم أيضاً. على أنه من الحق أن نشير هنا إلى أن الدوافع التي كانت تحدو باليهودي الأوروبي على ترك دياره والضرب في طول الأرض وعرضها لم تكن كلها اختيارية ، ولم تكن كلها لمجرد الاطلاع أو الوقوف على أحوال الأقطار المختلفة. بل كانت هناك ثلاثة عوامل أساسية تدفعه طوعاً أو كرهاً إلى الإكثار من الرحيل والتجوال.

أما العامل الأول فكان سياسياً. إذ كان اليهودي الأوروبي، في عرف تلك العصور المظلمة، ملكاً لأمير الإقطاع يصنع به ما توحي إليه رغبته ومصلحته. وعلى هذا ، قلما كان له مطلق الحرية للإقامة حيث شاء. كما لم يكن مطمئناً على سلامته واستقراره في موطنه ومسقط رأسه. بل كان يجد نفسه بين فترات متقاربة أو متباعدة، حيال قرار مؤلم خطير يجب أن يتخذه بمنتهى السرعة - وهو أن يتخير بين أن يترك دينه ومعتقده باعتناق ديانة السلطة القائمة، أو أن يبارح موطنه ويحمل عصا الترحال ، تاركاً وراءه كل ما ملكه من حطام دنياه الضيقة. ولما كان الشق الأخير من هذا الخيار المؤلم أكثر ما يؤثره اليهودي على الرغم مما كان فيه من تضحية تبلغ في أغلب الأحيان الجود بالروح في سبيل المعتقد؛ فإن تعبير «اليهودي التائه» لم يكن في

غير محله بالنسبة للجماهير الغفيرة* من أبناء هذه الطائفة على شواطئ الرون والسين وضفاف الراين والموزيل. ولا بدع إذا رأينا الجماعات اليهودية، في أثناء فترات الهدوء التي كانت تطول أو تقصر بحسب الأهواء والظروف، تبعث بالوفود إلى مختلف الأقطار والبقاع القريبة أو البعيدة، تجوس خلالها وتدرس أحوالها، للعثور على المأوى الأمين، تلجأ إليه إذا ما حان اليوم العصيب ودقّت نواقيس الرحيل.

وأما العامل الثاني فكان دينياً. وهو تلك الرغبة الملحة التي كانت تدفع بأتقياء اليهود إلى ركوب الأهوال واقتحام المخاطر لحج بيت المقدس والتبرك بقبور الأنبياء ومقامات الصالحين. فحج بيت المقدس، وإن لم يعد فرضاً دينياً على اليهودي منذ خراب هيكل القدس في القرن الأول للميلاد، فإن اليهودي التقي كان يشعر بلهفة متأججة إلى زيارة أماكن التوراة ومهبط الوحي ومثوى الأنبياء، غير عابىء بالحقيقة الواقعة، هي كونه لا يتمتع بحماية سلطان أو رعاية أمير، سيما أيام الحروب الصليبية. وكان أن دوّن عدد من هؤلاء الحجاج ما شاهدوه في البلاد المقدسة والأقطار المؤدية إليها، فخلّفوا للأجيال المتأخرة هذا التراث الممتع من كتب السياحة والأسفار.

وأما العامل الثالث فكان اقتصادياً. وذلك لأن القوانين والقيود التي كان تحرّم على اليهودي الأوروبي في القرون الوسطى امتلاك العقار والاشتغال بالزراعة، قد دفعته مرغماً إلى أحضان التجارة والأمور المالية**

---

* لم تعد غفيرة مع بداية الحروب الصليبية – راجع الدراسة في صَدْر هذا الكتاب.

** كان اليهود يفضّلون العمل في الصرافة والمعادن النفيسة لأسباب كثيرة. راجع الدراسة في صَدْر الكتاب.

. فلا بدع إذا وجدنا اليهودي في تلك العصور، في كل ثغرٍ تجاري وميناء بحري في الشرق والغرب، يجوب الأقطار البعيدة قادماً من أوروبة يحمل مختلف السلع والبضائع للبيع والمقايضة. ثم يعود إليها بنتاج الشرق الغني بخيراته ومحاصيله. وهذا ابن خرداذبه يصف هؤلاء التجار أصدق وصف بأدق تعبير إذ يقول :

« ... إنهم يسافرون بين الشرق والغرب. ويحملون من فرنجة الخدم والغلمان والجواري والديباج والخز الفائق والفراء والسمور ويركبون البحر من فرنجة ويخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم. ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى جدة والحجاز. ثم يمضون إلى السند والهند والصين. فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك. ويرجعون إلى القلزم. ثم يتحولون إلى الفرما. ويركبون البحر الغربي. فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها للروم. وربما صاروا بها إلى بلاد الفرنجة فباعوها هناك. وإن شاؤوا حملوا تجارتهم في البحر الغربي فخرجوا بأنطاكية . فكانوا يتكلمون العربية والإفرنجية والفارسية والرومية. وهم تجار اليهود الذين يقال لهم الرهدانية أو الراذانية[١]. » أ.هـ.

---

(١) كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ص١٠٣–١٤٥. والرهدانية أو الراذانية نسبة إلى نهر الرودانوس (الرون) Rhodanus الذي يسميه العرب ردونة. حيث كانت تقيم جماعات كبيرة من اليهود. ويرى هوارت أن لفظة رهدانية محرفة عن لفظتين بالفارسية: راه، ومعناها الطريق ودانش، ومعناها المعرفة (Cl. Huart, Histoire Des Arabes, II : 110)

ويذكر ابن الفقيه أن المسلمين كانوا يطلقون على هؤلاء التجار من اليهود اسماً مجرداً هو «تجار البحر»(١). ويذهب البيروني إلى أن بلاد كشمير كانت مغلقة الأبواب في وجه جميع التجار الأجانب، فلم يكن يدخلها إلا القليل منهم وخصوصاً من اليهود(٢).

هذه العوامل التي ذكرناها وأمثالها، أنجبت عدداً من مشاهير الرواد اليهود في القرون الوسطى؛ فكانت حكايات سياحتهم وكتب رحلاتهم من أهم المصادر لتأريخ تلك العصور وجغرافيتها، ليس بالنسبة لليهود فحسب، وإنما للعالم المعروف يومئذ في القارات الثلاث. وإننا لنذكر في ما يلي عدداً من هؤلاء الرواد الذين وصلت إلينا أسفارهم، مع العلم أن بحثنا في هذا الكتاب يقف دائماً عند نهاية القرن الثاني عشر للميلاد أو بعدها بقليل. فمنهم:

الداد الداني אלדדהדני– خرج في حدود سنة ٨٨٠م. من موقع ما في شرقي إفريقية مما يحاذي عدن (ربما كان الصومال) في رحلتين زار خلالهما بلاد الحبش وديار مصر فالقيروان وبلاد المغرب وأسبانية، ثم زار اليمن وعرج على البحر الهندي وخليج البصرة فبغداد ومنها إلى أفريقية فأسبانية.

وأبو الحسن يهوذا بن صموئيل اللاوي الطليطلي ריהודה הלוי (١٠٨٥–١١٤٠م) الشاعر الفيلسوف الكبير. خرج من مسقط رأسه يريد حج بيت المقدس وهو يومئذ في احتلال الصليبيين. فزار

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني ص٢٧٠.

(٢) كتاب الهند للبيروني ص١٠١ طبعة سخاو.

مصر والشام ومات شهيداً* عند أسوار أورشليم. وفي ديوانه قصائد تعد من عيون الشعر العبري الأندلسي يعبر بها عن الحنين الذي حدا به إلى زيارة بلد الأنبياء ومهبط الوحي، والأهوال التي عاناها في رحلته.

وأبو إسحق إبراهيم بن مئير بن عزرا الطليطلي الأندلسي ראנרהסאבו עורא

ولد في طليطلة سنة ١٠٩٣م وتوفي في رومية سنة ١١٦٧م. كان شاعراً كبيراً وفيلسوفاً معروفاً ومفسِّراً عظيماً. قام برحلة علمية طويلة زار في أثنائها مصر وفلسطين والعراق ورودس وإيطالية وفرنسة وإنكلترة. فكان في لندن سنة ١١٥٧م. وفي رواية أنه زار الهند أيضاً.

وبنيامين بن يونة التطيلي النباري الأندلسي דכימיו מפורילה

قام برحلته التي نضعها بين أيدي القراء في حدود سنتي ١١٦٥–١١٧٣م وسيأتي الكلام عليه.

وفتاحية الرتسبوني أو الرجنسبرجي רפחיה מרננש נורג

قام برحلته إلى الشرق الإسلامي براً في حدود سنتي ١١٧٥–١١٨٥م. عن طريق براغ وبولونية وكييف والقرم فالقوقاز، ومن ثم عرج على أرمينية والفرات والموصل فبغداد وإيران وسورية وفلسطين واليونان. فكانت زيارته لمدينة بغداد، على ما يظهر، في زمن الخليفة الناصر لدين الله العباسي. وتعد رحلته من الوثائق المعروفة.

ويعقوب بن نثنيال كوهن ריעקב נו נחנאל חנהו

زار فلسطين قبيل استيلاء صلاح الدين الأيوبي على القدس سنة ١١٨٣م. وخلف رسالة قيمة في رحلته.

---

* كاتب الرحلة يهودي يكتب عن يهود ،وفي ضوء هذا يجب أن نفهم النص (عبد الرحمن)

ويهوذا بن سليمان الحريزي الطليطلي יהודה בן שלמה אלחריזי

(١١٧٠-١٢٣٠م) الشاعر الكبير، ناقل الكتب المهمة من العربية إلى العبرية، ومؤلف كتاب « مقامات الحريزي« תחכמוני » العبرية التي ضارع بها مقامات الحريري العربية. قام برحلة طويلة زار خلالها مصر وفلسطين والشام والعراق، ووصف مشاهداته وذكر العظماء والعلماء الذين قابلهم في المدن التي زارها.

ويعقوب، رسول الرابي يحيئيل الباريسي ר׳יחיאל מפריס

خرج من فرنسة سنة ١٢٣٨م. في رحلة طويلة استغرقت ست سنوات زار خلالها فلسطين وسورية والعراق فالأهواز ، ووضع رسالة قيمة في رحلته.

هؤلاء الرواد وأمثالهم كثيرون من الذين يضيق بنا المقام عن ذكرهم. تجشموا مشاق السفر وركبوا متن الأخطار والأهوال في تلك العصور المظلمة، وخلفوا لنا عن رحلاتهم تلك[١]، رسائل ثمينة تعد من أوثق المصادر التأريخية.

والملاحظ هنا أن تيار الرحلات والأسفار اليهودية في القرون الوسطى، كان يتجه دائماً من الغرب نحو الشرق . وقلما نعرف عن رحالة من يهود الشرق يمم شطر أوروبة للدرس والاطلاع أو الاتجار باستثناء بعض العلماء الذين كانوا يرحلون إليها للتعليم في مدارسها.

---

(١) راجع تفاصيل البحث عن هذه الرحلات في كتاب أدلر Jewish Travellers (لندن-١٩٣٠) وكتاب إسرائيل إبراهامس Jewish Life In The Middle Ages (لندن-١٩٣٢) ص٢٢٩ وما والاها . وكتاب سسل روث The Jewish Contribution to Civilisation (لندن ١٩٣٨) ص٦٣ وما والاها.

ولهذه الظاهرة أسباب تتصل بالعوامل الثلاثة التي بيناها.

فمن الوجهة السياسية كانت القرون الوسطى شديدة الوطأة على يهود أوروبة بأجمعها، إذا استثنينا أسبانية الإسلامية، ذاقوا فيها من ضروب التعسف والاضطهاد والتقتيل والتشريد ما يعجز عن تبيانه القلم. أما يهود الشرق، فكانوا أسعد حظاً وأكثر استقراراً واطمئناناً على أرواحهم وموطنهم وأموالهم من إخوانهم في الغرب. فقد ترك لهم خلفاء المسلمين وسلاطينهم حرية الإيمان والمعتقد وأمّنوهم على أرواحهم وما ملكت أيمانهم بدافع الشرع القويم والعرف والتسامح. فلم يكن اليهودي، وهو من أهل الذمة ، ملزماً بأكثر من جزية بسيطة يدفعها إلى بيت مال المسلمين لقاء حصوله منهم على حقوقه المشروعة.

وإذا كان يهود الشرق عانوا أحياناً بعض الشدة في عهود الانحطاط من بعض الأمراء المتغلبين، فإن تلك الأوضاع الشاذة ماكانت تدوم إلا أمداً قصيراً. إذ لم تكن هناك خطة اضطهاد مرسومة وسياسة عداء مقررة. ولم تبلغ الحال، في أشد أيامها، مبلغ الطرد الإجماعي أو التقتيل بالجملة ، مثلما كان يحدث في أوروبة. لذلك كان يهود الشرق يعيشون في استقرار ودعة واطمئنان، فلم يكن ثمة ما يبرر مبارحتهم ديارهم إلى بلاد الغرب وهي يومئذ على ما وصفنا.

أما حج بيت المقدس فلم يكن غير مرغوب فيه من يهود الشرق. بل

كان اليهودي التقي في مختلف العصور يجد من نعمة الله عليه أن يتاح له حج البلاد المقدسة والتبرك بقبورها وزيارة مقامات الصالحين فيها. غير أن بيت المقدس لم يكن بعيداً عن اليهودي الشرقي ولم تفصله عنه البحار التي كانت يومئذ مليئة بالقرصان، محفوفة بالأخطار. وهو إذا ما أم الديار المقدسة لم يكن يشعر بأنه انتقل إلى محيط يختلف عن محيطه أو بيئة تشذ عن البيئة التي نشأ فيها سواء أكان ذلك في الشام أم في العراق أم في مصر. فلم يكن يقع بصره على مناظر غير مألوفة لديه كما هو الحال بالنسبة إلى أوروبي يزور الشرق. والسائح أو الحاج لا يسجل من الأمور سوى ما كان غريباً عنه بعيداً عن مألوفه ومحيطه. لذلك قلما نجد بين يهود الشرق من كتب عن رحلته أو دوّن مشاهداته.

وأما السفر بقصد التجارة والبيع والشراء فلم يكن مما يضطر اليهودي الشرقي إلى خوض البحار وتجشم الأخطار. ذلك لأن البلاد التي يعيش فيها كانت مصدر أكثر البضاع والسلع في القرون الوسطى. وكان لزاماً على الأوروبي دون الشرقي أن يقصد البلدان التي كانت في تلك الأحقاب مركز التبادل التجاري بين الشرق والغرب. لذلك ما كان ليهود الشرق أن يتحملوا مشاق السفر إلى أوروبة لهذا الغرض إلا فيما ندر. ومن ثم كان الاتجاه دائماً من الغرب صوب الشرق.

٤- الحجاج المسيحيون في القرون الوسطى

في القرون الوسطى لم يعن الأوروبيون بالسياحة والتجوال بين أقطار الشرق الإسلامي وارتياد بلدانه وانتجاع أراضيه لمجرد الشغف بالاطلاع أو محض المقاصد العلمية والجغرافية والسياسية مثلما كان دأبهم ولا يزال في القرون الأخيرة والعصر الحاضر. إنما كان الدين العامل الوحيد الذي يدفعهم إلى تجشم مشاق السفر وشد الرحال لزيارة الديار المقدسة.

ذلك لأن فلسطين تحتل مركزاً رفيعاً في قلوب المسيحيين . ينظرون إليها نظرة تقديس وإجلال، شأنهم في ذلك شأن اليهود والمسلمين . فهي عندهم بلد التوراة ومهد المسيح ومنبت النصرانية. وحيثما تنقلوا في أرجائها وجدوا تراث الحواريين وكنائس القديسين ومراقد الصالحين. وتأريخ الكنيسة قديمه وحديثه، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك البقعة الشريفة التي يقدسها أبناء الأديان السماوية أجمع . فلا بدع إذا رأينا الحجاج الأوروبيين في القرون الوسطى يتوافدون على بيت المقدس من كل حدب وصوب، شغوفين بزيارة الأماكن المقدسة التي لها علاقة بالسيد المسيح ورسله وحوارييه . وأخبار أولئك الحجاج وحكايات تنقلاتهم وروايات أسفارهم وسجلات مشاهداتهم تملأ العدد الوافر من كتب الرحلات القديمة، لا غنى عنها لمن أراد الاطلاع على أحوال الشرق الإسلامي في تلك العصور .

ويمكن القول على وجه التأكيد : إن اهتمام النصارى بزيارة الديار

المقدسة قد بدأ مع القرن الرابع للميلاد، أي عندما اعتنق قسطنطين الكبير (٣١٢-٣٣٧م) النصرانية وجعلها الدين الرسمي للدولة الرومانية. فقد قوي سلطان الكنيسة منذ ذلك التأريخ فبسطت سيطرتها على أفكار الجماهير فصارت توجه معتقدهم وعقليتهم ونشاطهم إلى الناحية التي كانت تريدها فأذكت في نفوسهم الحماس الديني، وبذلك اتجهت الأنظار بطبيعة الحال إلى فلسطين – بلد المسيح ومهد النصرانية. وقد ساعد على هذا الاتجاه كون الديار المقدسة يومئذ جزءاً من رقعة تلك الإمبراطورية الواسعة، وعناية الدولة بالمحافظة على تراث النصرانية فيها وتيسير الأمن والراحة في الطرق المؤدية إليها ، شأنها في ذلك شأن عناية خلفاء المسلمين بطريق الحج إلى الديار الحجازية وبيت الله الحرام.

أخذ سيل حجاج النصارى يتدفق عاماً بعد عام على الديار الفلسطينية. ويحفظ لنا التأريخ أسماء عدد من مشاهيرهم وعظمائهم في العصور التي سبقت الفتح الإسلامي. فمنهم : هيلانة أم قسطنطين الكبير Julia Flavia Helena التي زارت فلسطين في أخريات أيامها فوجدت الضريح المقدس والصليب الذي قيل: إن المسيح صلب عليه؛ وشيدت في بيت لحم والناصرة المباني الجسيمة والكنائس العامرة التي ما زالت باقية حتى اليوم. ومنهم الإمبراطورة أودوسية Eudoxia التي وسعت أسوار القدس سنة ٤٦٠م؛ والراهب المعروف باسم حاج بوردو (٣٣٣م) والأسقف جيروم (٤٢٠م) وثيودوسيوس (٥٢٠-٥٣٠م) . ولم ينقطع توارد الحجاج الأوروبيين على فلسطين حتى في أيام هجوم

البرابرة على أوروبة من هون وقوط.

فكانت سنة ٦٣٦م . وفيها جرت معركة اليرموك الفاصلة واندحرت جيوش بيزنطة أمام جحافل المسلمين وسلمت القدس إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) ؛ فأمّن النصارى على معتقدهم وأجاز لهم الحج؛ فلم يتغير أمر بالنسبة لحجاج النصارى سوى أنهم صاروا يفدون على القدس عن طريق مصر بدلاً من بلاد الروم، نظراً لبقاء العلاقات السياسية متوترة بين المسلمين والروم. وهذه مذكرات مشاهير الحجاج النصارى خلال المدة التي تصرمت بين الفتح الإسلامي والحروب الصليبية لا تدل على أي أثر لاعتداء المسلمين عليهم إلا فيما ندر من بعض الحوادث الفردية التي قلما يخلو منها زمان أو مكان. أما سياسة الدولة بوجه عام فكانت منتهى التسامح الديني لأصحاب الكتب السماوية.

فمن مشاهير الحجاج الذين وفدوا على فلسطين في هذه الحقبة: أركولف مطران بلاد الغال (٧٠٠م) وولبولد الإنكليزي (٧٢٦-٧٢٧م) وبرنارد الحكيم (القرن التاسع) وكونرد أسقف كونستانس (٩٣٤-٩٧٦م.) . وكانت أكبر قافلة من الحجاج وصلت إلينا أخبارهم قبيل الحروب الصليبية، هي تلك التي كان يرأسها أربعة أساقفة كبار، هم سغفريد أسقف ماينز وغونتر أسقف بمبرغ ووليم أسقف أترخت وأوتو أسقف رغتزبرغ ومعهم نحو سبعة آلاف حاج وكان ذلك سنة (١٠٦٤-١٠٦٥م) . ولكن أكثر هذه القافلة قد هلك في البحر وفي المعارك التي كان السلاجقة يخوضونها في فلسطين.

أما الحروب الصليبية التي ساءت خلالها العلاقات بين نصارى أوروبة والمسلمين واستمرت نيفاً وثلثمائة سنة في فترات متقطعة، فكانت بواعثها سياسية أكثر منها دينية كما سنبينه في سياق مقدمتنا هذه[١].

٥- بنيامين التطيلي. من هو وما الغاية من رحلته؟

على كثرة ما عالج المؤرخون رحلة بنيامين بحثاً وتمحيصاً ، ودققوا النظر في محتوياتها، وراجعوا حوادثها وقايسوا بين نصوصها المخطوطة والمطبوعة ، لم يتوصلوا إلى ما يلقي الضوء على سيرة هذا الرحالة الكبير ومولده ونشأته ومركزه العلمي والاجتماعي. وكل ما يعرف عنه مأخوذ عن المقدمة الوجيزة التي صدر بها الرحلة كاتب مجهول الهوية، ربما كان معاصراً لبنيامين، لأنها وردت في أقدم النسخ المعروفة للرحلة. وقد جاء في هذه المقدمة أنه «الرابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي النباري» وأنه «جاب المدن البعيدة وسجل ما شاهده عياناً في الأمصار التي مر بها أو ما نقله عن الثقات ذوي الأمانة المعروفين لدى يهود أسبانية» وبالأخير «إنه دوّن هذا الكتاب عند أوبته إلى قشطالة سنة ٤٩٣٣ للخليقة» (٥٦٩هـ - ١١٧٣م) وفي رواية أنه توفي في السنة نفسها[٢] . ويستمر صاحب المقدمة في تعريفنا بهذا الرحالة

---

(١) راجع التفاصيل عن حجاج النصارى في الكتب التالية : Grousset R, Hist. des Croisades (Paris 1934-6) Newton P., Travels And Travellers In The Middle Ages. London, 1926. Wright, Th., Early Travellers In Palerstine, London, 1848.

(٢) פמר חמ״ו ص١٢٩ب.

ويقول :«إنه كان من الثقات العارفين بالتوراة والشرع، وأن التدقيق والتمحيص قد أيدا ما رواه في رحلته». أما المؤرخون من القرن الثالث عشر وما والاه فيكتفون بتسميته «بنيامين صاحب الرحلة המסעות בעל».

فهل كان بنيامين من علماء اليهود الذين ازدهر بهم القرن الثاني عشر في أسبانية الإسلامية والنصرانية؟... إننا نشك في ذلك. لأن كتب الأنساب اليهودية الخاصة بذلك الجيل، التي سجلت بإسهاب تراجم جميع العلماء المعروفين وفصلت ذكر مؤلفاتهم وآثارهم العلمية والأدبية، لا تذكر اسم بنيامين إلا مقروناً بهذه الرحلة. وأغلب الظن أن هذا الرجل كان وجيهاً من وجهاء اليهود في قشطالة، بل تاجراً تعنيه الشؤون الاقتصادية ، بدلالة هذا الاهتمام الفريد الذي يبديه في الأحوال التجارية للبلدان التي زارها*، أكثر من اهتمامه بالعلماء الكبار الذين عرفهم في أثناء تجواله. إذ نراه يذكر أسماءهم مجردة عن ذكر مؤلفاتهم وآثارهم العلمية والأدبية. كما أننا نشك في رأي أبداه بعض المؤرخين، وهو أن بنيامين قام برحلته هذه موفداً من الهيئات اليهودية في أسبانية للأطلاع على أحوال يهود الشرق في ذلك العصر الذي كان يهود أوروبة يجتازون أخطر عهود الضيق والاضطهاد التي عرفوها خلال تأريخهم الطويل.

صحيح، إن هذا الرحالة يعطينا معلومات عامة عن أحوال اليهود في كل مدينة زارها، ويذكر عددهم وأوضاعهم وطرق كسبهم ومركزهم

* هذا غير صحيح ،راجع الدراسة ،في صدر الكتاب.(عبد الرحمن).

العلمي والاجتماعي وعلاقتهم بالبيئة التي يعيشون فيها. لكن، أكان ينتظر من يهودي في القرن الثاني عشر غير هذا؟ وهل عني الرحالون المسلمون بغير أحوال المسلمين إلا في ما ندر؟ وهل سجل الحجاج من النصارى غير أحوال إخوانهم بالدين وبيعهم ومزاراتهم المقدسة؟.... وهذا أسلوب الرحلة، هل يدل على أنها تقرير مرفوع إلي هيئة أو جماعة خاصة؟ .... إن بين تضاعيفها أموراً لا يهم يهود أوروبة الاطلاع عليها كثيراً أو قليلاً . بل إننا إذا قايسنا بين هذه الرحلة ومثيلاتها من ذلك العصر، وجدنا فيها عن غير اليهود، معلومات أكثر وأعم مما دوَّنه الرحالون المسلمون عن غير المسلمين، والحجاج المسيحيون عن غير النصارى.

وصفوة القول عن بنيامين : إنه كان تاجراً بالمعنى المفهوم من تعبير * Commercial Traveller وإنه يجمع إلى إلمامه بالاقتصاد وفنون التجارة إلماماً كافياً بالتوراة والتلمود، كما هو شأن الكثيرين من أمثاله في ذلك العصر الذي كانت العلوم الدينية وحدها تميز المتعلِّم عن الأمي، وإنه خرج في رحلته هذه بدافع الاطلاع الشخصي، ووجهته بالدرجة الأولى الشرق الإسلامي؛ هذا الشرق الذي استهوت خيراته وعمرانه وتجارته عدداً غير يسير من الأوروبيين خلال العصور المتوسطة والأخيرة. وقد كان هذا الرحالة، وهو بعد في أسبانية ، على علم بما في بلاد الشرق الإسلامي من تقدم وحضارة. وإن شهرتها قد ملأت سمعه قَبْلما يملأ عينه بمشاهدتها وزيارتها. فقد شاهد عند مروره في

* هذا غير صحيح، راجع الدراسة في صدر الكتاب

أوروبة الجنوبيـة مـدناً عـامـرة باليـهـود ، زاهرة بمعـاهـدهم العلمـيـة ومؤسساتهم الثقافية في ذلك العصر، لكننا نراه يتخطاها بنظرة عابر سريعة باستثناء رومية والقسطنطينية ؛ ولم يبدأ بالإسهاب والتفصيل إلا عندما وطئت أقدامه أرض الشرق الإسلامي في بلاد الشام – وهو الهدف الرئيسي لرحلته(*) .

إن رأينا الذي فصلناه عن بنيامين يؤيده أسلوب الرحلة أيضاً . فهو أسلوب تجاري ساذج . بعيد عن البلاغة الراقية التي امتاز بها كتاب اليهود ومفكروهم في القرن الثاني عشر – العصر الذهبي للآداب العبرية في أسبانية . فعبارته موجزة تتناول الموضوع مباشرة دون ما تزويق أو تنميق. وهذا ما يميز رحلة بنيامين عن غيرها من رحلات معاصريه، المسلمين منهم على الأخص ، وأسلوبها الراقي المتين. على أن هذا الأسلوب الذي اختصت به رحلة بنيامين ، على سذاجته ، متأثر بأسلوب التوراة السلس. تكاد تلمس ذلك في كل صفحة من صفحاتها ، الأمر الذي يدل على أن الرجل كان واسع الاطلاع في أسفار الكتاب المقدس والتلمود وغيرها من كتب اليهود ، كما أننا نستشف من خلال أحاديثه عن الشرق الإسلامي أنه كان يجيد اللغة العربية. وأن أسماء البلدان والأعلام العربية لم تكن غريبة على سمعه بدلالة قلة تحريفه وتصحيفه لألفاظها شأن كل أوروبي زار الشرق قديماً وحديثاً. وغني عن البيان أنه كان يحسن الأسبانية أيضاً.

(*) هذا أيضاً غير صحيح .(عبد الرحمن).

٦- سير الرحلة

خرج بنيامين من مسقط رأسه، من تطيلة، فانحدر منها بطريق نهر إبره إلى برشلونة على شواطئ أسبانية الشمالية الشرقية، فعرج منها باتجاه سواحل فرنسة الجنوبية، ومر بجميع المدن الساحلية في لنغدوكية Languedoc وبروفنسية Provence والريف الفرنسي Riviera وكانت هذه البلدان تتمتع يومئذ بهدوء نسبي بالنظر لاضطراب الحال في فرنسة الشمالية وأوروبة المركزية من جراء الحروب الصليبية التي كانت الاستعدادات لحملتها الثالثة قائمة آنئذ على قدم وساق. ومن ثم اتجه شرقاً نحو الجمهوريتين البحريتين في إيطالية - جنوة وبيزة - فتابع سيره بطريق الشواطئ الغربية من شبه الجزيرة حتى بلغ رومية، المدينة الخالدة وكرسي البابوية، وهي يومئذ في عز أيامها وعنفوان سؤددها وقمة سلطانها. فقضى في عروس التبر مدة غير يسيرة، اطلع فيها على آثارها القديمة وقصورها وكنائسها، وأتى على ذكر ما سمعه من أساطيرها وأحاديث ملوكها وقياصرتها.

ثم واصل رحلته نحو الجنوب فمر بسلرن وأمالفي وطراني، واخترق أراضي قلوريه Callabria ميمماً شطر شاطئ الأدرياتي فبلغ باره Bari وبرندزي، ومنها عبر مضيق أترنتو إلى جزيرة قرفو فنزل بر اليونان عن طريق قورنث، وكانت يومئذ في حكم الروم البيزنطيين. ومن هناك صعد شمالاً نحو خلقدونية chalcidice فمر بسلانيك وأطاف في أنحاء تراقيا حتى بلغ قسطنطينية - عاصمة الإمبراطورية الشرقية، فأدهشه ما شاهده من عظمتها السامقة وأعجب بما رآه من

قصورها وقلاعها وتجارتها الواسعة، وأتى على وصف ضاف لكنائسها، ووقف عند آيا صوفية يصور ما شاهده من آيات الفن العماري فيها بأسلوب تأخذ سذاجته بمجامع القلوب.

ومن ثم ركب البحر فجوّل بين أرخبيل بحر إيجة فزار رودس وقبرص، ومنها خرج إلى البر في قيليقية حيث أطل على الشرق الإسلامي - الهدف الرئيسي لرحلته - فراح يتنقل بين المدن العامرة والقرى الزاهرة في سورية ولبنان، ومنها حج بيت المقدس، وهو يومئذ في الاحتلال الصليبي . فصار يتنقل في نواحي فلسطين، ويدون ما زاره من قبور الأنبياء وأضرحة الأتقياء ومقامات الصلحاء، فراحت أسماء المواقع التي طالما قرأ عنها في التوراة والتلمود تتدفق على مخيلته. ثم مر بغور الأردن واتجه شمالاً نحو بحيرة طبرية ومنها عرج نحو أعالي الفرات بطريق تدمر وبعلبك ودمشق، وأخذ يتنقل بين دجلة والفرات حتى بلغ الموصل. ثم ألقى عصا الترحال في بغداد ، عاصمة الرشيد وحاضرة بني العباس يومذاك. فأعجب بما شاهده من عمرانها وأسهب في وصف قصور خلفائها ومعاهدها ومارستاناتها. ولا غرو، فهو أول رحالة أوروبي من غير المسلمين، جاوز الفرات وبلغ بغداد وخلف عنها مثل هذا الوصف.

وقد أعجب بنيامين بصورة خاصة ، بما شاهده في وادي الرافدين من جماعات يهودية كانت يومئذ تنعم بالطمأنينة والرفاهة في ظل الخلافة الإسلامية الوارف، وفي عصر لم يكن يهود أوروبة يعرفون سوى ضروب الإرهاق والاضطهاد الديني والاقتصادي . فراح لسانه يلهج

بمديح خليفة المسلمين وهو يومئذ المستنجد بالله العباسي « ... أمير المؤمنين المعروف بالتقوى والاستقامة، يطلب الخير لجميع رعيته».
ويصف موكبه في طريقه إلى الجامع لإقامة فريضة الصلاة يوم العيد، وابتهاج الرعية برؤية طلعته الميمونة ، فيسجّل هتافهم له وتهليلهم وتكبيرهم. ثم يتحدث عن المارستان حديث شاهد عيان دقيق الملاحظة. وبعده يأتي على ذكر الجماعة اليهودية ببغداد ، فيحدثنا عن رأس جالوتها، ويسهب في سرد أسماء رؤساء مثيبتها ومدارسها وعلمائها، بلهجة تنم عن الارتياح والسرور مما عاينه وشاهده.

ومن بغداد يتوجه الرحالة نحو مدن الفرات الأوسط ويسجل ما وجده فيها من مقامات وقبور الصالحين والأتقياء. ولا بدع، فقد كان الفرات الينبوع الزاخر الذي تدفق منه كتاب التلمود - دائرة المعارف اليهودية الكبرى التي مازالت حتى اليوم تهدي اليهود إلى شريعتهم وشعائر ديانتهم وتأريخهم وأساطيرهم.

ومن الفرات الأسفل ينتقل حديث الرحالة إلى جزيرة العرب - « صحراء اليمن » حسب تعبيره ... فهل زار بنيامين الجزيرة؟ وهل من الصحيح أنه اخترقها فبلغ أطراف الحجاز ونواحي خيبر؟ ... إن لهجة بنيامين في هذه المرحلة من سياحته والنتائج التي توصل إليها الذين حققوا في رحلته لا تؤيد ذلك*.

وأغلب الظن أن الرحالة، في أثناء مكوثه بالعراق ، سمع من أفواه اليهود وربما قرأ في كتب العرب بعض الأساطير والروايات التي ظلت

* راجع الدراسة في صدر الكتاب.

عالقة بالأذهان عن قبائل اليهود في الجزيرة والحجاز قبل الإسلام فأدرجها في سياق رحلته. وعليه وجب أن نحصر ما ذكره عن يهود الجزيرة في معترضةٍ ، فنعود إلى مواصلة الرحلة معه إلى واسط فالبصرة. ومنها إلى خوزستان، حيث أطل على بلاد العجم، فراح يتنقل بين مدنها الكبرى وعواصمها العامرة. ومن نواحي خراسان يعرج الرحالة على جبال كردستان وأطراف العمادية، ومنها يعود إلى همذان وأصبهان فشيراز وطبرستان، فيبلغ خيوة وسمرقند ونيسابور، فيحدثنا بإسهاب عن وقعة سنجرشاه السلجوقي مع قبائل الغز، ومن ثم يعود إلى خليج البصرة بطريق خوزستان فيزور قيس (كيش) ويتحدث عن مغاص اللؤلؤ، ومنها يبلغ الهند وخولام ويجول في ملبار ويصل سرنديب فيكون بذلك أول رحالة أوروبي بلغ الهند.

ومن ثم ينتقل بالحديث عن أرض الصين، ويقص أهوال بحارها ومخاطرها. وهنا أيضاً يأخذ أسلوب الرحلة شكلاً يدعو إلى الشك في كون بنيامين قد بلغ شواطئ الصين برحلته. ويمكننا القول على وجه التأكيد : إن الرحالة قد أدرج في رحلته ماكان قد سمعه، وربما قرأه من روايات تجار العرب وأحاديث ملاحيهم عن تلك البلاد السحيقة، فجاءت روايته قريبة الشبه بما نطالعه في سفرات السندباد البحري عن بحار الصين ومهالكها، فلننتقل معه إذن ، من الهند إلى شواطئ جزيرة العرب الجنوبية، حيث يتحدث عن زبيد وعدن ، ومنها يعبر البحر الأحمر فيبلغ أفريقية من نواحي أسوان، فيتابع مجرى النيل وينحدر إلى القطر المصري فيتنقل بين مدنه الواحدة تلو الأخرى، فيزور القاهرة

والفسطاط ويتحدث بأسلوب بديع عن نهر النيل وفيضه ووفائه وخيره العميم، حتى لتحسب وأنت تقرؤه، أنك تطالع ابن جبير أو ابن بطوطة ، وكلاهما جاء من بعده. ومن ثم ينتقل إلى الإسكندرية بعد زيارة قصيرة لصحراء سيناء، فيتحدث بإسهاب عن ذلك الثغر التجاري العظيم الذي كانت تجتمع عنده ثروة الشرق وخيراته، فيأتي على ذكر المنار، ويسرد علينا بتفصيل لا يباريه به رحالة آخر، أسماء البلدان الأوروبية التي كانت تتجر مع الإسكندرية* . ومن ثم يركب البحر بطريق عودته إلى أسبانية فيمر بجزيرة صقلية ويتحدث عن آثار الحضارة الإسلامية التي شاهدها فيها، وكانت يومئذ في احتلال النورمنديين، وهكذا يكون هذا الرحالة الفذ قد زار أغلب البلدان الشهيرة في القارات الثلاث.

والذي نلاحظه، ونحن نطالع صفحات هذه الرحلة، أن بنيامين يتحرى الصدق والأمانة في تدوين ما شاهده عياناً. أما إذا تعرض خلال رحلته لأمور يرويها عن مسموعاته، فيبدؤها بعبارة «ويقال» أو «وقد قيل لي» أو «هذا ما حدثني به فلان» . ويلاحظ كذلك، أن هذا الرحالة لم يكن يتبع في أسفاره اتجاهاً واحداً دائماً. وقد تكون أسباب ذلك فقدان الأمن في بعض الطرق من جراء الحروب الصليبية، أو اضطراره للعودة إلى مدينة أو قرية ليتحقق من بعض الأخبار. ومما يلاحظ أيضاً أنه وإن قبل بما قيل له عن عقائد بعض الأمم الشرقية على علاته، لا نكاد نقرأ له كلمة تخدش الأذهان عند تعرضه للأديان غير

---

* أغفل المترجم زيارته لغانه في غرب أفريقيا.

اليهودية، إذا استثنينا بعض عبارات التهكم والسخرية من الشعائر الوثنية وعقائد المجوس والملاحدة مما لا تستسيغه العقائد السماوية. وإننا نجده أكثر ضبطاً لعاطفته الدينية من أغلب رواد القرون الوسطى، إذا أخذنا بنظر الاعتبار عقلية ذلك العصر الذي بلغ فيه التعصب الديني منتهاه.

٧- تأريخ الرحلة

لعل أبرز نقصان يلاحظه القارئ في رحلة بنيامين ، هو أن هذا الرائد الكبير لم يترك لنا تأريخاً مضبوطاً عن زمن شروعه في رحلته ولم يذكر وقت دخوله المدن والأقطار التي زارها في سياحته الطويلة ومدة مكوثه بها أو رحيله عنها، وإنه اتبع في حديثه أسلوباً جغرافياً بخلاف ما فعله غيره من الرحالين. وكل ما نعرفه من مقدمة الرحلة، أن بنيامين عاد من رحلته إلى مسقط رأسه في قشتالة سنة ٤٩٣٣ للخليقة حسب التقويم العبري، وهذه توافق سنة (٥٦٩هـ - ١١٧٣م.) لذلك اختلف المؤرخون في تعيين موعد شروعه في تجواله. فيقرر آشر Asher وإبراهامس Israel Abrahams أن ذلك كان في سنة (١١٦٠م - ٥٥٥هـ) ويذهب لبرخت Liebrecht إلى أقدم من هذا فيقول : إن بنيامين قام برحلته بين سنتي (١١٤٠-١١٥٠م) (٥٣٥-٥٤٥هـ) وبذلك نراه يخالف حتى تأريخ الانتهاء الوارد في نص مقدمة الرحلة.

على أن الاستنتاج التأريخي، وتمحيص بعض الحوادث المهمة التي

يذكرها الرحالة في سياق رحلته، يجعلنا نتفق ورأي المؤرخ غراتز H.Gratz وناقل الرحلة إلى الإنكليزية أدلر Adler فنقرر على وجه التأكيد أن بنيامين لم يشرع في رحلته قبل سنة ١١٦٥م(٥٦١هـ) وإننا نعرض على القارئ بعض هذا الاستنتاج:

أولاً – يتحدث بنيامين عند زيارته لرومية الكبرى، عن البابا إسكندر الثالث واليهودي يحيئيل بن إبراهيم ناظر الخاصة البابوية. ومن المعلوم أن هذا الحبر الأعظم كان قد انتخب لمنصبه سنة ١١٥٦م. (٥٥١هـ) بعد وفاة البابا أدريان الرابع. وإن طعناً شديداً في صحة انتخابه كان قد حصل من جانب منافسه الكردينال أكتافيان (فكتورالرابع) ، وإن الإمبراطور فريدريك بربروسة كان قد انضم إلى جانب المعارضة، مما اضطر البابا إسكندر الثالث إلى الهجرة إلى فرنسة؛[١] وإن هذا الخلاف كان قد انتهى أخيراً بعودة البابا إلى المدينة الخالدة في ٢٥ تشرين الثاني سنة ١١٦٥م. (٥٦١هـ) . وعلى هذا لا يمكن أن تكون زيارة بنيامين لمقر البابوية قبل السنة التي عاد فيها البابا إسكندر إلى عرشه.

ثانياً – يحدثنا بنيامين في أثناء وجوده في أنطاكية عن أميرها بهمند (بيومند) الثالث الملقب بالألكن، المعروف في التأريخ باسم Beomond Poitou . فمتى علمنا أن هذا الأمير كان قد تولى الإمارة بين سنتي (١١٦٣–١٢٠٠م) (٥٥٩–٥٩٧هـ) كان الرأي القائل بأن هذه الرحلة قد بدأت سنة ١١٦٠م. (٥٥٥/٥٥٦هـ) أو

---

(١) راجع تفاصيل هذا الخلاف البابوي في تعليقنا على رومية.

قبلها، في غير محله.

ثالثاً - في بلاد العجم، يحدثنا بنيامين عن وقعة سنجرشاه بن ملكشاه السلجوقي مع قبائل الغز وهزيمته أمام جيوشهم. ويقول الرحالة إن هذه الموقعة التأريخية قد حدثت قبل زيارته بثماني عشرة سنة. ولما كان من المعلوم أن هزيمة سنجرشاه حدثت سنة (٥٤٨هـ - ١١٥٣م) [1] فإذا أضفنا ١٨ سنة إلى هذا التأريخ وجب أن تكون زيارة بنيامين لإيران في حدود سنة (٥٦٦هـ - ١١٧٠م). وعليه يمكن القول أيضاً: إنه كان في بغداد حوالي سنة (٥٦٥هـ - ١١٦٩م) في خلافة المستنجد بالله العباسي المتوفى سنة (٥٦٦هـ - ١١٧٠م).

رابعاً - يحدثنا بنيامين في أثناء إقامته بالموصل عن يوسف الفلكي الملقب بـ«برهان الفلك» في بلاط سيف الدين أخي نور الدين. ومن المعلوم أن سيف الدين زنكي بن عماد الدين كان قد توفي سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م). لذا ذهب لبرخت إلى أن بنيامين قام برحلته بين سنتي (٥٣٥-٥٤٥هـ) (١١٤٠-١١٥٠م) والظاهر أن هناك غلطة ناسخ في متن الرحلة. وأن عبارة «أخي نور الدين» كان يجب أن تكتب «ابن أخي نور الدين» وهو سيف الدين غازي الأصغر بن قطب الدين مودود الذي تولى أتابكية الموصل سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م) وتوفي في سنة (٥٧٦هـ - ١١٨٠م).

هذه الاستنتاجات وغيرها تجعلنا نقرر بما يشبه التأكيد أن رحلة بنيامين كانت في حدود سنتي (١١٦٥-١١٧٣م) (٥٦١-٥٦٩هـ)

---

(١) راجع المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ج٣: ٢٨-٣٠ في حوادث سنة ٥٤٨هـ.

وأنها استغرقت ثماني سنوات، فيكون قد سبق ابن جبير بنحو ١٧ سنة وماركو بولو الرحالة البندقي (١٢٥٤-١٣٢٤) بأكثر من مائة سنة وابن بطوطة بمائة وستين عاماً.

٨- قيمة رحلة بنيامين بين المراجع التاريخية

وضع بنيامين كتاب رحلته في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر للميلاد (السادس للهجرة) فلم يلبث صيتها أن ذاع وحديثها أن انتشر. فتناولتها أيدي النساخ في مختلف الأقطار قبل انتشار الطباعة، وأخذ عنها جميع المؤرخين وأصحاب الحوليات واليوميات وكتّاب الأنساب من اليهود منذ القرن الثالث عشر، فأيدوا محتوياتها. ثم تناولت الرحلة أيدي المترجمين بمختلف اللغات الأوروبية، فأصبحت مصدراً تأريخياً معتدا به وسجلاً جغرافياً مضبوطاً ليس بالنسبة لليهود فحسب، بل للأحوال العامة التي كانت تسود العالم في ذلك العصر الحافل بالحوادث الجسام في الشرق والغرب. فأحلّها المؤرخون المقام اللائق بها، عند بحثهم في أحوال الشرقين الأدنى والأوسط بوجه خاص.

وإننا إذا تصفحنا كتب الرحالين والرواد الأوروبيين عن الشرق الإسلامي خلال العصور الحديثة، وطالعنا أحاديثهم وتتبعنا الطرق التي سلكوها في أسفارهم وتنقلاتهم؛ وكذلك إذا طالعنا مؤلفات علماء الآثار والنقابين لذين زاروا الشرق عامة والعراق خاصة، وجدنا أنهم وضعوا نصب أعينهم رحلة بنيامين وأخذوا عنها واعتمدوا على

نصوصها، الأمر الذي يدل على أهميتها التأريخية والجغرافية عندهم.

٩- حالة الشرق الإسلامي في عصر بنيامين

أما وقد بلغنا هذه المرحلة من تقديم رحلة بنيامين وعرضها على القارئ، نرى إتماماً للفائدة، أن نلم إلمامة وجيزة بالأحوال العامة التي كانت تسود الشرق الإسلامي في القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد) والتطورات الخطيرة التي طرأت على علاقات الشرق بالغرب، تلك التطورات التي خلفت من بعدها الأثر البليغ فقلبت أوضاع البلاد الإسلامية من حال إلى حال وغيرت معالم تأريخ أوروبة. فنقول:

اجتازت الخلافة العباسية ببغداد أخطر عهودها في أيام الدولة البويهية التي كان امتداد حكمها مائة وثلاث عشرة سنة (٣٣٤-٤٤٧هـ) (٩٤٥-١٠٥٥م) إذ سادت في العراق أحوال مضطربة من تغلب السلاطين على الخلافة، فلم يبق لها سوى السلطة الاسمية المجردة من كل حول وطول. وكان طبيعياً أن تؤدي تلك الحالة الشاذة إلى انحلال قواعد الملك واختلال نظام الحكم، وأن تصبح البلاد من أقصاها إلى أقصاها مستعدة لقبول أي فاتح، أملاً بخلاصها من ذلك الوضع المتقلقل. وكان السلاجقة يومذاك قد مدوا رقعة حكمهم حتى تخوم العراق الشرقية. وكان رئيسهم ركن الدين طغرل بك بن سلجوق يتوق إلى بسط نفوذه على مراكز الخلافة العباسية، فساعده تردي الأحوال في العراق على بلوغ أمنيته. فلم تغرب شمس الاثنين ٢٥ محرم سنة ٤٤٨هـ (١٠٥٨م) إلا وكانت راياته تخفق فوق بغداد،

والخليفة يومئذ القائم بأمر الله العباسي . وهكذا تقلّص ظل الدولة البويهية.

كان هؤلاء السلاجقة من عشائر الغز الكبرى. ينتسبون إلى مقدمهم سلجوق بن تقاق (دقاق) ومواطنهم الأصلية تركستان. فبعد أن استولوا على بغداد توالت فتوحاتهم ودانت لهم البلاد الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، حتى صاروا يحكمون جل ما ملكه المسلمون في آسيا الغربية. وكان أسلوبهم في الحكم يختلف عن حكم البويهيين في أمور جوهرية مهمة. منها نظامهم العسكري الشديد المتحمس، الذي استطاع الثبات بوجه غزاة الروم الذين كانوا قد انتهزوا فرصة انحطاط الدولة على عهد البويهيين. فراحوا يهاجمون تخوم الديار الإسلامية ويقتطعون منها البلدة بعد الأخرى ويمعنون بها سلباً ونهباً. أما السلجوقيون فإنهم انتقلوا بالشرق الإسلامي من موقف المدافع إلى موقف المهاجم المتحدي ، فأعادوا بذلك سيرة الفتوحات الإسلامية التي كاد المسلمون أن ينسوها في زمن التخاذل والانحطاط. ومنها أيضاً احترامهم لمقام الخلافة العباسية التي أوشك أن يجهز البويهيون عليها، وحرصهم على مسالمتها واستغلال مركزها الرفيع في قلوب المسلمين. فقد ترك السلجوقيون للخليفة كل مظاهر الرئاسة والسيادة الدينية، وقنعوا لأنفسهم بالسلطة الدنيوية وقيادة الجيوش ؛ وبذلك استراح العباد من الفتن الهوج، وهدأت القلاقل بعض الهدوء ، وعاد دم الحياة يجري في عروق البلاد الإسلامية، ويرجع إليها النشاط والشباب.

غير أن هؤلاء السلاجقة لم يستطيعوا بدورهم تأليف وحدة إدارية

وجبهة عسكرية موحدة. إذ لم تلبث دولتهم أن انقسمت إلى خمسة بيوت. أولهما الدولة السلجوقية الكبرى التي دامت إلى سنة (٥٢٢هـ)؛ وثانيها الدولة السلجوقية الكرمانية التي دامت ١٥٠ سنة (٤٣٢-٥٨٣هـ)؛ وثالثها سلاجقة العراق وكردستان وقد دام حكمهم إلى سنة (٥٩٠هـ) ورابعها سلاجقة الشام وكان حكمهم قصيراً لم يستمر أكثر من أربع وعشرين سنة؛ وخامسها سلاجقة الروم الذين امتد حكمهم إلى سنة (٧٠٠هـ.) وانتهت دولتهم بظهور الأتراك العثمانيين.

ومن دواعي الأسف أيضاً أن السلاجقة عندما امتد حكمهم إلى الشام ونواحي فلسطين، لم يلبثوا أن اصطدموا بالفاطميين الذين كانوا يحكمون مصر. فتفرقت بذلك كلمة المسلمين واشتد النزاع بين ملوكهم وأمرائهم بدافع الأثرة والانفراد بالحكم، فأثار هذا التفكك والانقسام في رقعة الإسلام طمع أوروبة التي كانت تنظر شزراً إلى اليقظة العسكرية التي أوجدها السلاجقة في الشرق، فظهرت دعوة جديدة باسم إنقاذ قبر المسيح من أيدي المسلمين، فقامت تلك الحروب الشعواء التي كانت أول محاولة من جانب الغرب لاستعمار الشرق العربي - وهي الحروب التي اصطلح المؤرخون على تسميتها بالحروب الصليبية.

وليس من شأننا أن نسهب بذكر أسباب الحروب الصليبية أو نفصل مقدماتها والعوامل المباشرة التي أثارت جذوتها. فذلك من اختصاص كتب التأريخ لا كتب الرحلات. ويمكن القول إيجازاً: إن أسباباً

عديدة من سياسية ودينية واقتصادية قد تجمَّعت وساعد بعضها بعضاً لإثارة تلك الحروب، وإن كان الأوروبيون يميلون على الأكثر إلى جعل أسبابها دينية محضة.

تحركت جيوش الصليبيين تطلب الشرق في ١٥ آب ١٠٩٦ م. (٤٧٩ هـ.) فسحبت بأذيالها من أعمال التدمير والتخريب ما شوَّه تلك الحملة وأبعدها عن غايتها الأصلية. فلما أشرفت على الديار الإسلامية توجهت ميمنتها نحو أنطاكية، وسارت ميسرتها نحو الفرات فاستولت على الرها (أورفة Edessa) واندفع قلبها يطلب بيت المقدس.

وكانت سورية وفلسطين آنذاك أوصالاً مفككة بين أتابكة السلاجقة وحكومة الفاطميين، لذلك لم يجد الصليبيون ما يحول دون زحفهم أو يقف بوجه تقدمهم وقفة جد. فاجتاحوا تلك البلاد من أقصاها إلى أقصاها، فتداعت أمامهم المدن وتساقطت الحصون، وأدركوا القدس وحاصروها ثم دخلوها فاتحين يوم ١٥ تموز سنة ١٠٩٩م. (٤٨٩هـ) وأعملوا السيف في رقاب أهلها من مسلمين ويهود، وهكذا تمَّ لهم احتلال فلسطين. فنشأت في الشرق الإسلامي دولة لاتينية إقطاعية قوامها أربع إمارات أو وحدات سياسية – في الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس. فكانت تلك أشد ضربة تلقاها الشرق الإسلامي، تركت وراءها الأثر البليغ وخلفت من المشاكل السياسية ما ظل شغل أوروبة الشاغل قروناً عديدة.

بيد أن هذا الشرق الإسلامي الذي كان ظاهر أمره يبعث على

اليأس، لم يتأخر طويلاً عن أن يصحو من رجة هذه الصدمة العنيفة التي ضعضعت حواسه لشدة وقعها. وبعث فيه هذا الخطب الداهم يقظة نفسية وردَّ فعلٍ شديد، فراح يلم شعثه ويتدبر أموره؛ ثم تحفَّز للهجوم. وكان زعيم هذه اليقظة عماد الدين زنكي بن آق سنقر (٥٢١-٥٤١هـ. ١١٢٧-١١٤٦م) كبير أتابكة الموصل. فلم يدخل عام ١١٤٤ الميلادي (٥٣٩هـ) إلا وجدناه يهاجم الإمارات الصليبية من جناحها الأيسر ويهزم جيوشها شر هزيمة ويستعيد الرها. فلم يلبث خبر هذا الظفر الإسلامي أن ذاع في أوروبة النصرانية التي كانت تتنسم أخبار الصليبيين في الشرق وتمدهم بالمال والرجال. فثارت هواجسها على مصير الدولة الفتية التي أقامتها في الشرق ببذل الكثير من التضحيات والجسيم من المتاعب. فجردت حملة صليبية أخرى بقيادة كنراد الثالث عاهل ألمانية وإمبراطور رومة المقدسة، ولويس السابع ملك فرنسة. لكن هذه الحملة عجزت عن استرجاع الرها.

وفي عام ٥٤١هـ. (١١٤٦م) مات عماد الدين زنكي قتيلاً بيد جماعة من مماليكه. فولي أمر الموصل بعده ولده سيف الدين غازي. وكان ولده الأكبر محمود نور الدين بالشام، وله حلب وحماة. فاتبع سيرة أبيه بمناجزة الصليبيين، وراح يصد هجماتهم ويرد غاراتهم، فكان هدفه الأسمى أن يطرد الصليبيين نهائياً من الشرق الإسلامي. فبذل همة قعساء في جمع أتابكة السلاجقة في وحدة محكمة وبذلك عظم أمره واشتد ساعده. فانتهز فرصة خلاف كان قائماً بين وزيري الخليفة الفاطمي بمصر، فأرسل إليها اثنين من قواده هما شيركوه

وصلاح الدين الأيوبي ، وانتهى هذا التدخل بأن تولى الأول شؤون مصر نائباً عن نور الدين ثم تولاها صلاح الدين من بعده. وكان غرض نور الدين من تدخله في شؤون مصر أن يضرب حول الدولة الصليبية في الشرق نطاقاً من الحصار وطوقاً من حديد، فيتسنى له بذلك إنزال ضربته الحاسمة.

لكن الدولة اللاتينية استشعرت هذا الخطر الذي بات يهددها من جانب مصر، فأرادت أن تلاقيه في منتصف الطريق؛ وتلمست النطاق المحيط بها فلم تجد أمامها مفتوحاً سوى باب البحر. لذلك استنجدت بالدول النصرانية البحرية الثلاث التي كانت يومئذٍ تسيطر على البحر المتوسط - البندقية وبيزة وجنوة. لكن هذه الجمهوريات كانت في شغل عن المشرق بمشاحنات ومنافسات كانت قائمة بينها، فاضطر أملريك Amalric صاحب القدس أن يتولى - تدارك الخطر - معتمداً على نفسه، فقاد حملة نزلت بر مصر في تشرين الثاني سنة ١١٦٨م (٥٦٤هـ) وكان في مصر حينئذ الأمير شاور يحكمها باسم العاضد لدين الله آخر خلفاء الفاطميين. فقُدِّر لهذه الحملة الصليبية أن تنال قسطاً وافراً من النجاح في أول أمرها، إذ تقدمت نحو شاطئ النيل وكادت تستولي على الفسطاط، لولا أن آثر أهلها إضرام النار بمدينتهم على تسليمها للأعداء، فدبّ الذعر في صفوف الصليبيين وحل بينهم الارتباك ، فأدركتهم جيوش نور الدين يقودها البطل المغوار صلاح الدين يوسف بن أيوب، فآل الأمر إلى دحر الصليبيين وإخراجهم من مصر نهائياً.

وكان العاضد لدين الله الفاطمي شخصية ضعيفة . فأراد أن يدعم بنيان ملكه المصدوع بشخصية صلاح الدين الجبارة فولاه الوزارة غير عارف بأن الأقدار قد أعدَّتْ لهذا القائد العظيم تاج مصر لا وزارتها فقط. وسرعان ما ظهر نبوغ صلاح الدين فأخذ يسوس الرعية بحزم وعدل وحكمة، فالتفّت حوله القلوب واستعادت البلاد عمرانها بعد ما لحقها من التخريب والتدمير ما لحقها.

وفي سنة ١١٧١م. (٥٦٧هـ) توفي العاضد فظل صلاح الدين يحكم مصر باسم نور الدين حتى إذا ما مات هذا أيضاً، لم يجد صعوبة في إعلان ملكيته. وهكذا تأسست الدولة الأيوبية فأخذ صلاح الدين يعد العدة وينتظر الفرصة الملائمة للانقضاض على الدولة اللاتينية في فلسطين ومناجزتها نهائياً.

وهنا يجدر بنا أن نعود شرقاً إلي العراق لنرى كيف كان مجرى الأحوال فيه خلال الحقبة التي ألممنا بحوادثها. فقد تركناه في خلافة القائم والأمر فيه مستتب لطغرل بك آل سلجوق. وبعد أن توفي طغرل سنة ٤٥٥هـ. تم الأمر من بعده لعضد الدولة أبي شجاع ألب أرسلان ووزيره العظيم نظام الملك مؤسس المدرسة النظامية ببغداد، وقد كان الفراغ من بناء هذا المعهد العلمي الكبير سنة ٤٥٨هـ. وفي عام ٤٦٧هـ. تولى الخلافة المقتدي بأمر الله، وكان على السلاجقة جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان. ثم جاءت الخلافة بعده لولده المستظهر بالله أحمد سنة ٤٨٧هـ. وأمرُ السلجوقيين في عهده للسلطان ركن الدين أبي المظفر بركياروق. وفي أيامه بدأت الحروب

الصليبية.

فلما تولى الخلافة المسترشد بالله (٥١٢هـ.) نشب خلاف وشقاق بين أتابكة السلاجقة فأراد الخليفة أن يتعجل الحوادث ويتخلص من نفوذهم، ويعيد السلطة الدنيوية للخلافة إلى جانب سلطانها الروحي. لكن مركز السلطان مسعود السلجوقي كان أقوى مما كان يظنه الخليفة المسترشد، فانتهت محاولته بفاجعة أليمة كلفته حياته وهو في أسر السلطان (٥٢٩هـ) واستمر توتر العلاقات بين السلطان مسعود والخلافة العباسية في أيام الراشد بالله أيضاً. (٥٢٩-٥٣٠هـ.) لكن الخليفة محمداً المقتفي لأمر الله كان أسعد حظاً وأكثر توفيقاً في تحقيق هدفه. إذ توفي السلطان مسعود سنة ٥٤٧هـ. فانتهز المقتفي هذه الفرصة الملائمة وطرد أمراء السلاجقة من بغداد، فصار الحكم للخليفة لا يشاركه فيه أحد. وهكذا استعادت خلافة بني العباس مكانتها واسترجعت سلطتها الدنيوية بعد حقبة طويلة من السنين تغلَّب فيها الأمراء والسلاطين وتحكموا بالخلافة(*).

واستتبَّ الأمرُ بعد المقتفي لولده أبي المظفر المستنجد بالله يوسف سنة ٥٥٥هـ. (١١٦٠م.) فكان عهده كله خيراً وبركة واستعادت الخلافة العباسية رونقها ومجدها نوعا، فازدادت ثروة البلاد وامتلأت خزائنها بالأموال وازدهرت تجارة بغداد وعاد إليها عمرانها، وشمل عدل الخليفة وحلمه جميع رعاياه. فكان دخول الرّحالة بنيامين مدينة بغداد في هذا العهد قرابة سنة ٥٦٤هـ. (١١٦٨م). فوجدها على

---

* لم يكن هذا إلاّ شكليا. راجع الدراسة.

أحسن حال من الرقي والرفاه. وبهذا القدر نكتفي من عرض الحالة التي كانت تسود الشرق الإسلامي في أيام الرحلة التي نحن بصددها.

أما الأحوال التي وجد بنيامين عليها إخوانه يهود الشرق عامة والعراق خاصة فسنتعرض لذكرها في سياق تعليقنا علي كل مدينة زارها وفي ملحق خاص في ذيل هذا الكتاب.

١٠- طبعات رحلة بنيامين واللغات الأوروبية التي ترجمت إليها.

ما كادت الطباعة تظهر في أوروبة في القرن الخامس عشر، حتى كانت رحلة بنيامين في طليعة الكتب المطبوعة. فقد صدرت أول طبعة لها بالعبرية عن مطبعة سونسينو في قسطنطينية سنة ١٥٤٣م. ثم أعقبتها طبعة فرارة في إيطالية سنة ١٥٥٦م. وفريبرغ سنة ١٥٨٣م. وليدن سنة ١٦٦٣ وأمستردام سنة ١٦٩٨. ووارشو سنة ١٨٤٤م. ولفوف (لمبرغ) سنة ١٨٥٩م. وزلكيف سنة ١٨٦٢م. ثم توالى طبعها في كل دار معروفة للنشر.

وقد ترجمت الرحلة إلى معظم اللغات الأوروبية منذ الثلث الأخير من القرن السادس عشر. وأشهر الترجمات التي وصل إليّ علمها الترجمة اللاتينية بقلم أرياس منتانو *Arias Montano* سنة ١٥٧٣م بعنوان *Itinerarium Benjamini Tudelensis* وطبعت للمرة الأولى سنة ١٥٧٥ ثم أعيد طبعها في هلمستد سنة ١٦٣٦ وفي لبسيك سنة ١٦٦٤م.

وعن هذه الترجمة نقلها برشز *Purchas* إلى الإنكليزية في

مـجـمـوعـتـه المسـمـاة *Purchas s Piligrims* وطبـعت في لندن سنة ١٦٢٥م. ثم ترجمها إلى الفرنسية برجرن *Bergeron* في مجموعته المسـمـاة : *Collection des Voyages faits principalement* en *Asie dans le xll, xlll. xiv et xv Siecles.* فطبـعت في لاهاي سنة ١٧٣٥ ثم أعيد طبعها في باريس سنة ١٨٣٠م.

وفي الوقت نفسه أعاد ترجمتها إلى اللاتينية العلامة الشهير قسطنطين لمبرور *Constantine L'Empereur* أستاذ علم اللاهوت واللغة العبرية في ليدن، فجاءت أوفى ترجمة لهذه الرحلة، وعنها ترجم أكثر الذين جاءوا بعده. وفي سنة ١٦٦٦ ترجمت إلى الهولندية وطبعت في أمستردام سنة ١٦٩١ وفي فرنكفورت سنة ١٧١١م. وأعقبتها ترجمة أخرى إلى الفرنسية بقلم باراتير *Baratier* سنة ١٧٣٤ فالإنكليزية بقلم القس غارنس *Rev. Garrans* وطبعت في لندن سنة ١٧٨٤م. وبعدها ترجمها إلى الإنكليزية أيضاً المستر بنكرتن *Pinckerton* في الجزء السابع من مجموعة عنوانها *General Collection of the best and most interesting Voyages and Travels of the World* فطبعت في لندن بين سنتي ١٨٠٨–١٨١٤.

وفي سنة ١٨٤٠ ظهرت في لندن ترجمة آشر Asher المشهورة بتعليقاتها وحواشيها المستفيضة التي اشترك بوضعها عدد من المؤرخين. فنقلها عنه المستر توماس رايط *Thomas Wright* في مجموعته المسماة *Early Travels in Palestine* المطبوعة في لندن سنة ١٨٤٨. وفي خزانة المتحف العراقي نسخة من مجموعة رايط، غير

أنها خلو من التعليقات والحواشي.

وقد ظهرت للرحلة ترجمة بالألمانية بقلم *Grunhut* عنوانها *Die Reisebreschreibungen des R. Benjamin Von Tudela* فطبعت في برلين، فترجمة مرغولين *Margoline* إلى الروسية فطبعت في بطرسبورج (لننغراد) سنة ١٨٨١م. وفي سنة ١٩٠٧ ظهرت في لندن ترجمة إنكليزية للرحلة بقلم مرقس أدلر *Marcus Adler* بتعليقات وحواشي، فجاءت أحسن ترجمة في بابها لاحتوائها على الأصل العبري بازاء الترجمة الإنكليزية. وفي خزانة المتحف العراقي نسخة منها رجعت إليها في ترجمتي. وقد أطلعني الصديق الفاضل الأستاذ يعقوب سركيس على ترجمة بالأسبانية لهذه الرحلة في خزانته العامرة بقلم إغناطيو غنزالز لوبيرا *Ignatio gonzalez Llubera* عنوانها *Viajes de Benjamin de Tudela* مطبوعة في مدريد سنة ١٩١٨.

هذا ما وصل إليه علمي عن ترجمة هذه الرحلة إلى اللغات الأوروبية وفي كثرتها برهان علي ما بلغته عناية علماء أوروبة بها.

١١- مخطوطات الرحلة، نسخة بغداد ونقلها إلى العربية

قلت إن رحلة بنيامين صادفت ذيوعاً وإقبالاً منذ أول القرن الثالث عشر، وتوالت نسخها وتعددت مخطوطاتها حتى تكاد تجدها بين مخطوطات أكثر الخزانات الكبرى في أوروبة وأمريكا. وأقدم وأنفس مخطوطات هذه الرحلة هي نسخة المتحف البريطاني المرقمة ٢٧٠٨٩ التي يرجع تأريخها إلى القرن الثالث عشر. ونسخة كسنتنز

Casanatense في خـزانة رومـا برقـم ٣٠٩٧ مـخطوطة بقلم إسحق البيزي (نسبة إلى بيزة) وتحمل هذه النسخة تأريخ سنة ٥١٨٩ العبرية (١٤٣٠م .) ونسـخـة فـيـانة باللغـة الإيطاليـة بخط القس لويجي دا بولونيـة *Fra Luigi da Bologna* كـتـبـهـا سنة ١٥٩٩م . ونسـخـتـا أوكسفورد من مجموعة أوبنهايم في خزانة بودليانة، رقم الأولى ٢٤٥٣ مكتوبة بخط يهود الأندلس في أواخر القرن الرابع عشر للميلاد ورقم الثانية ٢٥٨٠ مكتوبة بخط يهود الشرق من القرن الثامن عشر.

أما نسخة بغداد التي ترجمت عنها الرحلة إلى العربية، فمنقولة عن طبعة فرارة القديمة من سنة ١٥٥٦م . ومكتوبة بالخط العبري المعروف بالخط الآشوري المربّع، وقد طبعت على حجر ببغداد سنة ١٨٦٥ وهي اليوم تكاد تكون نادرة . لكن هذه النسخة خلو من أية مقدمة أو شرح أو تعليق، وفيها أغلاط خطية عديدة احتاج تنقيحها إلى جهد غير يسير. ولعل عذر الناسخ في ذلك أنه كان ينقل عن نسخة قديمة سبقته بثلاثة قرون. وهناك سبب آخر هو أن بنيامين لم يكن جغرافياً بالمعنى المفهوم ، بل جوّابَ آفاق ، يذكر الأعلام كيفما تلقاها سمعُهُ لأولِ وهلة، سيما ما كان منها بعيداً عن محيطه وتفكيره.

وإننا نرى أغلب السياح من الأوروبيين الذين جابوا أنحاء الشرق العربي في العصور الحديثة يحرّفون أسماء الأعلام تحريفاً غريباً لعدم استطاعتهم ضبطها. خذ مثلاً الرحالة الفرنسي تافرنيه الذي زار العراق بعد بنيامين بخمسة قرون. فإنّهُ يصحف أسماء المدن والأعلام تصحيفاً خارجاً عن المألوف. إذ يقول شرازول بدلاً من شهرزور وسامترا بدلاً من

سامراء وبلصرة بدلاً من البصرة ودياربك بدلاً من ديار بكر إلى آخر ما يطول شرحه[١] ، فكيف الأمر برحالة من القرن الثاني عشر. ولشد ما عانيته من تنقيح مثل هذه الأغلاط وضبط الأعلام ضبطاً صحيحاً مستنداً إلى أوثق المصادر العبرية والعربية والأوروبية بقدر ما تيسر.

وهناك أمران آخران استدعيا جهداً متواصلا وبحثاً مستمراً. الأول أن بنيامين قد أتى في رحلته على ذكر عدد كبير من علماء اليهود وأعيانهم في المدن التي زارها، مثلما فعل أغلب سياح العرب في القرون الوسطى الذين يذكرون علماء كل مدينة وخطباء جوامعها ومدرسي مدارسها. لكنّهُ في حين عني رواد العرب بضبط اسم العالم واسم أبيه ولقبه وكنيته ومسقط رأسه، مما لا يدع إشكالا أو شبهة، نجد أن بنيامين قد اكتفى بذكر الأسماء مجردة من كل تعريف بها. وهذه عادة تمشى عليها أغلب مؤرخي اليهود في القرون الوسطى ولا يزال البعض منهم يجري عليها إلى يومنا هذا. بل قد يعمدون إلى اختزال الأسماء بذكر حروفها الأولى فقط. فهم يقولون « هرمبمהרמבם » بدلا من أبي عمران موسى بن ميمون عبيد الله القرطبي. و« هرابعהראבע » بدلا من أبي إسحق إبراهيم بن مئير بن عزرا الطليطلي و« هرشبغהרשבג » بدلا من أبي أيوب سليمان بن يحيي بن جبروال الأندلسي، وهكذا. وعلى هذا كان لزاماً أن أجوس

---

(١) ترجم الأستاذان بشير فرنسيس وكوركيس عواد القسم الخاص بالعراق من رحلة تافرنية بعنوان « العراق في القرن السابع عشر» وطبع ببغداد سنة ١٩٤٤ .

خلال كتب التأريخ وتراجم علماء القرن الثاني عشر في مختلف الأقطار الأوروبية والشرقية التي مر بها بنيامين للتحقيق عن هوية هذا العدد الوفير من الأعلام الواردة في رحلته، وقد توصلت إلى معرفة عدد لا بأس به منها.

أما الأمر الثاني فهو أن بنيامين، على اطلاعه الواسع ووقوفه التام على نصوص التوراة، لم يكن منتظراً منه التدقيق في جغرافية الكتاب المقدس، وهو علم قائم بذاته لا يزال فيه متسع لبحوث العلماء والمحققين إلى اليوم. لذلك نراه يخلط بين أسماء المدن التي مر بها والمواقع الوارد ذكرها في التوراة لمجرد تشابه يسير يلاحظه باللفظ. فهو يظن أن نهر العاص هو نهر «يبوق» الوارد في التوراة، على حين أن هذا الأخير هو نهر الزرقاء في شرقي الأردن. ويخلط بين بلدة كفرناحوم الواقعة في الجليل وقرية ماعون الواردة في التوراة، في حين أن موقع هذه الأخيرة جنوبي الخليل. ويقول: إن بلدة «القريتين» الواقعة بجوار حمص هي قرياثايم الواردة في التوراة ، على حين أن موقع الأخيرة في شرقي الأردن . إلى آخر ما يطول شرحه.

هذا، وإني ، وإن كنت اعتمدت في الترجمة إلى العربية على نسخة بغداد التي لدي بالدرجة الأولى، لم أتأخر عن ذكر ما يخالف نصها في النسخ الأخرى مثل نسخة آشر ونسخة أدلر. كما أني اتبعت في الترجمة الأسلوب العربي المعروف في كتب الرحلات العربية لتكون أقرب إلى فهم القارئ وذوقه مع الاحتفاظ بالنص الأصلي على قدر ما تسمح به قواعد النقل من لغة أخرى وأصوله، فضبطت الأعلام بلفظها

المعروف عند العرب ووضعت إزاء اسم كل مدينة ما يقابله بالحروف اللاتينية لكي يسهل على القارئ ضبطه. أما الشروح والتعليقات التي ذيّلت بها صفحات الكتاب فقد استخلصتها عن أوثق المصادر محاولا جهدي ذكر آخر ما توصل إليه المحققون. ويحسن بي أن أشير إلى أنني وقفت في التعليق على كل مدينة عند العصر الذي زارها فيه بنيامين أو بعده بقليل، مادامت الغاية مقصورة على تفهم الحالة التي كانت سائدة في القرن الثاني عشر. أما الذيول التي ألحقتها بآخر الكتاب فقد تناولت فيها الموضوعات غير المألوفة لدى قراء العربية كالقرائين والسامريين ورئاسة الجالوت والمثيبة في بغداد وغيرها من المطالب التي لم استطع إيفاءها حقها من البحث في الحواشي.

وإذا كنت لم أبلغ حد الكمال برسالتي هذه، أو إذا بدرت مني هفوات في هذا الموضوع العسير، على الرغم مما بذلته من مجهود، فإن لي من ظروف الحرب وضيق مجال البحث وقلة المصادر التي كان في ميسوري الحصول عليها عذراً أتمنى أن يكون مقبولا. وأرى من واجبي أن أشيد بفضل صفوة من إخواني أدباء العراق ومحققيه الأنجاب الذين لم يبخلوا علي بكل إشارة إلى ما فيه الصواب. أخص بالذكر منهم صديقي مؤرخ العراق الكبير الأستاذ عباس العزاوي ، والأستاذ المحقق والأديب اللامع الدكتور مصطفى جواد، والأستاذ المتتبع يعقوب نعوم سركيس، والأستاذ الأديب النابه كوركيس عواد، أمين خزانة المتحف العراقي، والأستاذ الفاضل النابغة يوسف الكبير المحامي. فلحضراتهم علي منة إرشادات قيمة وملاحظات ثمينة. وما هذا المجهود الذي قمت

به إلا نتيجة فضلهم وعنايتهم. وإني لأخص بالتقدير والامتنان كذلك حضرة الحبر الجليل صاحب السيادة الحاخام ساسون خضوري رئيس الطائفة الإسرائيلية ببغداد لما حباني به من تشجيع ويسر لي الوقوف على بعض المراجع العبرية. وفق الله الجميع لخدمة العلم وتحري الحقيقة.

وختاماً، هذه «رحلة بنيامين» أضعها لأول مرة بين أيدي قراء العربية، راجياً أن أكون قد قمت بقسطي اليسير من خدمة التأريخ. وإلا كان حسبي أني طرقت باباً فيه متسع لمن هو أطول باعاً في البحث والتحقيق.

والله الموفق لما فيه الخير والصلاح.

عزرا حداد

المراجع والمصادر

اقتصرنا في هذا الفهرس على أهم الكتب والمدونات التي اعتمدناها في تعليق حواشي رحلة بنيامين. وغايتنا التوجيه إلى المراجع التي لها علاقة مباشرة بالقرن الثاني عشر للميلاد (السادس للهجرة)، مرتبة على حروف الهجاء. وقد ذيلنا كل مرجع إفرنجي بالحروف التي ترمز إليه في حواشي الكتاب

١- المراجع العبرية

אוצר ישראל – دائرة المعارف العبرية لأيزنشتاين. تقع في عشرة أجزاء طبعة لندن ١٩٢٤.

בית יהודה – بيت يهوذا – لإسحق لاونزون. يقع في جزئين، ويبحث في تطور الثقافة اليهودية من أقدم الأزمنة حتى أواسط القرن الماضي. طبعة وارشو ١٨٧٨

דברי ימי ישראל – تاريخ اليهود الكبير – وضعه بالألمانية سنة ١٨٧٦ المؤرخ الشهير هاينريخ غراتز عميد الكلية الرابانية في برسلاو بعنوان *Geschichte der Juden* في اثني عشر مجلداً. تُرجِمَ مختصراً إلى الإنكليزية في خمسة أجزاء وطبع في نيويورك. أما الترجمة العبرية وهي التي اعتمدنا، فتقع في ثمانية أجزاء بقلم الكاتب شاؤل رابينوفتش. وقد أضاف إلى ترجمته التعليقات

والحواشي الضافية التي جعلت لها قيمة تاريخية أكثر من الأصل الألماني. ويتناول الجزء الرابع من هذا التأريخ حوادث القرن الثاني عشر والبحث في رحلة بنيامين. طبعة وارشو سنة ١٩١٦ (GR)

דור דור ודורשיו – للدكتور أيزيك هرش وايس. وهو تاريخ مفصل لتطور الثقافة اليهودية. يقع في خمسة أجزاء. طبعة برلين ١٩٢٤.

ספר יוחסין – كتاب الأنساب – للفلكي الأندلسي إبراهيم بن صموئيل زاكوتو المتوفي سنة ١٥١٠ م. صاحب الأسطرلاب الذي استعمله الرائد البحري الأسباني فاسكو دي غامة. طبعة لندن ١٨٥٧.

ספר יוסיפון – تاريخ يوسف بن جريون – وضعه مؤلف مجهول من القرن التاسع للميلاد، ونسبه إلى يوسيفوس فلافيوس المؤرخ اليهودي المعروف من القرن الأول. والكتاب يتضمن أساطير اليهود القديمة. طبعة لفوف ١٨٦٩

סבוב תית– رحلة الرابي فتاحية الرجنسبرجي – قام برحلته التي فصّلناها في مقدمتنا، في حدود سنتي ١١٧٥–١١٨٥م. لدينا منها طبعتان. الأولى طبعة أوستراخ سنة ١٨٠٦، والثانية ملحقة بذيل كتاب سפר הישר للربن يعقوب تام. طبعة ليغورنو سنة ١٨٤٦م. وقد اعتمدنا الطبعة الأخيرة في مراجعاتنا.

צמח דוד– للمؤرخ الفلكي داود بن سليمان غانز. (١٥٤١–١٦١٣) يقع في جزئين، ويتناول تاريخ اليهود والعالم من الخليقة حتى

سنة ١٦٩٢ م . وله ملحق ينتهي عند حوادث سنة ١٨٧١ . والكتاب معدود من المراجع التاريخية المهمة. طبعة وارشو ١٨٧٨ .

קובץ של אגרות ר' שמואל בן עלי ובני דורו – مجموعة رسائل صموئيل بن علي الملقب بابن الدستور، رأس مثيبة علماء يهود بغداد أيام زيارة بنيامين . منقولة عن النسخة التي وجدت بين مخطوطات خزانة لننغراد. وهذه الرسائل مكتوبة بحروف عبرية ولغة عربية، وتعد من أهم الوثائق عن تاريخ يهود العراق خاصة والشرق عامة في القرن الثاني عشر للميلاد. طبعة القدس ١٩٣٠ .

שבט יהודה– للطبيب الفلكي يهوذا ابن ويرغة الأشبيلي الأندلسي. عاش في أسبانيا ثم لجأ إلى لشبونة سنة ١٤٨٣م. وقبضت عليه محاكم التفتيش فمات شهيداً سنة ١٤٩٧م وكتابه معدود من أهم المصادر عن تاريخ اليهود في القرون الوسطى. طبعة لفوف ١٨٦٤.

שלשלת הקבלה– سلسلة التواريخ – للمؤرخ كدلية بن يحيى . طبعة وارشو ١٨٨١.

תולדות חכמי ישראל – تاريخ علماء اليهود – للمؤرخ اليهودي الروسي قلمن شولمن . يقع في جزئين . طبعة فيلنو ١٨٧٦ .

תולדות ישראל – للدكتور بنصيون دينابورغ ، يقع في جزئين، ويحتوي على أشهر الوثائق التاريخية الخاصة باليهود في القرون الوسطى. طبعة تل أبيب ١٩٢٩ .

תחכמוני– مقامات الحريزي – ليهوذا بن سليمان الحريزي

الطليطلي الأندلسي. طبعة وارشو ١٨٩٩ .

תלמוד בבלי – التلمود البابلي – طبعة فيلنو ١٩١٢ .

תנך – الكتاب المقدس. طبعة لندن ١٩١٢ .

٢- المراجع العربية

١- الآثار الباقية عن القرون الخالية – لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، طبعة لبسك، ١٩٢٣ .

٢- الإسلام والحضارة العربية – للأستاذ محمد كرد علي، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٩٣٤ .

٣- الأعلاق النفيسة – لأبي علي أحمد بن عمر المعروف بابن رسته. طبعة ابريل، ١٨٩١ البدء والتأريخ – لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي. ستة أجزاء. طبعة باريس ، ١٨٩٩ .

٤- كتاب البلدان – لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف باليعقوبي – طبعة مصر.

٥- كتاب تجارب الأمم – لأبي علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه. طبع بمصر، سنة ١٣٣٣هـ.-١٩١٥م.

٦- التنبيه والإشراف – لأبي الحسن علي بن حسين بن علي المسعودي ، صاحب مروج الذهب المتوفي سنة ٣٤٥هـ. طبعة ليدن. ١٨٩٤ .

٧- الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير - (الجزء التاسع) .
لأبي طالب علي بن أنجب تاج الدين المعروف بابن الساعي الخازن المتوفي سنة ٦٧٤هـ. المطبعة السريانية ببغداد، ١٩٣٤ .

٨- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - تأليف آدم متز وترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة. لجنة التأليف والترجمة بمصر، ١٩٤٠-١٩٤١ .

٩- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية - للأمير شكيب أرسلان. المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٣٦ .

١٠- الحوادث الجامعة - لأبي الفضل عبد الرزاق ابن الفوطي البغدادي. طبع ببغداد بعناية الدكتور مصطفى جواد، ١٣٥١هـ.

١١- تأريخ الحكماء - أو إخبار العلماء بأخبار الحكماء - لجمال الدين القفطي . طبعة لبسك ، ١٩٠٤ .

١٢- رحلة ابن جبير - لأبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي. طبعة المكتبة العربية ببغداد، ١٩٣٧ .

١٣- رحلة ابن بطوطة - لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن بطوطة المتوفي سنة ٧٧٠هـ. المطبعة الأزهرية بمصر، ١٣٤٦هـ.

١٤- رواد الشرق العربي في العصور الوسطى - لنقولا زيادة. مطبعة المقتطف بمصر، ١٩٤٣ . شذرات الذهب في أخبار من ذهب - للمؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفي سنة ١٠٩٨هـ. طبعة القدسي بمصر، ١٣٥١هـ.

١٥- صلاح الدين الأيوبي وعصره - لمحمد فريد أبي حديد. لجنة التأليف والترجمة بمصر، ١٩٢٧

١٦- صورة الأرض - لأبي القاسم ابن حوقل الأندلسي . طبعة ليدن، ١٩٣٨ .

١٧- تأريخ الطبري - لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. المطبعة الحسينية بمصر.

١٨- طبقات الأمم - للقاضي ابن القاسم بن محمد بن صاعد الأندلسي المتوفي سنة ٤٦٢هـ . طبعة بيروت ، ١٩١٢ .

١٩- تأريخ العراق بين احتلالين - (الجزء الأول، حكومة المغول) للأستاذ عباس العزاوي. بغداد ، ١٩٣٥ .

٢٠- عيون الأنباء في طبقات الأطباء - لموفق الدين أبي العباس بن أبي أصيبعة. طبعة مصر، ١٢٩٩هـ.

٢١- تأريخ غزوات العرب في أوروبة - للأمير شكيب أرسلان . مطبعة عيسى الحلبي بمصر، ١٣٥٢هـ.

٢٢- قاموس الكتاب المقدس - تأليف جورج بوست. المطبعة الأمريكانية ببيروت ، ١٨٩٤ .

٢٣- المختصر في أخبار البشر - للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبي الفداء صاحب حماة المتوفي سنة ٧٣٢هـ . المطبعة الحسينية بمصر.

٢٤- تأريخ مختصر الدول - لغريغوريوس أبي الفرج بن هرون المعروف بابن العبري طبعة بيروت، ١٨٩٠ .

٢٥- مختصر كتاب البلدان - لأبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه طبعة ليدن، ١٨٨٥ .

٢٦- المسالك والممالك - ابن خرداذبه المتوفي في حدود سنة ٣٠٠هـ. طبعة ليدن، ١٨٨٩ .

٢٧- معجم البلدان - للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المتوفي سنة ٦٢٦هـ. مطبعة السعادة بمصر، ١٩٠٦ .

٢٨- نزهة المشتاق في تأريخ يهود العراق - لمعالي يوسف رزق الله غنيمة . بغداد ١٩٢٤ وادي الفرات - (الجزء الأول) للدكتور أحمد نسيم سوسة. مطبعة الحكومة ببغداد، ١٩٤٤ .

٣- المصادر الأفرنجية

Abrahams. Israel, Jewish Life in the Middle Ages. New edition, London 193 (J.L.M.A.)

Adler, Elkan N, Jewish Travellers, London 1930 (J.T.)

Adler, M.N. The Itinerary of Benjamin of Tudela, London, 1907 (I.B.T)

Ainsworth, W.F., Euphrates Expedition, vol. I.ll. London 1888 (Eu. Ex.)

Bacher, W., Benjamin of Tudela, Article in Jewish Encyclopedia, New-York and London 1902 (J.E)

Bentwich, N., A Wanderer in the Promised Land, London , 1932 (W.P.L.)

Blakeney, E.H,. Edi. Classical Dictionary, London 1910 (C.D.)

Budge, Sir A. Wallis, By Nile and Tigris vol. l. ll. London 1920 (N.&T.)

Cheyne. The Tower of Babel in Biblical Ency. (B.E.)

Cohen. Rev. A., Everymans Talmud, London, 1937.

De Haas, Jacob, Edi Encyclopedia of Jewish Knowledge, New -York 1934 (E.J.K.)

Encyclopedie De L.islam et Supplements, Paris, 1913-1938.

Fischel, Dr. Walter. Jews in Economic and Political Life of Mediaeval Islam, London, 1937 (J.m.l.)

Gibbon, Edward, The Decline and fall of the Roman Empire. the Modern Library Ed, New-York, 1932 (D.F.R.E.)

Grousset, Rene, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem. Tom l.ll.lll. Paris. 1934. (G.R.)

Huart. Cl., Histoire des Arabes. Paris. 1912-1913.

Jewish Encyclopedia, New-York, 1902 (J.E.)

Josephus, Flavious, Translated from the Greek origin by (E.l.) William Whiston, London, 1912 (J.F.)

Lane. W.H., Babylonian Problems, London 1923 (B.P.)

The Legacy of Islam. Oxford U.p. London, 1931 (L.l.)

The Legacy of Israel. Oxford U.P. London 1927 (L.E.)

Le Strange, Guy, Palestine under the Moslems, Cambridge, 1890 (P.U.M.)

- The Land of the Eastern Caliphate, 1905 (L.E.K.)

- Baghdad During the Abassid Caliphate, Oxford 1900 (B.D.A.C.)

Levy, Reuben, A Baghdad Chronicle, Cambridge, 1929.

Lockhart, Laurence, Famous Cities of Iran, London 1939 (F.C.I.)

Lowenthal, Marvin, A World passed by, London , 1933, (W.P.B.)

Muir, Sir William, The Chaliphate, its Rise, Decline and Fall, oxford 1891.

Obermeyer, Jacob, Die Landschaft Babylonien Frankfurt Am Main 1929.

Poznansky, S., Babylonische Geonim , im Nachgaonaischen Xeitalter Berlin 1914.

Roth, Cecil. The Jewish Contribution to Civilisation london 1938 (J.C.C.)

Rhys. Ernest, Ed. atlas of the Ancient and Classical Geography, London, 1938.

Smith, Henry William, Historians History of the World, New-York

1907, vol. 7-8 (H.H.W.)
Stein, Sir Auriel, Old Routes of Western Iran London, 1940.

ثالثاً

نص ترجمة رحلة بنيامين التطيلي

ITINERARY

OF

R. BENJAMIN OF TUDELA

1165 — 1173

Translated from the Hebrew original, with Introduction, Notes and Appendixes

By

EZRA H. HADDAD

FIRST EDITION

BAGHDAD

1945

مقدمة الرحلة[١]

هذا كتاب « رحلة الرابي[٢] بنيامين بن يونة التطيلي[٣] النباري[٤] » الذي جاب المدن العديدة البعيدة. وسجّل ما شاهده في الأمصار التي مرّ بها عياناً، أو ما نقله عن الثقات ذوي الأمانة المعروفين لدى يهود أسبانية. وقد أورد أسماء مشاهير العلماء والرؤساء في الأماكن التي زارها. وعاد بمعلوماته هذه إلى قشتالة[٥] سنة ٤٩٣٣ العبرية[٦].

---

(١) المقدمة لكاتب مجهول، قد يكون معاصراً لبنيامين أو أنه أول من استنسخ الرحلة فاستهلها بهذه المقدمة. ولسنا نعتقد أن أحاديث الرحلة من أمالي بنيامين علي كاتب المقدمة. وقوله « وقد أثبت التمحيص والتدقيق صحة ما أورده » يؤيد رأينا. لأن مثل هذا التدقيق في صحة ما رواه، لابد أنه استغرق زمناً غير يسير.

(٢) الربي أو الراب. لفظة عبرية تعني السيد أو الأستاذ ، يلقّب بها اليهود علماءهم ووجهاءهم. وقد يقال ربن أيضاً. جاء في تاج العروس للزُبيدي : « الربن. المتقدم في شريعة اليهود. » ويطلق العرب لفظة الرِّبي والرباني على المتألّه المتعبِّد. وفي الروض الأنف : « إن الربانيين الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره. وقيل: نسبوا إلى علم الرب، والفقه فيما أنزله. وزيدت فيه الألف والنون للتفخيم. » ولكثرة ورود هذه اللفظة في سياق الرحلة اقتصرناها بحرف « ر. ».

(٣) نسبة إلى تطيلة Tudela البلدة المعروفة في شمالي أسبانية. تبعد مسافة ٧٨ كيلومتراً عن سرقسطة ، على الضفة اليمنى لنهر إبرة Ebro.

(٤) نسبة إلى نبارة أو نبرة Navarre . وهي كورة أسبانية قريبة من حدود فرنسة، يسقيها نهر إبرة. وكان العرب يسمونها بنبلونة أيضاً.

(٥) Castilla ويسميها العرب قشطالة وقسطيلية أيضاص. من أهم الإمارات الأسبانية القديمة . غلب العرب على جميعها عندما فتحوا الجزيرة، ثم كانت أول إمارة أسبانية استقلت عنهم (الحلل السندسية تأليف الأمير شكيب أرسلان ج١ : ٣١٧-٣١٩).

(٦) ١١٧٣م. و٥٦٩هـ.

والرابي بنيامين من الثقات العارفين بالتوراة والشريعة. وقد أثبت التمحيص والتدقيق صحة ما أورده، ودلّ على صدقه وأمانته(*) وهذا بدء حديثه :–

رحلة بنيامين

قال الرابي بنيامين بن الرابي يونة طاب ذكره :

كان رحيلي في أول الأمر عن مدينة سرقسطة(١). فانحدرت منها بطريق نهر إبرة إلى طرطوشة(٢). وبلغت بعد مسيرة يومين مدينة

(*) قمت بالتعليق على بعض المعلومات التي أوردها سعياً لصحتها. (عبد الرحمن)

(١) هي سراكوزة Sarragossa مركز إقليم يعرف بهذا الاسم في أسبانية ، وقاعدة مملكة أراغون Aragon في العصور الوسطى. موقعها على يمين نهر إبرة. كانت قديما تدعى سلدوبة Salduba في إقليم Hispania Tarraconesis . ثم جددها يوليوس قيصر وسماها قيصر أرغطة Caesar Lugusta فقيل سرقسطة تخفيفاً. استولى عليها العرب سنة ٩٤هـ. (٧١٢م)، وخرجت من أيديهم في ٤ رمضان سنة ٥٢هـ. (١١١٨م) . وكانت – أيام حكم العرب – معدودةً من القواعد الإسلامية الكبرى. وكان يُقال لها : المدينة البيضاء نظراً لبياض أسوارها.

أما تأريخ اليهود فيها فيرجع إلى القرن السادس للميلاد. وقد أدركوا مقاماً معروفاً في القرن العاشر، إذ بلغ عددهم فيها أكثر من خمسة آلاف، كان لهم اثنتا عشرة كنيسة. ونبغوا في ضروب الصناعة كالصباغة والصياغة والنسيج. لكن شأنهم فيها قد انحط بعد خروج العرب منها، ولحقهم أذي شديد في اضطهادات سنة ١٣٩١م. (j.E وC.D. والحل السندسية ج٢: ١١٤).

(٢) هي Tortosa من أعمال قشتالة. كان لليهود فيها أيام حكم العرب طائفة معروفة. وأشهر من انتسب إليها أو أقام فيها من علمائهم في القرون الوسطى مناحيم بن سروق الطرطوشي القرطبي النحوي الشهير واضع أول قاموس للعبرية (القرن العاشر) ويعقوب بن صموئيل منتينو الطبيب الشهير، هاجر إلى إيطالية وخدم في بلاط اثنين من باباوات رومية، هما كليمنت الرابع وبولس الثالث. ثم قام برحلة إلى الشرق مع

طركونة[1] القديمة، ذات الأوابد الجسيمة من بناء الجبابرة وأسلاف الأغريق ، مما لا نظير له في جميع بلاد الأسبان، وموقعها على شاطئ البحر. ومنها على مسيرة يومين:-

برشلونة[2] *Barcelona* وفيها طائفة من اليهود وجماعة من العلماء

=سفير البندقية وتوفي في الشام سنة ١٥٤٩م. ومن أشهر الأحداث التي عاناها اليهود بعد خروج العرب من طرطوشة اضطهادات سنة ١٣٩١م. والمناظرة الدينية الكبرى التي نظّمها البابا بندكتس الثالث عشر بين علماء اليهود ويوشع اللورقي اليهودي المُتنصّر، استمرت من شباط ١٤١٣ حتى تشرين الثاني ١٤١٤م. (GR. VI. 119 J.E)

(١) هي Tarragona القديمة على شاطئ أسبانية الشرقي. عمّرها الرومان، واتخذها أوغسطس قيصر معسكراً بعد معركة كنتبرية سنة ٢٦ ق.م. ويقال : إن أول من استوطن هذه المدينة قوم من الأيبريين يقال لهم السيسست Cessitians، وهم الذين أقاموا أسوارها سنة ٢٦٧ ق.م. ثم صارت من أهم مستعمرات الرومان في أسبانية سنة ٢١٨ ق.م. ولا تزال بقايا سورها القديم ماثلة، وهو مشيد من صخور غير مهذبة. وفي ضاحيتها أطلال قناطر رومانية معلّقة ومرسح (مسرح) قديم مدرّج. استولى عليها القوط سنة ٤٧٥م. واحتلها العرب سنة ٧١٣م . وبقيت بأيديهم حتى سنة ١١١٨ . لكن أهميتها التجارية تضاءلت وانتقلت إلى برشلونة. وكان يقال لطركونة أيام حكم العرب « مدينة اليهود » لكثرتهم فيها.

(٢) هي Barcino الرومانية القديمة في إقليم Hispania Tarraconesis من أسبانية الشرقية، قيل سميت بذلك نسبة لبانيها الأول هملقار بارقة Hamilcar Barca القائد القرطاجي والد هانيبال. وفي عهد الرومان سميت Julia Faventia . وكان استيلاء القوط عليها في أوائل القرن الخامس للميلاد. وفتحها العرب سنة ٧١٣م. ثم استرجعها لويس الحليم ملك فرنسة سنة ٨٠١م. وكان أول يهودي أقام في برشلونة رجل يقال له يهوذا العبري، أصدر له الملك شارل الأصلع Charles The Bald (٨٢٣-٨٧٧) براءة جاء فيها: Judas Hebraeus Fidelis أي يهوذا العبري أميننا.

والحكماء والرؤساء الكبار . منهم الرابيون ششت[١] وشئالتيال[٢] وسليمان[٣] بن إبراهيم بن حسداي . والمدينة، على صغرها جميلة . يؤمها التجار من اليونان وبيزة وجنوة وصقلية وإسكندرية مصر وفلسطين وما والاها وسواحل إفريقية ، للبيع والشراء . وعلى مسيرة يوم ونصف اليوم منها :-

---

=وبضاحية المدينة رابية تدعى Montjuich أي جبل اليهود نسبة إلى الحي اليهودي القديم ومقبرة يهودية بجانبها . وقد بلغ اليهود في برشلونة مكانة رفيعة من التقدم العلمي، وسماها الحريزي «مدينة الرؤساء وبلد الحكماء» (المقامة ٤٦) وأشتهر من انتسب إليها من علمائهم، سليمان بن أدريت صاحب الرسالة المشهورة في معارضة ابن ميمون، ويهوذا بن برزيلاي الشاعر المعروف בצל האזהרות وإبراهيم بن حسداي ويوسف بن سبارة ويهوذا بونسنيور وحسداي قرشقش وغيرهم . وقد فقد اليهود مركزهم العلمي الممتاز فيها بعد الاضطهاد الذي لحقهم سنة ١٣٩١م . (الحلل السندسية ج٢ : ٢٧٢ و W.P.B. 179 ff J.E) .

(١) هو العلامة ششت بن إسحق بن يوسف بنبنشتي Benveniste الفيلسوف الطبيب . ولد سنة ١١٣٠ وتوفي سنة ١٢٠٣م . (٥٢٥-٦٠٠هـ .) كان أستاذاً بارعاً باللغة والتلمود وجد حظوة في بلاط الفونسو الثاني ملك أراغون وأصبح من أخصّ مستشاريه . ونظراً لتضلعه بالعربية فقد أوفده الملك بسفارة خاصة لدى ملوك المسلمين في أسبانية سنة ١١٧٠م . (٥٦٦هـ .) (الحريزي : المقامة ٤٦ و GR. IV. 408) .

(٢) هو الرئيس شئالتيال بن صموئيل المتوفي سنة ١١٩٧م . (٥٩٤هـ .)

(٣) الصحيح صموئيل لا سليمان . لأن سليمان بن إبراهيم حسداي ولد سنة ١١٦٥م . أي سنة شروع بنيامين برحلته . فلا يعقل أن يذكر اسمه بين رؤساء البلد .

أما صموئيل فهو ابن إبراهيم بن صموئيل بن حسداى اللاوي البرشلوني . أنجب خمسة أولاد نبغوا بالفقه والعلوم . أشهرهم إبراهيم حسداي مؤلف القصة الأخلاقية المعروفة «ابن الملك والناسك» בן המלך והנזיר (GR. IV. 252)

جيرندة[1] *Gerona* وفيها طائفة صغيرة من اليهود. وعلى مسيرة ثلاثة أيام منها :-

(١) هي البلدة المعروفة اليوم باسم جيرونة Gerona. موقعها على نهر أونيار Onar أحد روافد نهر تر Ter كانت تدعى على عهد الرومان جيرندة Gerunda . فلما افتتحها العرب سنة ٧٠٣م أعادوا إليها اسمها القديم، وبقيت بأيديهم حتى انتزعها منهم شارلمان سنة ٧٨٥م، ثم استردوها منه سنة ٧٩٣م، وأخرجوا منها نهائياً سنة ٨٠٠ م. أقام اليهود في جيرندة منذ القرن الخامس للميلاد في حي خاص بهم كان يدعى Calle de Calle Judaic بجوار القلعة، وأشهر من انتسب إليها من علمائهم في القرن الثاني عشر موسى بن نحمن الجيرندي הרמבן المفسِّر الطبيب الفيلسوف الكبير [ولد في جيرندة سنة ١.١٩٤ وتوفي في فلسطين سنة ١٢٧٠م] وابن عمه يونة بن إبراهيم الجيرندي الملقَّب بالمتقي החסיד تولَّى زعامة معارضة فلسفة موسى بن ميمون بين علماء اليهود في فرنسة وأحرق كتبه في باريس سنة ١٢٣٣م. وزرحية بن إسحق اللاوي الجيرندي الشاعر الكبير صاحب كتاب السراج מפר המאור وغيرهم. (الحلل السندسية ج. ٢ :٨وغزوات العرب: ٢٨٠ و GR.iv 252 وW.P.B.) . 131 ff

أربونة[١] *Narbonne* الشهيرة بمجامعها[٢] العلمية، مصدر العلم والدين للأقطار المجاورة. وفيها عدد كبير من الأشراف والعلماء، على رأسهم ر. قلونيموس[٣] ابن العلامة الرئيس الجليل تيودوروس طاب ذكره، من آل الملك داود، وبيده الوثائق التي تؤيد صحة نسبه، وهو ذو أملاك وعقارات أقطعه إياها ملوك البلد، وليس لأحد أن ينتزعها منه.

---

(١) هي مدينة نربونة Narbonne والعرب تقول أربونة. كانت قاعدة ثغورهم الشمالية في جنوبي فرنسة نحو نصف قرن. وهي معدودة بين أقدم مدن الأرض. عثر العلماء فيها على بقايا بشرية من العصر الحجري. وفي أواخر القرن الثاني عشر ق.م. استقر بها السلتيون، وافتتحها الرومان سنة ١٢١ق.م فبلغت على عهدهم شأواً بعيداً من الرقي. وفي سنة ٤١٣م دخلت في حوزة القوط. وافتتحها العرب بقيادة السمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس سنة ٧١٩م، ثم استعادها شارلمان سنة ٧٥٩م. وقد استمرت الحرب سجالاً بين العرب والإفرنج للاستيلاء على هذه البلدة الحصينة لكنها استقرت أخيراً بيد الإفرنج. أما صاحب نفح الطيب فيقرر أن أربونة من فتوح عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيب وزير هشام بن عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٧هـ. وقد أقام اليهود في أربونة منذ القرن الخامس للميلاد، وانتسب إليها من علمائهم الرابيون موسى الواعظ النَّربوني רמשהדרשן ويوسف بن إسحق قمحي المترجم النحوي الكبير (١١٠٥-١١٧٠م) وولده داود قمحي רדק صاحب الشروح المعروفة على التوراة (١١٦٠-١٢٣٥م) وكتاب الجمل في النحو ספר המכלול وغيرهم. (غزوات العرب: ٦٤ و J.E و C.D.).

(٢) كان اليهود في أسبانيا وجنوبي فرنسة يسمون مجامعهم بالجامع Aljama .

(٣) هو قلونيموس بن تيودوروس العلامة النربوني الشهير ناظم القصيدة المعروفة «أزهروت» בצל האזהרות ورد ذكره بين السجلات القديمة لأصحاب الأملاك في نربونة باسم: Clarimoscious Filius Tauroscii (Arcluves Israelites 1861:449)

وفيها من العلماء الرابيون إبراهيم[١] رئيس المجمع العلمي ومكير[٢] ويهوذا وغيرهم . ويبلغ عدد اليهود فيها نحو ٣٠٠ أسرة[٣] . وعلى مسيرة أربعة فراسخ[٤] منها :-

---

(١) هو إبراهيم بن إسحق، أقضى قضاة ראבד اليهود في أربونة ورئيس الجامع. ولد في موبليه سنة ١١١٠ وتوفي في أربونة سنة ١١٨٧م. (٥٨٤هـ) تتلمذ على العلامة موسى بن يوسف بن مروان اللاوي. وأشهر من أخذ عنه زرحيه بن إسحق اللاوي الجيرندي صاحب كتاب السراج בעל המאור والمفسر الكبير إبراهيم بن داود صاحب التعليقاتבעל ההשגות. ومن أشهر مؤلفاته كتاب العثكول ספר האשכול . (J.E. و GR. IV. 406-7)

(٢) كان بيت مكير من البيوت العلمية المعروفة في أوروبة خلال القرون الوسطى . وكان ر . مكير الجد الأكبر لهذا البيت من مشاهير علماء اليهود ببغداد، فأوفده هرون الرشيد الخليفة العباسي إلى أوربه بناء على طلب الملك قارله (شارلمان) لتعليم يهود بلاده شعائر دينهم، فاستقر بأربونة. ويقال: إن قارله (شارلمان) أقطعه ثلث هذه المدينة ومنحه براءة الأحرار. وفي رواية أن قارله هذا هو شارل مارتل جد شارلمان (دينابورغ ج ١ : ٣٩ و GR.IV. 852) .

(٣) العادة الجارية بين مؤرخي اليهود أن يكون إحصاء نفوس الطوائف اليهودية حسب تعداد أصحاب الأسر وأرباب البيوت בעלי בתים . وعلى هذا جرى بنيامين عند تطرقه لعدد اليهود في المدن التي زارها.

(٤) الفرسخ (Parasang) لفظة فارسية قديمة. وباليونانية Parasagges . ويعادل الفرسخ في عرف رواد القرون الوسطى ثلاثة أميال وربع الميل الإنكليزي. وتعادل كل عشرة فراسخ مسيرة يوم واحد أما الرواد العرب فكانوا يعتبرون الفرسخ الواحد ١٢٠٠٠ ذراع، وعند رواد اليهود كان يعتبر الفرسخ פרסא ٢١٠٠٠ قدم.

بيزيه[١] *Bezier* وفيها طائفة من العلماء على رأسهم الرّابيّان سليمان حلفته[٢] ونثانيال[٣] . وعلى مسيرة يومين منها :-

---

(١) بيزية الحالية Bezier في جنوبي فرنسة . وتعرف أيضاً بمدينة القناة . كان اليهود يسمونها بدرش בדרש وأشهر من انتسب إليها من علمائهم مشولم بن موسى ويوسف كوهن السيغوبي Segovia ويداعيه بنيني פני' وأشتروق العازر إيزوبي وغيرهم . وقد أصاب يهود هذه المدينة محنة كبيرة في القرن الثالث عشر من جراء الحروب المذهبية التي ثارت ضد فرقة الألبيجينيين Albigenses وفي سنة ١٢٤٦ حظر على اليهود ممارسة الطب في هذه البلدة (J.Eو GR IV. 260)

(٢) بين الآثار اليهودية القديمة الباقية في بيزية ، رخامة كانت في كنيسة اليهود يعود تاريخها إلى سنة ١١٤٤م . عليها كتابة بالعبرية فيها ما نصه : «لقد طرد اليهود من هذه المدينة ودمرت كنيستهم . وعند عودتهم إليها جدد بناء الكنيسة الرّابي حلفته أحد كبار الرؤساء في مدينتنا ، جازاه الله خيراً . الخ . . » ولا ريب في أن هذه الكتابة تشير إلى الرابي سليمان حلفته الذي يذكره بنيامين (Lixenthal, W.P.B. 114)

(٣) من رأي غراتز أنه العلامة يوسف بن ناثان . وهو ثاني يهوديين اعتمدهما الأمير روجر ترنكفال Marquis Roger Trancaval في إدارة أملاكه . أما الأول فكان يدعى موسى دي كفريته Cavrita (Gr. IV. 261)

مونبليه[١] *Montpellier* وهي بلدة تجارية تبعد نحو الفرسخين عن الساحل، حيث يجتمع التجار من نصارى ومسلمين من مختلف الأمصار، من عدوة الغرب[٢] ولمبردية وممالك رومية الكبرى وفلسطين واليونان وفرنسة وأسبانية وإنكلترة، من الذين يتحدثون بكل لغة ولسان، لأنها القاعدة التجارية للجنوبيين والبيزيين. وفي هذا البلد عدد من كبار علماء هذا الجيل، على رأسهم الرابيان إبراهيم بن

---

(١) كان اليهود يطلقون على مدينة مونبلية اسم הר געש أي جبل الزلزال كناية عن اسمها الفرنسي. وموقعها في إقليم لنغدوقية Languedoc في جنوبي فرنسة. وتاريخ اليهود قديم فيها. كان لهم حي خاص يدعى Juzeterie أو Juiverie. وقد بلغوا في هذه المدينة شأواً عظيماً من العلم ونبغ بينهم عدد كبير من العلماء والفقهاء. وكان يهود أوروبة يسمون هذه المدينة بالجبل الأقدس הר הקודש إجلالاً لعلمائها. أما شهرة مونبلية الحقيقية فبجامعتها الطبية العظيمة التي كان لها الفضل الأكبر في نقل الطب العربي إلى أوروبة. وقد لعب اليهود دوراً كبيراً بنقل هذا العلم إلى العبرية فاللاتينية. وكان موقع هذه الجامعة بضاحية ماجلون Maguellonne بظاهر مونبلية. احتلها العرب أيام توغلهم في جنوبي فرنسة ثم أجلاهم عنها شارل مارتل فاحرقها. وكان العرب في أثناء مكوثهم فيها قد نقلوا معهم بعض الكتب الطبية فصار أطباؤهم يمارسون فيها حرفة التطبيب. ونبغ بين أساتذة هذه الجامعة عدد من مشاهير أطباء اليهود أمثال صموئيل بن طيبون وناثان بن زكرية. وفي متحفها اليوم بعض الآثار الإسلامية، منها آيات قرآنية وأشعار عربية. ومن مشاهير أساتذة هذه الجامعة أيضاً العلامة الطبيب يعقوب بن مكير بن طيبون مخترع المزولة المعروفة بالمزولة اليهودية Quadrans Judaicus كانت معدودة بين أهم الآلات البحرية في القرون الوسطى(غزوات العرب: ٢٣٦ و .GR. IV. 262, Roth J.C.C. 65. 197 و .H.S). Williams, H.H.W,. VIII, 280

(٢) بين الألقاب التي كان يحملها ملوك البرتغال حتى إعلان الجمهورية الحالية لقب «ملك الغرب» Algarves (Adler I.B.T. : 2)

تيودروس ومردخاي . وبينهم الأغنياء والأسخياء، يمدون يد المعونة إلى من يقصدهم من ذوي العوز . وعلى مسيرة أربعة فراسخ منها:—

لونل[١] *Lunel* وفيها طائفة من اليهود والعلماء والفقهاء . منهم العلامة الشهير الرابي مشولم[٢] وأبناؤه الخمسة الأثرياء الحكماء، وهم الرابيون يوسف وإسحق ويعقوب وهرون وآشر[٣] وهذا الأخير ناسك

---

(١) بلدة معروفة في إقليم لنغدوقية من جنوبي فرنسة. استولى عليها العرب في أثناء فتوحاتهم في فرنسة لكنها خرجت من أيديهم بعد موقعة بلاط الشهداء (٧٣٢م. ١١٤هـ) . وقد بلغت هذه المدينة شأواً بعيداً من الرقى العلمي والأدبي إلى جانب مونبلية في القرن الثاني عشر للميلاد. وكان اليهود يسمونها أريحة ירחו ومعناها الهلال وكناية عن اسمها الفرنسي المشتق من لفظة Luna أي القمر. وكان أغلب من انتسب إليها من علماء اليهود يلقبون بالهاليين ירחי ، نخص بالذكر منهم العلامة إبراهيم بن ناثان يرحي (الهلالي) . وداود يرحي، وصموئيل بن يهوذا بن طيبون، كان أمهر من نقل الكتب العربية إلى العبرية (١١٥٠–١٢٣٠م) منها كتاب دلالة الحائرين ספר מורה נבוכים لأبي عمران موسى بن ميمون (J.E وشولمن ج١ : ٢٤٠)

(٢) هو العلامة الكبير مشولم بن يعقوب اللونلي المتوفي سنة ١١٧٠م. (٥٦٦هـ) ، كان معدوداً من أساتذة القرن الثاني عشر في الفلسفة والبيان، برع بالعربية براعته بالعبرية، وباعتنائه نقل صموئيل بن طيبون إلى هذه اللغة كتباً عديدة من العربية G.R. IV . 262(وشولمن ١ :٢٤١).

(٣) هو الرابي آشر بن موسى الناسك הפרוש المنسوب إلى فرقة من الزهاد اشتهر أمرها في بروفانسية خلال القرن الثاني عشر. وكان من أوائل واضعي أسس «القبالة» أو التصوف اليهودي . تتلمذ على يوسف بن البلاط أو الفلات وإبراهيم بن داود. ونقل عدداً من الكتب العربية إلى العبرية ووضع كتباً أخرى في فقه التلمود والتفسير. (GR. IV. : 263 وشولمن : ج١ : ٢٤١ و I.B.T. 3) .

متقشف، لا شأن له في أمور الدنيا ، يقضي أوقاته صياماً وعكوفاً على الدرس والعلم، لا يذوق اللحم زهداً. وهو ثقة، ، واسع الاطلاع في التلمود. وفي لونل كذلك الرابي موسى[١] صهره والرابي صموئيل الشيخ[٢] وسليمان كوهين. ويهوذا بن طيبون[٣] الطبيب الأندلسي وغيرهم من العلماء الوافدين من أقاصي البلاد لطلب العلم. وتهتم الطائفة بإيواء طلاب العلم وإعالتهم طيلة مكوثهم في المدرسة. ويبلغ عدد اليهود في هذه المدينة نحو الثلثمائة. وهم موصوفون بالعلم والتقوى وإغاثة القريب والبعيد من إخوانهم. حرسهم الله. أما موقع البلدة فعلى نحو فرسخين من البحر. وعلى مسيرة فرسخين منها:—

بوسكيار[٤] *Posquieres* وهي بلدة كبيرة فيها قرابة أربعين يهودياً .

---

(١) هو العلامة موسى بن يهوذا. ومن رأي غراتز وشولن أن العلماء الأخوة الخمسة الذين مر ذكرهم ليسوا أبناء مشولم وإنما هم أبناء صهره الرابي موسى هذا .

(٢) هو صموئيل بن شمشون بن إبراهيم المفسر المعروف . كان من كبار معارضي فلسفة ابن ميمون.

(٣) هو يهوذا بن شاؤل بن طيبون المترجم الشهير. ولد في غرناطة سنة ١١٢٠م (٥١٤هـ) ثم انتقل إلى لونل سنة ١١٥٠م (٥٤٥هـ) حيث اشتغل بالتطبيب فتوفي سنة ١١٩٠م (٥٨٦هـ) . نقل إلى العبرية عدداً من المؤلفات العربية نخص بالذكر منها كتاب «الهداية إلى فرائض القلوب» ספר חבוב הלבבות للقاضي الفيلسوف اليهودي الأندلسي الكبير الرابي يحيى بن يوسف بن بقودة בחיי הר״ר من القرن الحادي عشر (كتبه سنة ١٠٤٠م في سرقسطة) وكتاباً في قواعد اللغة لأبي مروان بن جناح القرطبي السرقسطي وكتاب الأمانات والاعتقادات لسعيد الفيومي. (شولمن ١: ٢٤٢ و J.E,. GR IV, 256)

(٤) بلدة بين لوئل وسنت جيل من أعمال بروفانسية. وهي غير مدينة Beaucaire كما ظن آشر في ترجمته لرحلة بنيامين.

ولها مدرسة كبرى يرأسها الحبر الجليل إبراهيم بن داود[1] وهو عالم واسع الاطلاع في التوراة والتلمود[2]، يقصده طلاب العلم من البلاد القصية . فيؤويهم بيته ويسد حاجتهم بثروته الطائلة. وهناك طائفة أخرى من العلماء، بينهم الرابيون يوسف بن منحم وبنبنيشتي وبنيامين وإبراهيم وإسحق بن موسى. وعلى مسيرة ثلاثة فراسخ منها:- **نوغرس**[3] *ST. Giles* أو برج القديس أجيل. فيها نحو مائة يهودي، بينهم من العلماء، الرابيون إسحق بن يعقوب وإبراهيم بن يهوذا ،

---

(١) هو إبراهيم بن داود الأصغر הראבד المعروف بصاحب التعليقات على كتاب ابن ميمون כצל ההשגוה ولد في بروفانسية سنة ١١٢٥م (٥١٩هـ) وتوفي في بوسكيار سنة ١١٩٨م (٥٩٥هـ). كان فيلسوفاً معروفاً وثرياً كبيراً ينفق المال عن سعة على طلاب العلم. له عدد من التصانيف منها كتاب בצלי הנמש وهو مجموعة خاصة بحقوق المرأة طبع لأول مرة سنة ١٦٠٢م، وشرح سفر اللاويين المطبوع لأول مرة في فيانة سنة ١٨٦٢م. (شولمن ١ :٢٤٨و J.E. GR. IV. 266)

(٢) التلمود أكبر وأقدم. موسوعة تحتوي على القوانين والشعائر والتقاليد اليهودية المستندة إلى أحكام التوراة اشتغل بوضعه طائفة من علماء اليهود تدعى (الأمورائيم) أي «المحدثين أو الأساتذة». وهو تلمودان : الأول من وضع أحبار فلسطين ويسمى «التلمود الأورشلمي» وقد تم تدوينه بشكله الحالي قرابة سنة ٤٠٨م. والثاني من وضع علماء العراق ويسمى (التلمود البابلي) وكان الفراغ من تدوينه بين سنتي ٤٠٠-٥٠٠م.

(٣) بلدة صغيرة تقع على الفرع الغربي من دلتا نهر الرون على بعد قرابة ٤٥ كيلومتراً من مصبه، اشتهرت بين يهود القرون الوسطى باسمها القديم نوغرس .Noghres لكنها سميت أخيراً ببرج القديس أحيل (Burgum Sancti Agidii) نسبة إلى دير بظاهرها كان الرهبان والحجاج يقصدونه من جميع نواحي أورربة النصرانية في القرون الوسطى. (GR. IV. 417)

وإلعازر وموسى ويعقوب بن لاوي . وفي المدينة دير مقدس يحجه النصارى من الأقطار والجزر البعيدة. وهي على بعد ثلاثة أميال من البحر، واقعة على ضفاف نهر رودي(١) العظيم الذي يسقي كورة بروفانسية. فيها من العظماء الرئيس أبا ماري بن إسحق(٢) ناظر ديوان الخراج في بلاط الأمير ريمند . وعلى مسير ثلاثة فراسخ منها :-

آرل(٣) *Arelate,Arles* فيها زهاء مائتي يهودي، أشهرهم الرابيون موسي وطوبي وإشعيا وسليمان. وعلى مسيرة ثلاثة أيام منها :-

---

(١) هو نهر الرون Rhone العظيم، واسمه القديم رودانوس Rhodanus (راجع أسفل ص١٦ من هذا الكتاب).

(٢) هو أبا ماري بن إسحق بن موسى كوهن العالم المعروف. تولى الخراج في بلاط الأمير ريمند سنة ١١٦٥م (٥٦١هي)، وهي على ما نظن، سنة زيارة بنيامين لبلدة سنت جيل. (GR. IV . 266).

(٣) بلدة قديمة عند مفترق دلتا الرون في جنوبي فرنسة. كانت على عهد الرومان مستعمرة صغيرة في إقليم Gallia Narbonesis وتعاظم أمرها على عهد الإمبراطورية كما تدل الآثار الرومانية فيها. أستولى عليها العرب في أثناء غزوهم لوادي الرون سنة ٧٣٤م. أما عن إقامة اليهود في هذه المدينة، فهناك رواية تقول إن إسبازيان القائد الروماني ، في أثناء حصاره على القدس سنة ٧٠م. حشد عدداً من أسرى اليهود في ثلاث سفن بقصد إرسالهم إلى رومية. فهبت عليهم في عرض البحر عاصفة دفعت بإحدى هذه السفن إلى آرل وبالثانية إلى ليون وبالثالثة إلى بوردو. وعلى كل، هناك وثائق كنسية رسمية تؤيد وجود طائفة كبيرة منهم في هذه البلدة سنة ٤٢٥م. هاجر إليها معظمهم من نواحي شالون، وكانوا يقيمون في حي خاص بهم يدعى الحي الجديدRue Neuve (يدعى اليوم Rue du Fanton) ويمارسون تجارة القرمز kermes لعمل الأصباغ . (J.E. C.D. Lawenth. W.P.B. 113)

مرسيلية[١] *Marseilles* مقر العلماء والغاؤونية[٢] . يبلغ عدد يهودها زهاء الثلثمائة. وهم طائفتان: تسكن الأولى الأحياء السفلى من المدينة على شاطئ البحر. وتقطن الثانية في أعلاها، بجوار الحصن الكبير . ولكلتا الطائفتين مدرسة كبيرة وعلماء أعلام. نخص بالذكر من علماء الأولى، الرّابيين شمعون بن أناطولي[٣] وليبارو. ومن علماء الثانية، الرابيين فرفنيانو[٤] المثرى الشهير وختنه إبراهيم بن مئير،

---

(١) هي بلدة مسيلية Massilia اليونانية القديمة في إقليم Gallia Narbonesis على شاطيء البحر المتوسط كان قد أسسها الفينيقيون قرابة سنة ٦٠٠ق.م. وأصبحت ذات شأن كبير في عهد الإمبراطورية الرومانية إذ كانت مركزاً علمياً يقصده شباب الرومان للدرس. وتدل وثائق قديمة على وجود طائفة كبيرة من اليهود في هذه المدينة سنة ٥٦٧م. كانوا يقيمون في حي خاص بهم يدعى Mont-Juif كما اشتهر فيها مجمعهم العلمي في القرون الوسطى . وفي القرن الرابع عشر كان اليهود يسهمون في تقدم هذه المدينة الاقتصادي والصناعي. واشتهر فيها يهودي يدعى قرشقاش دافين Crescas Davin المعروف بالصابوني Sabonarius كان أول من أدخل إليها صناعة الصابون القشتالي (C.D. Roth J.C.C. 225)

(٢) الغاؤونية ومفردها الغاؤون גאון لفظة عبرية تعني «النيافة» أو «العزة» . اتخذها اليهود في العصور المتأخرة بمعنى «الرئيس» أو الزعيم وأطلقوها على رؤساء مدارسهم الدينية الكبرى «المثيبة».

(٣) كذا في الأصل والأصح شمشمون بن أناطولي المرسيلي جد يعقوب بن أبا ماري بن أناطولي. مترجم كتب ابن رشد وعدد من كتب علم الهيأة العربية إلى العبرية وعنها نقلت إلى اللاتينية (GR . IV. 267, J.E)

(٤) نسبة إلى بلدة Perpignan قاعدة إقليم Pyrene Orient المحاذي للحدود الفرنسية الأسبانية. وكان يعقوب هذا مؤسس أحد البيوت التجارية الكبيرة في القرون الوسطى (GR. IV . 415)

وإسحق بن مئير[١]. والمدينة ثغر تجاري واسع على شاطئ البحر. ومنها كان الإبحار في سفينة إلى :-

جنوة[٢] *Genoa* الفرضة البحرية الكبيرة. تبعد عن مرسيلية مسيرة أربعة أيام بحراً. وفي هذه المدينة يهوديان اثنان قدما إليها من سبتة، هما الفاضلان صموئيل بن خيلام وأخوه. ويستدير بالبلد سور حصين. ولا يحكمه ملك بل شيوخ ينتدبهم الأهلون للقضاء. ولكل بيت من بيوتها برج. تدور رحى المعارك بين الأهلين من أعالي هذه الأبراج في أيام الفتن. والجنويون مسيطرون على البحار. يجوبونها بسفنهم الخاصة المسماة «غاليس[٣]» ويقومون بأعمال القرصنة على الروم والمسلمين، فيعودون إلى جنوة بالأسلاب والغنائم الوفيرة. والحرب قائمة في هذه الأيام بين جنوة وبيزة. وهذه تبعد عنها مسيرة يومين :-

---

(١) كذا في الأصل. والأصح إسحق بن أبا ماري، والد أبا ماري بن إسحق متولي الخراج في بلاط سنت جيل (ص٥٦). ومن مؤلفاته كتاب التتويج ספר העטור وكتاب الكلمات العشر ספר עשרת הדברים توفي في مرسيلية قرابة سنة ١١٧٩م. (٥٧٥هـ) (Adlor I.B.T. 5, J.E.)

(٢) تعد جنوة من أقدم المدن الرومانية على خليج ليغورية Leguria وتلفظ Genua أيضاً. كان بينها وبين بيزة منافسة كبيرة طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر، نشبت من جرائها حروب عديدة. وكان للعرب صلات كثيرة بجنوة في أثناء سيطرتهم على بحر الروم. قال ابن سعيد: «إن دُور أهل جنوة عظيمة كل دار بمنزلة قلعة، ولذلك اغتنوا عن عمل سور على جنوة.» وهذا لا يخالف الواقع، لأن أسوار هذه المدينة بنيت سنة ١١٥٨م. وكان في جنوة عدد كبير من اليهود في أيام الإمبراطورية الرومانية. غير أن إقامتهم بها قد حظرت، على ما يظهر، في أوائل المائة الحادية عشرة للميلاد. (J.E. C.D. والمغرب لابن سعيد)

(٣) هي السفائن الحربية المعروفة باسم Galleys ويسميها العرب حراقات.

بيــزة[١] *Pisa* البـلدة الكـبيرة . فيـها زهـاء عـشرة آلاف دار محصنة بالأبراج المنيعة، والحرب قائمة في مختلف أرباضها . أهلها قوم أشداء لا يدينون بطاعة لملك، وإنما يمنحون السلطة شيوخاً ينتدبونهم للحكم . وفي المدينة زهاء عشرين يهودياً، على رأسهم الرابيون موسى وحييم ويوسف . والبلد غير محاط بسور . يبعد عن البحر زهاء أربعة أميال . يتوسطه نهر أرنو الحافل بالعدد الوفير من السفن الغادية والرائحة . وعلى بعد أربعة فراسخ منها :—

لوكة[٢] *Lucca* أول إقليم في الأنـبرذية[٣] . وهـي مدينة عامرة فيها

---

(١) بلدة قديمة كانت في أول أمرها تدعى إتروريـة Etruria من المدن الاثنتي عشرة المتحدة . موقعها عند ملتقى نهر أرنو Arnus بنهر أوسار Ausar المسمى حديثاً سركيو Serchio على مسافة ٦ أميال من البحر . وفي رواية : إن هذه البلدة شيدت بعد حروب طروادة مباشرة، وكانت مدينة لاتينية معروفة سنة ١٨٠ق.م . ويرجع تاريخ إقامة اليهود في بيزة إلى القرن الأول للميلاد . أما برجها المائل المعروف فقد شيد سنة ١١٥٤م . وتأسست جامعتها سنة ١٣٤٣م . (J.E. C.D.)

(٢) كانت لوكة بلدة رومانية معروفة سنة ١٦٦ ق.م . وفي القرون الوسطى ظلت تحت سيطرة بيزة حتى سنة ١٣٦٩م . ثم أصبحت جمهورية مستقلة حتى سنة ١٧٩٧م . وكان اليهود طائفة معروفة في هذه المدينة في القرون الوسطى . وأشهر من انتسب إليها من علمائهم في المائة الحادية عشرة الرّابي مشولم بن ميرب بن قلنيموس . وكان قلنيموس هذا من علماء لوكة في القرن الثامن للميلاد . وفي سنة ٧٨٧م . استقدمه شارلمان إلى بلدة ماينز في ألمانية لتعليم اليهود، فأصبح أحفاده من كبار علمائهم في أوروبة المركزية . وفي مدينة لوكة وضع الفلكي الشاعر اليهودي الكبير أبو إسحق إبراهيم بن مئير بن عزرا الطليطلي كتابه في الاصطرلاب (١٠٩٣-١١٦٧م) (GR, IV. 220 Dinaburg .1. 126. 320 C.D)

(٣) مقاطعة لمبردية Lombardy في شمالي إيطالية عرفها الجغرافيون العرب باسم الأنبرذية .

زهاء أربعين يهودياً، من أعيانهم الرابيون داود وصموئيل ويعقوب.
وعلى مسيرة ستة أيام منها:—
رومية الكبرى[1] *Roma* حاضرة الدولة النصرانية. يقطنها نحو

---

(١) تقع رومية على الجانب الأيسر من نهر التبر على بعد خمسة عشر ميلاً عن البحر. أسسها رومولوس، على قول الأساطير، سنة ٥٧٣ق.م، وكان بناء الكابيتول سنة ٦١٤ ق.م. قامت فيها الدكتاتورية الأولى سنة ٥٠١ ق.م. واستولى عليها الغاليون سنة ٣٩٠ق.م. وشيد فيها البانثيون سنة ٢٧ق.م. والكوليسيوم سنة ٧٢م. غزاها القوط سنة ٢٥٠م وسقطت إمبراطوريتها سنة ٤٧٦ وتوج فيها شارلمان سنة ٨٠٠ وطرقها العرب سنة ٨٤٦ والنورمان سنة ١٠٨٤ واستولى عليها فردريك بربروسة سنة ١١٦٧م. وكانت في أول عهدها تدعى Roma Quadrata أي رومية المربعة.

ورومية أقدم مدينة أوروبية عرفها اليهود وأقاموا بها. هاجروا إليها أولاً من الإسكندرية في زمن البطالسة. وكانوا يقيمون في حي خاص بهم على شاطئ التبر الأيمن من الناحية الشمالية الشرقية للمدينة يسمى Mons Judaeorum لم يلبث أن أصبح مركز رومية التجاري. ثم ازداد عددهم فيها في نهاية القرن الأول للميلاد من قدوم عشرات الألوف من أسرى القدس بعد سقوط الدولة اليهودية سنة ٧٠م. وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر نبغ منهم فيها عدد من العلماء والشعراء بحيث سمي الحي اليهودي «عش الأطيار الصادحة» وكانت حركتهم العلمية فيها ترتكز على الأخص في كنيس ترستيفيري Trastevere الجيد الذي شيده ناثان بن يحيئيل رئيس طائفة اليهود في رومية سنة ١١٠١م (٤٩٥هـ). وفي سنة ١١١٩م (٥١٣هـ) صدر مرسوم بابوي يقضي بحماية اليهود المقيمين في هذه المدينة. وقد لقي يهود رومية خلال العصور الوسطى عزاً ورفاهة أو ذلاً وضيقاً بحسب الظروف. لكن حالتهم فيها، على وجه العموم، كانت جيدة. لأن أغلب الباباوات كانوا يأبون الاضطهاد الديني (GR. IV. 296 , C.D. J.E.)

المائتين من اليهود ذوي المكانة المحترمة. وهم أحرار لا يدفعون الجزية. يوجد عدد منهم بين بطانة البابا الكسندروش[١] الحبر الأعظم رئيس الكنيسة النصرانية. ومن مشاهيرهم الرابيان دانيال[٢]

---

(١) هو الكردينال رولندو رانوشي Rolando Ranuci . تولى عرش البابوية من سنة ١١٥٩م إلى سنة ١١٨١م (٥٥٤-٥٧٧هـ) وعرف بالبابا إسكندر الثالث، على إثر وفاة سلفه البابا أدريان الرابع. وقد حصل طعن شديد في صحة انتخابه من جانب منافسه الكردنيال أكتافيان Octavian di St. Cecilia فتفاقم الأمر بانحياز إمبراطور ألمانيا فردريك بربروسة إلى جانب المعارضة . وانقسمت أوروبة النصرانية من جراء ذلك إلى معسكرين ، فهاجر البابا إسكندر الثالث إلى فرنسة وأقام في بلد كوسي Couci على نهر اللوار حيث أحاطه من ظل على موالاته من ملوك وأمراء بكل مظاهر الأبهة الجديرة بالحبر الأعظم. أما منافسه فقد ارتقى كرسي البابوية باسم فكتور الرابع Victor IV. . واستمر هذا الخلاف حتى سنة ١١٦٥م . فعاد البابا إسكندر إلى رومية بعدما اصطلح مع الإمبراطور فردريك. (راجع تفاصيل هذا الخلاف البابوي في The) Hist. Of The Papacy. H.H.W. Vill. 606) وقد ظل يهود رومية على ولائهم للبابا إسكندر في أيام محنته، فاستقبلوه يوم عودته إلى عاصمته (٢٥ تشرين الثاني ١١٦٥م) استقبالاً شائقاً بالأعلام وأسفار التوراة. فقدر فيهم البابا هذا الوفاء وقربهم منه. لكنه بالأخير اضطر إلى تغيير سياسته تجاههم بتأثير المجمع الكنسي Synod الذي عقد في لتيران Lateran سنة ١١٧٩م. (GR. IV. 297)

(٢) كان يسكن روميه في القرون الوسطى عدد من الأسر اليهودية العريقة من بقايا الجالية القديمة التي انتقلت إليها بعد خراب القدس. وأشهرها «بنو الأحمر» De Rossi האדומים و«التفاحية» De Pomis התפוחים وبنو المتقى Umani – Degli Piatelli הענוים . والأخيرون تقلدوا الزعامة العلمية والأدبية على اليهود في رومية منذ القرن الحادي عشر للميلاد. وكانت وفاة عميدهم ناثان بن يحيئيل سنة ١٠٧٠م. وصار أحفاده يتوارثون زعامة اليهود في رومية كابراً عن كابر . وفي أثناء زيارة بنيامين لرومية في حدود سنة ١١٦٥ م كان دانيال بن سليمان بن يحيئيل المتقي לענוים على رأس اليهود في المدينة الخالدة). (GR. IV . 93. J.E.)

ويحيئيل[١] ، والأخير شاب حسن المظهر على جانب من الذكاء وحصافة الرأي، كثير التردد على قصر البابا بصفة كونه ناظر الأملاك الخاصة. وهو حفيد ر.ناثان[٢] صاحب القاموس والتفاسير . ومن علماء رومية أيضاً الرابيون . يؤاب[٣] بن سليمان ومنحم[٤] رأس المثيبة وبنيامين[٥] بن شبثاي.

يمر نهر التبر من وسط رومية فيشطرها شطرين. وفي جانبها الأول الكنيسة العظمى المسماة كنيسة «القديس بطرس دي رومة[٦]» وأطلال قصر يوليوس قيصر[٧] . وفي رومية من المباني العظيمة

---

(١) هو يحيئيل بن سلميان بن إبراهيم يحيئيل المتقي أخو دانيال المتقدم ذكره، كان من مشاهير أصحاب الفتاوي الدينية.

(٢) هو ناثان الأصغر بن يحيئيل بن إبراهيم المتقي. اشتهر في التاريخ باسم صاحب القاموس רנתן בעל הערוך ولد في رومية سنة ١٠٣٥ وتوفي فيها ١١٠٦م. وفي سنة ١١٠١م شرع بتصنيف قاموسه المشهور، وهو سفر جليل تناول فيه شرح الألفاظ الآرامية الواردة في التلمود مرتبة على الحروف الأبجدية ، وقد كان الفراغ منه سنة ١١٠٥م. (J.E. GR. IV . 201)

(٣) هو يؤاب بن سليمان بن إبراهيم المتقي أخو يحيئيل بن سليمان وزير البابا المتقدم ذكره.

(٤) هو منحم بن يهوذا بن منحم المتقي الشاعر المشهور رأس المثيبة. والمثيبة لفظة آرامية تعني «المجلس» يطلقها اليهود على مدارسهم العلمية.

(٥) هو بنيامين بن شبثاي بن موسى الشاعر المشهور في المائة الثانية عشرة.

(٦) هي كنيسة القديس بطرس St. Peter في رومية من أعظم كنائس العالم وأقدمها. أنشأها الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٠٦م. بعناية المهندس الروماني بارامنت Baramante ثم جدّد عمارتها البابا يوليوس الثاني سنة ١٥٠٦ وتم تكريسها سنة ١٦٢٦م.

(٧) هي البناية العظيمة المسماة في خطط رومية القديمة Forum Julium أو Forum Caesaris من إنشاء يوليوس قيصر (١٠٠-٤٤ ق.م.) تشاهد أطلاله اليوم وراء كنيسة St. Martino .

والمنشآت الجسيمة ما لا نظير له في غيرها من مدن العالم. وتبلغ مساحة ماهو خراب وماهو معمور منها أربعة أميال[١]. وفيها ثمانون قصراً لثمانين ملكاً كانوا يحملون لقب انبراذور[٢]. أولهم تاركن[٣]، ومنهم نيرون[٤] وطباريوس[٥] اللذان عاصرا يسوع الناصري ، وآخرهم ببين[٦] محرر الأسبان من المسلمين ووالد قارله[٧] الذي حارب المسلمين في إسبانية.

---

(١) كذا في الأصل العبري. وفي ترجمة أدلر الإنكليزية ٢٤ ميلا. وهذا يتفق مع قول الإدريسي في أن دور سور رومية أربعة وعشرون ميلا وهو مبني بالأجر.

(٢) Imperator إمبراطور.

(٣) هو Tarquinius الطاغية آخر سبعة ملوك حكموا رومية قبل إعلان الجمهورية (٥١٠-٤٨٦ق.م.).

(٤) هو طاغية رومية الشهير. تولى عرش الإمبراطورية (٣٧-٦٨م).

(٥) هو طباريوس قلوديوس قيصر رومية (١٤-٣٧م).

(٦) هو ببين القصير Pepin le Bref ابن قارلة (شارل مارتل) كانت له مع العرب وقفات عديدة وحروب كثيرة استعاد بها منهم بعض ما فتحوه من مدن فرنسة، أهمها أربونة وقرقشونه. وكانت وفاته سنة ٧٦٨م.

(٧) هو Charlemagne أكبر أولاد ببين القصير. ولد سنة ٧٤٢م. وتولى عرش أبيه بالاشتراك مع أخيه قارلومان Carloman حتى إذا مات هذا سنة ٧٧١م انفرد شارلمان بالملك. قاتل عرب الأندلس قتالاً شديداً، استرجع منهم بلاد قتلونية وأراغون. أما في الشرق فإنه خطب ود هرون الرشيد الخليفة العباسي وبادله الهدايا والوفود. وكان تتويج شارلمان إمبراطوراً على رومية المقدسة سنة ٨٠٠م. وكانت وفاته في ٢٨ كانون الثاني سنة ٨١٤م.

وبضواحي رومية بقايا قصر عظيم لطيطس[١]. ويقال: إن ثلثمائة من شيوخ رومية قد أظهروا استياءهم منه لأنه قضى في حصار القدس ثلاث سنوات بدلاً من سنتين، وهي المدة التي رسموها له[٢].

وفيها أيضاً قصر الملك إسبازيان[٣]. وهو بناء شامخ على جانب

---

(١) أحد مشاهير قياصرة الرومان. واسمه الكامل Titus Flavius Sabinus Vespasianus ولد في ٣٠ كانون الأول سنة ٤٠م. اشتهر بحربه ضد اليهود وفتح القدس سنة ٧٠ م. فعاد ظافراً إلي رومة سنة ٧١م. وبعد وفاة أبيه انتقل إليه عرش القياصرة سنة ٧٩م . أما القصر الذي يشير إليه بنيامين فربما كان يقصد به طاق النصر الذي أقامه طيطس تخليداً لانتصاره في حرب اليهود. وهو الطاق المعروف بقوس طيطس Arcus Titi والذي لا يزال حتى اليوم قائماً في منتصف الشارع الأقدس Via Sacra في سفح البلاتين في رومية، عليه نقوش بارزة تصور الغنائم التي نقلها من هيكل اليهود. وقد جرت عادة أتقياء اليهود أنهم إذا زاروا رومة فإنهم لا يمرون تحت هذا القوس لأنه رمز سقوط دولتهم وخراب مقدسهم. وقد كانت وفاة طيطس في ١٣ أيلول سنة ٨١م (C.D)

(٢) هذه الروايات وأمثالها كانت ذائعة بين اليهود في القرون الوسطى. ومصدرها كتاب يدعى تاريخ يوسف بن جريون، وضعه كاتب مجهول في القرن التاسع للميلاد ونسبه إلى يوسيفوس فلافيوس المؤرخ اليهودي الكبير، المعاصر للقيصر طيطس.

(٣) هو Flavius Sabinus Vespasianus قيصر رومة من سنة ٧٠ إلى ٧٩ م . ولد في ١٧ تشرين الثاني سنة ٩م . خدم في الجيش الروماني على عهد قلوديوس في مختلف ساحات القتال في أوروبة، وفي الحادية والخمسين من عمره عينه القيصر نيرون قنصلاً أولا على إفريقية. وفي سنة ٦٦ م نشبت ثورة اليهود الكبرى في فلسطين فأوفده القيصر على رأس جيش كبير لإخضاع القدس. وفي أثناء الحصار مات نيرون منتحراً فبايع جيش الشرق كله إسبازيان إمبراطوراً ، فترك حصار القدس لولده طيطس وعاد إلي رومية حيث أفلح في أخذ البيعة له من الجيوش الأوروبية. وقد كانت وفاته في ٢٤ حزيران سنة ٧٩م. وهو في التاسعة والستين من عمره . (C.D.) ٠

عظيم من المتانة. وقصر الملك «غالبة[١]» ويبلغ عدد شمساته[٢] (نوافذه) ثلثمائة وستين، بعدد أيام السنة. واستدارة هذه القصور كلها زهاء ثلاثة أميال.

وفي باحة هذه القصور دارت معركة عظيمة في الأزمنة الغابرة سقط فيها نحو مائة ألف قتيل، لا تزال عظامهم مكدسة حتى يومنا هذا. وقد أمر ملك ذلك الزمان أن تنقش صورة هذه المعركة على ألواح الرخام، تظهر فيها الجيوش المتقابلة بخيلها وأسلحتها، لتشاهد الأجيال

---

(١) القيصر الروماني غالبة واسمه الكامل Servius Sulpicius Galba . ولد في السنة الثالثة للميلاد، وتولى عرش القياصرة في ٢٨ حزيران سنة ٦٨م. بعد ما حكم إسبانية مدة ثماني سنوات، لكن صلفه وبخله وقسوته أدت إلى تآمر الجيش عليه ، فقتل في كانون الثاني سنة ٦٩م. بعد حكم دام أقل من سنة.

(٢) يغلب على الظن أن الرحالة يشير هنا إلى ملعب الكوليسيوم Coliseoum أو Colosseum المعروف في خطط رومية القديمة باسم مدرج فلفيانوم Flavianum Amphitheatrum أنشيء بعد مصرع غالبة بقليل على عهد إسبازيان حوالي سنة ٧٠م . واحتفل بافتتاحه على عهد ولده طيطس سنة ٨٠م بمهرجان عظيم. وكان هذا الملعب بناية ضخمة تشغل مساحة ستة أفدنة فيها أربع طبقات لكل منها طاقات مقسمة إلى ثمانين حجرة. وعلى ذلك يكون مجموع نوافذها ٣٢٠. ويقال: إن هذا الملعب كان يتسع لعدد كبير من المتفرجين يبلغ ٨٧ ألفاً. وقد أصابته سنة ٢١٧م صاعقة هدمت بعض أركانه. فبوشر بتجديد بنائه في زمن القيصر هيلوغابالوس (٢١٨-٢٢٢م). وتم على عهد خلفه القيصر إسكندر سفيروس (٢٢٢-٢٣٥م).

القادمة هذه المعارك التي نشبت في العصور القديمة.

ويشاهد في غار تحت الأرض، هيكل الملك ترمال غلسين[١] والملكة زوجه، وهما متربعان على عرش وحولهما أجداث زهاء المائة من أشراف المملكة. وهذه الأجداث جميعها محنطة بمعرفة الأطباء ومحتفظ بها حتى اليوم.

ومن المباني الشهيرة بيعة القديسة جيوفاني في بورتة لاتينة[٢] يقصدها الناس للتعبد. ويشاهد فيها عمودان[٣] من نحاس، صنعهما الملك سليمان بن داود عليه السلام. ويروي يهود رومية: إن هذين العمودين ينضحان عرقا غزيراً في ليلة التاسع من شهر آب[٤] في كل

---

(١) لا يوجد بين قياصرة الرومان من يحمل هذا الاسم . وأغلب الظن أن بنيامين يسرد هنا بعض الأساطير القديمة التي سمعها في أثناء مكوثه في رومة.

(٢) هي بيعة القديس يوحنة في رومة المعروفة اليوم بـ St. Giovanni di Laterano . أقيمت على أنقاض الهيكل الروماني القديم platium Lateranus قرابة منتصف القرن الثاني عشر وربما كان الاحتفال بتدشينها في أثناء وجود بنيامين في رومة. وقد جدد بناء هذه الكنيسة سنة ١٥٨٦م بأمر البابا سكستوس الخامس . أما Porta Latina فهو أحد الأبواب الأربعة عشر التي كانت في رومية القديمة .(C.D.).

(٣) هما عمودان من نحاس نصبهما الملك سليمان في رواق هيكل أورشليم. كان العمود الأيمن يدعى يكين יכין والأيسر يدعى بوعز בועז (التوراة ، ٢ ملوك ٧ : ٢١) أما حكاية وجودهما في كنيسة رومية فلا يؤيدها الواقع. لأن رواية الكتاب المقدس تنص على أن هذين العمودين حطمهما الكلدانيون في أثناء فتحهم القدس أيام بخت نصر وأنهم نقلوا حطامهما إلى بابل (٢ ملوك، ٢٥ : ١٣).

(٤) هو يوم يعلن فيه اليهود حدادهم كل عام على خراب بيت المقدس תשעה באב.

سنة. وهناك أيضاً الكهف الذي طمر فيه الملك طيطس الآنية المقدسة التي استلبها من بيت المقدس[١]. وعلى شاطئ نهر التبر يوجد غار فيه قبور الشهداء العشرة[٢]، طاب ذكرهم.

وبإزاء بيعة سنت جيوفاني دى لاتيرانو، هيكل شمشون الجبار[٣] بيده رمح من الرخام وكذلك تمثال أبشالوم[٤] بن داود وتمثال الملك

---

(١) إن التاريخ يجهل المصير الذي آلت إليه الآنية المقدسة التي استلبها طيطس من هيكل القدس يوم أحرقه سنة ٧٠م. فالثابت أنه نقلها معه إلى روميه وأنه عرضها في مهرجان الظفر الذي أقيم على شرف انتصاره على اليهود. وصُوَرُ بعض هذه الآنية تشاهد اليوم منقوشة على طاق طيطس في أطلال رومية القديمة. على أن هناك رواية مفادها: إن الوندال عندما غزوا إيطالية الجنوبية سنة ٤٥٥م واستولوا على رومية بقيادة جنزريك Genseric استباحوها مدة أسبوعين، وشحنوا من كنوزها سفناً عديدة أرسلوها إلى قرطاجة قاعدة ملكهم في إفريقية. وكانت الآنية المقدسة التي غنمها طيطس من معبد اليهود بين هذه الغنائم. وفي الطريق هبَّت على السفن ريح عاتية أغرقتها جميعا. وعلى هذا يكون قاع البحر المتوسط المثوى الأخير لكنوز بيت المقدس. والله أعلم. (لوينزون בי״הודרה ج١ : ٢٣ ح).

(٢) عشرة من كبار علماء اليهود استشهدوا في فلسطين بعد ثورة باركوكبة على الرومان في أيام القيصر أدريان في أواسط القرن الثاني للميلاد. وحكاية وجود قبورهم في رومية أسطورة لا يؤيدها الواقع. لأنهم جميعاً دفنوا في فلسطين.

(٣) هو أحد قضاة بني إسرائيل اشتهر بقوته البدنية. عاش في فلسطين قرابة سنة ١١٤٠ قبل الميلاد. (سفر القضاة : ١٣:٢-٢٤). أما التمثال الذي ينسبه إليه الرحالة في رومية فيظن أنه يشير إلى تمثال القيصر مركوس أورليوس الملك الفليلسوف (١٢١-١٨٠م) القائم اليوم أمام الكابيتول. (Adler (I.B.T.7.

(٤) هو ابن الملك داود، اشتهر بجماله وغزارة شعره. عاش في فلسطين قرابة سنة ١٠٣٠ ق.م. وحكاية ثورته على أبيه الملك داود وميتته الغريبة مشهورة في الكتاب المقدس (٢ صموئيل، ٣:٣).

قسطنطين[١] باني مدينة قسطنطينية. وهذا التمثال مصنوع من نحاس مموه بالذهب. وفي رومية من الأبنية والتماثيل مالا حصر له. وعلى مسيرة أربعة أيام منها:–

كابوة[٢] *Capua* مدينة عامرة من بناء الملك كابيش[٣]. ذات جمال

---

(١) هو قسطنطين الأول الملقب بالكبير، واسمه الكامل Flavius Valerius Aurelius Constantinus الإمبراطور الروماني. ولد سنة ٢٧٢م وارتقى عرش القياصرة سنة ٣٠٦م بعد وفاة والده، لكنه لم ينفرد بالملك إلا سنة ٣١٢ بعد تغلبه على منافسيه. ثم نقل كرسي الإمبراطورية إلى مدينة بزنطيوم القديمة على شاطئ البوسفور وسماها قسطنطينية (٣٣٠م). وفي آخر أيامه اعتنق النصرانية. وكانت وفاته في شهر حزيران من عام ٣٣٧م.

(٢) مدينة مهمة من إقليم كمبانية في إيطالية الوسطى. أسّسها الاترسك فلم تلبث أن أصبحت أجمل مدن إيطالية الجنوبية. وفي سنة ٣٤٣ ق.م. دخلت في حماية رومة، واستولى عليها هنيبال القرطاجي سنة ٢١٦ق.م. بعد معركة كانية. ثم استرجعتها رومة سنة ٢١١ ق.م. لكن عظمتها الأولى لم تعد إليها. وفي القرن التاسع للميلاد كانت هذه البلدة إحدى دوقيات اللنكبردية Longbardia . استولى عليها العرب سنة ٨٤١م وحكموها مدة وجيزة.

أما إقامة اليهود في كابوة فيرجع تاريخها إلى القرن الأول بعد الميلاد. وأشهر من انتسب إليها من رجال العلم في القرون الوسطى الشاعر المؤرّخ اليهودي أخيماعص بن فلطيال. ولد في كابوة سنة ١٠١٧م وتوفي في أورية سنة ١٠٦٠م. وهو صاحب اليوميات المعروفة باسم مجلة أخيماعص מגלת אחימעץ المعدودة بين أهم وثائق تاريخ يهود أوروبة في القرن الحادي عشر. واشتهر فيها في القرن الرابع عشر يهوذا الفيوس Alfius Judas رئيس طائفتها. (Lowenth. W.P.B 245 , Dinab. I.19 J.E. C.D.)

(٣) هو Capys أحد ملوك لاتيوم Latium في إيطالية القديمة. اشتهر مع صديقه أنياس Aeneas في إلياذة هوميروس.

ورواء، لكنها رديئة الهواء تتفشى فيها الحمى[١]. وفيها عدد من مشاهير العلماء نخص بالذكر منهم الرابيين كوتسو وأخاه صموئيل، وزاقن وداود. وقد بلغت هذه المدينة مرتبة الإمارة وكان السفر منها إلى :–

فوزولي[٢] *Pozzuoli* وتسمى صورنتو الكبرى. وهي بلدة واسعة بناها صور بن هدرعزر[٣] وتحصَّن فيها خوفاً من الملك داود. وقد طغى البحر على جانبين منها فغمرهما. ويمكن اليوم مشاهدة الأسواق والحصون تحت الماء. ويتدفق من باطن الأرض ينبوع حار ينبع منه الزيت المسمى «بتروليوم»، ويطفو على سطح الماء فيجمعه الناس

---

(١) كانت منطقة كمبانية حتى الأيام الأخيرة موبوءة بالملارية (اللفظة لاتينية تعني الهواء الردئ) لكثرة المستنقعات في أطرافها . وقد ردمتها الحكومة الإيطالية مؤخراً.

(٢) أصلها ديكرشية Dicaearchia القديمة أحد موانيء كمبانية في إيطالية الغربية. شيدها الإغريق سنة ٥٢١ ق.م. واشتهرت خلال القرون الوسطى بتجارتها الواسعة مع الإسكندرية وإسبانية. وقد سماها الرومان بوتيولي Puteoli أو Pozzuoli نسبة إلى مادة البترول أو البتيول التي كانت تستنبط من آبار بالقرب منها. وقد أظهرت التنقيبات الحديثة آثار بعض المباني الرومانية قرب الساحل، طغى البحر عليها وغمرها. (C.D.)

(٣) ملك أرام صوبة [نواحي حلب] الوارد ذكره في التوراة (٢ صموئيل ٨ :٣ و١٠ :٦–١٩) اشتهر بهزيمته أمام جيوش الملك داود. وليس في التوراة ما يشير إلى ولد له يدعى صور. وبديهي أن نسبة بناء فوزولي إليه لا تستند إلى حقيقة تاريخية، وإنما هي من الأساطير التي كانت ذائعة بين يهود أوروبة نقلاً عن يوسف بن جريون (الكتاب الأول . الفصل ٣,٤).

ويتخذون منه دواءً. وهناك كذلك الحمامات الحارة[١] يؤمها المصابون بالأمراض، يستحمون بها وينالون الراحة والشفاء. ويقصدها المرضى من نواحي الأمبرذية[٢] في موسم الصيف. ويقطع المسافر منها نفقاً[٣] في جوف الجبل مسيرته خمسة عشر ميلاً وهذا النفق من صنع الملك رومولوس[٤] باني مدينة رومية. أنشأه خوفاً من داود ملك إسرائيل ويؤاب قائد جيشه[٥]، فشيد المباني فوق الجبال وتحتها. ومنها إلى :-

نابل[٦] *Neapolis* وهي بلدة حصينة مستحكمة واقعة على شاطئ

---

(١) هي الحمامات المعدنية اليوم باسم Bagnoli بضواحي فوزولي ومن المصحات المعروفة في إيطالية. ويقال: إنها من إنشاء القيصر أغسطس. وعلى مقربة منها تقع بلدة Sulfatara الشهيرة بإنتاج الكبريت.

(٢) Lombardia ويسميها الإدريسي الأنبرضية أيضاً.

(٣) هو النفق المعروف اليوم باسم Piedi Grotta di Posilipo.

(٤) Romulus وتنسب إليه الأساطير بناء رومية زهاء سنة ٧٥٣ ق.م . كان الرومان يعبدونه باسم الرب كيرينوس Quirinus.

(٥) هو يؤاب بن صروية قائد جيوش الملك داود .(١أيام٢ :١٦و١١ :٦) والأسطورة التي يوردها بنيامين بعيدة عن الواقع لأن الملك داود عاش في القرن الحادي عشر قبل الميلاد .وهذا لا يتفق وتاريخ تأسيس رومية.

(٦) هي برثينوب Parthenope القديمة. أنشأها الإغريق في القرون الأولى على مقربة من بركان فيزوف. ثم استولى عليها الرومان سنة ٣٢٨ ق.م. وأخضعها القوط سنة ٥٣٦م. وكانت هذه البلدة قد اتسعت على عهد الإمبراطور فصارت الأحياء القديمة فيها تدعى بليوبوليس Palaeopolis والأحياء الجديدة تدعى Neapolis أي المدينة الجديدة ، فعرفت به وقد أطلق الرومان هذا الاسم على تسع مدن أخرى خارج إيطالية. نخص بالذكر منها بلدة شكيم שכם القديمة في فلسطين المعروفة اليوم باسم نابلس..

ويظهر أن فتوحات العرب في جنوبي إيطالية قد طرقت أبواب هذه المدينة، بقيادة الفضل بن جعفر الهمذاني (ابن الأثير ج ٧ : حوادث سنة ٢٢٨هـ).

أقام اليهود في نابل منذ أول عهدهم في إيطالية . وأشهر من سكنها من علمائهم في القرن الثالث عشر يعقوب أناطولي المرسيلي (١١٩٤-١٢٥٦م) دعاه الملك فردريك الثاني لإنشاء أول جامعة فيها سنة ١٢٢٤م. وهو أول من نقل فلسفة ابن رشد إلى العبرية وعنها نقلت إلى اللاتينية (C.D وL.I.216,J.E).

الخليج. بناها الإغريق في أول عهدها. وفيها نحو ٥٠٠ يهودي أشهرهم الرابيون حزقية وشلوم وإيليا كوهن والرئيس إسحق من جبل نابوس(؟) وعلى مسيرة يوم منها بطريق البحر:-

سلرن[١] *Salerno* وفيها المجمع الطبي للنصارى[٢]. ويقيم بها نحو ٦٠٠ يهودي بينهم ستة من كبار العلماء هم الرابيون إسحق بن ملكيصادق الرّابي الأعظم السيفونتي[٣]

---

(١) هى سلرنو الميناء المهم على شاطئ إيطالية الغربي جنوبي نابل. كانت قديما تدعى Salernum شيدها الرومان سنة ١٩٤ ق.م. فوق رابية تشرف على البحر.

(٢) اشتهرت سلرن في القرون الوسطى بمدرستها الطبية الكبرى حيث كان يدرّس الطب العربي، وكانت المدارس الأوروبية تنسج على منوال هذه المدرسة العربية وتتبع تقدمها ومستحدثات أساتذتها بفن الطب. وكانت هذه المدرسة في أول عهدها من تأسيس اليونان، فلما استولى العرب على جنوبي إيطالية في القرن العاشر وسّعوا مدرسة سلرن الطبية حتى طبقت شهرتها أوروبة كلها.

فلما استولى النورمان بقيادة روبرت غسكارد Robert Guiscard على سلرن حوالي سنة ١٠٠٠م وجدوا هذه المدينة عامرة فلم يمسوها بسوء بل وسّعوها وعنوا بتقدمها فعين غسكارد لرئاستها عالماً من أصل عربي قرطاجي يدعى قسطنطين الإفريقي Constantine Africanus ، اعتكف في دير جبل رسينو وترجم إلى اللاتينية كل ما وصلت إليه يده من كتب الطب العربي الذي صار فيما بعد يعرف باسم الطب السلزني Medicina Salertina وبقي العرب واليهود يؤلفون القسم المهم من أساتذة هذه المدرسة الطبية (L.l. 242 , H.H.W. 8 : 280 , C.D)

(٣) هو إسحق السيفونتي المنسوب إلى سيفونته إحدى مدن اليونان. كان عالماً كبيراً وأستاذاً بالفقه والتلمود في المائة الثانية عشرة (JE. , GR. IV. 219, 443)

وسليمان كوهن[١] وإيليا اليوناني وإبراهيم الأربوني وهامون. وتحيط بالمدينة أسوار عالية من جانب البر ويذب عنها البحر من الجانب الثاني. وقلعتها الحصينة تشرف عليها من أعلى الجبل. وعلى مسيرة نصف يوم منها:—

أمالفي[٢] *Amalfi* فيها نحو عشرين يهودياً . بينهم الطبيب حنانيال والرابي إليشع والرئيس أبو الجيد(؟). ونصارى هذا البلد تجار، لا يشتغلون بالزراعة بل يبتاعون كل ما يحتاجونه بالمال. وهم يقيمون في الجبال الشاهقة والصخور السامقة. أراضيهم غنية بالفواكه، تكثر فيها الكروم وأشجار الزيتون. وهم أشداء لا قبل لأحد بمحاربتهم . وعلى مسيرة يوم منها:

بنفنتو[٣] *Benevento* بلدة كبيرة محصورة بين شاطئ البحر والجبل الشاهق . وفيها طائفة من اليهود يبلغون المائتين. على رأسهم الرابيون

---

(١) كان هذا العالم يلقب بمصباح الغرب גדדהערב لعلمه وفضله (JE. , GR. IV. 443-444)

(٢) كانت أمالفي إحدى الجمهوريات البحرية الإيطالية القديمة. وكانت سفنها تحمل إلى إيطالية سلع الشرق وخيراته. استولى عليها اللنكبرديون سنة ٥٨٩ وضموها إلى دوقية بنفنتو . وكان لامالفي شأن يذكر أيام سيطرة العرب على حوض البحر المتوسط في القرون الوسطى (C.D.)

(٣) كانت هذه البلدة تدعى قديماً Maluentum ومعناها الهواء الرديء. ويقال إن بانيها هو ديوميدس أحد أبطال إلياذة هومروس. فلما استولى عليها الرومان سنة ٢٦٨ ق.م. أسموها Beneventum أي الهواء الجيد تيمناً. وكانت في القرن السادس جزءاً من دوقية لنكبردية فانفصلت عنها سنة ٨٤٩ م وفي سنة ١٠٥٣م. تنازل عنها الإمبراطور هنري الثالث للبابا ليئو التاسع (C.D.).

قلونيموس وزرح وإبراهيم. وعلى مسيرة يومين منها :-

مالفي[١] *Malfei* في مقاطعة أفولية. وردت في التوراة باسم «فول[٢]». فيها نحو مائتي يهودي، على رأسهم الربيون أخيماعص. وناثان وصادوق وعلى مسيرة يوم منها :-

أشقولي[٣] *Ascoli* فيها نحو أربعمائة يهودي. على رأسهم الرّابيون قنطينو وصهره صمح ويوسف. وعلى مرحلة يومين منها :-

تراني[٤] *Trani* ثغر ساحلي يجتمع فيه حجاج النصارى قبل إبحارهم إلى القدس. لها مرسى جيد، وفيها طائفة من اليهود يقدرون بنحو المائتين. على رأسهم الرّابيون إيليا وناثان الواعظ الشهير ويعقوب. والبلدة كبيرة، طيبة المقام. وبعد مسيرة يومين منها :-

---

(١) بلدة صغيرة على نهر مالفي في مقاطعة لاتيوم Latium (C.D.)

(٢) راجع (أشعيا ٦٦ :١٩) . وقد جرت عادة بنيامين أن ينسب بناء بعض المدن في الشرق والغرب إلى بعض الشخصيات البارزة الواردة في التوراة لمجرد تشابه بالألفاظ ومثل هذه التسمية لا تستند إلى نص تاريخي.

(٣) مدينة Asculum Apulum القديمة المعروفة في مقاطعة Daunia في إيطالية الجنوبية، حيث انتصر برهوس Pyrrhus على الرومان سنة ٢٧٩ق.م.
(S. Will., H.H.W. IV. 508 . C.D.)

(٤) ثغر تجاري في جنوبي إيطالية. كانت مراكب الغرب تقلع منها إلى شواطيء الإسكندرية والشام في القرون الوسطى. اشتهرت في حصارها من روجر ملك النورمان سنة ١٠٦٠ (Gibbon, D.F.R.E. LVI) وكان فيها في العصور الوسطى طائفة معروفة من اليهود، واشتهر فيها كنيسها الكبير المشيد سنة ١٢٤٧م لا تزال آثاره باقية في الشارع المسمى (Via Sinagoga) أي شارع الكنيس. واشتهر بين علمائها إشعيا الكرملي التراني الفقيه الكبير في المائة الحادية عشر الميلادية (Lowenth. W.P.B. 250. Gr. IV . 296)

نيقولاس دي باري[١] *Colo Di Bari* كانت في أول عهدها بلدة عامرة، حتى دمرها الملك وليم الصقلي، وهي اليوم مهجورة من اليهود والنصارى. وعلى مسيرة يوم ونصف يوم منها:–

طارنت[٢] *Taranto* بلدة كبيرة من أعمال

---

(١) بلدة عامرة موقعها اليوم على شاطئ بحر أدرية في شرقي إيطالية الجنوبية بازاء مقدونية. غزاها العرب في أول خلافة المتوكل على الله في أواسط القرن التاسع للميلاد وكانوا يعرفونها باسم بارة. وقد حكموها مدة، إلى أن نزل إيطالية لويس الثاني ملك فرنسة وفتحها سنة ٨٧١م (غزوات العرب ص١٥٢، الإسلام والحضارة العربية ج١ ص٢٦٠ وابن الأثير ج٧ حوادث سنة ٢٢٨ و٢٢٩ و٢٣٢ وما والاها).

استولى وليم ملك صقلية الملقب بالطاغية على باري سنة ١١٥٦م فدمرها تدميراً. فظلت مهجورة إلى أن أعاد الملك وليم الصالح بناءها سنة ١١٦٩م. أي بعد زيارة بنيامين لها بقليل. وكانت هذه المدينة تدعى في القرون الوسطى القديس نقولا St. Nicholas نسبة إلى دير شيده في ضاحيتها روجر أمير أفولية سنة ١٠٩٨م (Gibbon D.F.R.E. LVI.. C.d.) وكانت باري في عز أيامها حافلة بالمدارس والعلماء الكبار من اليهود. وكانت فتاوي فقهائها تصدر إلى جميع أنحاء إيطالية وأوروبة كما اشتهرت صلتها العلمية بمدينة أوطرنتو. غير أن حريقاً هائلا كان قد دمر الحي اليهودي فيها سنة ١٠٣١م أي قَبل خراب باري نفسها بنحو قرن وربع القرن فهجرها اليهود ولم يعودوا إليها إلا في العصور المتأخرة. (GR. IV. 396)

(٢) هي Tarentum القديمة، الثغر التجاري المعروف في جنوبي إيطالية . أسسها الاسبرطيّون قرابة سنة ٧١٠ق.م. واستولى عليها الرومان سنة ٢٧٢ ق.م. وغزاها هنيبال القرطاجي سنة ٢١٢ق.م. وكانت تسمى Imbelle Tarentum أي طارنت الجميلة (C.D.) استولى عليها عرب صقلية سنة ٨٤٠م ثم خلفهم فيها بعد حين عرب أقريطش (كريت) سنة ٨٤٢ أو ٨٤٣ م. واستعادها لويس الثاني ملك فرنسه سنة ٨٥١م . فعاد العرب وحاصروها بأمر أبي الأغلب العباس بن الفضل. (ابن الأثير . حوادث سنة ٢٣٢هـ وغزوات العرب ص١٥٣).

قلـــورية(١). غـالب أهلهـا من اليـونان (الروم) وفـيـهـا نحـو ثلثـمـائة يهـودي، بـينهـم من العلمـاء، الرّابيـون مـئـيـر وناثان وإسـرائيل. وعلى مسيرة يوم منها :-

برنديزي(٢) *Brindisi* على شاطئ البـحـر . فـيـهـا زهاء عشرة يهـود يمتهنون الصباغة(٣). وعلى مسيرة يومين منها :-

أوطرنت(٤) *Otranto* على سـاحل بحـر اليـونان. يقـيـم بهـا نحـو خمسمائة يهودي على رأسهم الرّابيون منحم وكالب ومئير ومالي. ومنها يقطع المسافر مسافة يومين بحراً إلى :-

---

(١) شبه جزيرة Calabria المعروفة في الطرف الجنوبي الشرقي من إيطالية. كان الإغريق القدماء يسمونها Messapia . استولى عليها الرومان سنة ٢٦٦ ق.م. ثم أخضعها أودوسر Odoacer قاهر رومية سنة ٤٧٦م. وتيودوريك سنة ٤٩٣م. وفتحها مانويل إمبراطور بيزنطية سنة ١١٥٥م. فأسكن فيها عدداً كبيراً من الروم وأتبع أهلها الكنيسة الشرقية واقتبسوا اللغة اليونانية (Gibbon D.F.R.E. LVI. C.D.)

أما العرب فكانوا يسمون كلابرية «قلورية» (ياقوت) ومنهم من سماها قلفرية. وسماها ابن الأثير أنكبودة عند ذكره احتلال العرب مدينة طارنط في حوادث سنة ٢٣٢هـ.

(٢) بلدة تجارية مشهورة على شاطئ الأدرياتي. احتلها عرب صقلية سنة ٨٣٨م وحكموها مدة.

(٣) الصباغة من أهم الصناعات اليدوية التي كان اليهود يتعاطونها في جنوبي أوروبة والشرق الأدنى خلال العصور المتوسطة. وكان عليها ضريبة خاصة تدعى Tignta Judaeorum (L. Abrahams: J.l.m.a. 236-237)

(٤) ثغر تجاري في إيطالية الجنوبية بمحاذاة جزيرة قرفو. وبين المخطوطات اليهودية القديمة لهذه المدينة كتاب من المائة العاشرة منسوب إلى إبراهيم بن يهوشفاط رئيس طائفتها (Dinab 1.95.)

جزيرة قرفو[١] *Corfu* فيها يهودي واحد يمتهن الصباغة يدعى ر. يوسف . وعند هذه الجزيرة تنتهي مملكة صقلية. وعلى بعد يومين منها بطريق البحر :-

أرته[٢] *Arta* حيث تبدأ مملكة مانويل[٣] ملك الروم. وهي قرية فيها زهاء مائة يهودي، على رأسهم الرّابيان شلحية وهرقل. وعلى مسيرة يومين منها :-

إخيلوس[٤] *Achilon* فيها نحو عشرة يهود ، على رأسهم ر.شبثاي. ومنها بعد مسيرة نصف يوم :-

أناطوليكه[٥] *Anatolica* الواقعة على فجوة من البحر. وعلى بعد نصف يوم منها بطريق البحر :-

---

(١) هي جزيرة Corcyra القديمة في بحر اليونان على مسافة من شاطيء أبيرس Apirus، سكنها القورنثيون حوالي سنة ٧٠٠ق.م. وكان تنازع السيطرة عليها من أهم الأسباب التي أدت إلى حرب بالوبونيز Peloponnesus بين أثينة وإسبرطة سنة ٤٣١ ق.م. وفي القرن الثاني عشر للميلاد استولى عليها روجر ملك صقلية (١١٤٨-١١٥٤م) ثم سيطر عليها البنادقة سنة ١٣٨٦م. وغزاها الأتراك سنة ١٥٣٦م .(C.D.)

(٢) قرية يونانية في مقاطعة أبيرس على بعد بضعة أميال من مصب نهر أورويس Oropus.

(٣) هو مانوئيل (الأول) قومنينوس Manuel I Comnenus إمبراطور بيزنطية (١١٢٠-١١٨٠م) تولى العرش سنة ١١٤٣م.

(٤) بلدة تقع اليوم عند مدخل خليج قورنث من الغرب، على نهر أخيلس Achelous أكبر أنهار اليونان يبلغ طوله زهاء ١٣٠ ميلا (C.D.).

(٥) بلدة في مقاطعة Aetolia شمالي خليج قورنث.

بِتراس[١] *Patrae* البلدة التي بناها أنتباطرس[٢] أحد ملوك اليونان الأربعة الذين قاموا بعد الإسكندر. فيها أبنية جسيمة. ويسكنها زهاء خمسين يهودياً ، على رأسهم الرابيون إسحق ويعقوب وصموئيل. وعلى مسيرة يوم ونصف يوم منها بطريق البحر:-

لِيبنتو[٣] *Lepanto* الواقعة على الشاطئ. فيها نحو مائة يهودي. أشهرهم الرابيون جزري وسليمان وإبراهيم. وعلي مرحلة يوم ونصف يوم منها:-

كِريسة[٤] *Crissa* يسكنها نحو مائتي يهودي على قمة جبل برناسوس[٥] ، حيث يشتغلون بالزراعة. ومن أعيانهم الربنيون سليمان

---

(١) بلدة تقع على فجوة من بحر اليونان ، غربي خليج قورنث في أقصى شمالي شبه جزيرة المورة.

(٢) هو Antipater أحد كبار قواد الجيش المقدوني على عهد الملك فيليب وولده إسكندر الكبير. تولى نيابة الملك في مقدونية عندما شرع الإسكندر بغزواته الآسيوية سنة ٣٣٤ ق.م. وبعد وفاة الإسكندر سنة ٣٢٣ ق.م.، استقل انتباطر بالملك وتوفى سنة ٣١٩ ق.م. أما كون بتراس من بناء انتباطر فلا يؤيده التاريخ لأن هذه المدينة شيدت قبله بزمن طويل (.C.D وتاريخ ابن جريون ج٢ : ٢٣)

(٣) هى بلدة Naupactus القديمة في إقليم Locri Osolae أكبر ثغر تجاري على الشاطئ الشمالي من خليج قورن، يرجع تاريخ تأسيسها إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

(٤) بلدة قديمة في مقاطعة فوسيس Phocis اليونانية، موقعها في الجنوب الغربي من دلفي Delphi حيث كان خطباء دلفي المشهورون ينطقون بوحيهم المعروف في تاريخ الآداب اليونانية The Oracle Of Delphi (C.D.) .

(٥) جبل Parnassus الشهير المشرف على معبد دلفي . وكان اليونان يقدسون هذا الجبل ويعدونه مقر Apollo رب الفن و Muse ربة الشعر في أساطير الإغريق (C.D.) .

وحييم وإرمية وعلى مسيرة ثلاثة أيام منها :-

قورنث(١) *Corinthus* فيها نحو ثلثمائة يهودي. منهم الربيون ليئون ويعقوب وحزقية. وعلى بعد ثلاثة أيام منها :-

طيبة(٢) *Thebae* بلدة كبيرة . فيها نحو ألفي يهودي. وهم صناع مهرة يتقنون نسج الأقمشة الحرير الملونة(٣) الرائجة في أنحاء اليونان. وبينهم عدد من كبار العلماء العارفين بالمشنة والتلمود(٤)، يعدون من عظماء هذا العصر، على رأسهم الربن الأكبر هرون القوطى وأخوه، والرّابيون موسى وحية وإيلية ترتينو ويقطان، وكلهم علماء لا يبارون في جميع بلاد الروم باستثناء قسطنطينية. وعلى مسيرة يوم منها :-

---

(١) بلدة يونانية شهيرة على البرزخ المنسوب إليها (ترعة قورنث) . اشتهرت قديماً بتجارتها الواسعة وبمعبد أفروديت فيها. وعندها جرت أول معركة بحرية في اليونان زهاء سنة ٦٦٤ ق.م. وتشاهد اليوم بظاهرها بقايا أسوارها القديمة (C.D.).

(٢) بلدة يونانية قديمة في مقاطعة Boeotia . يقال : إنها أول مدينة اقتبست حروف الهجاء من الفينيقيين فكانت واسطة نقلها إلى أوروبة. اشتهر فيها ديموستنيس Demosthenes خطيبها الكبير في القرن الرابع قبل الميلاد . (C.D.) وكانت إقامة اليهود في طيبة منذ القرن الثالث قبل الميلاد. أما في القرن الحادي عشر للميلاد فكان عددهم فيها أكثر منه في أية مدينة يونانية أخرى.

(٣) يذكر المؤرخ جيبون أن صناعة المنسوجات الحرير قد بلغت شأوا بعيدا من التقدم في طيبة وقورنث وأرغس. وكان يتعاطاها خلق كثير من مهرة الصناع كانوا معفيين من الضرائب (D.F.R.E. XI. Gibbon,)

(٤) المشنة لفظة عبرية تعني «التثنية» وهى مجموعة تحتوي على النواميس والشرائع اليهودية المستندة إلى أحكام التوراة، اشتغل بجمعها طبقة من كبار معلمي اليهود في القرن الثاني للميلاد تعرف باسم «التنائيم» برئاسة الحبر الكبير يهوذا بن شمعون ابن غمليال الثاني (١٣٥-٢٢٠م) الملقب بالربن الأقدس.

نغروبنت[١] *Negroponte* بلدة كبيرة على شاطئ البحر، يؤمها التجار من كل حدب وصوب. يقيم فيها نحو مائتي يهودي من أعيانهم الربيون إيليا المغني *Psaltery* وعمانوئيل (صموئيل؟) وكالب[٢]. وعلى مسيرة يوم منها:-

يابشتريشة[٣] *Jabustrisa* الواقعة على شاطئ البحر. فيها نحو مائة يهودي. على رأسهم الرّابيون يوسف وصموئيل ونثانية. وعلى مسيرة يوم منها:-

رابنكة[٤] *Rabenica* فيها نحو مائة يهودي. على رأسهم الرّابيون يوسف وإلعازر وإسحق. وعلى مسيرة يوم منها:-

(١) هي بلدة خلكيس Chalcis الحالية حاضرة جزيرة أوبة Euboea كبرى جزائر اليونان مما يحاذي الشاطئ اليوناني الشرقي الأوسط. كانت تعرف باسم Egripo وموقعها في الساحل الغربي من الجزيرة على مضيق أوريبس Euripus (C.D.).

(٢) ربما كان هذا والد العالم المشهور ر. ميخائيل بن كالب الطيبي الذي أورد ذكره يهوذا الحريزي في مقاماته. وأشهر من انتسب إلى بلدة نغروبنت من علماء اليهود في القرون الوسطى، ر. شمرية النغروبنتي مترجم سفر التكوين لروبرتو ملك نابل سنة ١٣٢٨م. (GR. V. 260 . 308)

(٣) لا يمكن تعيين موقع هذه المدينة على وجه التأكيد غير أن بعض المحققين ومنهم آشر يعتقدون أن Jabustrisa لفظة سلافية، الأمر الذي يدل على أنها كانت من مدن الأفلاق Wallachians ويروي لنا جيبون أن قبائل الأفلاق شقت عصا الطاعة على إمبراطورية رومة الشرقية في أواسط القرن الثاني عشر وأعلنت استقلالها عنها (Gibbon, D.F.R.E. LX).

(٤) وهذه أيضاً لا نستطيع تعيين موقعها بالضبط وإن كان عدد من مؤرخي القرون الوسطى قد أوردوا ذكرها. ويسميها هنري دى فالنسين Henry de Valencienne في يومياته Ravenique (Adler. I.B.T).

شينون بوتامس[١] *Sinon Potamos* فيها نحو خمسين يهودياً ، من أعيانهم سليمان ويعقوب. وعند هذه المدينة تبدأ حدود أفلاجونية *wallachia* المأهولة بقوم يعرفون بالأفلاق[٢]. وهم خفاف الحركة. الواحدمنهم أشبه بالظبي، ينحدرون من أعالي الجبال للغزو والسلب، لا يجرؤ أحد على مقاومتهم ولا طاقة للملك على إخضاعهم . لا يعترفون بالنصرانية. لهم أسماء شبيهة باليهودية، ويعدون اليهود إخواناً لهم. فإذا عثروا على يهودي في أثناء غزواتهم اكتفوا باستلاب ماله دون قتله كما يفعلون فيما لو كان رومياً. وهم ملاحدة لا دين لهم. وعلى مسيرة يومين من هذا البلد :-

غرديكى[٣] *Ghardeghi* وهي مدينة مهجورة، فيها عدد يسير من اليهود والروم. وعلى بعد يومين منها :-

أرميروس[٤] *Armilon* مدينة كبيرة وثغر ساحلي ذي صلة تجارية

---

(١) وردت هذه البلدة في بعض نسخ الرحلة باسم زيتون zeitun ولا نستطيع تعيين موقعها بالضبط.

(٢) شعب قديم كان يسكن في الأراضي الواقعة على الشاطئ الأيسر من حوض الدانوب الأسفل يضم البلاد المعروفة الآن باسم ترنسلفانية وولاخية وملدافية، وكان يطلق على مجموعة هذه الأراضي اسم داسية Dacia في رومانية الحالية. عرفها جغرافيو العرب باسم أفلاجونية (المسالك والممالك ص١٠٥) ولم يعتنق الأفلاق النصرانية إلا في القرن الثالث عشر (C.D.).

(٣) وردت هذه البلدة في بعض النسخ « كرديكى » والظاهر أنها بلدة كردية Cardia القديمة في اليونان تعرف اليوم باسم Volos (C.D.).

(٤) تقع هذه المدينة على خليج فولوس Volos أيضاً. ويسميها مؤرخو القرون الوسطى Amire أو Amiro و Armilon و Almiro ويقول المؤرخ بوكفيل Pouqueville إنها كانت مركز مقاطعة يونانية بهذا الاسم (C.D.).

ببيزنطية وبيزة وجنوة . يؤمها عدد كبير من التجار للبيع والشراء. وفي هذا البلد نحو ٤٠٠ يهودي على رأسهم الرّابيون شيلة والعميد يوسف والرئيس سليمان وعلى بعد يوم منها:-

بسينة(١) *Bissina* فيها نحو مائة يهودي ، على رأسهم الرابيون شبثاي وسليمان ويعقوب . وعلى مسيرة يومين منها بطريق البحر:-

سلانيك(٢) *Thessalonica* بلدة واسعة بناها سلوقس أحد الأمراء

---

(١) لا نستطيع أن نعين بالضبط موقع هذه المدينة. ويظهر من تسلسل الرحلة أنها كانت على شواطيء خليج سلانيك Sinus Thermaicus .

(٢) هي المدينة الكبيرة المعروفة في مقدونية والثغر التجاري الشهير على الزاوية الشرقية الشمالية من الخليج المعروف باسمها حيث تبدأ شبه جزيرة خلقدونية Chalcidice . كانت في العصور القديمة تدعى ثرمة Therma . استولى عليها الأثينيون سنة ٤٣٢ ق.م. وفي سنة ٣١٥ ق.م. جدد بناءها القائد قسندر Cassander الذي تولى الملك على مقدونية سنة ٣٠١ ق.م. وأطلق عليها اسم تسالونيكه Thessalonica تكريماً لتسالية زوجه، أخت الإسكندر الكبير وابنة فيليب المقدوني. استولى عليها الرومان سنة ١٦٨ ق.م. وأصبحت مدينة حرة سنة ٤٢ ق.م. لأهمية موقعها. (C.D.) ولهذه المدينة مقام كبير في تاريخ الكنيسة المسيحية. إذ زارها القديس بولس مبشراً سنة ٥٣م. وكتب فيها رسالتين إلى أتباع المسيح فيها. وقد غزا العرب سلانيك سنة ٩٠٤م وأغار عليها النورمنديون من صقلية سنة ١١٨٥ . وأخيراً استولى عليها السلطان مراد خداوندكار العثماني سنة ١٤٣٠م وظلت بيد الأتراك حتى سنة ١٩١٢م. حيث احتلها اليونان في حرب البلقان الأولى. أما تاريخ إقامة اليهود في سلانيك فيعود إلى ما قبل التاريخ الميلادي. بقرن أو أكثر. إذ وجد بولس الرسول فيها جالية يهودية كبيرة. وفي القرن الثاني عشر الميلادي كانت الإمبراطورية البيزنطية تعين على يهود هذه المدينة رئيساً منهم يلقب Ephoros ينظر في شؤونهم ويجبي للحكومة الضرائب المفروضة عليهم. وكان يقوم بهذه المهمة أيام زيارة بنيامين الربن=

الأربعة الذين قاموا بعد الإسكندر . فيها نحو ٥٠٠ يهودي بينهم الربن صموئيل وأولاده العلماء الأعلام. وهو عامل الملك على اليهود . ومن علمائها أيضاً صهره شبثاي والرّابيان إيلية وميخائيل . ويعاني يهود هذه المدينة اضطهاداً شديداً . ويحترف أغلبهم الصناعات اليدوية . وعلى مسيرة يومين منها :-

متريزي(١) *Mitrici* فيها نحو عشرين يهودياً، منهم الرابيون إشعيا ومكير وإليئاب وعلى مسيرة يومين منها :-

درامة(٢) *Drama* فيها نحو ١٤٠ يهودياً على رأسهم الرابيان

= صموئيل. غير أن معاملة الروم لليهود كانت على وجه العموم سيئة يشوبها التعسف والاضطهاد. فلما استولى السلطان مراد العثماني على سلانيك سنة ١٤٣٠م منح يهودها الحرية الدينية وأصبحوا في أحسن حال بالنسبة إلى ما كان يعانيه إخوانهم من الضيق في أوروبة المركزية، الأمر الذي دعا رئيس اليهود في سلانيك وهو يومئذ الرابي إسحق صرفاتي أن يوجه رسالة إلي يهود ألمانية يدعوهم فيها إلى هذه المدينة حيث يجدون الحرية والأمان. فاستجاب لدعوته عدد غفير منهم. ثم أعقبت هذه الهجرة موجة كبيرة من مهاجرة يهود إسبانية بعد طردهم منها سنة ١٤٩٢م. وكان السلطان بايزيد الثاني (١٤٨٩-١٥١٢م) قد فتح أبواب بلاده بوجههم. وعلى هذا نشأت في سلانيك جاليتان لليهود، الأولى الأشكنازية (الألمانية) والثانية السفاردية (الأسبانية) وأصبحت طائفتهم فيها من أهم الطوائف اليهودية في أوروبة (GR. IV. 301 . J.E).

(١) لا وجود لهذه المدينة في الوقت الحاضر. أما في العصور الوسطى فكانت تعرف باسم دمتريزي Dimitrizi على شاطيء بحر أيجة (C.D.) .

(٢) كانت هذه المدينة تسمى Drama El Val de Phelippe وسماها البعض Draimes وموقعها في واد بالقرب من أطلال مدينة فيليبي القديمة على مقربة من قسطنطينية . (C.D.)

ميخائيل ويوسف ومنها على مرحلة يوم واحد :-

كرستوبوليس(١) *Christopolis* فيها نحو عشرين يهودياً . وعلى مسيرة ثلاثة أيام منها :-

أبيدوس(٢) *Abydos* الواقعة على شاطئ البحر. وعلى بعد خمسة أيام منها بطريق وعرة جبلية :-

قسطنطينية(٣) *Constantinopolis* المدينة الكبرى قاعدة دولة

---

(١) وردت هذه المدينة في النص العبري للرحلة باسم كنيستوبوليس وقد حرفها بنيامين متعمداً لأسباب لا تخفى على القارىء. أما موقعها فعلى الطريق المؤدية من سلانيك إلى قسطنطينية على الحدود الفاصلة بين تراقية ومقدونية.

(٢) بلدة في مقاطعة طروادة Troad على شاطئ هلسبونت Hellespont (الدردنيل) الآسيوي وهي غير أبيدوس المعروفة في مصر القديمة (C.D.) وبين المخطوطات اليهودية القديمة رسالة من ر. منحم مئيري مؤرخة في سنة ١٠٩٦م. يذكر فيها وجود طائفة صغيرة لليهود في أبيدون (كذا) بالقرب من قسطنطينية (Dinab. 1..97) ويروي ابن خرداذبة أن بأبدس (كذا) عين ماء تدعى «عين مسلمة» نسبة إلى مسلمة بن عبد الملك الذي حاصر قسطنطينية سنة ١١٤هـ (المسالك والممالك ص١٠٤).

(٣) هى المدينة الكبرى التي شيدها القيصر قسطنطين الأول في موقع مدينة بيزنطية القديمة Byzantium عند ملتقى بحر بروبنطس Propontis (مرمره) وبحر بنطس Pontus Euxinus (الأسود) . استولى عليها قسطنطين الأول وسماها «رومية الجديدة» Rhoume فكان الاحتفال بتكريسها في حزيران سنة ٣٣٠م. بمهرجان عظيم استمر أربعين يوماً. ثم سميت قسطنطينية تكريماً لمؤسسها. وكان مقدراً لها أن تحمل لواء الحضارة القديمة زهاء ألف سنة، وبلغت من العز والرفعة والعمران ما بزت به رومية الكبرى . (C.D.) عرفها العرب في غزواتهم وفتوحاتهم. وكانت أول غزوة لهم فيها سنة ٣٢هـ بقيادة معاوية بن أبي سفيان. حاصروا قسطنطينية واقتتل المسلمون والروم قتالاً شديداً فاستشهد أبو أيوب الأنصاري ودفن بالقرب من سورها .=

الروم المعروفين بالأغريق وكرسي مملكة مانويل الانبراذور[1] ، وباسمه يحكم البلاد اثنا عشر أميراً يأتمرون بأمره . وكلهم يملك القصور المنيفة والقلاع الحصينة في قسطنطينية أو في المدن التي يحكمها . ولكل من

=ومنذ ذلك الحين توالت على هذه المدينة غزوات إسلامية عديدة لكنهم لم يتمكنوا منها . وقد حاصرها البلغار سنة ٨١٤م واستولى عليها الصليبيون (١٢٠٣ - ١٢٠٤م) واستعادها الروم سنة ١٢٦١م . وظلت قاعدة إمبراطورية رومية الشرقية (بيزنطية) حتى اليوم التاسع والعشرين من شهر حزيران سنة ١٤٥٣م عندما افتتحها الأتراك العثمانيون بقيادة السلطان محمد الفاتح فاصبحت كرسي السلطنة حتى سنة ١٩٢٣م .

أما إقامة اليهود في قسطنطينية فقد وافق تاريخ المدينة منذ أول عهدها إذ كان يؤمّها تجارهم من الإسكندرية في القرن الأول قبل الميلاد . وأقدم وثيقة تتعلق بهم يرجع تاريخها إلى سنة ٣٩٠م . إلا أن معاملة قياصرة الروم لليهود كانت على وجه العموم سيئة خلال القرون الوسطى من جراء التعصب الديني . وفي أواخر القرن التاسع اضطر القيصر باسليوس يهود قسطنطينية إلى اعتناق النصرانية ، وقتل عدداً كبيراً ممن أبى ذلك فلم ينج منهم سوى عدد ضئيل بوساطة الرّابى شفطية الشاعر الطبيب الذي شفى ابنة الملك من جنونها . لكن اليهود عادوا إلى قسطنطينية وأقاموا في الحي الخاص بهم ، وكان لهم فيها طائفة معروفة في القرن الثاني عشر وما يليه . فلما فتح العثمانيون هذه المدينة في أواخر القرن الخامس عشر منحوا يهودها الحرية المطلقة واعترفوا برئيس حاخاميها ممثلا لشؤون اليهود في بلاط السلطنة . ورسم السلطان بسكناهم حي « خاصكوي » فأخذ اليهود يتوافدون على هذه المدينة ، ثم تضاعف عددهم فيها من مهاجري يهود إسبانية وقد اشتهر منهم في استانبول الرئيس موسي هامون طبيب السلطان سليم الأول (ياووز) وولده يوسف هامون طبيب السلطان سليمان القانوني . والرئيس يوسف دوق ناسوس Duke of Naxos وزير السلطان سليم وغيرهم . (GR. IV. : 255, 307, J.E)

(١) هو مانويل الأول قومنينوس إمبراطور الروم (راجع حاشية ص٢١٠ من هذا الكتاب) .

هؤلاء الأمراء لقب خاص يعرف به. فأولهم يلقب «فريفوستوس مغنس» والثاني «ميغس دمستقس» والثالث «دومينوس» والرابع «ميغس دوقس» والخامس «أقونمس مغنس[١]» وهكذا....

وتبلغ استدارة قسطنطينية ثمانية عشر ميلا[٢]. يكتنف البحر نصفها ويحيط البر بنصفها الآخر. وتلتقي عندها فجوتان: الأولى من بحر روسية[٣] والثانية من بحر إسبانية. وفي المدينة حركة دائبة من التجار القادمين إليها من بابل وشنعار[٤] ومادي وفارس وممالك مصر وكنعان وروسية وهنغارية، والبجاناكية[٥] والخزر ولمبرذية وإسبانية.

---

(١) يحفظ لنا التاريخ ألقاب وزراء قياصرة الروم ومراتبهم بالتفصيل. فالأول الملقب Praepositus Magnus كان حاكم العاصمة وقائد حاميتها. والثاني الملقب Megas Demastacos كان القائد الأعلى للجيش الإمبراطوري. والثالث الملقب Dominos كان رئيساً لديوان البلاط الإمبراطوري. والرابع الملقب Migas Ducas كان قائد البحرية والأميرال الأكبر. والخامس الملقب Oeconomos Magnus كان كبير رجال الإكليروس في قسطنطينية. (راجع تفصيل هذه الرتب والألقاب في Gibbon) D.F.R.E. LIII ثم راجع المسالك والممالك لابن خرداذبة ص١٠٩).

(٢) كانت استدارة قسطنطينية في أول عهدها نحو الميلين، لكن عمارها قد اتسع كثيراً بفضل التجديدات التي طرأت عليها. وكان محيطها في القرن الحادي عشر حسبما يرويه المؤرخون نحو أربعة عشر ميلاً ونصف الميل.

(٣) يقصد البحر الأسود. كان الرومان يسمونه Pontus Euxinus. ويسميه المسعودي في التنبيه والإشراف (ص٥٨) بحر بنطس أو بحر البرغر والروس. أما بحر إسبانية فيقصد به بحر الروم المتوسط Mare Internum.

(٤) اسم وادي الرافدين كما ورد في التوراة (تك ١٠: ١٠)

(٥) هي الأراضي المحصورة بين وادي الدانوب والدنيستر. كانت قديماً تدعى Patzinakia وقد وردت هذه اللفظة في النص العبري للرحلة. ويسميها العرب البجاناكية (الأعلاق النفيسة لابن رستة ص١٣٩) وتعرف الآن ببلاد البشناق.

ولا يباريها في هذا الباب غير بغداد المدينة الإسلامية الكبرى .

وفي قسطنطينية بيعة تيوصوفية[١] المعروفة، كرسي بابا الروم[٢]، لأن الناس هنا لا تدين بالطاعة للبابا المقيم في رومية . وفي هذه البيعة من الصوامع بعدد أيام السنة . وكنوز لا يحصرها عد . وتفيض هذه الثروة الطائلة عاماً بعد عام من الهدايا والعطايا التي تتوارد عليها من المدن والجزر والحصون المحبوسة عليها . وليس في العالم كله بيعة تضارع تيوصوفية فخامة . ففيها من الأساطين المموهة بفضة وذهب، ومن القناديل المفضضة والمذهبة مالايمكن إحصاؤه .

---

(١) هي البيعة المعروفة اليوم باسم جامع آيا صوفية في استانبول . شيدها قسطنطين الكبير وكرسها إكراماً للحكمة الخالدة Haghia Sophia سنة ٣٢٥م . التهمتها النيران في حريق سنة ٤٠٤م فأعاد تجديدها القيصر تيودوسيوس سنة ٤١٥م ثم أصابها حريق ثان على عهد جستنيان سنة ٥٣٢م . وحينئذ قرّر هذا القيصر بناءها فاحتفل بتكريسها سنة ٥٣٧م . ويقال إن القيصر كان يشرف على البناء بنفسه يومياً حتى إذا ما تمت وشاهد ما كانت عليه من الفخامة قال متحدياً الملك سليمان الحكيم باني هيكل القدس: «لقد غلبتك يا سليمان» . لكن هذا البناء العظيم ما لبث أن تصدع بفعل الزلزال الذي أصاب قسطنطينية سنة ٥٥٨م . فأعيد تجديده ولا يزال حتى اليوم وبعد أن مر ثلاثة عشر قرناً على تشييده مثالا رائعاً للطراز البيزنطي ذي القباب الشرقية البديعة . فلما استولى الأتراك العثمانيون على قسطنطينية سنة ١٤٥٣م حولوا هذه البيعة مسجداً صار يعرف باسم «آيا صوفيا جامعي» وأجري بعض التحوير في البناء بأن أضيفت إليه المآذن وأقيمت فيه المحاريب . وقد قامت الجمهورية التركية في السنوات الأخيرة بكشف الطلاء عن جدران الجامع الداخلية فبانت الصور والنقوش القديمة التي كانت تزينها (H.S. Williams, H.H.W.VII. 79. Gibbon D.F.R.E. XI.)

(٢) يعني بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية .وكان انفصال هذه الكنيسة نهائياً عن كنيسة رومية في سنة ١٠٥٤م عندما حرم البابا ليئو التاسع بطريرك الكنيسة الشرقية .

وبظاهر القصر الملكي الملعب المعروف «إيبودرومي[١]» حيث تقام الألعاب الملكية يحتفل فيه بعيد الميلاد بمهرجان عظيم، ويتقاطر عليه اللاعبون من جميع أنحاء المعمورة، فيقومون بشتى الأعمال الباهرة والسحريات العجيبة. وتقام فيه المصارعة بين ضروب الحيوان من ضواري وسباع ودببة ونمورة وحمر وحشية وطيور جارحة مدربة، بحضرة الملك والملكة. وهذا لا نظير له في مكان آخر من العالم.

وبضاحية القصور الملكية قصر منيف شيده الملك مانويل لسكناه على شاطئ البحر. وهذا القصر يعرف باسم «بلاشيرنس[٢]». فيه الأساطين والحيطان الموشاة بالتبر الخالص والنقوش البديعة التي تصور المعارك القديمة والحروب التي خاضها هذا الملك. وفي القصر عرش من خالص الذهب مفصص بالحجارة الكريمة يتدلى من أعلاه بما يحاذي

---

(١) هو ملعب الأيبودروم Hippodrome الشهير. وضع أساساته القيصر Severus وتم بناؤه على عهد قسطنطين. موقعه في الساحة المعروفة في استانبول باسم «آت ميدان» وساحة السلطان أحمد. وقد جرت في السنوات الأخيرة حفريات مهمة في هذه الساحة كشفت عن آثار الحلبة العظيمة التي كانت في عز الدولة البيزنطية ملتقى أرباب الحكم والطبقات الراقية في تلك العاصمة العريقة. ومن المهرجانات التأريخية التي أقيمت في هذا الملعب المهرجان الكبير الذي أقيم في عيد الميلاد من سنة ١١٦١م احتفالاً بزواج الإمبراطور مانويل قومنينوس من مارية ابنة أمير إنطاكية.

أما العرب فقد أسموا أيبودروم قسطنطينية بالبذرون. (راجع الأعلاق النفيسة لابن رسته ص١٢٠: والمسالك والممالك لابن خرداذبة ص١٠٩ و Gibbon, D.F.R.E. XLIX)

(٢) هو القصر الذي كان يعرف باسم Bilbernae Imperatoris وكان يعرف أيضاً في خطط قسطنطينية القديمة باسم Emanuelis Palatium أي بلاط مانويل (C.D.)

هامة الرأس تاج من ذهب مُعلَّق بسلاسل من ذهب، مرصع بالجواهر النادرة الثمينة . ولمع هذه الجواهر ينير القاعة في الغسق، فيغنيها عن نور المصابيح. وهناك عدا هذا من التحف ما يقصر عن تفصيله اللسان.

ويتوارد الخراج على قسطنطينية كل سنة من جميع أنحاء بلاد الروم، فضلاً عن الهدايا السنية من حرير ملون وذهب، ما يملأ الخزائن العديدة. ولا نظير لهذه الثروة وهذه المباني في جميع العالم. ويقال : إن خراج العاصمة وحدها يبلغ عشرين ألف فلورين[1] ذهباً في اليوم الواحد. وهذا الخراج يجبى من المنازل والأسواق والمتاجر والمكوس التي يؤديها التجار الذين يتقاطرون عليها براً وبحراً.

والروم في هذه المملكة معروفون بالغنى والمال الكثير من ذهب وجواهر. يرتدون الحلل الزاهية من حرير مقصب بالذهب وسائر المعادن النفيسة، حتى لتحسب الواحد منهم وهو ممتط جواده، أميراً خطيراً. والمملكة واسعة الأرجاء ذات ثروة عظيمة وأهلوها يعيشون بنعمة وترف، لهم حذق في العلوم اليونانية.

---

(١) قطعة نقد ضربت ذهباً لأول مرة في فلورنسة في القرن الحادي عشر، ثم ضربت فضة سنة ١١٨١م وفي سنة ١٣٤٣م كان الفلورين الذهب يساوي في إنكلترة على عهد الملك إدوارد الثالث ستة شلنات. أما الفلورين الفضة الحالي المستعمل في بعض البلاد الأوروبية فقد ضرب لأول مرة سنة ١٨٤٩م. وقيمته تعادل شلنين بالعملة الإنكليزية.

ويستأجر الروم جماعات من الأقوام الأجنبية المعروفة بالبربر، يستعينون بهم على مناجزة التوغرمين[1] المعروفين بأبناء الترك. لأن الترف يقعد الأهالي عن الحرب والقتال ويجعلهم واهني العزيمة مثل النساء.

ويقيم اليهود في حي[2] منعزل عن سائر الأحياء، وراء خليج مرمرة

---

(١) هم السلاجقة الأتراك. وقد اصطلح اليهود في القرون الوسطى على لفظة توغرمين תוגרמי' يطلقونها على التركمان نسبة إلى توغرمة أحد أحفاد يافث بن نوح (سفر التكوين ١٠:٣) ويرجح أن بلاد توغرمه كانت في الجهة الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى. وقد ورد ذكر سلاطين السلاجقة في بعض المخطوطات اللاتينية القديمة Soldanus Togharma Turcae. والظاهر أن لفظة توغرمين العبرية محرفة عن لفظة «تراكمين» بالكاف الفارسية. قال أبو الفدا: إن الأتراك قصدوا خراسان وكانوا كفاراً. وكان من أسلم منهم وخالط المسلمين يصير «ترجماناً» بين الفريقين، حتى صار من أسلم منهم قيل عنه إنه صار «ترجماناً» ثم قيل «تركماناً» بالكاف الفارسية وجمع على «تراكمين» ثم أسلم الغز جميعهم فقيل لهم «تراكمين». (المختصر في أخبار البشر. ج:٣ ص٢٨)

هذا وأما الحروب التي يشير إليها بنيامين فهي المعارك العديدة التي نشبت بين مانويل قومنينوس قيصر بيزنطة والسلطان مسعود بن قليج أرسلان من سلاجقة الروم في قونية (٥١٠-٥٥١هـ ١١١٦-١١٥٦م).

(٢) كان مقر اليهود في قسطنطينية على عهد القياصرة في «بيرة» الحي الجميل المعروف اليوم في استانبول، والذي كان أيام السلطنة العثمانية مقر الهيئات الدبلوماسية. وكان هذا الحي يسمى في تلك العصور Stinon أو Stanus وموقعه في القطاع الشرقي من الساحل الشمالي لخليج القرن الذهبي الذي كان يعرف باسم Chrysokeras. والمعروف أن الإمبراطور يوحنة Johannes Porphyrogenitus سلف الإمبراطور مانويل كان قد أصدر أمراً يحظر على اليهود الإقامة في قسطنطينية، ثم سمح لهم بالعودة مشترطاً عليهم الإقامة في حي بيرة، كما حصر فيهم مهنة الدباغة وبناء السفن (GR. IV. 301 وسبط يهوذا لابن ويرغه ص٢٥).

الذي يفصل ما بينهم والمدينة. فإذا أراد أحدهم الخروج إلى البلد للبيع والشراء وصل إليها عن طريق البحر . وفي هذه المدينة نحو ألفي يهودي من الرَّابيين وخمسمائة من القرائين[١]. والطائفتان تقيمان في حي واحد يفصل ما بينهما سور. وعلى رأس الرابيين من العلماء الأعلام ، الرّابيون أبطليون وعوبدية وهرون خوسفو ويوسف سرجينو والعميد إلياقيم. ويحترف أغلب يهود قسطنطينية حياكة الأثواب الحرير. وبينهم التجار ذوو الثروة الواسعة. ويلحق باليهود أذى شديد من سائر السكان. فركوب الخيل محظور عليهم، باستثناء ر. سليمان المصري طبيب الملك الخاص[٢]. ولهذا الطبيب حظوة لدى الملك، وبفضل نفوذه يتمتع اليهود ببعض الامتيازات وسط موجة الاضطهاد المحيقة بهم. ويصيب الدباغين من اليهود بوجه خاص ضيق كبير، لأنهم مضطرون إلى طرح المياه القذرة في الأزقة والشوارع المحاذية لمدابغهم ، يتلوث بها السابلة من الروم فيزدادون كراهية لهم، فيصبون

---

(١) الرَّابيون هم الذين يتبعون تعاليم التلمود في توضيح وتفسير أحكام التوراة، وهم أغلبية اليهود. أما القراؤون فهم أتباع فرقة من اليهود أسسها في بغداد عنان بن داود على عهد أبي جعفر المنصور قرابة سنة ٧٦٧م. وتسمى «العنانية» أيضاً نسبة إليه . وأتباع هذه الفرقة يختلفون عن اليهود الرَّابيِّين بكونهم يتمسكون بمدلول نص التوراة الحرفي ولا يعترفون بأحكام التلمود . وقد كان لهذه الفرقة شأن كبير خلال القرون الوسطى وانتشر أتباعها في مختلف البلدان، أما اليوم فقد تضاءل شأنها ولم يبق من أفرادها إلا النزر اليسير. (راجع كتاب الملل والنحل للشهرستانى طبعة لندن ج١ ص١٦٥ والفصل الخاص بالقرائين في ذيل كتابنا) .

(٢) راجع كتاب كرمولي Histoire Des Medcins ص٤٨ و302 .GR. IV

جام غضبهم على البرئ والمذنب من اليهود سواء بسواء، يضربونهم على رؤوس الأشهاد، ويعاملونهم معاملة قاسية.

ومع هذا فاليهود هنا أثرياء، ذوو جود وإحسان وأصحاب دين وتقوى. يتحملون ما يصيبهم من جور وخسف بصبر جميل. ويعرف حي اليهود في هذه المدينة باسم بيرة. وعلى مسيرة يومين من قسطنطينية :-

رودستو[١] *Rhoedestus* فيها طائفة من اليهود يبلغ تعدادها نحو الأربعمائة. من أعيانهم الرّابيون موسى وأبيه ويعقوب. ومنها على مرحلة يومين :-

غليبولي[٢] *Gallipolis* فيها نحو مائتي يهودي، على رأسهم الرّابيون إلياس قبيد، وشبثاي الصغير[٣] وإسحق الكبير[٤]. وعلى مسيرة يومين منها :-

كالس[٥] *Coela* فيها نحو خمسين يهودياً. بينهم الرابيان يهوذا ويعقوب. ومنها على مسيرة يومين :-

---

(١) بلدة تقع في منتصف شاطئ بحر مرمره الشمالي على الطريق المؤدية إلى الدردنيل وتعرف اليوم باسم تكفور طاغ Tekirdag. وكانت قديماً تعرف باسم Bisanthe أيضاً.

(٢) بلدة معروفة عند المدخل الشمالي من المضيق المعروف باسمها. وقد كان استيلاء الأتراك العثمانيون عليها سنة ١٣٥٧م.

(٣) في الأصل زطرة זוטרא ومعناها بالآرامية الصغير.

(٤) في الأصل Megas ومعناها باليونانية الكبير.

(٥) قرية واقعة على فجوة في منتصف الشاطئ الشمالي (الأوروبي) من مضيق غليبولي يسميها الأتراك Kilia وكان جغرافيو الأغريق يعرفونها قديماً باسم Celus.

جزيرة مدلي(١) *Mitylene* إحدى جزر البحر. في عشرة مواقع منها طوائف صغيرة من اليهود. وعلى مسيرة ثلاثة أيام منها :-

جزيرة خيوس(٢) *Chios* فيها نحو أربعمائة يهودي. من أعيانهم الرّابيان إلياس كوهن وشبشة. وينمو في هذه الجزيرة شجر المصطكي(٣). و على بعد يومين منها :-

---

(١) إحدى كبريات جزائر بحر الأرخبيل المحاذية للشواطيء الآسيوية شمالي موقع إزمير الحالية. كانت قديماً تعرف باسم Lesbos ثم طغى عليها اسم مدينتها الكبرى Mytilene. بلغت أهمية في القرن السابع قبل الميلاد وكان لها مستعمرات خاصة بها في شواطيء آسية الصغرى وتراقية. وفي الحرب الفارسية اليونانية اتفقت مع أثينة، لكنها شقت عليها عصا الطاعة سنة ٤٢٨ ق.م فنشبت من جراء ذلك عدة حروب بين الفريقين أودت بشهرة هذه الجزيرة وعمرانها (C.D.).

(٢) من جزائر بحر الأرخبيل الكبرى. موقعها بإزاء شبه جزيرة أزمير Clazomenea . كان الإغريق القدماء يسمونها Chius و Scio . استولى عليها الفرس في حروبهم مع اليونان سنة ٤٩٤ ق.م. ثم حرّرها الأثينيون سنة ٤٨٩ ق.م. وبنتيجة ثورة ضد أثينة سنة ٤١٢ ق.م. تهدمت معظم مدنها فلم يعد لها شأن يذكر. وتُفاخر هذه الجزيرة غيرها من جزر بحر إيجه بكونها مسقط رأس هوميروس حسبما ترويه الأساطير القديمة (C.D.).

(٣) تشتهر جزيرة خيوس حتى اليوم بأشجار المصطكي أو المستكي؛ ويعنى بزراعته في عشرين قرية من قراها. وفي القرون الوسطى كان زراع هذا الشجر من النصارى معفيين من الضرائب، لهم بعض الامتيازات وكانت هذه المادة تسمى عندهم Mastix جاء في القاموس : «المصطكي بفتح الميم أو ضمها شجر له ثمر يميل طعمه إلى المرارة ويستخرج منه العلك.» (E.B.)

جزيرة صاموس[١] *Samos* فيها نحو ٣٠٠ يهودي ، على رأسهم الرّابيون شمرية وعوبدية ويوئيل. وفي هذه الجزيرة جماعات أخرى من اليهود. وعلى مسيرة ثلاثة أيام منها:—

جزيرة رودس[٢] *Rhodes* يقيم بها أربعمائة يهودي، على رأسهم الرّابيون أبة وحنانيال وإلياس. وعلى مسيرة أربعة أيام منها:—

جزيرة قبرس[٣] *Cyprus* فيها جماعة من اليهود الرابيين ، وأخرى

---

(١) جزيرة بحذاء آسية الصغرى عند مدخل فجوة «قوش اطه سي». كانت دولة ذات سيادة في القرن السابع قبل الميلاد واستولى عليها الفرس سنة ٤٩٤ ق.م. ثم استعادت استقلالها سنة ٤٧٩ ق.م. وفي سنة ٤٤٠ ق.م. انضمت إلى أثينة. ويروي هيرودوتس أنها من أجمل بقاع العالم (C.D.).

(٢) كبرى جزائر الدودكانيز Dodecanese المحاذية للشواطئ الجنوبية الشرقية من آسية الصغرى. كانت من مواطن الأغريق العريقة منذ العصور الخرافية. وفي هذه الجزيرة كان تمثال Colossus العظيم من عجائب الدنيا السبع القديمة. أنشئ سنة ٢٨٠ ق.م. (C.D.).

(٣) جزيرة كبيرة من جزائر شرقي البحر المتوسط. يبلغ طولها نحو ١٤٠ ميلا وأقصى عرضها نحو ٥٠ ميلا استعمرها الفينيقيون أولا ثم غزاها الإغريق وحكمها المصريون والفرس والرومان في عصور مختلفة. وكان الفينيقيون يعبدون أفروديت فيها باسم Cypris أو Cypria ومن ثم أصبحت لفظة Cyprus علماً للجزيرة. وقد ورد ذكرها في الانجيل (ا ح ١٣ : ٥و٦) . استولى عليها العرب بعد موقعة ذات الصواري على عهد عثمان بن عفان سنة ٣١هـ. والصليبيون سنة ١١٩٢م. والأتراك سنة ١٥٧٠ م وضمتها إنكلترا إلى ممتلكاتها سنة ١٨٧٨ . عرف اليهود هذه الجزيرة وأقاموا فيها منذ أقدم الأزمنة . وقد ورد ذكرها في التلمود (كريتوت ص٦) وكانوا يستوردون منها الخمر الجيدة יקפריםי . لكن طائفتهم فيها تضاءلت بعد ثورتهم على الإمبراطور تراسان سنة ١١٧—١١٨م بزعامة أرطميون القبرصي. ومنها لم تنشأ لهم في هذه الجزيرة طائفة ذات اعتبار (.C.E و.E.I و.J.E)

من الملاحدة المعروفين بالأبيقوريين[١] . واليهود يحرمونهم لانتهاكهم حرمة السبت واحتفالهم بيوم الأحد بدلاً منه . وعلى بعد يومين منها :–

قوريقوس[٢] *Corycus* المتاخمة لبلاد أرمينية . وهي أول مملكة طوروس[٣] ملك الجبال وأرمينيه الممتدة حدودها من دوكية[٤]؟ حتى بلاد التوغرمين (التركمان) وعلى مسيرة يومين منها :–

---

(١) يقصد الرحالة بالأبيقوريين طائفة من اليهود القرائين كانت على عهده تقيم في قبرص . وقد حرف لفظة القبرصيين קפרוסים بلفظة أبيقوريين אפיקורוסים Epicurei . وغني عن البيان أن هؤلاء لا صلة لهم بالأبيقورية الفلسفية اليونانية المعروفة .

(٢) بلدة قديمة موقعها على الشاطيء الغربي من خليج مرسين في قيليقية Cilicia Aspera كانت قديماً ميناء بحرياً مشهوراً بتصدير الزعفران Safferon (C.D.) .

(٣) هو طوروس Taurus ملك أرمينية في أوائل القرن الثاني عشر . كان في أول أمره معتقلاً في بلاط يوحنة الثاني الملقب بالجميل Cnlo - Joannes (١١١٨–١١٣٤) فولده مانويل الأول Comnenus لكن هذا الأخير أساء معاملة الأمير طوروس فتمكن من الإفلات من سجنه متنكراً وعاد إلى قيليقية . وهناك عاضده الأشراف ورجال الإكليروس فشق عصا الطاعة على إمبراطورية بيزنطة واستعاد عرش آبائه . فأرسل مانويل جيشاً لمقاتلة طوروس بقيادة أخيه أندرونيكس Andronicus مع أوامر خاصة بذبح الأرمن، لكن هذا القائد اندحر أمام طوروس في أول معركة مما اضطر مانويل بالأخير إلى مصالحته . وقد كانت وفاة طوروس سنة ١١٦٧م D.F.R.E.XLVIII (Gibbon, Conder Latin Kingdom Of Jerusalem 39) .

(٤) وردت هذه اللفظة في نسختنا סוכיא ولعل الرحالة يقصد بها إقليم قبادوقية Cappadocia المعروف في شمال قيليقية . أما في نسخة أدلر فوردت باسم ترونية Trunia.

ملمستراس[1] *Malmistras* هي ترشيش [2] الواقعة على شاطئ البحر. وعندها تنتهي مملكة الروم. وعلى مرحلة يومين منها :-

أنطاكية[3] *Antiochia* الواقعة على ضفاف نهر «فور» أو نهر

---

(١) يرى بعض المؤرخين أن الرحالة يقصد بملمستراس بلدة Mespuestia القديمة في قيليقية، ويرجح آخرون أنها بلدة مسيس أو مصيصه الحالية Messis الواقعة على نهر جيحون في الأناضول على مقربة من أضنه. وقد كانت هذه البلدة الحد الفاصل بين بلاد الروم وبلاد الشام. استولى عليها مانويل سنة ١١١٥م، (C.D.)

(٢) هذه إحدى هفوات بنيامين في تعيين المواقع الواردة في التوراة ، فإنه دون ريب يقصد بترشيش مدينة طرسوس الحالية المعروفة في قيليقية، التي اشتهرت في تاريخ الكنيسة في كونها مسقط رأس بولس الرسول (الإنجيل . أعمال الرسل ٩ : ١١ و٣٠ و١١ :٢٥) . وقد أثبت التحقيق التاريخي أن طرسوس غير ترشيش الواردة في التوراة (١ ملوك : ١٠ : ٢٢ و٢ أيام ٩ :٢١) . فطرسوس قريبة من فلسطين. على حين كانت ترشيش من البعد بحيث كانت سفن الملك سليمان تسلخ ثلاثة أعوام في بلوغها والعودة منها . لهذا يرى بعض المحققين أنها كانت في إسبانية. وتقول الترجمة السبعينية : إنها قرطاجة . والرأي السائد أن ترشيش كانت فرضة تجارية في مكان ما من جنوبي آسية لأن السفن كانت تحمل منها الذهب والفضة والعاج والقرود والطواويس . (راجع مادة ترشيش وطرسوس في قاموس الكتاب المقدس و C.D.)

(٣) بلدة قديمة كانت قاعدة بلاد الشام على عهد الدولة السلوقية . شيدها سلوقوس نيقاتور Seleucus Nicator (٣١٢-٢٨٠ ق.م.) أحد قواد الإسكندر ومؤسس الدولة السلوقية في حدود سنة ٣٠٠ ق.م . وأطلق عليها اسم أنطاكية Antiochia تكريما لاسم والده أنطيوخس Antiochus . قال ابن حوقل: «أنطاكية أنزه بلاد الشام بعد دمشق، عليها سور من صخر يحيط بها وبجبل مشرف عليها، وتجري المياه في دورهم وسككهم ومسجد جامعهم. وينقل عن العزيزي أن مساحة هذا السور اثنا عشر ميلا» فأما الجبل فهو سلبيوس Silipius . وأما السور الذي يحيط به فمن بناء جستنيان . (.C.D وصورة الأرض لابن حوقل) .

يبوق[1] الوارد ذكره في التوراة ، ينبع من جبال لبنان على مقربة من حماة. وهي بلدة كبيرة بناها الملك أنطيوخس على سفح جبل شاهق يشرف عليها من كل صوب، يحيط بها سور متين. وبظاهر المدينة في أعلى الجبل نبع يوزع ماءه رجل موكل به ، فيمر في مجاري تحت الأرض ويوصل إلى بيوت الخاصة. أما الجانب الثاني من البلد فيستدير به النهر. وموقع المدينة منيع جداً. يحكمها الأمير بهمند بواتفين الملقب «بوبة»[2] وفيها عشرة يهود يحترفون صنع الزجاج، منهم الرّابيون مردخاي وحييم وإسماعيل . وعلى مسيرة يومين منها :-

الليكة *Licha* أو اللاذقية[3] فيها نحو ٢٠٠ يهودي، على رأسهم الربيان حية ويوسف. وعلى بعد يومين منها :-

---

(١) المعروف أن أنطاكية تقع على نهر العاصي (الأرنط Orontes) الذي يمر بجانبها. أما نهر يبوق الوارد في التوراة (تك. ٣٢ :٢٢) فهو وادي زرقة المعروف في شرقي الأردن. وهذه إحدى هفوات بنيامين في تعيين المواقع الواردة في التوراة.

(٢) هوبهمند الثالث الألكن Beomond Poitevin le Baube ولي عرش أنطاكية بعد وفاة أمه سنة ١١٦٣م. وتوفي فيها سنة ١٢٠٠م.

(٣) اللاذقية بلدة قديمة على ساحل سورية بالقرب من رأس ابن هانئ في أقرب نقطة محاذية لجزيرة قبرص. بناها الملك سلوقس نيقاتور وأسماها Laodicea تكريماً لأمه Laodice وسماها الرومان Laodicea ad Mare أي اللاذقية البحرية تمييزاً لها عن خمس مدن يونانية أخرى كانت تعرف بهذا الاسم في آسية الصغرى وسموها الليكة Licha أيضاً (C.D.) فتحها العرب سنة ١٥هـ (٦٣٨م) واستولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٦م (٥٠٠هـ) . وقد أقام اليهود بها منذ أول إنشائها. (J.F. Ant., XIV. X. 20)

جبلة[1] *Gebilee* هي بعلجاد[2] الواردة في التوراة في سفوح جبل لبنان. وبظاهرها تقيم الطائفة المعروفة بالحشيشين[3] . وهم زنادقة لا يؤمنون بدين محمد. ويتبعون تعاليم شيخهم «قرمط»[4] يطيعونه

---

(١) قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية (ياقوت) ويعيِّن ابن بطوطة موقعها على مسافة ميل من الشاطئ.

(٢) راجع التوراة (يشوع ١١ :١٧) ويختلف الجغرافيون في تعيين موقعها فبعضهم يرى أنها بانياس أو قيسارية فيليبي، ويرى آخرون أنها بعلبك. وعلى كل فإنها ليست جبلة كما يذكر بنيامين.

(٣) هم الحشاشون، الطائفة الإسماعيلية المعروفة. يحدثنا عنهم ابن بطوطة بإسهاب ويذكر أسماء بعض حصونهم منها حصن القصير وحصن الشغر بكاش وحصن القدموس وحصن المنيقة وحصن العليقة وحصن مصياف وحصن الكهف إلى أن يقول: «وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية ويقال لهم الفداوية. ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم. وهم سهام الملك الناصر. بهم يصيب من يعدوا عنه من أعدائه بالعراق وغيرهم. ولهم مرتبات. وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته، فإن سلم بعد تأتي ما يراد منه فهي له، وإن أصيب فهي لولده. ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا إلى قتله.» أ.هـ. نقول ومن المشاهير الذين اعتدى عليهم أبناء هذه الفرقة الأمير إدورد الإنكليزي الذي اغتالوه سنة ١١٧٤م ومحاولتهم اغتيال صلاح الدين الأيوبي. وقد أشار إليهم الرحالة مركوبولو في حديثه عن بلاد الشام.

(٤) فرقة من الباطنية ينسبون إلى حمدان قرمط. قال فخر الدين الرازي: «كان حمدان قرمط رجلاً متوارياً صار إليه أحد دعاة الباطنية فدعاه إلى معتقدهم فقبل الدعوة، ثم صار يدعو الناس إليها فضلّ بسببه خلق كثير. واجتمع منهم قوم وقطعوا الطريق على الحج وقتلوهم. وأرادوا أن يخرجوا إلى مكة فدفع الله تعالى شرهم. وقتلوا عاقبة الأمر. (اعتقادات المسلمين والمشركين ص٧٩ طبعة لجنة التأليف والترجمة).

طاعة مطلقة للموت أو للحياة . يأتمر بأمره سكان الجبل ويسمونه « شيخ الحشيشين » أما مقامه فحصن يدعى القدموس أي « قدموث[١] » الواردة في التوراة من أملاك سيحون. وهؤلاء الحشيشون متضامنون مع بعضهم إذعاناً لتعاليم شيخهم . حتى إنهم ليضحون بالنفس طوعاً ويفتكون بالملوك والأمراء إذا اقتضى . ومسيرة أراضيهم ثمانية أيام. وهم في نزاع مستمر مع النصارى من الإفرنج وأمير طرابلس الشام. وقد أصاب طرابلس قبل مدة وجيزة زلزال شديد[٢]، أدى إلى هلاك خلق

---

(١) قال ياقوت : « القدموس قلعة من قلاع الدعوة التي كانت بيد الإسماعيلية المعروفين الآن بالفداوية. وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية. » أما قدموث الواردة في التوراة (يشوع، ١٣ :١٨) فهي مدينة كانت في شرق البحر الميت من شرقي الأردن. وقد خلط بينها وبين القدموس لتشابه اللفظتين.

(٢) يشير الرحالة هنا إلى الزلزال الشديد الذي حدث يوم الخميس الموافق ٢١ رجب سنة ٥٥٢هـ (٢٩ آب ١١٥٩) خربت فيه حماة وشيزر وحمص وحصن الأكراد وطرابلس وأنطاكية وغيرها من البلاد حتى وقعت الأسوار والقلاع. (المنتظم لابن الجوزى ج١٠ : ١٧٦ والتوفيقات الإلهامية ص٢٧٧).

وقد اشتهرت هذه المنطقة بكثرة الزلازل التي أصابتها في مختلف العصور. فبين المخطوطات اليهودية القديمة رسالة من الرملة فيها وصف رائع للزلزال الذي حدث في سورية وفلسطين نهار الخميس الموافق ١٢ طبيث سنة ٤٧٩٤ العبرية (كانون الأول سنة ١٠٣٣م وهو الزلزال الذي يذكره ابن الجوزى في المنتظم ج٨ : حوادث سنة ٤٢٥هـ) وقد جاء في هذه الرسالة ما ننقله عن العبرية : « خرج الناس من البيوت إلى الشوارع، عندما رأوا الجدران تتداعى والسقوف تنفر من أعالي الحيطان، والأبنية المتينة تتساقط ، والبيوت الجديدة تنهار، والناس يموتون تحت الأنقاض ، لأنهم لم يجدوا مناصاً لهم هنا أو هناك. . . خرج الناس من بيوتهم لا يلوون على شيء ، تاركين وراءهم ما ملكوه من حطام أملاً بالنجاة بأنفسهم. وحيثما توجهوا كانوا يشهدون آيات الله. فالحيطان تتناطح ثم تتناثر، وما بقي منها واقفاً ظلَّ مشققاً =

كبير من اليهود وغيرهم ، إنهارت عليهم الدور والحيطان فطمرتهم. ونيف عدد من هلك بهذا الزلزال في فلسطين وحدها على العشرين ألفاً. وعلى مسيرة يوم واحد منها :-

جبيل (١) *Byblus* هي بلدة « جبال » الواردة في التوراة من أملاك بني

=مائلا... وخرجت العقول من الرؤوس لهول ما رأته العيون وسمعته الآذان... كان ذلك عند مغرب الشمس وعلى حين غرة، في الرملة وفي كل فلسطين. تساوت فيها القلاع والأرياف، من البحر إلى بانياس، من الجنوب والجبل حتى أورشليم وما جاورها، إلى نابلس وقراها وطبرية ونواحيها. رأينا الجبال ترتعش، تتراقص كالحملان، صخورها تتفجر، وآكامها تنود وآشجارها تنطوي، ومياه الآبار تفيض. إن اللسان ليقصر عن التبيان. » (Dinab., II. 232)

(١) بلدة فنيقية شهيرة شمالي بيروت على بعد ٢٠ ميلا منها. لها تاريخ قديم يرتقي إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. إذ كانت في عهد السلالة الرابعة المصرية مستعمرة فرعونية. وأغلب الظن أنها مدينة Gubal الوارد ذكرها في آثار تل العمارنة . وقد اكتشف فيها ناووس Sarcophagus يرتقي تاريخه إلى القرن الخامس عشر ق.م. عليه العبارات التالة باللغة الفينيقية : « هذا الناووس أنشاه ايتوبعل بن حيرام ملك جبيل لراحة والده الأبدية. » وكانت جبيل ، ويسميها القدماء ببيلوس Byblus مركز عبادة عشتاروث وأدونيس. ويمر بالقرب منها نهر يعرف اليوم بنهر إبراهيم، كان قديماً يعرف بنهر أدونيس. وقد ورد اسم « جبال » في التوراة (حزقيال ٢٧ : ٩) إنها من أعمال صور، شهيرة ببناء السفن. أما ياقوت فيعين موقعها على بعد ثمانية فراسخ من بيروت.

وقول بنيامين : إن جبيل كانت من أملاك بني عمون بعيد عن الصواب. لأن مملكة بني عمون كانت في شرقي الأردن . والظاهر أن بنيامين يخلط بين بني عمون والإله جوبيتر عمون Jupiter Ammon الذي كان الجبيليون القدماء يعبدونه إلى جانب عشتاروث . وبجوار المدينة مخلفات عديدة للهياكل الفينيقية القديمة. (Bent., W.P.L. 221-223 C.D.)

عمون فيها نحو ١٥٠ يهودياً. ويحكم هذه المدينة سبعة من أمراء جنوة يرأسهم الأمير يليان إمبرياكو[١] . وفيها أطلال معابد بني عمون القديمة، حيث كانوا يعبدون صنماً يستوي على عرش من حجارة موشاة بالذهب. وحواليه عن اليمين وعن اليسار تمثالان لحوريتين. وأمامه مذبح لإحراق البخور وتقديم الأضاحي. وفي المدينة نحو مائتي يهودي، من أعيانهم الرّابيون مئير ويعقوب وسمحة. وموقع البلدة على شاطئ بحر فلسطين. وعلى مسيرة يومين منها:—

---

(١) كذا . والصحيح وليم إمبرياكو، لإيليان كما يذكر بنيامين. فمن المعلوم أن أسرة إمبرياكي Embriaci كانت من أعرق وأشرف الأسر الإيطالية في جنوة. فلما استنجد الصليبيون بالجمهورية الجنوية سنة ١١٠٩م جهزت لنجدتهم عمارة بحرية عقدت لواءها للأمير وليم إمبرياكو Guilliamus Embriacus استولى على جبيل وأصبح حاكماً عليها. فأثار هذا الظفر غيرة سائر الأمراء من جنوة فصاروا يتدخلون في شؤون هذه الإمارة. وأخيراً جرى الاتفاق بان يحكم جبيل مجلس قوامه سبعة أعضاء تعينهم حكومة جنوة الجمهورية، واحتفظ آل إمبرياكو برئاسة هذه الإمارة.

بيروت[١] *Beritus* هي بئيروت الواردة في التوراة. فيها نحو خمسين يهودياً منهم الرابيون سليمان وعوبدية ويوسف. وعلى مسيرة يوم منها:ـ

صيداء[٢] *Sidon* هي صيدون الواردة في التوراة . فيها نحو عشرين

---

(١) ميناء قديمة من إنشاء الفينيقيين . سماها الرومان Berytus وجدت عمارتها على عهد أوغسطس في القرن الأول ق .م. وكانت معسكراً مهماً للرومان ومن مراكز الثقافة الهيلانية في الشرق الأدنى. لكن شأنها انحط في العصور المتوسطة وأيام الحروب الصليبية، فلم تبدأ أهميتها الحالية إلا في القرن التاسع عشر. وأما القول بأن بئيروث الواردة في التوراة (يشوع ٩ :١٧) بيروت فمشكوك فيه. لأن بئيروث كانت تبعد نحو عشرة أميال عن أورشليم وتدعى الآن البيرة. وقد تكون مدينة بيروتة ברותה الوارد ذكرها مع حماة ودمشق وحوران (حزقيال ٤٧ :١٦) بيروت الحالية. ويتصل تاريخ اليهود اتصالا وثيقاً بهذه المدينة منذ العهد الروماني . فقد شيد فيها هيرودس ملك اليهود (٤٠ ق.م. ـ ٤ ب م) معبداً وسوقاً، وشيد الملك أغريباس Agrippa (١١ ق.م. ـ ٤٤ ب.م.) مسرحاً على الطراز الروماني .(J.F. Antiq., XVI. XI. 2, XVI X.3). وفي سنة ٥٠٢ م دمرت كنيسة اليهود في بيروت بزلزال أصاب المدينة (J.E.)

(٢) صيداء من البلدان الفينيقية العظيمه في العصور الخالية. موقعها على جانب من رأس يمتد من ساحل عرضه نحو ميلين بين جبل لبنان والبحر المتوسط على بعد ٢٥ ميلاً من بيروت. وهي من أقدم مدن العالم. ينسب بناؤها في التوراة إلى صيدون بكر كنعان بن حام بن نوح قرابة ٢٢١٨ ق.م. (سفر التكوين ١٠ :١٥) وتاريخ هذه المدينة معروف في أساطير اليونان القدماء. وفي الحرب الفارسية اليونانية جهز الصيداويون أساطيل الملك سرخس بأمتن وأعظم السفن المحاربة . وفي سنة ٣٥١ق.م أعلنت صيدا ثورة على الفرس فكانت النتيجة أن أحرق الأهلون المدينة على أنفسهم مؤثرين ذلك على التسليم. وبعدها لم تقم لهذه البلدة قائمة. وقد اكتشف في صيداء ناووس يعد خير مثال للطراز الهيلاني، وهو الناووس المعروف بضريح الإسكندر عليه نقوش تمثل معركة وحفلة صيد. موجود الآن في متحف استانبول . (C.D. Bent.,وW.P.L. 226).

يهودياً. وعلى بعد عشرة أميال منها تقيم طائفة الدروز[١] وهي في خصام مستمر معل أهل صيداء. وهؤلاء لا دين يعرف لهم. يعتصمون فوق قمم الجبال وشعاب الصخور ولا يمتون بطاعة لملك أو أمير. ومضاربهم على بعد ثلاثة أيام من جبل حرمون. وهم إباحيون. ينكح الرجل منهم ابنته. ولهم عيد يحتفلون به مرة في العام. يجتمعون به في صعيد واحد، يأكلون ويشربون، فيستبيح بعضهم نساء بعض. ومن عقائدهم السقيمة أن الروح الزكية إذا فارقت الجسم عند الوفاة حلّت في جسم طفل آدمي يولد في تلك اللحظة أما الروح الشريرة فتحل في جسم كلب أو حمار وما شاكل. ولا يوجد بينهم من اليهود سوى بعض أرباب الحرف والصباغين، يقيمون عندهم ردحاً ثم يعودون إلى أهلهم. ومعاملة هؤلاء لليهود حسنة. وهم يتسلقون الجبال بخفة غريبة، يعتصمون بها، فلا يقدر أحد على مناجزتهم بنجاح. وعلى مسيرة نصف يوم منها:-

---

(١) فرقة الحاكمية الدهرية الدروز. نعتقد أن بنيامين أول رحالة أوروبي أشار إليهم. أما النقائض التي يذكرها عنهم فيشاركه بها جميع من كتب عن الدروز من المتقدمين. وهذه المثالب والتشنيعات مصدرها جهل أكثر من كتبوا عن الدروز بحقيقة معتقدهم. وغني عن البيان أن دروز اليوم برآء من مثل هذه الأمور. فهم يتصفون بجميع المزايا العربية وعندهم جميع الاعتبارات والحدود الأخلاقية التي عند غيرهم.

صرفندة[1] *Sarepta* التابعة لصيداء. وهي تبعد مسيرة يوم ونصف يوم عن:-

صور الجديدة[2] *Tyrus Noua* وهي مدينة جميلة. لها خليج

---

(١) لم يرد ذكر هذه المدينة في نسخة الرحلة التي لدينا. لكن أدلر وجدها في مخطوط المتحف البريطاني فاثبتناها هنا نقلا عنه. وهي صرفند الحالية، موقعها على جانب رأس يعرف باسمها على بعد ميل من الشاطئ. وقد وردت هذه البلدة بالعبرية صرفنة أو صرفة צרפת وهي بلدة فينيقية قديمة تقع خرائبها اليوم على مقربة من صرفند. ورد ذكرها في التوراة (١ ملوك ١٧ :٨ - ٢٤) وفي الإنجيل (لوقة٤ : ٢٦).

(٢) مدينة فينيقية شهيرة تبعد اليوم نحو عشرين ميلا جنوبي صيداء. كانت في أول عهدها مشيدة على جزيرة أو جزيرتين على بعد نصف ميل من الشاطيء. وكانت تابعة سياسياً لحكومة صيداء لذلك سميت في التوراة «العذراء بنت صيدون» (إشعيا ٢٣-١٢). وهي من أقدم مدن العالم. يرجع بناؤها إلى صيدون بكر كنعان بن حام بن نوح (تكوين ١٠ :١٥) سنة ٢٢١٨ ق.م. أو قبل ذلك. أما هيرودوتس فيرجح أن بناءها كان قرابة سنة ٢٧٥٠ ق.م. ويذكر الكتاب المقدس أنها كانت بلدة حصينة معروفة سنة ١١٤٤ ق.م (يشوع ١٩ :٢٩) ويقول بلينوس Pliny في القرن الأول للميلاد إن استدارة سورها كان ١٧ ميلا. وقد اشتهر الصوريون قديماً بصناعة البناء اشتهارهم بصناعة السفن. وقد استخدمهم سليمان الحكيم في تخطيط وبناء معبده في أورشليم. وفي سنة ٥٩٢ ق.م. حاصرها نبوكدنصر (بخت نصر) الكلداني فدمرها تدميراً شديداً. وفي نبؤة حزقيال مرثاة عن خراب صور تعد من أبلغ القصائد القديمة (حزقيال ٢٨ : ١-٣٦) ثم حاصرها الإسكندر سنة ٣٢٢ ق.م. حصاراً دام سبعة أشهر قضى على ما بقي من عظمتها التجارية فانتقلت إلى الإسكندرية. وفي العهود الإسلامية كانت صور أهم ميناء حربي للمسلمين يواجه الأساطيل البيزنطية، وكان فيها دار للصناعة (ترسانة) ومنها كانت تخرج مراكب السلطان لغزو الروم وكانت حصينة جليلة (اليعقوبي ص٣٢٨) حاصرها الصليبيون سنة ١١٢٤م وصلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٩م. وكانت في القرن الثاني عشر=

يتوسطها بين برجين عظيمين، تدخله السفن للرسو عند الميناء. وبين البرجين سلسلة حديد معترضة، عليها الحراس الأمناء، يربطونها في أول الليل فيتعذر على سفن القرصان سبيل الدخول للسلب والنهب من البر أو من البحر. وليس في بلاد الدنيا ما يماثل هذا الميناء شأناً.

ويقيم في هذه المدينة نحو ٤٠٠ يهودي بينهم جماعة من العلماء العارفين بالتلمود. منهم الرابيون إفرايم المصري القاضي ومئير القرقسوني والرئيس إبراهيم. وبين يهود صور من يمتلك السفائن التي تجوب البحار. ومنهم من يحترف صناعة الزجاج النفيس المعروف بالزجاج الصوري[١] الشهير في العالم. وفيها كذلك السكر الجيد[٢]. والواقف عند أسوار صور الجديدة يشاهد أطلال صور القديمة المتوّجة[٣] وقد

=ميناء عامرة بالسفن والمتاجر أسهب بوصفها كل من ابن جبير (٦٢٣هـ ١١٨٤م) وابن بطوطة (٨٥٦ هـ ١٣٥٥م) وقد وجد الدكتور مان في خزانة الطائفة الإسرائيلية في القاهرة وثائق قديمة من القرنين التاسع والعاشر للميلاد تدل على أن صور كانت آهلة باليهود على عهد الفاطميين. (Mann, Jews Under The Fatimids, 180)

(١) يتفق المؤرخون على أن صور كانت مشهورة بصنع الزجاج والسكر في القرون الوسطى وقد ظلت معاملها تصدر هاتين المادتين حتى سنة ١٢٩١م.

(٢) كذا في نسختنا. وقد جاء في بعض النسخ «وهنا تصنع الأصباغ الأرجوانية.» وهذا أصح، لأن صور كانت أول مدينة اشتهرت بصنع الأصباغ منذ عهد الفينيقيين. ويؤيد التلمود أن اليهود كانوا يستوردون الأصباغ من صور وصيداء.

(٣) كناية وردت في التوراة (إشعيا ٢٣ :٨ وحزقيال ٢٨) عن صور القديمة Tyrus Antiqua צור המעמירה تمييزاً لها عن صور الجديدة Tyrus Noua .

غمرتها المياه، وهي على مرمى حجر من صور الجديدة. والمار في سفينة يشاهد بقايا الأبراج والأسواق وآثار السكك والقصور في قاع اليم. وصور الجديدة بلد واسع التجارة يؤمه التجار من كل صوب. وعلى مسيرة يوم منها:-

عكاء[1] *St. Jean D'acre* هي مدينة عكو الواردة في التوراة من أعمال سبط آشر، أول حدود فلسطين، في موقع ملائم من البحر. لها ثغر كبير ترسو عنده السفن المسافرة إلى أطراف القدس. ويمر بظاهرها نهر قدوميم[2]. وفيها نحو مائتي يهودي، بينهم الرابيون صدوق ويافث ويونة وعلى بعد ثلاثة فراسخ منها:-

---

(١) بلدة فينيقية قديمة على بعد ثمانية أميال من جبل الكرمل. ورد ذكرها في التوراة עכו لأول مرة في (سفر القضاة ، ١ :٣١) وكانت في القرن الأول للميلاد تدعى بتولمايس Ptolemais (الإنجيل، أعمال : ٢١ :٧) فتحها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سنة ٦٦٨م واستولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤م فاستعادها صلاح الدين سنة ١١٨٧م. ثم استولى عليها ركاردس قلب الأسد سنة ١١٩١م بعد حصار دام سنتين فاستعادها الملك الأشرف للمسلمين سنة ١٢٩١ م ودخلت في حوزة الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧م. وفي العصور الأخيرة اشتهر حصار نابليون لمدينة عكاء ورجوعه عنها خائباً سنة ١٧٩٩م. وأشهر من انتسب إليها من علماء اليهود في القرون الوسطى الرابي إسحق العكاوى ר׳יצחקדמ׳ עכו العالم القبالي الصوفي الشهير. كان في هذه المدينة يوم فتحها الملك الأشرف (GR., V. 176. C.D)

(٢) نهر ورد ذكره في التوراة (قضاة ٤ :٧ و٥ :٢١) باسم قيشون أيضاً. ويعرف اليوم بنهر المقطع. ينبع من جبل الطور والدوحي بمرج ابن عامر ويصب في البحر بين حيفا وعكاء.

حيفا[١] *Haifa* هي « جت حفر » الواردة في التوراة . موقعها على شاطئ البحر وبظاهرها جبل الكرمل . وفي منحدر هذا الجبل قبور كثيرة لليهود . وبه الكهف الذي أوى إليه النبي إلياس (ع) وبظاهر المدينة دير للنصارى يدعى « دير القديس إلياس[٢] » *St. Elias* وعلى قمة الجبل أطلال المذبح الذي عمره هذا النبي (ع) في زمن آخاب ملك إسرائيل[٣] وهو بناء مستدير محيط قاعدته أربع أذرع ويمر نهر قيشون (المقطع) بأسفل الجبل . وعلى بعد أربعة فراسخ منها :-

---

(١) فرضة شهيرة على شواطيء فلسطين في سفح جبل الكرمل . كانت قديماً تسمى « مدينة الكرمل » ولم تعرف باسمها الحالي إلا في القرن الأول للميلاد . وورد ذكرها في التلمود ראברימירמו חיפה (قدوشين : ٣٣) . زارها ناصر خسرو سنة ١٠٤٨م وشاهد فيها صناعة السفن المسماة « جودي » وقد أسّس اليهود فيها مجمعاً علمياً سنة ١٠٨٤ م كان رئيسه العلامة إلياهو كوهن غاؤون فلسطين . أما « جت حفر » الواردة في التوراة (٢ ملوك ١٤ :٢٥) فالمعتقد أنها القرية المعروفة اليوم بمزرعة المشهد على بعد ميلين من شرقي صفورية (قاموس ك .م) .

(٢) في القرن الثاني عشر كان جبل الكرمل آهلاً بأديرة عديدة للآباء الكرمليين يقصدها جم غفير من الرهبان والنساك . وكان بين كهوفه الكثيرة كهف يدعى « غار مار إلياس » .

(٣) راجع قصة النبي إلياس مع آخاب ملك إسرائيل (٩١٨-٨٩٦ ق .م) في التوراة (١ ملوك ، ١٨)

كفرناحوم[1] *Capernaum* هي قرية معون بالقرب من الكرمل .

وعلى بعد أربعة فراسخ منها :-

قيسارية[2] *Caesarea* هي « جت فلسطين » الواردة في التوراة .

---

(١) قرية على شاطيء بحر الجليل في فلسطين. اشتهرت في التلمود والأناجيل الأربعة. وكانت مقام يسوع المسيح بعد مفارقته للناصرة. اختلف المحققون في تعيين موقعها . ويظن البعض أنها « تل حوم » والبعض الآخر يقول : إنها الموقع المعروف بتل منية. وقال آخرون إنها « تل الكنيسة » . والغالب أن الرأي الأول هو الأرجح فقد اكتشفت في تل حوم قبل مدة أطلال كنيس يهودي قديم روماني الطراز وبقايا سور المدينة . وقد يكون هذا الكنيس الذي علم فيه يسوع (إنجيل لوقة ٧:١-١٠) أما قول بنيامين: إنها قرية معون (١ صموئيل ٢٥ :٢و٣) فمن جملة أغلاطه في جغرافية التوراة. لأن معون تعرف اليوم بتل معين وموقعها جنوبي مدينة الخليل (حبرون) (Bent., W.P.I. 89-90)

(٢) بلدة ساحلية في فلسطين تبعد اليوم نحو ٤٤ ميلا جنوبي عكاء ينسب بنيامين بناءها إلى « قيصر » خطأ فإن مجدد بنائها هيرودس Herod ملك اليهود سنة ١٠ق.م أطلق عليها اسم قيسارية تكريماً للقيصر أغسطس وسماها الرومان Caesarea ad Mare أو Caesarea Palaestinae تمييزاً لها عن مدن أخرى معروفة بهذا الاسم. وكانت قبل تجديدها قلعة تعرف باسم Stratonis Turris من بناء الفينيقيين في القرن الرابع ق.م. وقد بلغت ذروة عزها في القرن الأول للميلاد يوم كانت مقر الحكومة الرومانية في فلسطين، حتى إن التلمود يسميها رومية الصغرى רומי זעירא . استولى عليها العرب سنة ١٥هـ. وغزاها الصليبيون، وشيد حولها القديس لويس قلعة في القرن الثالث عشر للميلاد. وأخيراً استعادها السلطان بيبرس سنة ١٢٩٠م. لكن شأنها قد تضاءل (Bent., W.p.l. 25. 28, J.F,. War, L, XX.8. C.d.) . أما جت فلسطين فقد جاء في التوراة أنها مسقط رأس جليات (جالوت) الجبار (١صموئيل ١٧ :٤)

فـيـهـا نحـو المائتين من اليـهـود الرابيين ومـثلهـم من الكـوتيين[١] . والكوتيون هـم السامريون. وهذه المدينة غاية في الجمال، تشرف على البحر. بناها «قيصر» وعرفت باسمه. وعلى مسيرة نصف يوم منها :-

قاقون[٢] *Kakun* هي قعيلة الواردة في التوراة. وليس فيها يهود. وعلى مسيرة نصف يوم منها :-

اللد[٣] *Lydda* هي لوز القديمة الواردة في التوراة. وفيها يهودي واحد يحترف الصباغة. وعلى مسيرة يوم منها :-

---

(١) الكوتيون أو السامريون. أتباع فرقة دينية منسوبة إلى بلدة السامرة القديمة (سبسطية) في فلسطين. كانوا من المهاجرين الذين أتى بهم الملك صرغون الآشوري من نواحي كوتا بعد سقوط الدولة الإسرائيلية. وهم اليوم جماعة صغيرة تسكن ضواحي نابلس. وعندهم أسفار موسى الخمسة بالخط السامري القديم، لا يؤمنون بغيرها (راجع البحث الملحق بذيل هذا الكتاب).

(٢) حصن في فلسطين قرب الرملة من أعمال قيسارية من ساحل الشام (ياقوت) أما قعيلة الواردة في التوراة (يشوع، ١٥ : ٤٤) فمدينة على تخوم فلسطين تدعى اليوم كيلا تبعد نحو سبعة أميال عن بيت جبرين. وهي دون ريب غير قاقون.

(٣) بلدة معروفة في الجنوب الشرقي من يافا على الطريق المؤدية إلى القدس. كانت أيام الرومان تدعى Vespasians Diospolis (J.F., War, LI. XIX. L.) وسماها الصليبيون St. Georges نسبة إلى القديس جورج المدفون في كنيستها. أما لوز الواردة في التوراة (تكوين ٢٨ : ١٩) فمدينة كنعانية كانت تعرف قديماً باسم بيت أيل. وموقعها شرقي خط يمتد من القدس إلى نابلس. فهي على هذا ليست اللد الحالية (قاموس ك.م.).

سبسطية[1] *Sebaste* أو السامرة القديمة المستوية على الجبل، حيث تشاهد اليوم بقايا قصر آخاب بن عمري ملك إسرائيل[2]. وهي بلدة حصينة ، كثيرة الأشجار والعيون ، جزيلة الحدائق والرياض وكروم العنب وغياض الزيتون. وليس فيها يهود. وعلى مسيرة فرسخين منها :-

---

(١) هي اليوم قرية بسيطة تبعد نحو ثلاثين ميلاً عن القدس إلى الشمال، ونحو ستة أميال عن الشمال الغربي من نابلس. وهي قديمة العهد كانت في عز أيامها من أهم عواصم الشرق الأوسط تعرف بالسامرة שמרון نسبة إلى شخص كان يملك ذلك الجبل يدعى شمر שמר، فاشترى الجبل عمري ملك إسرائيل (٨٩٩-٨٧٥ ق.م) وشيد عليه مدينة جميلة نقل إليها كرسي مملكته. (١ ملوك ١٦ : ٢٤) . وآل أمر السامرة بالأخير أن حاصرها سلمناصر الرابع ملك آشور، واستولى عليها صرغون سنة ٧٢٢ ق.م. فهدمها وساق أهلها أسرى نحو الشرق، وهم أسباط بني إسرائيل العشرة المفقودة. وعلى عهد خلفاء الإسكندر أصبحت السامرة مقر الحكام اليونان في فلسطين. وفي القرن الأول ق.م. جدد بناءها هيرودس وسماها سبسطية Sebaste وهي لفظة يونانية تقابلها لفظة Augusta الرومانية (C.D. والكتاب المقدس و J.F., Ant. VIII. XII.5)

(٢) أحد ملوك بني إسرائيل في السامرة (٨٧٥-٨٥٣ ق.م) اشتهر بثروته وبذخه. (راجع حكاية قصره العاجي ١ ملوك ٢٢ : ٣٩) . وقد كشفت الحفريات التي جرت في سبسطية سنة ١٩٣٢م. عن جزء من سور السامرة القديمة وبقايا قصرها العظيم (Bent,. W.P.I. 137. 138)

نابلس[1] *Neapolis* هي شيكيم القديمة في جبل إفرايم. تتوسط جبل جرزيم وجبل عيبال[2] وفيها نحو الألف من الكوتيين وليس فيها يهود. أما الكوتيون فهم السامريون. يتبعون أسفار موسى، لا يؤمنون بغيرها. وعندهم الكهنة ممن يدعي الانتساب إلى هرون الكاهن (ع) يعرفون بالهرونية. وهم يعتزلون سائر البشر لا يتزوجون بغير بنات نحلتهم، ويلقنون الناس شعائرهم الخاصة. ينحرون الأضاحي في وقفة عيد الفصح على مذبح لهم في جبل الجرزيم، يزعمون أنه مشيد بالحجارة التي نصبها بنو إسرائيل تذكاراً لعبورهم نهر الأردن. ويزعمون كذلك أنهم من سبط إفرايم وأن عندهم قبر يوسف الصديق

---

(١) بلدة نابلس من أقدم مدن فلسطين سميت في العهد القديم شكيم שכם (تكوين ١٨:٣٣) وذكرت في العهد الجديد باسم سوخار (إنجيل يوحنة ٤:٥). وتدل جميع الإشارات الواردة عنها في التوراة على أنها كانت بلداً مقدساً منذ العهود الوثنية القديمة (تكوين ٣٥:٤ وقضاة ، ٩:٤) وكشفت الحفريات فيها على آثار للهكسوس تعود إلى ٢٠٠٠ سنة ق.م. ووردت في كتابات تل العمارنة باسم سكمي Sakmi. وفي القرن الأول للميلاد جدد القيصر إسبازيان عمارتها فسميت Flavia Neapolis ومنها لفظة نابلس العربية. فتحها المسلمون سنة ١٥هـ. واستولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٩ واستعادها صلاح الدين سنة ١١٨٤م وسماها بعض العرب «دمشق الصغرى» (C.D وقاموس ك. م. و. Bent. W.P.L. 125-128)

(٢) جبلان بجوار نابلس. الأول جرزيم ويسمى اليوم (جبل الطور) والثاني عيبال ويعرف اليوم بجبل «ستي سلامية». وبين الجبلين وادي نابلس. ويسمى الجبل الأول في التوراة جبل البركة والجبل الثاني جبل اللعنة. كناية لوقفة بني إسرائيل فوق هذين الجبلين ونطقهم بالبركات لمن يتبع سنة الله وباللعنات لمن يخالفها. (تثنية ١١:٢٩).

ابن يعقوب[١] (ع) ويبرهنون على زعمهم هذا بما جاء في التوراة: «ودفنوا في شكيم عظام يوسف التي أخرجها بنو إسرائيل معهم من أرض مصر». ولهم كتابة خاصة بهم ينقصها ثلاثة أحرف، هي الحاء والهاء والعين[٢]، يعوضون عنها بحرف الألف. وعلى هذا فليس في لغتهم لفظة الإحسان أو الهدى أو التواضع[٣] كما أنهم لا يستطيعون أن يقولوا إبراهيم أو اسحق أو يعقوب. ويمكن البت بأنهم غرباء عن بني إسرائيل. وهذه الحروف ناقصة في توراة موسى التي عندهم أيضاً.

وهم يبتعدون عن كل ما يدنسهم. لا يقربون ميتاً أو عظما بشرياً أو جثة أو قبراً وإذا قصدوا كنيستهم للصلاة انتضوا عنهم أثوابهم واغتسلوا بالماء واستبدلوها بأثواب غيرها. وهذا جاري عادتهم يومياً. وجبل جرزيم كثير الأشجار مطرد العيون. أما جبل عيبال فصخوره

---

(١) راجع (سفر يوشع ٢٤ :٣٢) . وموقع هذا القبر اليوم في شرقي مدينة نابلس عند بئر يعقوب. على أن يوسيفوس يعيّن موقع قبر يوسف الصديق في الخليل (J.F.,Ant., LI. VIII.2) وهذا ما يقول به المسلمون أيضاً.

(٢) إن رواية بنيامين عن نقص الحروف الثلاثة في الخط السامري مختلقة لا صحة لها . ولا غرابة في ذلك إذا عرفنا كراهية اليهود الرّابيين القدماء للعقيدة السامرية. وليس بين الحروف العبرية والسامرية من اختلاف سوى أن السامريين احتفظوا بالخط العبراني القديم، في حين اقتبس اليهود الخط الآشوري المعروف بالمربع بعد سبي بابل. وإننا لنقرأ في التلمود تنديداً بأولئك الذين احتفظوا بالخط القديم الذي أصبح على حد تعبيره «خط المجاذيب» (التلمود : سنهدرين ١١٥)

(٣) هذه الألفاظ فيها تورية ظاهرة لما يزعمه بنيامين بالسامريين من انحطاط روحي. وقد وردت في الأصل العبري הוד חמד ענוה فترجمناها إلى أقرب الألفاظ العربية إليها مبنى ومعنى. ولزيادة المعلومات عن السامرية راجع الملحق الخاص بهم في ذيل هذا الكتاب.

ملساء قاحلة. ويتوسط الجبلين وادي شكيم . وعلى بعد أربعة فراسخ منها :

جبل جلبوع[١] *Gilboa Mons* يسميه النصارى جلبون *St. Gelbon* تحيط به الأراضي القاحلة. وهو على بعد خمسة فراسخ من:-

وادي أيلون[٢] *Val Ajalon* ويسميه النصارى وادي لونه *Val de Luna* أو يالو *Yalo* وهو يبعد مسيرة فرسخ واحد عن:-

جبل المورية *Moreyah Mons* أو جرن داود[٣] . وهي مدينة جبعون القديمة، ليس فيها يهود. ومنها على مسيرة ثلاثة فراسخ:-

---

(١) جبل غربي غور الأردن يسمى اليوم جبل فرقوع. موقعه في الجنوب الشرقي من سهل مرج ابن عامر (بزراعيل) اشتهرت عنده المعركة التي استشهد فيها الملك شاؤل (طالوت) وأولاده الثلاثة في القرن الحادي عشر قبل الميلاد (١ صموئيل ٣١ : ١- ١٣).

(٢) هي قرية يالو الحالية تبعد ١٤ ميلاً إلى الغرب من أورشليم على طريق يافا (قاموس ك.م.) ذكرها ابن بطوطة في رحلته وعلق عليها الأستاذ جب بأنها قرية الرباد الحالية الواقعة في شرقي غور الأردن على بعد ١٢ ميلا شمال غربي جرش (رحلة ابن بطوطة. الترجمة الإنكليزية للأستاذ جب ص٣٤٤) وهذا الموقع لا يتفق مع المكان الذي يعينه بنيامين.

(٣) كناية الجرن (بيدر) كان يملكه رجل يبوسي من سكان أورشليم يدعى أرونة أو أرنان. ظهر فيه الملاك لداود النبي (ع) فاشترى البيدر وشيد فيه هيكلا ومذبحاً لله (٢ صموئيل ٢٤ :١٦) أما موقع جبعون فيبعد خمسة أميال عن القدس يسمى اليوم «الجيب» (قاموس ك.م.)

بيت المقدس[1] *Jerusalem* هي بلدة صغيرة عظيمة التحصين تحيط بها ثلاثة أسوار. وفيها عدد كبير من اليعاقبة والسريان والأرمن واليونان والكرج والأفرنج، خليط من كل أمة ولسان. وفيها معمل

(١) بيت المقدس أو القدس، المدينة المشهورة التي كانت منذ القدم محل الأنبياء وقبلة الشرائط ومهبط الوحي، معدودة بين أقدم مدن العالم وأعرقها تاريخاً. ورد ذكرها في كتابات تل العمارنة المصرية باسم Uru-sa-lim أي «دار السلام» وكانت تعرف في أيام إبراهيم الخليل بمدينة سالم עיר שלם (تكوين ١٤ :١٨) وسماها الآشوريون والبابليون باسم Ur- Salimmu . توالى عليها من الأحداث خلال خمسة آلاف سنة من تاريخها ما يملأ المجلدات الضخمة. ففي المدة التي تصرمت بين يوشع خليفة موسى النبي (ع) في المائة العاشرة قبل الميلاد. وطيطس الروماني فاتحها سنة ٧٠م كانت هذه المدينة قد حوصرت سبع عشرة مرة وهدمت مرتين. استولى عليها الملك داود (ع) من اليبوسين وجعلها كرسي مملكته سنة ١٥٠ ق.م . وغزاها نبوكدنصر (بخت نصر) البابلي سنة ٥٧٦ ق.م. وجدد بناءها نحمية سنة ٥٣٦ وأعيد بناء أسوارها سنة ٥٥٥ق.م. حاصرها طيطس الروماني ودمرها عن آخرها سنة ٧٠م. ثم جدد بناءها القيصر أدريان سنة ١٣٠م. وأسماها Aelia Capitolina (إيليا) إكراما لمعبد Jupiter Capitolinus الذي أقامه فيها. واستعادها باركوكبة سنة ١٣٢م. وسقطت بيد Julius Severus الروماني سنة ١٣٥م. وفي سنة ٦١٤م. استولى عليها كسرى الثاني أبرويز Parvin واستنقذها هرقل Heraclius للروم سنة ٦٢٩م. وفي سنة ٦٣٧م (١٥-١٦هـ.) سلمت المدينة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) بعد حصار دام أربعة أشهر، وشيد فيها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قبة الصخرة والمسجد الأقصى* سنة ٧٢هـ. (٦٩٢م.) وبقيت القدس بيد المسلمين حتى سنة ١٠٩٩م (٤٩٣هـ) عندما غزاها الصليبيون بقيادة غطفريد Godfroy de Bouillon واستعادها صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٧م. (٥٨٣هـ) . وكانت زيارة بنيامين لمدينة القدس حوالي سنة ١١٦٨م. (٥٦٤هـ.).

* شيد عبد الملك قبة الصخرة .هذا صحيح لكنه لم يشيد المسجد الأقصى ،وإنما جدّده (عبد الرحمن)

للصباغة يستأجره اليهود من ملك القدس[١] سنوياً. فتنحصر بهم هذه المهنة دون غيرهم. ويبلغ عددهم في هذه المدينة نحو المائتين[٢]، يقيمون في حي مجاور لبرج داود[٣]. وهذا البرج واغل في القدم. أساساته إلى ارتفاع عشرة أذرع. من بناء أسلافنا الأقدمين، والباقي شيده المسلمون. وليس في المدينة بناء آخر يضارع برج داود متانة وسمواً. وفي القدس مستشفيان[٤] يتسعان لأيواء أربعمائة من فرسان الأسبتارية عدا المرضى الذين يجهزون بكل ما يلزمهم في الحياة وبعد

---

(١) كان ملك القدس أيام زيارة بنيامين المريك Almeric ويسمى أيضاً Amauray I الصليبي تولى الملك بعد وفاة أخيه بلدوين (البردويل) سنة ١١٦٢ وتوفي سنة ١١٧٣م (٥٥٨-٥٦٩هـ.)

(٢) عندما فتح الصليبيون مدينة القدس ذبحوا يهودها إلا النزر اليسير منهم. وبعد عشر سنوات من زيارة بنيامين لهذه المدينة لم يجد فيها الرحالة فتاحية غير يهودي واحد.

(٣) من أشهر الأبراج القديمة الباقية اليوم في القدس. موقعه بالقرب من باب الخليل. وهو مؤلف من خمسة أبراج مربعة محاطة بخندق وأساساتها غاية في المتانة. وفي زاوية هذا البناء الشمالية الشرقية برج قائم على شكل مئذنة هو الذي يطلق عليه اليوم برج داود. ويظن علماء الآثار أن هذا البرج من بقايا قلعة هيبكس Hippicus من بناء هيرودس في القرن الأول للميلاد. والثابت أن قسما غير يسير من هذا البرج جدده صلاح الدين الأيوبي في أواخر المائة الثانية عشرة.

(٤) هو مستشفى بناه في القدس جماعة من التجار الإيطاليين في الحملة الصليبية الأولى وكرسوه للقديس يوحنة St. John وانتسبت إليه طبقة من فرسان الصليبيين يعرفون باسم Hospitaliers ويسميهم العرب «الاسبتارية» . وكان مؤسسها فارس يدعى جرلد Gerald في سنة ١٠٩٢م.

الممات[١]. وفيها أيضاً البناية المسماة «معبد سليمان» يزعم البعض أنها من أنقاض مقدس الملك سليمان (ع) ويقيم في هذه البناية نحو الثلثمائة من «فرسان المعبد»[٢] يمارسون فنون الحرب والقتال. ويوجد عدا هؤلاء، فرسان يتوافدون من بلاد الإفرنج وسائر ديار النصارى، من الذين ينذرون الخدمة في هذا المقام سنة أو سنتين.

وبالقدس كنيسة كبرى تدعى «كنيسة الضريح الأقدس[٣]» منسوبة

---

(١) قال يوحنة ورتزبورغ أحد الحجاج المسيحيين الذي زار القدس بين سنتي ١١٦٠ و١١٧٠م. يصف هذا المستشفى: «بالقرب من كنيسة يوحنة المعمدان يقوم مستشفى يقيم فيه عدد كبير من الرجال والنساء والمرضى، وينالون العناية التي تكلف نفقات باهظة. وقد بلغني، لما كنت هناك، أن عدد أولئك المرضى بلغ الألفين، وقد بلغ عدد الموتى منهم الخمسين في اليوم الواحد... وقد يعالج في العيادة الخارجية مثل عدد المرضى المقيمين في المستشفى، هذا فضلا عن أعمال الإحسان التي لا تقدر. إذ يتصدق يومياً على السائلين وأبناء السبيل بالخبز» (رحلة يوحنة ورتزبورغ: ص٤٤).

(٢) طبقة عسكرية من فرسان الصليبيين، كان لهم شأن خطير في تاريخ الشرق الأدنى قروناً عديدة، ويعرفون بفرسان المعبد knights Templars. تأسست هذه المنظمة في القدس على عهد بلدوين الثاني سنة ١١١٩م أسسها فارسان أحدهما هوغو دي بايين Hugues de Payen والثاني جفري دي سنت أديمار Geoffroi de Saint-Adhemar بقصد حماية حجاج النصارى الوافدين على بيت المقدس. في سنة ١١٢٨ سن نظام خاص بها في مجمع ترويش Troyes وحصلت على استقلالها سنة ١١٧٢م ثم دخلت هذه المنظمة إنكلترة سنة ١١٨٥ م وظل شأنها بين صعود وهبوط إلى أن اضمحل نهائياً سنة ١٣١٢ م بقرار أصدره مجمع فيانة. وكان المسلمون يسمون هذه المنظمة «فرسان الداوية».

(٣) هي كنيسة القيامة المعروفة لدى الإفرنج St. Sepulchre. وللرحالة المسلم ناصر خسرو الذي زار بيت المقدس سنة ١٠٤٨ م وصف مسهب لهذه الكنيسة. (سفر نامة. الفصل الخامس)

إلى مسيح النصارى ، يحجها عدد غفير منهم.

وللقدس أربعة أبواب[١]: باب إبراهيم وباب داود وباب صهيون وباب يوشفاط. وهذا الأخير يحاذي الموضع الذي كان « بيت المقدس » مستوياً عليه في قديم الزمن. وعليه اليوم البناء الذي يسميه الإفرنج « المعبد المقدس[٢] » وقد عقد عليه عمر بن الخطاب قبة عظيمة أنيقة. وليس يسمح لأحد أن يدخل فيها تمثالا أو أيقونة لأنها محل خاص بالعبادة.

وقبالة هذا البناء يوجد « الحائط الغربي[٣] ». وهو من حيطان قدس

---

(١) إن أبواب القدس المعروفة اليوم هي : باب الخليل وباب الشام (العامود) وباب هيرودس (الزهري) وباب استفانوس (ستي مريم أو الساباط) والباب الجميل (الأبواب الدهرية) وباب المغاربة وباب صهيون (النبي داود) ، وهناك عدا هذه، أبواب مسدودة هي الباب المثلث والباب المزدوج أو باب خلدة وبجانبه باب مسدود آخر (قاموس ك.م مادة أورشليم).

(٢) هو المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة. كان يعرف أيضاً بالبلاط Palatium أو معبد سليمان Templum Salomonium (Le Strange, P.U.M. 109) والقبة ليست من بناء عمر بن الخطاب* كما يقول بنيامين وإنما هي من بناء عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي (٦٨٥–٧٠٥م) قيل : إنه جمع لبنائها ما يعادل سبعة أضعاف خراج مصر. وقد حولها الصليبيون أيام احتلالهم للقدس إلى كنيسة سموها Templum Domini

(٣) هو حائط البراق المعروف اليوم بحائط المبكى، ويسميه اليهود الحائط الغربي הכותל המערבי موقعه في الجهة الغربية من الحرم. والمظنون أنه السور الغربي للهيكل الذي عمره هيرودس في القرن الأول قبل الميلاد.

* صدق بنيامين هذه المرة ،فالمسجد الأقصى غير قبة الصخرة ،فهذه الأخيرة بناها عبد الملك أما المسجد الأقصى (أي المبنى) فهو في شكله الأول من إنشاء عمر رضى الله عنه ،أما كمكان فهو قبل ذلك إذ أُسرِي النبي ﷺ(عبد الرحمن).

الأقداس في الهيكل القديم. ويسميه اليهود «باب الرحمة[١]» يحجونه لأقامة الصلاة في باحته.

وتشاهد بالقدس أطلال «الإصطبلات[٢]» التي عمرها الملك سليمان بجوار قصره. وقد استعمل في بنائها الصخر الجسيم المنحوت، مما لا نظير له في بناء آخر. وهناك أيضاً أطلال المذابح التي كانت الأضاحي تقدم عليها في سالف الأزمان. ومن عادة حجاج اليهود أن يكتبوا أسماءهم على الحيطان الملاصقة لها[٣].

وبظاهر المدينة من باب يوشفاط، يشاهد النصب الذي أقامه

---

(١) قال صاحب مسالك الأبصار المتوفي سنة ٧٤٩هـ. : «هما بابان قديمان قيل إنهما من بقايا العمائر السليمانية سميا بأبواب الرحمة» .اهـ. وقد ذكر «باب الرحمة» الرحالة فتاحية (١١٧٥م) وأضاف عنه : إنه مسدود بالحجارة وليس يسمح ليهودي أو أجنبي بدخوله . وقد جرت مرة محاولة لفتحه فحدث زلزال في المدينة واضطراب عظيم فكفوا عن محاولتهم . (رحلة فتاحية ص٧٨ ب) ويظهر مما تقدم أن باب الرحمة غير جدار المبكى.

(٢) قال علي الهروي في كتاب الإشارات : «وبجوار الحرم توجد إصطبلات سليمان حيث كان يضع خيوله. وهي مشيدة بحجارة غاية من الضخامة، وتشاهد فيها حتى اليوم أطلال المذاود» (Le Strange P.U.M.,167)

(٣) مازالت هذه العادة متبعة عند اليهود والمسلمين في أماكن الزيارات.

أبشـالوم[١] ، ومـرقـد الملك عـزية[٢] ونبع سلوان[٣] الذي يمر بوادي قدرون[٤] ، وفوق هذا النبع بناء من آثار الأسلاف وليس فيه من الماء إلا اليسير. وغالب أهل القدس يشربون ماء المطر يجمعونه في صهاريج معدة لهذا الغرض في البيوت.

ومن عدوة وادي يوشفاط يصعد إلى جبل الزيتون[٥] . ومنه يمكن

(١) نصب من حجر مكعب القاعدة ينتهي من أعلاه بقمة مخروطية، يشاهد اليوم في وادي يوشفاط (بين القدس وجبل الزيتون بظاهر المدينة الشرقي) ويسميه العامة «طنطور فرعون» نحت أكثره من صخر ضارب إلى الحمرة. وقد جاء في الكتاب المقدس إن أبشالوم بن الملك داود أقام لنفسه هذا النصب وهو حي تخليداً لذكره لأنه كان بلا ولد (٢ صموئيل ١٨ :١٨) لكن أغلب المحققين يعتقدون أن هذا النصب أحدثُ عهداً من أيام داود ، فالطراز اليوناني أو الروماني ظاهر في بنائه. والمعتقد أنه قبر إسكندر يناي Alexander Jannaeus ملك اليهود ١٢٦–٧٦ ق.م.

(٢) ملك يهوذا ٧٩٠–٧٣٨ ق.م.

(٣) بركة قديمة بالقرب من القدس (أشعيا ٨ :٦) محرفة عن اسمها العبرى שלח وتعرف اليوم بالبركة الحمراء أيضاً. موقعها على بعد ٤٥٠ يرداً عن جنوبي الحرم . وفي سنة ١٨٨٠ كشفت عندها كتابة عبرية بالحروف القديمة من عهد الملك حزقية حوالي سنة ٧٢٧ ق.م.

(٤) جزء من الوادي الممتد شرقي القدس بين وادي يوشفاط ووادي جهنم . يسميه ياقوت وادي السحرة.

(٥) جبل شرقي القدس يفصل بينهما الوادي. سماه جغرافيو العرب طور زيتا أو جبل زيتا. وكان الرومان يعرفونه باسم Scopus أي جبل الرصد ويسميه الإفرنج اليوم Mt. Scopus.

مشاهدة سادوم[١] . وبين بحر سادوم ونصب الملح الممسوخ عن امرأة لوط فرسخان. ويقال : إن السائمة تلحس هذا النصب يومياً ثم يعود إلى سابق هيئته. ويحاذي القدس جبل صهيون[٢] ، عليه بيعة للنصارى وثلاث مقابر قديمة لليهود. فوق كل قبر حجارة محفور عليها تأريخه، لكن الإفرنج يهدمون هذه القبور ويستعملون حجارتها لبناء بيوتهم.

وتحيط بالقدس الجبال الشاهقة منها جبل صهيون. عليه قبر الملك داود(ع) وسائر الملوك من آله. وهي عافية الآثار لا تكاد تعرف في الوقت الحاضر.

---

(١) أولى المدن الأربع التي كانت زاهرة في غور الأردن فخربت بسبب جور أهلها، كما ورد في التوراة (تكوين ١٣:١٣) وورد في القرآن الكريم ذكر لوط وقومه في سور عديدة (الأعراف ٨٠-٨٤ والنحل ٥٤-٥٨ وهود ٧٧-٨٣ وغيرها) ويسميها جغرافيو العرب «ديار قوم لوط». والرأي السائد أن هذه المدن قد غمرتها مياه البحر الميت (بحر لوط) من جراء اضطرابات بركانية. لكن عدداً من الجيئولوجيين يخالفون هذا الرأي مما يطول شرحه. وقد ورد في التوراة أن امرأة لوط مسخت نصباً من ملح. (راجع أيضاً القرآن الكريم سورة هود: ٨١)* وقد أشار غير واحد من السياح الأولين إلى عواميد من ملح منفصلة عن جبل أصدم ظنها البعض منهم امرأة لوط أما فتاحية الذي زار البحر الميت قرابة سنة ١١٧٥م. فلم يذكر شيئاً عن هذا النصب (راجع الاصطخري وابن حوقل وأبا الفداء عن ديار قوم لوط) والواقف على جبل الزيتون في يوم رائق يستطيع رؤية البحر الميت صوب الجهة الشرقية بوضوح.

(٢) تل عريض مرتفع في القدس. وجهه الغربي يعلو ٤٠٠ قدم فوق وادي جهنم يبلغ طوله ٢٤٠٠ قدم وينتهي عند باب الخليل.

* ليس في الآية الكريمة إشارة محدّدة إلى تحولها إلى عامود ملح ،وإنما أشارت الآية الكريمة إلى أنه« مُصيبها ما أصابهم »(عبد الرحمن).

وحدث قبل خمس عشرة سنة أن تداعى جدار البيعة التي على جبل صهيون . فأمر البطريرك بعض أتباعه من الرهبان بإعادة رمّه. وأوصاهم بأن يأخذوا الحجارة من أسوار صهيون الشرقية . فعكف عشرون عاملا على اقتلاع الحجارة من أسوار صهيون .

وحدث أن عاملين تربط بينهما صداقة وثيقة كانا قد تأخرا عن موعد العمل لانشغالهما بمأدبة . فأنحى عليهما رئيس العمل بالتقريع. ووعدا بأن يكملا العمل المرصود بها خلال أوقات الراحة، عندما ينصرف رفاقهما للغذاء. وبينما هما يشتغلان منفردين، اقتلعا حجارة وجدا تحتها فجوة تؤدي إلى غار عميق. فقال أحدهما للآخر: « هلم نر ما في هذا الكهف عسانا نعثر على كنز» .

ولما ولجا الغار وجدا نفسيهما وسط قاعة كبرى محكمة، معقود سقفها على أساطين من رخام موشاة بفضة وذهب . وفي القاعة خوان عليه صولجان وتاج من خالص الذهب . ويتوسط القاعة قبر داود ملك إسرائيل (ع) وإلى يساره قبر ولده سليمان وقبور سائر الملوك من آل داود. ووجدا كذلك صناديق مقفلة لم يعرفا مضمونها . وبعد مضي برهة وجيزة على ولوجهما القاعة، هبت عليهما ريح صرصر عاتية طوحت بهما إلى الأرض. فبقيا بلا حراك حتى وقت الغروب . وعندها هتف بهما صوت آدمي يقول: «إنهضا وبارحا هذا المكان!» .

هرول الرجلان نحو ظاهر الكهف فأسرعا إلى البطريرك يقصان عليه ما شاهداه وما سمعاه. فاستدعى البطريرك إليه الربن إبراهيم

القسطنطيني[١] الناسك من «بكائي أورشليم[٢]» وقص عليه الحادث. فـأيد الربن كـون هذا الكهف مـرقـد الملوك من آل داود. أمـا العـامـلان فإنهما لازما فراش المرض لهول ما شاهداه. ورفضا ولوج الغار مرة أخرى. وعندئذ أمر البطريرك بردم بابه حتى طمست معالمه عن الناس. هذا ما قصه عليٍّ إبراهيم الناسك نفسه. وعلى بعد فرسخين من القدس:—

بيت لحم[٣] *Bethlehem* ويسميها النصارى بيت إليون *Bet Leon*

---

(١) يذكر الرحالة فتاحية الذي زار القدس بعد بنيامين بنحو عشر سنوات أنه وجد فيها يهودياً واحداً يدعى «إبراهيم الصباغ» ربما كان إبراهيم القسطنطيني الذي يشير إليه بنيامين. ويضيف فتاحية إن إبراهيم هذا «يؤدي للملك ضريبة فادحة لكي يسمح له بالبقاء هناك» (رحلة فتاحية ٧٨). أما فليكس فابري Felix Fabri الحاج المسيحي الذي زار القدس أيام استعادتها من قبل صلاح الدين الأيوبي (١١٨٧م) فيذكر أنه وجد فيها نحو خمسمائة يهودي ونحو ألف نصراني (رحلة فابري ٩—٢٢٦).

(٢) البكاءون ويسميهم اليهود אבלי ירושלם، جماعة من المتصوفة كانوا ينذرون لبس السواد والابتعاد عن أكل اللحم وشرب الخمر، يكثرون الصوم والبكاء حزناً على ما حل بالقدس من نكبات وخراب سيما أيام الحروب الصليبية. وقد وجد منهم بنيامين في أماكن عديدة وبعضهم كان ينتمي إلى القرائين أيضاً.

(٣) بلدة جميلة مبنية على أكمة على بعد نيف وستة أميال جنوبي القدس. وهي من مدن التوراة الشهيرة لاعتبارات كثيرة. فلا يعدلها أهمية سوى أورشليم. فهي مسقط رأس الملك داود (١ صموئيل ١٧: ١٢) وفيها ولد السيد المسيح. وفوق المغارة التي يظن أن المسيح ولد فيها شيدت الإمبراطورة هيلانة أم قسطنطين كنيسة كبرى سنة ٣٣٠م. تعد اليوم من أقدم وأقدس الكنائس المسيحية في العالم. يتناوب على حراستها والعناية بها رهبان من الروم واللاتين والأرمن وإلى جانبها أديرة لهذه الطوائف وتسمى الكنيسة St. Maria a Praesepio وقد كشفت الحفريات الأخيرة في ساحة الكنيسة عن بلاطة قديمة من الفسيفساء.

وعلى بعد نصف ميل منها قبر راحيل[١]. فوقه بناء مشيد من أحد عشر حجراً بعدد أبناء يعقوب، وعليه قبة معقودة بأربعة أعمدة. ومن عادة زوار اليهود أن يكتبوا أسماءهم على حجارة البناء. وفي بيت لحم أحد عشر يهودياً يحترفون الصباغة[٢]. وهي مدينة ذات ينابيع دافقة وجداول جارية. وعلى بعد ستة فراسخ منها:ـ

بلد الخليل[٣] *Hebron* ويسميها النصارى *St. Abram de Bron*.

مدينة عتيقة البنيان فوق جبل. عرفت بهذا الاسم منذ القديم. وهي الآن خراب. أما المدينة الجديدة فمشيدة في بطن الوادي في حقل

---

(١) قال الإدريسي : «وفي وسط الطريق (من القدس إلى بيت لحم) قبر راحيل أم يوسف وأم بنيامين ولدي يعقوب. وهو قبر عليه اثنا عشر حجراً وفوقه قبة معقودة بالصخر» ا.هـ ويظهر أن هناك غلطة ناسخ في متن رحلة بنيامين إذ من المعلوم أن عدد أولاد يعقوب اثنا عشر لا أحد عشر.

(٢) كان للصباغة أهمية كبرى في القرون الوسطى، مركزها حوض البحر المتوسط. وهذا ما يفسر لنا كثرة الصباغين من اليهود. وكانت أوروبة تستورد من الشرق ضرباً من القماش المصبوغ يعرف بالسقلاطون Siclaton (L. Abrahams., J.L.M.A. 236-7)

(٣) هي بلدة حبرون القديمة. كانت في أول عهدها تدعى «قرية أربع» קרי׳ ארבע وسميت أيضاً ممرا ממרא (تكوين ٢٣ : ١٩) وهي على بعد ٢٠كم جنوبي القدس، ترتفع عن البحر نحو ٣٠٤٠ قدماً. سماها العرب «خليل الرحمن» وسماها ناصر خسرو عند زيارته لها سنة ١٠٤٨ «مشهد إبراهيم» . استولى عليها الصليبيون سنة ١١٦٧م وجعلوها مقر الأسقفية اللاتينية ثم استعادها صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٨م. وممن انتسب إليها من يهود القرون الوسطى، الحبر إبراهيم بن سعدية الحبروني (مان : مخطوطات الخزانة في القاهرة ج٢ ص:٢٠٣).

مكفيلة[١] وبها بيعة جسيمة للنصارى تدعى « كنيسة القديس إبراهيم » كانت في أيام حكم المسلمين كنيساً لليهود، حتى استولى الإفرنج عليها[٢]. وفي هذه الكنيسة ستة قبور[٣] يقول النصارى إنها أضرحة إبراهيم وسارة ويعقوب وليئة. يحجها اليهود للتبرك لقاء إتاوة يؤدونها[٤]. فإذا جاء يهودي دفع المال إلى الحارس القيم على القبور.

---

(١) حقل فيه مغارة. اشتراه إبراهيم الخليل مدفناً لأسرته (تكوين : ٢٣) ومعنى مكفيلة « المزدوجة » والمغارة تقع اليوم ضمن الحرم في الخليل.

(٢) هي مقام إبراهيم (ع) وجامع الحرم الشريف في الخليل. يبلغ طول بنائه ١٩٤ قدماً وعرضه ١٠٩ أقدام وارتفاعه من ٤٨ إلى ٥٨ قدماً. مشيد بحجارة كبيرة يبلغ طول أحدها ٣٨ قدماً. ويقال: إن أساسات هذا البناء من عهد داود وسليمان. وقيل: إنها من بناء هيرودس في القرن الأول ق.م أما داخل البناء فظاهر فيه الطراز القوطي من القرن الثاني عشر. (قاموس ك.م)

(٣) أسهب جغرافيو العرب بوصف هذه القبور. قال صاحب مسالك الأبصار: « وقد أتيت إلى هذا السرداب ومشيت فيه زحفاً لضيقه ولانخفاض سقفه. فلا يقدر أحد أن يمشي منتصباً فيه . وهو خطوات يسيرة ينتهي إلى فجوة. وهي نحو أربعة أذرع في مثلها. وهيئة القبور في قبلة المسجد الآن قبران. الأيمن قبر إسحق والأيسر قبر زوجته. وفي شماليه مما هو منفصل عن المسجد بقبتين متقابلتين ، قبران الأيمن قبر إبراهيم الخليل، والأيسر قبر سارة زوجته. وفي شمالي الحرم قبة مسامتة لقبة الخليل، وفيها قبر يقال: إنه قبر يعقوب. ولاشك ولا ريب أن إبراهيم (ص) ومن ذكر معه مدفونون داخل هذا السور. وأما تعيين موضع القبر فالله أعلم. » ا.هـ.

(٤) يذكر فتاحية أنه دفع ديناراً ذهباً ليتمكن من زيارة هذا المقام، وأنه دفع ديناراً آخر ليتمكن من زيارة الكهف (رحلة فتاحية ص٧٨ب).

فيفتح له باباً من حديد يرتقي عبره إلى أسلافنا طاب ذكرهم، فينحدر منه إلى مغارة خاوية وبيده شمعة يهتدي بها وسط الظلام. ومنها يلج مغارة ثانية وهي خالية أيضاً. ومنها إلى ثالثة، حيث يجد ستة أضرحة متقابلة فيقرأ على الأول: «هذا قبر سيدنا إبراهيم عليه السلام». وعلى الثانية: «هذا قبر سيدنا إسحق عليه السلام». وهكذا... وفوق القبور قناديل مرتبة ليلاً ونهاراً. وفي هذا الغار عدد من القوارير مملوءة بعظام الموتى. فقد جرت عادة اليهود أن يأتوا بعظام موتاهم إلى هذا المقام.

وبظاهر هذا الغار دار يقال: إنها كانت لسيدنا إبراهيم[1] (ع) أمامها عين ماء دافقة. ولا يسمح لأحد أن يشيد حولها بناءً، إجلالا لمقام هذا النبي. وعلى مسيرة خمسة فراسخ منها:–

بيت جبرين[2] *Betogabra* ويسميها النصارى بيت جبر *Bet Gabres* وليس فيها سوى ثلاثة من اليهود. وعلى بعد خمسة فراسخ منها:–

---

(١) لعل المقصود هنا الدير المسمى «بيت إبراهيم» على بعد ساعة من مدينة الخليل.

(٢) موقع بيت جبرين الحالية بين مدينة الخليل شرقاً والمجدل غرباً. وكانت بلدة معروفة أيام الحرب الصليبية. يقول ياقوت: «هي ضيعة عجلان من فتوح عمرو بن العاص وهي حصن بين بيت المقدس وعسقلان» وهذه غير قرية جبرين الواقعة بين دمشق وبعلبك. سماها الرومان Betoris وعرفها مؤرخو الكنيسة باسم Eleutheropolis (C.D.)

قلعـة الحـصن[1] *Toron* وهي بلدة « شـونم » القـديمة الواردة في التوراة. وفيها نحو ٣٠٠ يهودي. وعلى مرحلة ثلاثة فراسخ منها :-

سنت صموئيل[2] *St. Samuel* هي بلدة شيلو الواردة في التوراة ، على بعد نحو فرسخين عن القدس. فلما انتزع الإفرنج بلدة الرملة أي « الرامة » من أيدي المسلمين ، عثروا فيها على ضريح النبي صموئيل الراماتي بالقرب من كنيسة لليهود. فنقلوا رفاته إلى شيلو وأقاموا فوقها ديراً يعرف بدير القديس صموئيل . وعلى بعد ثلاثة فراسخ منها :-

بيسان[3] *Baisan* هي بلدة جبعة شاءول الواردة في التوراة، وليس فيها يهود . وعلى مسيرة ثلاثة فراسخ منها :

---

(١) وردت هذه القلعة في الأصل العبري بلفظتها الأسبانية كما عرفها بنيامين Toron di los Caballeros ومعناها حصن الفرسان. وقد ذهب البعض إلى أنها « حصن الأكراد » المعروف لدى الإفرنج باسم Crac des Chevaliers وهذا غير ممكن. لأن موقع حصن الأكراد يتوسط الطريق بين حمص وبعلبك. والصحيح أن قلعة الحصن التي يذكرها بنيامين كانت إحدى القلاع التي شيدها الصليبيون في فلسطين. ذكرها ابن جبير في سياق رحلته باسم « تورون » وعين موقعها بظاهر « تبنين ». أما عن شونم فراجع (يشوع ١٩ :١٨).

(٢) تعرف اليوم بسيلون على بعد نحو ١٧ ميلا شمالي أورشليم بالقرب من نابلس (راجع ١ صموئيل ٣ ، ٤)

(٣) هي بلدة بيت شئان القديمة الواردة في التوراة (١ صموئيل ٣١ :١٠) حيث مثل الفلسطينيون بجثة الملك شاؤل (طالوت) بعد استشهاده. ولعل هذا ما دفع بنيامين إلى الاعتقاد بأنها جبعة شاؤل (١ صموئيل ١٠ :٢٦) وكان الرومان يسمونها Scitopolis . وقد عثر المنقبون حولها على آثار رومانية من هياكل وأروقة ومسارح وميادين لسباق الخيل مما يدل على سالف أهميتها.

بيت النبي(١) *Bet Nuba* هي «نوب» الواردة في التوراة. كانت قديماً من أملاك الكهنة. وعلى الطريق المؤدية إليها تشاهد صخرتا **يونثان**(٢). تسمى الأولى «بوصص» والثانية «سنه» ويقيم بهذه المدينة يهوديان يحترفان الصباغة. وعلى بعد ثلاثة فراسخ منها:—

الرملة(٣) *Ramah* فيها بقايا الأسوار التي شيدها أسلافنا*، على

---

(١) لا يمكن تعيين موقع نوب الواردة في التوراة (١ صموئيل ٢٢:١٩) على وجه التأكيد. أما بيت النبي فيقول ياقوت: إنها بيت نوبة، موقع بجوار الرملة. ولعلها بيت نبالة الواقعة اليوم في غربي الرملة.

(٢) صخرتان جرت عندهما موقعة مهمة بين بني إسرائيل والفلسطينيين (١ صموئيل ١٤: ٤—١٠) وقد نسبتا إلى يونثان بن الملك شاؤل لانتصاره في هذه المعركة. ويقول بعض المحققين في جغرافية التوراة: إنهما في موقع «الحصن» الحالية (قاموس ك.م).

(٣) قال ياقوت: «الرملة مدينة بفلسطين. بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا. وكانت دار ملك داود وسليمان ورحبعم بن سليمان (كذا). استولى عليها الصليبيون فاستنقذها صلاح الدين بن أيوب سنة ٥٨٣هـ. ثم خربها خوفاً من استيلاء الفرنج عليها مرة أخرى سنة ٥٨٧هـ وبقيت على ذلك الخراب حتى الآن.» ا.هـ. وأما أن الرملة هي الرامة الواردة في التوراة (١ صموئيل ١:١) فمستبعد (قاموس ك.م) ومن أشهر اليهود الذين انتسبوا إلى الرملة في القرون الوسطى شخص يدعى «مالك الرملي» مؤسس فرقة من القرائين. وقد جاء في «كتاب الأنوار» لمؤرخ القرائية أبي يوسف يعقوب القرقيساني من المائة العاشرة للميلاد ما نصه بالعربية «وكان بالرملة مالك الرملي وأصحابه، ويعرفون إلى هذه الغاية. وهم المالكية» (GR., III 193)

* يقول المستشرق أ.هونيجمان E.Honnigman في الموسوعة الإسلامية مادة(رملة)إن القول بأنها كانت في الأصل أريماثنا أو رثة موضع شك ،ويؤكد أن الذي اختطها هو سليمان بن عبد الملك.(عبد الرحمن)

حجارتها كتابة تؤيد ذلك . ويقيم فيها نحو ٣٠٠ يهودي . وكانت في سالف أيامها بلدة عظيمة . وبضاحيتها مقبرة كبرى لليهود امتدادها ميلان . وعلى بعد ثلاثة فراسخ منها :-

يافة[١] *Jaffa* هي يافو الواردة في التوراة على ساحل البحر وفيها اليوم يهودي واحد صباغ وعلى مسيرة ثلاثة فراسخ منها :-

إبلين[٢] *Ibelin* هي يبنة القديمة الواردة في التوراة . فيها أنقاض مدرستها القديمة، ولا يقيم بها يهود في الوقت الحاضر . وعلى بعد فرسخين منها :-

---

(١) بلدة قديمة على شاطيء فلسطين ورد ذكرها في كتابات طحوتمس الثالث في الكرنك (١٥٣٠ - ١٥٠٠ق.م) وذكرت لأول مرة في (يشوع ١٩ : ٤٦) وكانت ميناءً معروفاً (سفر النبي يونس ١ :٣) لكنها لم تكن ذات أهمية كبرى . وفي سنة ١٤٨ ق.م . استولى عليها من السريان يونثان المكابي فأعادها إليهم بومبي القائد الروماني (J.F,. Ant,. XIV. IV. 4) ودمرها إسبازيان سنة ٦٨م . واستولى عليها العرب أيام فتح بيت المقدس . واستولى عليها فرسان القديس يوحنة St. John في الحرب الصليبية سنة ١١٢٦م . ثم استنقذها صلاح الدين سنة ١١٨٧م وسقطت ثانية في أيدي ركاردس قلب الأسد سنة ١١٩١م إلى أن استعادها الملك العادل سنة ١١٩٧م ولم تبلغ شهرتها الحالية كميناء تجاري كبير إلا في القرن السابع عشر.

(٢) هي اليوم قرية « يبنة » على بعد ١٢ م جنوبي يافة وثلاثة أميال شرقي البحر . بلغت أهمية كبرى في تاريخ اليهود بعد سقوط بيت المقدس بيد الرومان سنة ٧٠م إذ أسس فيها الحبر الكبير يوحنان بن زكاي مدرسة أصبحت المركز الديني لليهود مدة من الزمن (راجع التلمود : غطين ٥٦) وتشاهد اليوم أطلال هذه المدرسة بظاهر القرية . زارها فتاحية قرابة سنة ١١٧٥م . ويزعم أنه شاهد بقربها نبع يتدفق ماؤه طوال أيام الأسبوع وينضب يوم السبت (رحلة : ٧٧ ب) ويسميها ابن خرداذبة يبنى (المسالك والممالك ص٧٩) .

أشدود[١] *Asdod* من مدن الفلسطينيين القدماء. هي الآن خراب وليس فيها يهود. وعلى مسيرة فرسخين منها:–

عسقلان[٢] *Ascalon* قسمها القديم خراب. يبعد عن عسقلان الجديدة بنحو أربعة فراسخ. وكانت قديماً تسمى «بني براق» . ويقال: إن مجدد بنائها عزرا الكاهن (ع) . أما عسقلان الجديدة فهي اليوم مدينة عامرة جميلة الموقع على ساحل البحر. يؤم ميناءها عدد غفير من التجار لقربها من حدود مصر. ويقيم فيها نحو مائتي يهودي من الرَّابيين، بينهم الرابيون صمح وهرون وسليمان. ونحو الأربعين من اليهود القرائين. وثلثمائة من الكوتيين (السامريين) ويتوسط البلدة بئر يقال : إنها من عمل سيدنا إبراهيم (ع) منذ زمن الفلسطينيين وقد كانت عودتنا من هذه المدينة إلى القديس جورج في اللد. وعلى مسيرة يوم ونصف يوم منها:–

(١) إحدى مدن الفلسطينيين القديمة (راجع يشوع ١٥ : ٤٦) كانت مركزاً لعبادة الوثن «داغون» موقعها اليوم على ثلاثة أميال من البحر بين غزة ويافة وتدعى أسدود. وفي جوارها خرائب قديمة. كان لها شأن يذكر في صدر النصرانية، ويسميها ابن خرداذبة «إزدود» (المسالك والممالك ص٨٠).

(٢) قال القزويني: عسقلان مدينة على ساحل بحر الروم كان يقال لها «عروس الشام». افتتحت في أيام عمر بن الخطاب على يد معاوية بن أبي سفيان ولم تزل في يد المسلمين حتى استولى الفرنج عليها سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) وبقيت في يدهم خمساً وثلاثين سنة إلى أن استنقذها صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ثم عاد الفرنج وفتحوا عكة وساروا نحو عسقلان ، فخربوها في سنة ٥٨٧هـ (١١٩١م) ا.هـ. وكانت عسقلان مسقط رأس هيرودس ملك اليهود في أيام المسيح. وبضاحيتها تشاهد اليوم أعمدة وآثار قديمة عليها كتابات.

زيرين[1] *Zerin* هي مدينة يزرعيل الواردة في التوراة. حولها عين ماء. وفيها يهودي واحد يحترف الصباغة. وعلى مسيرة ثلاثة فراسخ منها:-

صفورية[2] *Sepphoris* هي بلدة صفوري القديمة. وبها قبر «الربن الأقدس[3]» والربنين

---

(١) سماها البعض زرعين أو جيرين وزرين. كانت قديماً بلدة مهمة عامرة (١ ملوك: ١٨ :١٩) فيها هيكل عشتاروث وقصر الملك آخاب. أما اليوم فقرية حقيرة في مرج ابن عامر تدعى زرين حولها صهاريج وآبار.

(٢) صفورية بلدة وكورة من نواحي الأردن بالشام وهي قرب طبرية (ياقوت). كانت مدينة شهيرة في العصور الأولى من الميلاد، وفيها نبغ عدد كبير من واضعي التلمود المقدسي (الأورشلمي). قيل: إنها سميت صفورية צפורי ، ومعناها بالعبري (العصفورية) لانفرادها في أعلى الجبل كالعصفور (راجع التلمود، مجلد: ٦) وكانت تسمى عند الرومان Dio Caesarea ويبالغ التلمود بذكر سعتها وعدد أهاليها وأسواقها (التلمود . بابابترا : ٧٥) . لكن شأنها قد اضمحل في القرن الرابع للميلاد عندما دمرها القائد الروماني غالوس Gallus ومنها تحول المركز العلمي لليهود إلى العراق. وتوجد بالقرب من صفورية أطلال كنيس قديم وقلعة صليبية. وسميت «ترصة» أيضاً. انتسب إليها في القرون الوسطى من مشاهير اليهود الحزان يفث بن عمران بن موسي (مان : مخطوطات خزانة القاهرة ج٢ : ص٣٥٧).

(٣) هو الرابي الأكبر يهوذا بن الربن غمليال ، سابع رؤساء المجلس العلمي اليهودي الأعلى (سنهدرين) وجامع (المشنة) التي أصبحت فيما بعد أساساً للتلمود. علم في طبرية وصفورية (١٣٥-٢٢٠م) وكان يلقب بلنيء נשיא وهي لفظة عبرية معناها الزعيم. ثم لقبه طلابه بالربن الأقدس רבנו הקדוש وبهذا صار يعرف حتى اليوم. زار قبره في صفورية الرحالة فتاحية قرابة سنة ١١٧٥م وزعم أن رائحة طيبة كانت تنبعث من هذا القبر إلى مسافة ميل واحد (رحلة ص٧٧).

غـــمليـــــال(١) وحـيـة البـابلي(٢) وقـبـر يونس بن أمـتـاي النبي(٣) (ع). ومـوقع هذه القـبـور فـوق الجـبل. وفـيـه مقـامـات أخـرى عـديدة. وعلى بعد خمسة فراسخ منها:-

طبرية(٤) *Tiberias* البلدة الواقعة على الأردن . وتعرف بحيرتها

---

(١) يعرف بهذا الاسم عدد من كبار علماء اليهود وأحبارهم في القرن الأول للميلاد. أما غمليال المقصود هنا فلعله الربن غمليال الأول المعروف بالشيخ ר׳גמליאל הזקן رئيس المجمع العلمي (سنهدرين) في النصف الأول من القرن الأول للميلاد (٣٠-٥٠م)

(٢) هو العلامة חייארבא من أساتذة التلمود. درس في العراق ثم انتقل إلى فلسطين وأصبح من كبار تلامذة الربن الأقدس المتقدم ذكره. والمعروف عنه أنه من بلد كافري القديمة على الفرات الأوسط (Gr.,II. 349)

(٣) المعروف أن قبر النبي يونس بن متى، كما يسميه العرب، موجود في الموصل . لكن الروايات عن موضع قبره مختلفة. فبنيامين يذكره في الموصل أيضاً. ويقول علي الهروي في كتاب الإشارات (١١٧٣م): إنه شاهد قبر يونس في بلدة حلحول من أعمال فلسطين. ويروي الرحالة فتاحية (١١٧٣م) أنه وجده في الجليل (فلسطين) وعليه قيِّم من المسلمين، وحوله روضة غنّاء يُقدَّم من فاكهتها لحجاج اليهود دون سواهم (رحلة ص٧٧ب) ، لكنه يذكر بعد ذلك أنه شاهد القبر في غزة (ص٧٩أ) وهذا تناقض غريب. والله أعلم.

(٤) بلدة في الجليل كانت فيما مضى مدينة ضخمة. موقعها في الغور على ضفة بحيرة لها، طولها اثنا عشر ميلا وعرضها ستة أميال. والجبال من غربي المدينة والبحيرة من شرقيها. بناها الملك هيرودس انتيباس Herod Antipas سنة ١٦ م. تكريماً للقيصر طبريوس وأنشأ فيها الحمامات والملاعب. وفي القرن الثاني للميلاد فقدت هذه البلدة صبغتها الهيلانية وأصبحت مقراً لمدارس اليهود، وعنها صدر التلمود الأورشلمي في القرنين الثالث والرابع . وبقيت على هذا الحال إلى أن ألغى القيصر تيودوسيوس مجلسها العلمي في القرن الخامس فتشرد علماؤها وانتقل أكثرهم إلى العراق (Bent., W.P.I. 93) وهي الآن بلدة صغيرة لم يبق من مجدها السالف إلا الرسوم. حل بها زلزال خطير سنة ١٨٣٧م وقتل نحو ٦٠٠ من سكانها.

ببحر «كنرت[١]» أو بحر طبرية. وعندها شلال الأردن المسمى «أشدوث هفسحة[٢]» وبعدها ينحدر النهر فيصب في بحر الأسفلت أو البحر المالح. وفي طبرية نحو مائة يهودي. من مشاهيرهم الرابيون إبراهيم الفلكي ومختار وإسحق[٣]. وبها الحمامات الحارة[٤]. وهي عيون تنبجس من باطن الأرض. وعلى مقربة منها كنيس كالب[٥]

---

(١) اسم بحيرة الجليل كما ورد في التوراة (يشوع ١٢: ٣ و١٣: ٢٧) وسميت بعد ذلك جنسرت Genesaret ويسميها التلمود جنوسر גנוסר.

(٢) راجع التوراة (عدد، ٢٣ : ١٤ وتثنية، ٣٤: ١-٤).

(٣) كانت طبرية من مراكز اليهود العلمية المهمة في القرون الوسطى. وتعتبر لذلك إحدى المدن الأربع المقدسة عندهم. وفي مقبرتها عدد كبير من مراقد أحبارهم ومشاهير علمائهم.

(٤) اشتهرت حمامات طبرية منذ العهد الروماني وتعرف بالتلمود باسم חמי טבריה.
قال ياقوت نقلاً عن علي الهروي: «أما حمامات طبرية التي يقال عنها: إنها من عجائب الدنيا فليست هذه التي على باب طبرية على جانب بحيرتها. فإن مثل هذه كثير رأينا في الدنيا. وأما التي من عجائب الدنيا فهو موضع من أعمال طبرية شرقي قرية يقال لها الحسينية في واد. وهي عمارة قديمة يقال: إنها من عمارة سليمان بن داود. وهو هيكل يخرج الماء من صدره. وقد كان يخرج من اثنتي عشرة عيناً كل عين مخصوصة بمرض، إذا اغتسل فيها صاحب ذلك المرض بريء بإذن الله تعالى. والماء شديد الحرارة جداً، صاف، عذب، طيب الرائحة.» ا.هـ.

(٥) أحد زعماء أسباط بني إسرائيل الذين انتدبهم موسى النبي لجس فلسطين قبل فتحها (راجع التوراة: عدد ، ١٣: ٦) أما الكنيس الذي يذكره بنيامين فمشكوك في نسبته إليه.

حـوله قـبـور عـديدة بينهـا قـبـر يوحنان بن زكـاي[١] . والرّابي يهـوذا اللاوي[٢] . وكلها في الجليل الأسفل . وعلى مسيرة يومين منها :-

تبنين[٣] *Tebnin* هي بلدة تمنة الواردة في التـوراة . فـيـهـا عـدد من اليهود ، وبها قبر شمعون الصديق[٤] وعلى مسيرة يوم منها :-

جـوش[٥] *Giscala* هي بلدة « جـوش حلب » فـيـهـا نحـو عـشـرين يهودياً . وعلى بعد ستة فراسخ منها :-

---

(١) أحد كبار أحبار اليهود في القرن الأول للميلاد . جمع أشتات علماء اليهود بعد خـراب بيت المقـدس سنة ٧٠م فـاعـاد تأليف المجلس القـضـائي والعلمي الأعلى (السنهدرين) في بلدة يبنة (راجع تعليقنا عنها) .

(٢) هو أبو الحسن يهوذا بن صموئيل اللاوي الطليطلي أحـد كـبـار شـعـراء وفلاسفة اليـهـود في إسبانية في المائة الثانية عشرة . ولد في طليطلة سنة ١٠٧٥م واستشهد عند أسوار القدس قرابة سنة ١١٤٠م .

(٣) بلدة في جـبـال بني عـامـر المطلة على بلد بانيـاس بين دمـشق وصـور (ياقـوت) ذكرهاابن جبير في رحلته سنة ١١٨٥م . أما تمنة حـارس الواردة في التوراة (قضاة ٢ : ٩) فموقعها على الطرق الرومانية بين القدس وأنتباترس على بعد نحو ١٥ ميلا شمالي القدس . وقد وجد المنقبون بجوارها بعض الآثار اليهودية من العصر الروماني (قاموس ك.م.) .

(٤)هو شمعون بن قنطروس الكاهن الأعظم . خدم في هيكل القـدس على عـهـد الملك أغريباس (٣٠ق.م) (التلمود ، تعنيت : ١١) . وهو غير شـمـعـون الصـديق الذي عاش في زمن الإسكندر ، فإن قبر هذا الأخير معروف ، وموقعه اليوم على بعد ميل واحد عن القدس باتجاه باب الشام .

(٥) يغلب على الظن أنها قرية « الجش » أو « قصر البردويل » . موقعها بين صور وطبرية (ياقوت) . كانت في العهود الرومانية تسمى Giscala وإليها ينتسب يوحنة بن لاوي أحـد أبطال الحرب اليـهـودية الرومـانيـة سنة ٧٠م . יוחנן מגוש חלב (J.F., War, II. XX. 6. ff)

ميرون[١] *Meron* وعلى مقربة منها غار فيه قبور هليل[٢] وشماي[٣] مع عشرين من تلامذتهما . وقبر بنيامين بن يافث(؟) وقبر يهوذا بن بثيرة[٤] . وعلى مرحلة ستة فراسخ منها :-

علمة[٥] *Alama* فيها نحو خمسين يهودياً . وبظاهرها مقبرة كبيرة لليهود فيها قبور الرَابيين إلعازر بن عرخ وإلعازر بن عزرية[٦] وحوني

---

(١) قرية في الجليل تبعد ثلاثة أميال شمالي صفد . فيها مراقد شهيرة لكبار علماء التلمود منهم الربن شمعون بن يوحاي الذي ينسب إليه كتاب « الزوهر » الشهير .

(٢) هو رئيس المجمع العلمي الأعلى لليهود في فلسطين في القرن الأول قبل الميلاد، ويعرف باسم « البابلي » הלל הבבלי . ولد في العراق سنة ١١٠ ق.م فانتقل إلى القدس حيث ولي رآسة المجمع من سنة ٣٠ إلى ٩ ق.م وتوفي فيها سنة ١٠م. بالغاً من العمر العشرين بعد المائة . وكان لمدرسته الرأ ي الأرجح في الشرع اليهودي .

(٣) من كبار علماء التلمود في القرن الأول ق.م . كان معاصراً للرئيس هليل . وكانت مدرسته تؤلف كتلة المعارضة في المجمع العلمي . ومن غريب ما يرويه الرحالة فتاحية عند زيارته لمرقدي هذين الحبرين (١١٨٥م) أنه شاهد عندهما حجراً منقوراً على هيئة كاس فإذا دخل المرقد رجل صالح امتلأت الكاس ماءً فراتاً لوضوء الزائر وشربه . أما إذا كان الزائر طالحاً فإن الماء ينضب من الحجارة (رحلة : ٧٧ب) .

(٤) أحد مشاهير علماء التلمود في القرن الأول للميلاد . وقول بنيامين بأن قبره في ميرون لا يؤيده الواقع . لأن الربن يهوذا هذا عاش ومات في نصيبين من أعمال الجزيرة في العراق . وله فيها اليوم قبر معروف يزوره اليهود . (التلمود : سنهدرين ٣٢)

(٥) بلدة في شمال بحيرة طبرية . ذكرها غير واحد من رحالي اليهود في العصور الوسطى، لكننا لم نجد لها ذكراً في المصادر العربية .

(٦) اثنان من كبار أعضاء المجمع العلمي اليهودي الأعلى في يبنه في القرن الأول الميلادي .

همعجل[١] وشمعون بن غمليال[٢] ويوسي الجليلي[٣]. وعلى مسيرة نصف يوم منها :–

قادس[٤] *Kades* هي «قادش نفتلي» الواردة في التوراة . موقعها على الأردن، وفيها مرقد برق بن أبي نعم. وليس فيها يهود. وعلى مسيرة يوم منها :–

بلنياس[٥] *Belinas* وتسمى أيضاً بانياس *Paneas* وقيسارية

---

(١) من كبار علماء المشنة في القرن الأول قبل الميلاد. له مواقف مشهورة في صلاة الاستسقاء (المشنة، تعنيث :٣).

(٢) رئيس المجلس العلمي اليهودي الأعلى (السنهدرين) في القرن الأول، وهو ابن الرئيس غمليال الأكبر (راجع تعليقنا عن صفورية في أسفل ص١١٣)

(٣) من كبار علماء التلمود في القرن الثاني للميلاد.

(٤) هي بلدة قادس الحالية على بعد عشرة أميال شمالي صفد وأربعة أميال إلى الشمال الغربي من الحولة. موقعها جميل يشرف على جنوبي مرج عيون وحولها أطلال أثرية قديمة. أما قادش نفتلي الواردة في التوراة (قضاة ٤ :٦) فكانت بلد برق بن أبي نعم من قضاة بني إسرائيل (١٢٠٠ ق.م.).

(٥) قال ياقوت : «بلنياس كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر ولعلها سميت باسم الحكيم بلنياس» ا.هـ. كانت تسمى في العصر الروماني Caesarea Philippi أسّسها فيليب بن هيرودس ملك اليهود من كليو بطرة (٢٠ق.م. – ٣م.) وسماها قيسارية فيليبي إكراماً للقيصر طبريوس وتمييزاً لها عن قيسارية الكبرى (راجع ص٩٤) وسميت نيرونياس Neronias أيضاً إكراماً للقيصر نيرون لكنها ظلت محتفظة باسمها الأول. استولى عليها الصليبيون سنة ١١٣٠م واستعادها المسلمون سنة ١١٦٥م. وبظاهرها قلعة تدعى الصليبة Suleiba. وتقع بلنياس على بعد نحو أربعة أميال من مخارج الأردن على نهر بانياس أحد روافده=

فيليبي أو بلدة « دان » الواردة في التوراة. وعندها الغار الذي ينبع منه نهر الأردن. وعلى بعد ثلاثة أميال من هذا الموقع ترتبط مياه هذا النهر بمياه نهر أرنون الذي يسقي أراضي موآب القديمة. وبظاهر هذا الغار تشاهد أطلال الهيكل الذي شيده ميخة[1] لبني دان حيث كانوا يعبدون أصنامهم. وعند هذه البلدة تنتهي حدود مملكة بني إسرائيل القديمة من جانب البحر الأقصى (المتوسط) وعلى مرحلة يومين منها :-

---

= في منطقة الحولة. وقد أخطأ بنيامين بقوله نهر أرنون. لأن هذا الأخير يعرف بالموجب وينصب في بحر الميت. كما أن بلدة دان القديمة (١ ملوك، ١٥ : ٢٠) واقعة عند تل القاضي على بعد مرحلة من بانياس (قاموس ك.م J.F.,Ant., XVII. 1,3)

(١) راجع قصة صنم ميخة في (قضاة. ١٧و١٨) وكان هذا الموقع منذ القديم محلا لعبادة الأوثان. وعنده أقام يربعام ملك بني إسرائيل الطاغية العجلين الذهبيين في حدود (٧٩٠-٧٤٩ ق.م) راجع (١ ملوك ٢ : ٢٩).

دمشق[١] *Damascus* البلدة العامرة ، حاضرة نور الدين[٢] سلطان

---

(١) تعد دمشق من أقدم مدن العالم. لها تاريخ معروف يرتقي إلى أكثر من خمسين قرناً. ذكر يوسيفوس أن بانيها عوص بن أرم بن سام بن نوح (J.F., Ant., I. VI. 4) ونسب البعض بناءها إلى إبراهيم الخليل (ع) ويروي ابن خرداذبة أنها إرم ذات العماد (المسالك والممالك ص٧٦) ومن الثابت أنها كانت عامرة في عصر إبراهيم (ع) وكان وكيل بيته يدعى إلعازر الدمشقي (تكوين، ١٤ :١٥) وقد وردت لفظتها في التوراة بأشكال مختلفة فهي دماسق ٦דמשק في (تكوين ١١ :١١٥) ودومسق ٦דומשק في (ملوك ١٦ :١٠) ودرمسق ٦٦דרמשק في (أيام ١٨ :٥) وهذه الألفاظ على اختلافها تتفق وما جاء في كتابات تل العمارنة والكرنك . فهي تارة T-mes-qu وأخرى Ti - Mash- gi ووردت لفظة Tar - mes - ki في لوحة يرجع تأريخها إلى سنة ١١٠٠ ق.م توالى عليها الملوك والفاتحون من آراميين وأشوريين وبابليين وفرس واستولى عليها الإسكندر بعد موقعة إيسوس سنة ٣٣٣ ق.م. وكانت بلدة عظيمة في زمن السلوقيين. واستولى عليها الحارث الثالث ملك الأنباط في القرن الأول قبل الميلاد وذكران Tigranes ملك أرمينية (٩٦–٥٥ ق.م) وهي من المدن المهمة في تاريخ التوراة. واشتهرت في الإنجيل بكونها موضع اهتداء بولس الرسول (أعمال ٩ : ١–٢٥) . وفي صدر المسيحية كانت دمشق مقر أسقف أنطاكية وظلت في حكم الرومان حتى سنة ٦٣٥ م. حيث افتتحها للمسلمين خالد بن الوليد . وفي سنة ١١٤٨م. حاصرها الصليبيون لكنهم لم يتمكنوا منها. وغزاها تيمورلنك المغولي سنة ١٤٠١ وافتتحها العثمانيون سنة ١٥١٧م. وقد أسهب بوصف دمشق وغوطتها جميع مؤرخي العرب مما يطول شرحه (قاموس ك.م.و .Budge, N. & T.ll. 171., E. Is. C.D)

(٢) هو محمود نور الدين بن عماد الدين زنكي. تولى سورية بين سنتي ٥٤١ – ٥٦٩هـ(١١٣٥–١١٧٣م)

التوغرمين المعروفين بالترك. وهي مدينة واسعة الأرجاء. جميلة المنظر. تدور بها الأسوار المتينة. وتمتد رياضها وبساتينها إلى مسافة خمسة عشر ميلا من كل جانب. ولم أجد مثل فاكهتها وأشجارها في أي مكان آخر في العالم. وينحدر نحو المدينة نهران يأتيانها من جبل حرمون[١] هما أبانة وفرفر[٢] . ويشرف الجبل على ظاهر البلد . أما أبانة فيجري في داخل المدينة. ويوزع ماؤه على بيوت الخاصة بقناطر تمر بالأسواق والأزقة. وأما فرفر فيسقي البساتين والغياض خارج البلدة.

وفي دمشق جامع للمسلمين يعرف بجامع دمشق[٣] ، لم أجد بناءً آخر يضارعه جمالا . ويقال: إنه بني على أنقاض قصر ابن هدد ملك إرم وإن حيطانه من صنع السحرة. وفيه من الشمسات بعدد أيام السنة.

---

(١) هو الجبل المعروف الآن بجبل الشيخ. يمتد إلى ٣٠ ميلا جنوبي غربي دمشق. أما الجبل المشرف على المدينة نفسها فهو قاسيون (Casius) الشهير.

(٢) نهران من أنهار دمشق ذكرا في التوراة (٢ ملوك. ٥ :١٢) فنهر أبانة هو (بردى) وفرفر هو (الأعوج) من أنهر الغوطة.

(٣) هو الجامع الأموي المعروف اليوم في دمشق. شرع الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ببنائه سنة ٨٧هـ. (٧٠٦م) قيل: إنه جمع لبنائه خراج الإمبراطورية الأموية لسبع سنوات. أسهب بوصفه أغلب الرحالة العرب وصفاً دقيقاً منذ أول عهده تقريباً. ويظن أن موقع هذا الجامع كان في سالف الزمن معبداً للإله «رمون» من بناء نعمان قائد جيوش أرم (٢ ملوك ٥ :١٨) وفي أواخر القرن الرابع للميلاد جدد الإمبراطور أرقديوس بناء هذا المعبد وكرّسه كنيسة للقديس يوحنه المعمدان St. John ويقال إن رأسه كانت مدفونة فيها . ثم حولت إلى جامع بعد الفتح الإسلامي بسبعين سنة. وقد جدّد الجامع وأصلح بناؤه مرات عديدة خلال العصور لكنه ظل محتفظاً بطرازه العماري (جب في ترجمة رحلة ابن بطوطة ص٣٤٥ وBudge, N. & T.II,173)

كل شمسة مقسمة إلى اثنتي عشرة درجة بعدد ساعات النهار تمر منها أشعة الشمس بالتدريج فيعرف الوقت بواسطتها[١]. وبهذا الجامع حياض موشاة بذهب وفضة، مستديرة الشكل . وهي من الضخامة بحيث تتسع لوضوء أشخاص عديدين بوقت واحد[٢]. ومن آثار هذا الجامع عظم جسيم ، قيل : إنه من ضلع أحد العمالقة، طوله تسعة أشبار وعرضه شبرين. ويقال أيضاً : إنه من عظام الملك عاناق المدعو «أبراماس» واسمه محفور على حجارة قبره . وكان هذا الملك يحكم العالم بأجمعه[٣].

---

(١) ربما يشير بنيامين هنا إلى قبة الساعة في أقصى الجهة الشرقية من الجامع Le Strange, P.U.M. 250) قال ابن بطوطة : «باب الساعات ، غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة، لها أبواب على عدد ساعات النهار. والأبواب مصبوغة باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة. فإذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهراً والظاهر الأصفر باطناً. ويقال: إن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات.

(٢) يقول البروفسور جب: إن بعض حياض الماء في المسجد الأموي يرجع تاريخ إنشائها إلى العهد البيزنطي (ترجمة رحلة ابن بطوطة ص٣٤٦)

(٣) لم نجد في كتب العرب ما يؤيد وجود هذا العظم في الجامع. ولعل ما يرويه بنيامين منقول عن أساطير قديمة يتداولها اليهود. منها : إن إبراهيم الخليل (ع) هو العاناق الاكبر הארם הגרול בענקים הוא אברהם (מר׳ רבה״ר) ومن هذه الأساطير أيضاً ما رواه فتاحية أنه شهد بالقرب من دمشق قبراً طوله ثمانين ذراعاً قال له المسلمون: إنه لسام بن نوح، لكن اليهود لم يؤيدوا هذا القول (رحلة ص٧٦ب) راجع كذلك ما نقله يوسيفوس عن نقولا الدمشقي (J.F., Ant., I. VII 2)

ويقيم بدمشق نحو ثلاثة آلاف يهودي[١]، بينهم العلماء وذوو اليسار. وفيها مقام رأس المثيبة[٢] لعلماء فلسطين[٣] الرابي عزرية[٤] ومعه أخوه قاضي القضاة سرشالوم والرابي يوسف خامس أساتذة المثيبة. والعميد الواعظ ر. مصليح، وفخر الأحبار ر. مئير وأمين سر المثيبة ر. يوسف بن الفلات[٥]، والخازن ر. مئير، والطبيب ر. صادوق. وفيها أيضاً نحو المائتين من القرائين. ومن الكوتيين (السامريين) نحو الأربعمائة شخص وهذه الجماعات على صفاء فيما

---

(١) يتصل تاريخ اليهود بمدينة دمشق اتصالاً وثيقاً منذ أول عهدها، وكان فيها جالية يهودية مهمة في العهد الروماني. وفي حكم الأمويين كانت دمشق مركز الثقافة اليهودية في الشرق إلى أن عمرت بغداد. ومن حسن حظ اليهود فيها أن موجة الصليبيين وقفت عند أسوار المدينة فلم يلحق بهم الخراب الذي لحق الجماعات اليهودية الأخرى في المدن الشامية والفلسطينية. وقرابة سنة ١١٨٠م وجد فيها الرحالة فتاحية عشرة آلاف يهودي (رحلة ص٧٦أ).

(٢) المثيبة لفظة آرامية מתיבתא تفيد معنى المجلس ويقابلها بالعبرية لفظة يشيبة ישיבה وتطلق على المدارس الدينية العليا.

(٣) كان بيت المقدس مقر المثيبة حتى الغزوة الصليبية الأولى. وعندما لجأ علماؤها إلى (حدرخ) على مقربة من دمشق ومنها انتقلوا إلى العاصمة نفسها. وفي هذه المرحلة أصبحت مثيبة دمشق في منطقة نفوذ رأس مثيبة بغداد كما سنبينه في محله.

(٤) هو الربن عزرية بن إبراهيم آخر رؤساء المثيبة في دمشق (راجع ص١٤ من رسائل صموئيل بن علي (ابن الدستور) رأس مثيبة بغداد، وص١٢٢ من كتاب بوزنانسكي Babylonische Geonim) ويقول فتاحية: إن الرئيس عزرا (كذا) يستمد سلطته الروحية من صموئيل بن علي رأس مثيبة بغداد (رحلة ص٧٦ ب).

(٥) هو يوسف بن الفلات أو البلاط. كان من علماء اليهود في بروفنسية ثم انتقل إلى الشرق واستقر في مثيبة دمشق.

بينها . لكن أفرادها لا يتزوجون بغير بنات نحلتهم . وعلى مسيرة يوم واحد من دمشق :-

جلعد[١] *Jalaad* هي بلدة جلعد القديمة الواردة في التوراة . فيها نحو ٦٠ يهودياً ، بينهم الرابيون صادوق وإسحق وسليمان . وهذه المدينة واسعة الأرجاء، وفيرة المياه، كثيرة البساتين والرياض . ومنها على مسيرة نصف يوم :-

صرخد[٢] *Salkhat* هي مدينة « سلخة » الواردة في التوراة . وعلى مسيرة نصف يوم منها :-

---

(١) لم نعثر على لفظة جلعد في المراجع العربية . وقد وردت في التوراة (تكوين ٣١ : ٤٧) باسمها الآرامي أيضاً יגר שהדותא . والظاهر أنها كورة بجوار دمشق اشتهرت قديماً بتصدير البلسان (إرمية ٨ : ٢٢)

(٢) قال ياقوت : « صرخد بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة ينسب إليها الخمر الصرخدي » ا.هـ. وتسمى اليوم سلخد . وموقعها عند طرف جبل الدروز الجنوبي . وقلعتها الحالية من بناء الرومان يدل على ذلك نسور رومانية وكتابات عربية ويونانية محفورة على بعض أعتابها وأحجارها يرتقي تاريخها إلى سنة ١٩٦ و٢٤٦م . وقد ورد ذكرها في التوراة (تثنية ٣ : ١٠ ويشوع ١٢ : ٥) مما يدل على قدمها .

بعلبك[1] *Heliopolis* هي مدينة «بعلة» الواردة في التوراة من بناء الملك سليمان، شيدها ترويحاً لزوجه ابنة فرعون. وقصر هذه المدينة مشيد بالحجارة الضخمة، يبلغ ذرع الواحدة منها عشرين شبراً بعرض اثني عشر. وبنيانها مرصوص حتى ليحسبه الناظر قطعة واحدة. ويزعم البعض أنها من صنع أسمداي ملك الجان. وفي أعلى الدينة نبع ينبجس كالنهر الزاخر، فيساعد الناس على تدوير أرحيتهم. وحوله الرياض والبساتين. ومنها إلى :-

(١) بعلبك من أعمال دمشق في الجبل وهي بلدة ذات أسوار (ياقوت). سماها اليونان (هليوبوليس) أي مدينة الشمس نسبة إلى عبادة «بعل» الذي كان يرمز إليه بقرص الشمس. وعلى هذا ورد اسمها في التوراة. «بعلة» (١ ملوك ٩ :١٨) لكن بعض المحققين يختلف في كَوْن بعلة هي بعلبك. أما القصر الذي يشير إليه بنيامين فهو معبد Acropolis المعدود بين عجائب الدنيا. كان طوله ٣٢٤ قدما. يحيط به أربعة وخمسون عموداً يبلغ قطر الواحد منها سبعة أقدام وعلوه من قاعدته إلى قمته ٨٩ قدماً. وهو مبني من حجارة كلسية يبلغ طول بعضها ٦٤ قدماً وسمكه ١٢ قدماً. بناه القيصر الروماني أنطونينوس بيوس Antoninus Pius (١٣٨-١٦١ق.م.) وكان لليهود طائفة معروفة في بعلبك من العصر الروماني حتى أواخر القرون الوسطى. وأشهر من انتسب إليها منهم الرابي ناحوم بن هرون البعلبكي (٩٩٧م.) وموسيه (موسى) البعلبكي أحد أقطاب القرائين وإليه تنسب فرقة البعلبكية (GR., III. 509 نقلا عن أبي يوسف يعقوب القرقيساني من المائة العاشرة).

تدمر[1] *Palmira* بناها الملك سليمان بن داود بظاهر الصحراء.

---

(١) تقع تدمر على بعد نحو مائة ميل إلى الشمال الشرقي من دمشق ونحو ستين ميلا غربي الفرات وهي اليوم قرية صغيرة في واحة تحيط بها الصحراء من كل جوانبها. وتنسب التوراة بناء هذه المدينة إلى الملك سليمان الحكيم (١ ملوك ٩ :١٨). والرأي السائد أن مدينة التمر תמר الواردة في نبوءة حزقيال (٤٧ :١٩ و ٤٨ :٢٨) هي تدمر نفسها. لذلك سماها اليونان القدماء Palmyra ومعناها مدينة التمر. وفي العصر الروماني استولى عليها مارك أنطونيو (٤٢-٤١ ق.م.) وسميت على عهد أدريان (٧٦-١٣٨م) Hadrianoplis أو Hadriana Palmyra. وفي القرن الثالث للميلاد اشتهر ملكها أذينة الثاني Septimius Odenathus بتحالفه مع الرومان ضد الفرس، مثلما اشتهرت زوجته زنوبية Septimia Zenobia بحربها ضد القيصر أورليان (٢٦٧-٢٧٣م.). وجاء في الكتابات التدمرية التي نشرها De Vogue وغيره من الآثاريين «أذينة بن حيران بن وهب اللات بن نصور ארינתברחירןברוהלתברנצור وكذلك اسم بنت زباي בתזבאי (الزباء). ونطالع في التلمود البابلي عن ملك يدعى «بابة بار نصر פפא בר נצר» (كتوبوت : ٥١) وفي التلمود الأورشلمي عن ملكة تدعى «زنبية ملكتا זנביה מלכתא» (ترومون الفصل ٨). وكان لليهود في تدمر جالية كبيرة في العصر الروماني وفي صدر المسيحية. ويزعم بعض مؤرخي الكنيسة أن زنوبية كانت من أصل يهودي، على حين أن المصادر اليهودية لاتعرف شيئا عن ذلك. بل إن رواية التلمود تدل على أن العلاقات بين الدولة التدمرية واليهود لم تكن على صفاء (يباموت: ٩و١٥ و١٧) وكان استيلاء العرب على تدمر بقيادة خالد بن الوليد سنة ١٢هـ (٦٣٤م) وفي سنة ١١٥٧م (٥٥٢هـ) أصابها زلزال دمر ما تبقى من أبنيتها القديمة. ولا يشاهد منها اليوم سوى أطلال معبد الشمس. وقد كشفت الحفريات الأخيرة في تدمر عن آثار كنيس يهودي يرجع تاريخه إلى القرن الثالث للميلاد عليه كتابات عبرية وأسماء يهودية مألوفة مثل شمعون وصموئيل ولاوي ويعقوب. (Bent., W.P.L. 241 , GR., II. 366 , Inscr., 13. 65 De Vogue)

وبنيانها من حجارة ضخمة، يستدير بها سور. وهي تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن بعلبك . يقيم بها نحو الألفين من اليهود. وهم أشدّاء ذوو بأس، يعاونون جيرانهم المسلمين والعرب من أتباع نور الدين في حربهم مع غزاة النصارى. ومن رؤسائهم الرّابيون إسحق اليوناني وناثان وعزيئال. وهذه المدينة تبعد مسيرة نصف يوم عن:-

القريتين[١] *Karjatein* هي بلدة «قرياثايم» الواردة في التوراة. فيها يهودي واحد صباغ. وعلى مسيرة يوم منها:-

حمص[٢] *Emesa* هي بلدة «صمارايم» الواردة في التوراة. فيها نحو

---

(١) قال ياقوت : «القريتان قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية . بينها وبين سخنة وأرك . أهلها كلهم نصارى. وذكر أبو حنيفة في فتوح الشام أنها تدعى حوارين وبينها وبين تدمر مرحلتان» . ا.هـ. أما قرياثايم الواردة في التوراة (عدد ٣٢:٣٧) فلفظتها تعني مثنى القرية. غير أن موقعها كان في شرقي الأردن فلا يمكن أن تكون البلدة التي نحن بصددها. وتقع القريتين اليوم في الشمال الشرقي في النبك على مقربة من قرية تدعى «نزالة» وبها بقايا أبنية رومانية ورؤوس أساطين وكتابات أثرية ويبلغ عدد نفوسها نحو الألفين نصفهم من المسلمين والباقون من اليعاقبة (Budge, N. & T., II. 179)

(٢) إحدى قواعد الشام القديمة بين دمشق وحلب في نصف الطريق. قيل: إن بانيها حمص بن مكنف العمليقي (ياقوت). سماها الرومان واليونان Emesa وسميت في القرون الوسطى Hems . كان فيها أيام الرومان معبد للشمس مازالت أطلاله قائمة في القلعة بظاهر المدينة. وفي القرن الثالث للميلاد نبغ في هذا المعبد كاهن يدعى Varius Avitus Bassianus (٢٠٥-٢٢٢م) أصبح فيما بعد قيصراً في رومية باسم Elagabalus أو Heliogabalus نسبة إلى الشمس التي كان يعبدها. أما صمارايم الواردة في التوراة (يشوع ١٨ :٢٤) فكان موقعها في غور الأردن على بعد أميال من أريحة . فلا يمكن أن تكون بلدة حمص. (ملحوظة : لم يرد ذكر مدينة حمص في نسخة بغداد أو نسخة آشر، لكننا وجدناها في نسخة أدلر نقلا عن نسخة المتحف البريطاني فاثبتناها هنا).

عشرين يهودياً . ومنها إلى :-

حماة[1] *Hamah* هي بلدة « حمث » الواردة في التوراة ، على ضفاف نهر يبوق[2] في سفح لبنان . وقد أصابتها هزة أرضية[3] منذ عهد قريب أهلكت خمسة عشر ألفاً من سكانها في يوم واحد . فلم

---

(١) حماة من أنزه البلاد الشامية . كانت في القرون الأولى عاصمة الدولة الحثية . موقعها على بعد مائة وعشرة أميال شمال بشرق عن دمشق في بقعة خصبة تسقيها النواعير الضخمة المشهورة . استولى عليها شلمناصر ملك آشور سنة ٨٥٤ ق.م. بعد معركة قرقور وغزاها من بعده تغلث فلاصر الثالث (٧٣٨ق.م.) ودمرها صرغون (٧٢٠ ق.م.) وفي عهد السلوقيين سميت أفيفانية **Epiphania** نسبة إلى أنتيوخوس الرابع الملقب **Epiphanes** . ودخلت في حوزة المسلمين أيام فتوح الشام. وفي سنة ١١٠٨م. استولى عليها الملك تنكريد Tancred الصليبي ثم استعادها السلاجقة سنة ١١١٥م. وتملكها صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٧٨م. وورد ذكر حماث في التوراة (تكوين ١٠:١٨).

(٢) إن نهر يبوق الوارد في التوراة (تكوين ٣٢:٢٣ – ٣٠ ومواضع أخرى) مخرجه بقرب عمان بشرق الأردن وينصب في نهر الأردن عند منتصف المسافة بين البحر الميت وبحر طبرية وهو المعروف الآن بنهر الزرقاء. وعليه يكون بنيامين قد أخطأ في تعيين موقعه. أما نهر حماة فهو العاصي. قيل سمي بذلك لأنه لا يسقي البساتين إلا بنواعير. ويسمى أيضاً نهر مقلوب لجريه من الجنوب إلى الشمال. ومن أسمائه أيضاً الأرنط.

(٣) هو الزلزال العظيم الذي أصاب سورية سنة ١١٥٧م. (٥٥٢هـ.) فدمّر حماة وأنطاكية وحمص واللاذقية وغيرها من المدن الشامية . وقد هرب من كتبت له السلامة من يهودها. لكنهم عادوا واستوطنوا فيها بعد مدة قصيرة. ويذكر الرحالة الشاعر يهوذا الحريزي (١١٧٠– ١٢٣٠م.) أنه وجد فيها الرابي عزيئال الوزير (كذا) وربما كان هذا عزيئال الذي مر ذكره في تدمر . والملاحظ هنا أن اليهود الذين يذكرهم بنيامين يحملون أسماء عربية .

يبق إلا سبعون نفسا .

وفي هذه المدينة من العلماء الرَابيون علاء الكاهن والشيخ أبو غالب ومختار . وهي تبعد مسيرة يوم عن :-

شيزر(١) *Cheiza* هي « حاصور » الواردة في التوراة . وعلى بعد ثلاثة فراسخ منها :-

لمدين(٢) *Lamdine* وهذه تبعد مسيرة يومين عن :-

حلب(٣) *Aleppo* هي أرم صوبة الواردة في التوراة وكرسي مملكة

---

(١) شيزر قلعة تشمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة مسيرة يوم (ياقوت) أما حاصور الواردة في التوراة (يشوع ١١ : ١ ، ١١,١٠) فيظن بعض المحققين أنها بلدة حضيرة وقال آخرون : إنها خربة حرة . فهي على هذا ليست شيزر .

(٢) كذا وردت في الأصل العبري . وهي محرفة عن لطمين . يذكر ياقوت أنها كورة بحمص ولها حصن .

(٣) حلب من عواصم الشام القديمة . اختلف المؤرخون في أصل تسميتها . ويروي ياقوت عن الزجاجي « سميت حلب لأن إبراهيم (ع) كان يحلب فيها غنمه في الجمعات ويتصدق به فيقول الفقراء : حلب، حلب فسمي به (راجع أيضاً رحلة ابن جبير) وهذا القول يوافق الرواية اليهودية عن أصل لفظة حلب . إذ يقول الرحالة فتاحية (١١٧٥م.) : « إن حلب هي أرم صوبا الواردة في مواضع عديدة من التوراة (١ صموئيل ١٤ : ٤٧و ١ ملوك، ١١ : ٢٣) وأما سبب تسميتها حلب فهو أن غنم إبراهيم أبينا (ع) كانت ترعى بجبل يشرف على موقعها، فكان يقدم حليبها للفقراء » (رحلة فتاحية ص٧٦) .

على أن التحقيق الحديث لا يدلُّ على وجود صلة بين لفظة حلب والحليب . فقد عثر المنقبون على كتابات هيروغليفية يرجع تاريخها إلى ٢٠٠٠ سنة ق.م. وردت فيها لفظة kha - lou - po بين المدن السورية القديمة (Paul Baurain, Alep, Autrefois, Ajourd, hui) وجاء في كتابات من عهد طحوتمس الثالث (١٥٠٠ق.م.) لفظة =

نور الدين. تتوسطها قلعة حصينة(١) ويحوطها سور متين. ولا يسقي المدينة نهر أو عيون. لذا يضطر الأهلون إلى شرب مياه المطر. وبكل دار في البلد بئر تسمى (الجب) تجمع فيها مياه المطر(٢) وبحلب نحو ألف

= Khal - bu ووردت في كتابات الملك شلمناصر الآشوري (٨٦٠ – ٨٢٦ ق.م.) لفظة Khal - ban أو Khal - man. وفي عهد سلوقوس نيقاتور (٣١٢–٢٨٠ ق.م.) كانت تسمى Chalybon أو Chaleb وقد جدّدَ هذا الملك عمارتها وأطلق عليها اسم بيرويه Beroea نسبة إلى مدينة في مقدونية (راجع سفر المكابين الثاني ١٣:٤) ويسميها بطليموس في جغرافيته Chalybon أيضاً. ويظن أن مدينة حلبون חלבון الواردة في نبوءة حزقيال (١٨:٢٧) يقصد بها حلب، لكن بعض المحققين يخالف هذا الرأي. وقد ظلت هذه البلدة محتفظة باسمها القديم بيروية إلى أن فتحها العرب وأعادوا إليها اسمها القديم. ولهذه المدينة تاريخ حافل. استولى عليها يليان سنة ٣٦٣م وكسرى الثاني أبرويز سنة ٦١١م والعرب سنة ٦٣٨م وفي سنة ١١٥٧م دمرها الزلزال العظيم الذي تقدم ذكره، فأعاد تجديدها نور الدين زنكي. ثم قامت فيها الدولة الحمدانية. واستولى عليها john Zimisces إمبراطور بيزنطة سنة ٩٧٤م فاستعادها الفاطميون سنة ٩٧٨م ودخلت في حكم السلاجقة بين سنتي ١٠٩٠–١١١٧م، حاصرها الصليبيون سنة ١١٢٤م واستولى عليها صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٣م والمغول سنة ١٢٦٠م وأخيراً أخذها العثمانيون من المماليك سنة ١٥١٧م (ياقوت و Budge, N.& T. L. 382 Le Strange P.U.M)

(١) هي قلعة الشهباء التي أسهب جغرافيو العرب بوصفها. والمعتقد أن مؤسسها الأول سلوقوس نيقاتور (٣١٢–٢٨٩ ق.م) ويقول ياقوت: إن مجدد بنائها هو الملك غازي بن صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس للهجرة.

(٢) هذه الرواية تتفق مع قول ياقوت: «إن فرعاً من الماء يتشعب في دورها ومساكنها لكنه لا يبل صداها ولا يشفي غلتها وشرب أهلها من صهاريج من ماء المطر». أما حلب الحالية فيمر بها نهر «قويق» ومخرجه من قرية يقال لها سنياب على ١٨ ميلا من حلب وينتهي عند مرج الأحمر على ١٢ ميلا منها ثم يفيض في أجمة هناك (عجائب الأقاليم ص١٤٤).

وخمسمائة يهودي على رأسهم الرّابيّان موسى الفلسطيني وإسرائيل وشيث[١] . وهي تبعد مسيرة يومين عن :—

بالس[٢] *Bales* هي بلدة « فاثور » الواردة في التوراة. وبها تشاهد

---

(١) أقام اليهود بحلب منذ أقدم الأزمنة . وتسمى عندهم أرم صوبا ארם צובא وفي القرون الوسطى كان يسمى أحد أبواب حلب « باب اليهود » وبين رسائل صموئيل بن علي رأس مثيبة بغداد في أيام رحلة بنيامين رسالة موجهة إلى يهود حلب يذكر فيها اسم ر. يوسف بن الفلات (راجع تعليقنا عن يهود دمشق) والرباني شيث (رسائل ص٢٥) ومن مشاهير علماء اليهود الذين أقاموا بحلب في حدود أيام هذه الرحلة العلامة الشاعر يهوذا بن أيوب بن عباس الفاسي المغربي المتوفي سنة ١١٨٣ م وهو والد الطبيب صموئيل بن عباس الذي أسلم في بغداد سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٢م) ووضع رسالة « بذل المجهول في إفحام اليهود » والطبيب أبو الفضل بنيامين الشريطي الحلبي (راجع عيون الإنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعه ج٢ ص٣ و٣٢٦ وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ص٣٧٧) .

(٢) بلدة في أعالي الفرات تبعد ١٢ كيلومتراً من جنوب مسكنة الحالية. كانت في أول عهدها تعرف باسم Barbalissus وكانت في زمن حكم العرب فرضة هامة على الفرات تقع على طريق المواصلات التجارية بين الشام والعراق. وعندها يترك نهر الفرات آخر محاولة للاقتراب من ساحل البحر المتوسط فيعرج نحو الشرق. ويظن بعض المحققين أن هذه المدينة منسوبة إلى بلسيس Belesis أحد مرزبانية الفرس. وقال آخرون: إنها منسوبة إلى الصنم بل البابلي أو بعل الفينيقي . استولى عليها الصليبيون سنة ١١١١م بقيادة تنكرد ثم استعادها منهم عماد الدين بن زنكي. ويشاهد اليوم في هذه المدينة أثر إسلامي على هيئة برج مؤلف من ثلاث طباق يرتفع عن قاعدة مربعة طول ضلعها خمسة وسبعون قدماً في داخلها صوامع عديدة معقود فوقها طيقان على الطراز العربي. وربما كان هذا البرج الذي ينسبه بنيامين إلى بلعم بن باعور .(Ainsw., Eu. Exp., I. 258 ff. و Le Strange, L.E.K. 107) أما فاتور كانت مقام بلعم بن باعور (عدد ٢٢ : ٥ وتثنية ٢٣ : ٤) وهو ساحر سخره ملك =

اليوم أطلال البرج الذي أقامه بلعم بن باعور. وكانت عليه مزولة تعين ساعات النهار . ويقيم بهذه المدينة عشرة يهود. وعلى مسيرة نصف يوم منها:-

قلعة جعبر[١] *Kalat Jabar* هي مدينة « سلع » الواردة في التوراة. وكانت هذه البلدة آهلة بالعرب، حتى تغلب عليهم السلاجقة[٢] وفرقوهم في الصحراء. ويقيم بها نحو ألفي يهودي. بينهم الرّابيون

=مؤاب(تكتب أيضاً موآب) لكي يلعن بني إسرائيل في أثناء مكوثهم في التيه فاضطر بأمر من الله إلى بركتهم. وحكاية أتان بلعم مشهورة في التوراة . وقد أجمع المحققون على أن بلدة فاثور هي بالس على الفرات.

(١) تقع قلعة جعبر على الشاطيء الأيسر من الفرات في أقصى منعطف له نحو الغرب. يذكر ياقوت أنها كانت قديماً تسمى الدوسر نسبة إلى مؤسسها أحد أمراء الحيرة. فملكها رجل من بني قشير يقال له : (جعبر بن مالك) فنسبت إليه. سماها اليونان Dauses وذكرها أسطيفان البزنطي Stephanus Of Byzantium باسم Dausara وسماها Ammianus Marcellinus مؤرخ الإمبراطور جستنيان Daune ومن أسمائها أيضاً Dabanae (Eu. Ex., I. 268 ff) وكانت تسمى على عهد الصليبيين Kala Jiaber أما الأتراك فيسمونها « تورك مزاري » فيها مرقد سليمان شاه رئيس عشيرة قابي خان جد سلاطين بني عثمان الذي مات غرقاً عند هذا الموقع (القرن السابع الميلادي) وفوق ضريحه قبة من بناء السلطان سليم الأول لا تزال قائمة. ويذكر أبو الفداء أن قلعة هذه المدينة كانت عامرة في زمانه (راجع أيضاً تاريخ ابن الأثير، حوادث سنة ٥٦٤هـ) وبين رسائل صموئيل بن علي رأس مشيبة بغداد (١١٦٠م) رسالة موجهة إلى يهود « القلعة » على الفرات (رسائل ص٢٣). أما بلدة سلع الواردة في التوراة (٢ ملوك ١٤ :١٧ واشعيا ١٦ :١) فهي البتراء عاصمة الأنباط في شمال الحجاز . وهذه أيضاً إحدى هفوات بنيامين.

(٢) استولى نور الدين بن زنكي على قلعة جعبر من صاحبها شهاب الدين العقيلي (٥١٠ - ٥٦٩هـ ١١١٦-١١٧٣م)

صدقية وحية وسليمان. وعلى بعد يوم منها:-

الرقة[١] *Racca* هي بلدة كلنة الواردة في التوراة. موقعها على الحدود الفاصلة بين بلاد الترك وشنعار (العراق). وفيها نحو ٧٠٠ يهودي، على رأسهم الرّابيون زكاي ونديب البصير ويوسف. وبها كنيسة لهم يقال؛ إنها من بناء عزرا الكاتب (العزير) شيدها عند مروره بهذه المدينة قادماً من بابل بطريقه إلى القدس وعلى مسيرة يومين منها:-

حران[٢] *Haran* بلدة عتيقة البنيان. فيها نحو عشرين يهودياً، عندهم كنيسة قديمة يقال: إنها من بناء عزرا (ع). وبظاهر المدينة

(١) تقع الرقة عند مُلتقى رافد بالق صو (البليخ Bilecha) بنهر الفرات. يروي بعض المؤرخين أن مؤسسها الأول الإسكندر الكبير. وعمّرها من بعده سلوقوس كالنكس Seleucus Callincusفسماها Callinlcopolis وسماها الرومان Callinicum. أما بليني فيسميها Nicephorium أي مدينة النصر (Pliny, V. 21) وفي أوائل القرن العاشر للميلاد جددها الإمبراطور Constantine Porphygeneto البيزنطي وسماها Leontopolis إكراماً لأبيه Leo Vl الملقب بالفيلسوف (٨٨٦-٩١٢م) وسماها العرب بالرقة لانخفاض أرضها، (ياقوت). وقد بلغت شهرة في صدر الدولة العباسية، فاتخذها هارون الرشيد مصيفاً له. وكشفت الحفريات الأخيرة عن الرقة القديمة، فيها آثار قصور قديمة تبلغ واجهة أحدها مائة متر. وينتسب إلى الرقة جماعة من اليهود في القرون الوسطي. منهم داود بن مروان المقمص الرقي القرائي الطبيب الفيلسوف. أقام مدة بمصر ثم عاد إلى العراق و أقام بالرقة. ويعرف أيضاً بالواسطي العاقولي. (Ainsx., Eu. Exp., I. 290. Gibbon,D.F.R.E. XLVIll GR., III. 314, 499)

(٢) راجع سفر التكوين (١٠:١٠) بلدة من بلاد العراق الأثرية يرجّح أنّها نفر القديمة على نهر الفرات في الفرات الأوسط. وقد توهم بنيامين كونها الرقة للتشابه بين لفظتها و«كلنكوم» اسم الرقة القديم.

موقع يقال: إنه من أطلال بيت تارح[١] والد إبراهيم الخليل (ع) وليس فوقه عمارة[٢]. والمسلمون يجلُّون هذا المقام ويؤمونه للصلاة فيه. وعلى مسيرة يومين منها:-

رأس العين[٣] *Ras El Ain* هي حابور[٤] الواردة في التوراة عند نهر

---

(١) بلدة قديمة وردت في التوراة (تكوين ١١:٣٢) وكانت أول مهجر لأسرة إبراهيم الخليل (ع). موقعها اليوم على رافد بالق صو (البليخ) تبعد عن مصبه نحو ٥٠ ميلا. سماها اليونان والرومان Carrae و Carrhae. واشتهرت عندها الموقعة التي انكسرت فيها جيوش القائد الروماني كرسوس Marcus Licinius Crassos (١٠٥- ٥٣ ق.م) أمام جيوش البرثيين (Gibbon, D.F.R.E.X) والمعروف عن حران أنها كانت في وقت ما من مراكز الصابئة المهمة.

(٢) راجع سفر التكوين (٢٧:٢٤) وقد ذكر ابن جبير عند زيارته حران سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) أنها «البلدة العتيقة المنسوبة لأبينا إبراهيم (ص) وله بقبليّها بنحو ثلاثة فراسخ مشهد فيه عين جارية كانت مأوى له ولسارة».

(٣) هذه المدينة ناقصة في نسختنا البغدادية لكننا وجدناها في ترجمة أدلر نقلاً عن مخطوط المتحف البريطاني وعنها أخذنا. ورأس العين بلدة قديمة كانت تسمى Resain أو Resaena. وموقعها على نهر الخابور قال ياقوت: «رأس العين مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين. سميت كذلك لكثرة العيون فيها.» ا.هـ.

(٤) يغلب على الظن أن حابور الواردة في التوراة (١ ملوك ١٧:٦) يقصد بها نهر الخابور أشهر روافد الفرات. مخرجه من مدينة راس العين من عين الزاهرية وينصبُّ في الفرات بقريقسياء في الجانب الشرقي (ابن سرابيون). وكان لهذا النهر شأن معروف في التاريخ القديم. ومن أسمائه Aboras و khaboras و Abouras و Araxes.

الخابور يأتيها من بلاد مادي بعد اختلاطه بنهر غوزان[1] وفيها نحو مائتي يهودي[2] . وعلى مسيرة يومين منها :–

نصيبين[3] *Nesibis* بلدة عامرة وفيرة المياه . فيها نحو ألفي يهودي . وعلى مسيرة يومين منها :–

---

(١) هو النهر المعروف اليوم باسم سفيد رود في شمالي إيران . مخرجه من جبال بنج أكوشت أو بش برماق (الأصابع الخمس) بين أذربيجان وكوهستان . فيمر بمقاطعة جيلان وينصب في بحر قزوين . كان المغول يسمونه « أولان مورين » أي النهر الأحمر . ثم سماه الأتراك « قزيل أوزون » بالمعنى نفسه ثم عرف بسفيد رود ومعناه النهر الأبيض . أما العرب فقد عرفوا هذا النهر باسمه الحالي وقالوا « أسفيد روذ » وله رافد يدعى شاه روذ (الأعلاق النفيسة لابن رسته ص٨٩–٩٠) . وقول بنيامين : إنه يتصل بنهر الخابور من الأغلاط الجغرافية التي كثيراً ما نعثر عليها في الرحلات القديمة عن مخارج الأنهر .

(٢) في نسخة أدلر ألف يهودي.

(٣) يعين ياقوت موقع نصيبين في بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام . وهي اليوم بلدة معروفة في أعالي نهر هرماس أحد روافد الخابور، لها تاريخ قديم يرتقي إلى عهد البابليين . فقد جاء ذكرها في الكتابات المسمارية Na - si - bi - na وسماها اليونان Antiochia Mygdoniae نسبة لنهر Mygdonious أي الهرماس الذي يسقيها . (Pliny, Vl. 16) ثم سماها الرومان Nesibis استولى عليها تراجان سنة (٥٣–١١٧م) وأنشأ فيها ترسانة للسفائن بقصد غزو العراق عن طريق النهر . أما في التلمود فكانت تعرف باسمها الحالي نصيبين נצ׳בין (سنهدرين : ٣٢) . وكان استيلاء العرب عليها سنة ٦٤٠م . ويروي الرحالة فتاحية الذي زارها قرابة سنة ١١٧٥ أنه وجد بها ثمانمائة يهودي عندهم كنيسة من بناء العزير (رحلة ٦٧ب) .XVIII. 9.9 459 Budge, N. & T., I.443 . Ainsw., Eu. Exp. J.F.,II.

جـزيرة ابن عـمـر[١] *Gezirat Ibn Omar* على نهـر دجلة[٢] في سفح جبل أراراط ، على بعد أربعة أميال من الموضع الذي استوت عليه سفينة نوح[٣]. وقد شيد عمر بن الخطاب من أنقاض هذه

---

(١) بلدة قديمة في أعالي نهر دجلة. كان موقعها يعرف في عهد الكلدان بيزارته Bezarta أو جشورته Gesurta وسماها الرومان Bezabde . قال ياقوت : «إن أول من عمّرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي.» ولا ريب في أن الرحالة يقصد عمر هذا، لا ثاني الخلفاء الراشدين كما ظن بعض المعلقين الأوروبيين.

(٢) لفظة دجلة أعجمية محرفة عن (حدقل חדקל) الواردة في التوراة (تكوين ٢ : ١٤ ودانيال ١٠ : ٤) قيل: إنه سمي بذلك لحدة مياهه وسرعتها. وجاء في الآثار البابلية والآشورية أيدكلت I-di-ik-lat وسماه الفرس القدماء Tigra ومعناها باللغة المادية السهم. وعنهم أخذ الأوروبيون لفظة Tigre أو Tigris . أما بليني فيسميه Diglito ويسميه يوسيفوس Diklath (J.F.,Ant., I. VI. 4) أما الفرات فكان يعرف عند البابليين والآشوريين باسم Pu - rat- ta أو Pu- rat -tu وعند السومريين فورانونو - Pu ra - nu - na ومعناه النهر الكبير ، مثلما سمي في التوراة הנהר הגדול נהר פרת (يشوع ، ١ : ٤) وسماه الفرس القدماء Ufrato وعنهم أخذ الإفرنج لفظة Euphrates (Budge, N.& T., I. 169)

(٣) جاء في الكتاب المقدس: «واستوى الفلك على جبال أراراط» (تكوين، ٨ : ٤) وجاء في القرآن الكريم : وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودى.» الخ . الآية (سورة هود : ٤٤) أما يوسيفوس فينقل عن بيروسوس الكلداني أن سفينة نوح استوت على جبل Cordyaean (كردستان؟) في أرمينية (Ant., I. III. 6) وقال أيضاً: إن أنقاضها كانت معروفة في زمانه (٣٧-١٠٠م) . ويروي الرحالة فتاحية (١١٧٥م) أنه شاهد السفينة في جبال أراراط (رحلة ص٧٥ب) . وتتفق رواية الجغرافيين العرب مع رواية بنيامين فيذكر ياقوت أن هناك المسجد الذي بناه نوح (ع) ويقول القزويني : إن هذا المسجد من بناء نوح وإنه باق إلى الآن تزوره الناس (عجائب المخلوقات ص١٤٦) .

السفينة مسجداً للمسلمين. وبالقرب من هذا الموقع كنيسة لليهود من بناء عزرا الكاتب (ع) يحجونه في مواسم الأعياد لإقامة الصلاة فيه. ويقيم نحو أربعة آلاف منهم بجزيرة ابن عمر. بينهم الرّابيون مبحر ويوسف وحيه . وعلى مسيرة يومين منها:-

الموصل[١] *Mosul* هي بلدة أشور الكبرى الواردة في التوراة . يقيم فيها نحو ٧٠٠ يهودي[٢] ، من أعيانهم الرئيس زكاي[٣] من آل الملك داود ور. يوسف الملقب ببرهان الفلك. وهو فلكي في بلاط سيف

---

(١) كانت الموصل في أيام الفرس تدعى نوأردشير أو بودأردشير. وكان مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية أول من نظمها وبنى عليها سوراً . ويذكر المقدسي أن الموصل كانت تدعى خولان (دي غويه ص١٣٨) ومن أسمائها أيضا أم الربيعين والحدباء والخضراء. وقيل سُميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق . وكانت قلعتها تسمى «المربعة» والحصن العبوري أيضاً . استولى العرب عليها سنة ٢٠هـ (٦٤٠م) وفي القرن الثاني عشر للميلاد أصبحت الموصل حاضرة أتابكة السلاجقة. أما أشور الواردة في التوراة (٢ ملوك ١٥ :١٩) فليست اسم مدينة بل هي الدولة الآشورية المعروفة في التاريخ القديم، اصطلح اليهود على تسمية الموصل بها، مثلما أطلقوا اسم بابل على بغداد (La Strange, L.E.k. 88)

(٢) يتصل تاريخ اليهود بالموصل منذ أول تأسيسها. ويذكر البلاذري بين محلات المدينة محلة تدعى (محلة اليهود) وكان علماؤها أيام رحلة بنيامين تابعين لنفوذ رأس الجالوت في بغداد. وقد وجد بها فتاحية الذي زارها قرابة (١١٧٥م) ٦٠٠٠ يهودي.

(٣) هو زكاي بن سليمان حسداي رأس مثيبة اليهود في الموصل، وأخو دانيال بن سليمان حسداي رأس الجالوت ببغداد (رحلة فتاحية ص٦٧ ب و Pozn., Baby. Geon., 120).

الدين (ابن) أخي نور الدين سلطان الشام[١].

والموصل مدينة واسعة الأرجاء، قديمة البنيان ، تتاخم بلاد العجم. يشقها من الوسط نهر دجلة وبينها وبين نينوى جسر قائم. ونينوى اليوم أطلال دارسة تكثر حولها القرى والضياع على نهر دجلة. وعلى بعد (أربعين)[٢] فرسخاً منها قلعة إربل القديمة. وفي الموصل كنيسة عوبدية من بناء النبي يونة بن أمتاي[٣] وكنيسة ناحوم

---

(١) هو سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود وابن أخي نور الدين محمود. ولي الموصل سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م) والظاهر أن كلمة (ابن) قد اسقطها سهواً نساخ الرحلة. لأن سيف الدين الأكبر أخا نور الدين كان قد توفي سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) أي قبل زيارة بنيامين للموصل بنحو عشرين سنة.

(٢) في النسخة التي نقلنا عنها وردت المسافة بين الموصل وإربل فرسخاً واحداً. ويظهر أن هذه من غلطات الناسخ. ووردت في نسخة آشر وأدلر أربعين فرسخاً وهو الأصح. وإربل هي القلعة القديمة المعروفة Arbela جرت عندها إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ القديم بين الإسكندر وداريوس (٣٣١ق.م) ومن مشاهير اليهود الذين انتسبوا إليها في القرن الثالث عشر للميلاد، علي بن زكريا الإربيلي رأس مثيبة بغداد في خلافة المستعصم (٦٤٨هـ - ١٢٥٠م) ويوسف كوهن بن علي ناقل كتاب دلالة الحائرين لموسى بن ميمون بالأصل العربي سنة (٦٧٤هـ - ١٢٧٥م) (راجع الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص٢٤٨)

(٣) عوبدية أحد أنبياء بني إسرائيل عاش قرابة سنة ٥٨٧ ق.م والظاهر أن الرحالة يشير هنا إلى قبر النبي يونس المعروف بالموصل . وقد أشار إليه غير واحد من جغرافيي العرب منهم المقدسي (٣٧٥هـ - ٩٨٥م) وابن جبير (٥٨٠ هـ - ١١٨٤م) وكان هذا المقام يعرف قديماً باسم « تل التوبة » ويضيف المقدسي إن هذا الجامع من بناء ناصر الدولة الحمداني على بعد نصف فرسخ من الموصل بالقرب من نبع يقال له « عين يونس » وهناك شجرة اليقطين من غرس النبي (راجع سفر يونان ، ٤ :٦).

الألقـوشي[١]. وعلى مسيرة ثلاثة أيام منها :-

الرحـبـة[٢] *Rahba* هي بلدة رحـوبوث الواردة في التـوراة ، على شاطئ الفرات. يقيم فيـهـا نحـو ألفي يهـودي، على رأسـهـم الرّابيـون حزقيـة وإهود وإسحق. ويستـدير بالمدينة سور. وهـي واسعة الأرجاء ، جميلة الرواء، محكمة البنيان، حولها الرياض والبساتين. وعلى مسيرة يوم منها :-

---

(١) أحد أنبياء بني إسرائيل ، عاش في أوائل القرن السابع قبل الميلاد. يذكر له بنيامين مرقداً آخر في نواحي شثـاثه . والمعروف اليـوم أن قبر النبي ناحـوم مـوجـود في قـرية القوش من أعمال الموصل، ويحجه اليهـود. وفيه كتابة بالعبرية تنص على أن بناءه الحالي جدّده سنة ٥٥٥٦ من التقويم العبري (١٧٩٦م) ساسون صالح داود يعقوب وعبد الله يوسف. ووقف على بنائه يعقوب موشي كباي وداود برزاني من الموصل. أما ساسون صالح هذا فهو الجد الأكبر لبيت داود ساسون المعروف في انكلترا والهند.

(٢) تعرف هذه المدينة برحبة مالك بن طوق أحد قواد هرون الرشيد الخليفة العباسي . موقعها بين الرقة وعنة وهي غير رحبة الشام. كان موقعها بالقرب من جدول قديم يعرف بنهر سعيد نسبة إلى سعيد الخير صاحب الموصل وتعرف اليوم بالميادين من أعمال دير الزور في سورية الشرقية. (وادي الفرات للدكتور سوسة ص١١٨) وقد دل التحقيق على أنها رحوبوث النهر רחובות הנהר الواردة في التوراة (تكوين ٣٦ :٣٨) ولفظة « نهر » إذا وردت مجردة في أسفار التوراة دلّت دائماً على الفرات. وجاءت في ترجمة التوراة بالآرامية لانلوس רחובות דעל פרת أي رحبة الفرات. (Ober., Land. Baby., 37).

قرقيسياء(١) *Circesium* هي كركميش(٢) الواردة في التوراة على شاطئ الفرات. وبها نحو ٥٠٠ يهودي. منهم الرّابيان إسحق وإلحنان وتبعد مسيرة يومين عن :—

الأنبار(٣) *Al-Anbar* هي فومبديثة في نهر دعة. يقيم فيها نحو

---

(١) قال ياقوت نقلا عن حمزة الأصبهاني : « قرقيسياء معرب كركيسياء وهو مأخوذ من كركيس circus وهو اسم محل لأرسال الخيل المسمى بالعربية الحلبة . » ا.هـ أما موقعها فعند مصب نهر الخابور في الفرات، مما يحاذي الميادين. وقد وردت هذه البلدة في التلمود قرقوزاء קרקוזא (نداريم ٥١أ) وأشهر من انتسب إليها من اليهود في القرون الوسطى أبو يوسف يعقوب القرقيسياني (٩٣٧م) مؤرخ الفرق اليهودية وواضع كتاب الأنوار والمراقب GR., III. 493 . Ober., Land. Baby. 35) .

(٢) كركميش بلدة قديمة جرت عندها وقعة عظيمة هزم فيها نبوكد نصر جيوش فرعون قرابة سنة ٦٠٥ ق.م (راجع التوراة ٢ أيام ٣٥ : ٢٠) وقول بنيامين إنها قرقيسياء خطأ ساقه إليه تشابه الألفاظ. لأن كركميش كانت في موقع جرابلس الحالية في أعالي الفرات حيث عثر النقابون على آثار حثية مهمة. وفي الكتابات المصرية أثر يرتقي تاريخه إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ورد فيه اسم Qar - qua - ma - sha ووردت في الآثار الآشورية لفظة Gar - ga - mish . ويذهب البعض إلى أن هذه اللفظة محرفة عن كرخ – كموش כרך כמוש أي بلدة كموش أحد آلهة الفلسطينيين القدماء (Budge, N & T.I. 395, Ains., Euph. Exp. i. 343)

(٣) الأنبار بلدة قديمة بالقرب من موقع الفلوجة الحالية .Pallughta. بناها شابور الثاني الساساني (٣١٠–٣٨١م) وكانت تدعى « فيروز شابور Perisapor » . جاء في نزهة القلوب لحمد الله المستوفي (٧٤٠هـ– ١٣٤٠م) إن مؤسس الأنبار الملك مهراب قايانيان، جعلها معتقلا لأسرى اليهود الذين سباهم بخت نصر. لذلك سميت الأنبار. ثم جدد بناءها شابور الثاني، وجعلها السفاح كرسي مملكته » ا.هـ أما فومبديثه פומבדיתא فمدينة كانت بجوار الأنبار، نشأت فيها إحدى كبريات المدارس التلمودية لليهود في العراق. ولفظتها تعني « فم البداة » (راجع =

ألفي يهودي بينهم العلماء والفقهاء، منهم الرّابيون حين وموسى وإلياقيم. وبها من القبور قبر الرّابيان يهوذا وصموئيل، وبها أيضاً كنيس ر .بستناي رأس الجالوت[١] . والرابيان ناثان ، ونحمن بن بابة. ومنها على مسيرة يومين:—

حربى[٢] *Harba* فيها نحو خمسة عشر ألفاً من اليهود، من أعيانهم الرابيون زاقن ويوسف ونثانيال. وعلى مسيرة يومين منها:—

=معجم البلدان لياقوت ، مادة بهقباذ) . وأما نهر دعة נהרדעא فمن مدن التلمود المهمة (قدوشين ٧١ ، ٧٢ وأماكن أخرى) كان موقعها في الفرات الأوسط. والظاهر أن اسمها كان يطلق على هذا الإقليم بأجمعه (Baby. 221 ff. , Ainsw., Euph. Exp. XXI. 431 - 437 Le Strange, L.E.K. 74 , Ober., Land.)

(١) هو الرئيس البستاني. أول من تولى رئاسة الجالوت على يهود العراق بعد الفتح الإسلامي (راجع الملحق الخاص بالغاؤونية بذيل هذا الكتاب) .

(٢) ورد اسم حربى في متن الرحلة مصحفاً بلفظة حردة. وهذه بلا ريب إحدى هفوات الناسخ للتشابه بين رسم الحرفين ד و ב بالعبرية. ويذكر ياقوت أن حربى «بلدة في أقصى دجيل بين بغداد وتكريت مقابل الحظيرة، تنسجُ فيها الثياب القطنية الغليظة وتحمل إلى سائر البلاد.» ا.هـ. أما موقعها فعلى الضفة اليسرى من «الشطيط» الذي كان مجرى دجلة الأصلي. وقد تحول المجرى المذكور من أعلى حربى في أوائل عهد المستنصر بالله الخليفة العباسي (٦٢٣–٦٤٠هـ . و١٢٢٦– ١٢٤٢م.) مما أدى إلى قطع المياه عنها وعن المنطقة المجاورة لها، فقام المستنصر بحفر نهر الدجيل وشيد عليه القنطرة المستنصرية المعروفة اليوم بجسر حربى سنة ٦٢٩هـ (١٢٣١م.) كما تدل الكتابة المحفورة على القنطرة (راجع نشرة دار الآثار العراقية عن جسر حربى) وكانت زيارة بنيامين لهذه البلدة قبل تحول المجرى وإنشاء القنطرة بنحو ٦٣ سنة. وكان في هذه المدينة طائفة معروفة من اليهود (راجع الحوادث الجامعة لابن الفوطى ص٢٢٤) .

عكبرى[١] *Okbara* البلدة التي يقال إنها من بناء يهوياكين ملك يهوذا[٢]. فيها نحو عشرة آلاف يهودي. من أعيانهم الربيان يوشع وناثان وعلى مسيرة يومين منها:-

بغداد[٣] *Bagdad* المدينة الكبرى، كرسي مملكة الخليفة أمير

---

(١) نقل ياقوت عن حمزة الأصبهاني: عكبرى بليدة من نواحي دجيل قرب صريفين وأوانا بينها وبين بغداد عشرة فراسخ.» وكانت تدعى في عهد الفرس بوزورك شابور واسمها بالسريانية عكبرا עכברא ومعناها الفأر. ويرجع تاريخ إقامة اليهود بهذه البلدة إلى القرن الأول للميلاد . ومن مشاهير من انتسب إليها منهم في القرون الوسطى موسويه البغدادي العكبري وإسماعيل العكبري اللذان أسسا فرقة من القرائين تعرف بالعكبرية. وكان إسماعيل العكبري في زمن خلافة المعتصم بالله العباسي (٢١٨-٢٢٧هـ، ٨٣٤-٨٤٢م) (راجع خطط المقريزي طبعة دي ساسي ج١ : ١١٦ و (Le Strange, L.E.K.51 GR., III: 507

(٢) من أواخر ملوك يهوذا في حدود سنة ٥٩٧ ق.م نقله بخت نصر أسيراً إلى بابل مع جالية كبيرة من أمراء اليهود وأشرافهم. أما نسبة بناء عكبرى إليه فليس لدينا ما يؤيدها.

(٣) بغداد دار السلام وحضرة الإسلام، مثوى الخلفاء ومثابة الدعوة الإمامية القرشية. تضاربت آراء الأقدمين في معنى اسمها . قال ياقوت : «إن معنى بغداد «باغ» بستان و «داد» اسم رجل فارسي كان في أيام الملك شيروان.» ومن رأي بعضهم أنها مصحفة عن «بغ» اسم صنم و«داد» ومعناها هدية. وقيل : إن لفظة بغداد من أصل آرامي «بيت كداد» בית גדדא ومعناها بيت الغنم أو الحظيرة . على أنه من الثابت أن قرية تدعى بغداد كانت قائمة على دجلة منذ أيام البابليين. ففي سنة ١٨٤٨ اكتشف السير هنري رولنسن الآثاري الشهير آجرة في مسناة خضر إلياس مختومة باسم بخت نصر ملك بابل (٦٠٥ق.م) وعثر النقابون على حجر يرتقي تاريخه إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد عليه اسم «بكداد» وفي أيام الفتح الإسلامي غزا المثنى بن حارثة الشيباني سوقاً للفرس على دجلة كانت تدعى «سوق بغداد» وذلك قبل أن يبني المنصور مدينته المستديرة بمائة واثنتين وثلاثين سنة. وقد ورد ذكر

المؤمنين العبـاسي[١] من آل بيت نبي المسلمين. وهو إمـام الدين الإسلامي، يدين له بالطاعة ملوك المسلمين قاطبة. فهو عندهم بمقام البابا عند النصارى.*

وقصر الخلافة في بغداد واسع الأرجاء، تنوف استدارته على ثلاثة أميال. تتوسطه روضة غناء فيها أشجار مثمره وغير مثمرة من كل صنف. وفيها من الحيوان ضروب كثيرة. وفي الروضة أيضاً بحيرة واسعة يأتيها الماء من حدقل (دجلة)[٢] يخرج إليها الخليفة للصيد والنزهة، وقد جمعت فيها أصناف الطير والسمك لرياضة الملك

= بغداتا בגדתא في أماكن عديدة من التلمود وإليها ينتسب العالم רחנא בגדתא (براخوث ٥٤ وكتوبوث ٧ ب وبابابترا ١٤٢ ب). وقد اختطها لأبي جعفر المنصور الحجاج بن أرطاة وأبو حنيفة النعمان في عام ١٤٥هـ. (٧٦٢م.) ثم تعاقبت عليها الحوادث إلى أن استولى عليها هولاكو المغولي سنة ٦٥٦هـ. (١٢٥٨م.) ومن أسمائها الزوراء أي العوجاء إشارة إلى أن القبلة في بغداد لا تتفق مع أي من الجهات الأربع. إن بنيامين أول رحالة أوروبي يذكر بغداد بلفظتها الصحيحة المعروفة، في حين أن أغلب من زارها من الرواد الأوروبيين صحفوا اللفظتها بأشكال مختلفة، منها: Baldakو Baudas و Bagdet و Maghdah وبابل الجديدة. وكان اليهود يسمونها שריגה أي المرفهة السعيدة (لغة العرب، سنة ٤ ص٨٣ و Ober,. Land. Baby. 147 ff. و Budge, N. & T.I. 185 ff.)

(١) كانت زيارة بنيامين لبغداد في أواخر خلافة المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله العباسي (٥٥٥ – ٥٦٦هـ. ،و ١١٦٠–١١٧٠م.).

(٢) كانت المياه تأتي هذه البحيرة من أطراف دجيل والخالص فتمر بقنوات محكمة بالصاروج والآجر تجري صيفاً وشتاء لا ينقطع ماؤها. ويظهر مما رواه ابن جبير وغيره أن قصور الخلفاء في القرن السادس للهجرة كانت في جانب الرصافة وتمد من المحلة المعروفة الآن بالمربعة حتى شريعة المصبغة.

* هناك فارق كبير بين (البابا)بالمفهوم المسيحي ،و(الخليفة) بالمفهوم الإسلامي .وليس هنا مجال تفصيل ذلك.(عبد الرحمن).

ووزرائه ورجال بطانته وضيوفه.

وفي هذا القصر يعقد الخليفة العباسي الكبير «الحافظ[١]» مجلس بلاطه. وهو حسن المعاملة لليهود. وفي حاشيته عدد منهم. وهو عليم بمختلف اللغات، عارف بتوراة موسى، يحسن اللغة العبرية(؟) قراءة وكتابة. وهو كذلك على جانب عظيم من الصلاح والتقوى يأكل من تعب كفيه. إذ يصنع الشال المقصب ويدمغه بختمه فيبيعه رجال بطانته من السراة والنبلاء فيعود عليه بالأموال الوافرة. وهو موصوف بالتقوى والصدق والاستقامة وطلب الخير لجميع رعيته[٢].

والمسلمون لا يشاهدونه إلا مرة في العام، عندما يتوافد الحجاج من كل فج بطريقهم إلى مكة من أعمال اليمن (كذا)* وكلهم شوق لرؤية طلعته. فيحتشدون في باحة القصر هاتفين: «يا سيدنا، نور الإسلام وفخر المسلمين، أطل علينا بطلعتك الميمونه!» لكنه لا يبالي

---

(١) لم نجد لقب «الحافظ» بين الألقاب التي كان يحملها خلفاء بني العباس. وأغلب ظننا أن يهود بغداد كانوا يلقبون الخلفاء بالحافظ مثلما يقول عرب البادية عن شيوخهم «محفوظ». ومن رأي الأستاذ العزاوي أن معنى هذا اللقب قد يكون «حافظ القرآن الكريم» كأن يقال الحافظ فلان.

(٢) إن ما يرويه بنيامين عن الخليفة المستنجد بالله من صفات، يدل على ما كان له من مقام سام في قلوب يهود بغداد. ويحدثنا التاريخ عن هذا الخليفة أنه كان من خيرة الخلفاء. أزال المكوس والمظالم وكان شديداً على أهل العيث والفساد، وأنه حل المقاطعات وأعادها إلى الخراج، وكان حليماً عادلا ثاقب الرأي حازماً، له إلمام تام بعلم الفلك وغيره من العلوم والفنون، فكانت أيامه كلها أفراح.

* كانت مكة كرمها الله وكل الحجاز واليمن في رحاب الدولة العباسية وتابعة لها. (عبد الرحمن)

بهذا النداء. فيقول له رجال الحاشية: «يا أمير المؤمنين! أشرق بطلعتك على رعيتك الذين توافدوا من الأقطار النائية للاستذراء بظل فضلك!» وعندئذ ينهض الخليفة فيرخي ذيل بردته من مشرفة القصر فيقبل الحجاج على لثمها بكل خشوع. ومن ثم ينادي بهم الحاجب: «اذهبوا بأمان الله. فإن سيدنا أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام». فينصرف الناس فرحين بهذه التحية التي يهديها إليهم الحاجب باسم الشخص الذي له في قلوبهم مقام النبي.*

وجميع الأمراء من بيت الخلافة معتقلون في قصورهم الخاصة وراء سلاسل الحديد. وعليهم الحراس الموكلون بهم لكي لا يعلنوا العصيان على كبيرهم الخليفة. فقد حدث لأحد أسلافه أن تمرد عليه إخوته وبايعوا لأحدهم بالخلافة. ومن ذلك اليوم جرت العادة بالحجر على أفراد بيت الخلافة كافة لكي لا يتمردوا على سيد البلاد. غير أن كلا من هؤلاء يعيش في قصر أنيق ويمتلك المدن والضياع، تدر عليه المال الوافر، وعليها الوكلاء والأمناء. وهكذا يقضي الأمراء أيامهم بالقصف واللهو(١).

وفي قصر الخلافة من الأبنية ما يحير العقول. ففيه الرخام والأساطين المزوقة بالذهب المزينة بالحجارة النادرة المنقوشة بالريازة البديعة تكسو الحيطان. وفي القصر كنوز وافرة وخزائن طافحة بالذهب والثياب الحرير والجواهر الكريمة.

ومن عادة الخليفة ألا يبارح قصره إلا مرة في العام، في العيد الذي يسميه المسلمون «عيد رمضان» فيحتشد الناس من أقاصي البلاد

---

(١) قابل رواية بنيامين بما جاء في رحلة ابن جبير (طبعة المكتبة الشرقية ببغداد ص١٨٠)

* النبي ﷺ أفضل بالنسبة للمسلم حتى من نفسه ،فهذا القول إذن مبالغة من بنيامين (عبد الرحمن)

للاحتظاء بمشاهدته. ويمتطي الخليفة عند خروجه جواداً مطهما، وهو مرتد بردته المقصبة بفضة وذهب، ومتوج الرأس بقلنسوة مرصعة بالأحجار الكريمة التي لا يعدلها ثمن. وفوق القلنسوة قطعة قماش سوداء اللون، فيها ما يشير إلى التواضع، وفيها موعظة للناس بأن هذه الأبهة كلها سيغشاها السواد عند انقضاء الأجل[١].

فيتحرك ركاب الخليفة، يحف به نبلاء المسلمين وسراتهم، وكلهم رافل بالحلل الزاهية فوق صهوات الخيول. وهم أمراء العرب وعظماء الترك والديلم وفارس ومادي والغز والتبت ونواحي سمرقند التي تبعد مسيرة ثلاثة أشهر عن بلاد العرب. فيتوجه الموكب إلى المسجد الجامع للمسلمين في باب البصرة[٢]. وتزين جميع الطرق والأسواق التي يمر بها أبدع زينة بالأقمشة الحرير ذات الألوان الزاهية. فيستقبله الناس بالهتافات والتهاليل، ويخرون سجداً بين يدي هذا الملك الذي يسمونه الخليفة، وهم ينادون: «السلام على أمير المؤمنين ونور الإسلام!» والخليفة يرد عليهم التحية بلثم أطراف بردته والتلويح بها.

فإذا ما دخل الجامع، يرتقي منبراً من خشب فيشرع في إلقاء خطبته

---

(١) راجع رحلة ابن جبير ص١٨٢ . إن بنيامين يفسر وجود القماش الأسود فوق قلنسوة الخليفة على هذا الوجه غير عالم أن اللون الأسود كان شعار خلفاء بني العباس.

(٢) هو جامع المنصور. وفيه كانت تقام صلاة الجمعة. (ابن جبير ص١٧٩) والمعروف عن الخلفاء في القرن السادس للهجرة أنهم كانوا يؤدون فريضة الصلاة في جامع الخلفاء. وموقعه في المحلة المعروفة اليوم بسوق الغزل. ومن آثاره الباقية «منارة سوق الغزل» المجددة على عهد المغول.

على الجماهير ويفسر لهم أحكام شريعتهم . ثم ينهض كبار المسلمين فيرتلون الدعاء له ويشيدون بعظمته وفضله، فيهتف الجميع «آمين!» . ثم يمنحهم الخليفة مباركته ويؤتى له بجمل ينحره، وهذا هو قربان العيد عندهم. فيوزع اللحم على العظماء والأمراء . والسعيد منهم مَن يذوق أضحية خليفته.

وبعد هذا يبارح الموكب المصلى، فيعود الخليفة وحده بطريق الشارع المشرف على دجلة، ويواكبه عظماء المسلمين في قوارب تمخر مياه النهر حتى يدخل الخليفة قصره. وقد جرت العادة أن تكون عودة الخليفة بغير الطريق التي خرج منها. ويقوم الحراس طوال أيام السنة على منع الناس مع وطء موضع أقدام الخليفة. والخليفة لا يبارح قصره إلا في العام القابل، وهو عظيم التقوى والصلاح.

ويقوم على الجانب الغربي من مدينة بغداد، بين نهر دجلة ونهر آخر يأتي من الفرات بناء المارستان[1] . وهو مجموعة من البنايات الواسعة،

---

(١) كان في بغداد أيام رحلة بنيامين مارستانات (مستشفيات) عديدة. منها البيمارستان الصاعدي والمارستان المقتدري، وكان يقع في باب الشام، وبيمارستان السيدة أم المقتدر في سوق يحيى على نهر دجلة (أخبار الحكماء للقفطي ص١٩٤ – ١٩٥) ومارستان الوزير ابن الفرات. ومارستان عز الدولة وكان عند الجسر الذي على دجلة (المنتظم ص٢٣ب).

أما المارستان الذي يذكره بنيامين فهو المعروف بالمارستان العضدي أكبر مستشفيات بغداد. كان موقعه بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع. أنشأه الأمير بجكم أيام حكمه ببغداد بناء على إشارة الطبيب سنان بن ثابت بن قرة (٣٢٩هـ – ٩٤١م) ثم أتمه عضد الدولة عام (٣٦٨هـ – ٩٦٦م) وافتتحه سنة (٣٧١هـ – ٩٨١م) ورتّب فيه الأطباء والمعالجين والخزان والبوابين والوكلاء والناطورين. (ابن الأثيرج ٩ :١٢) وقد =

يأوي إليها المعوزون من المرضى رغبة في الشفاء ولهذا المارستان قوامون من الأطباء يبلغ عددهم الستين طبيباً ، يعالجون المرضى ويطبخون لهم الأدوية. والخليفة يجهزهم بما يحتاجون إليه من بيت المال.

وفيها أيضاً بناية تدعى «دار المارستان[1]» يأوى إليها المجانين المغلوبون على عقولهم بتأثير حر القيظ الشديد! والأطباء يقيدونهم بالأغلال حتى يثوبوا إلى سابق رشدهم. ويعيشون مدة مكوثهم فيها بنفقة الخليفة. ويقوم أطباء الخليفة بتفقدهم مرة في كل شهر، فيسرحون من عاد إلى الصواب منهم ليعود إلى أهله. وتشمل خيرات الخليفة كل من أمّ بغداد من المرضى والمجاذيب. فالخليفة جزيل

= بلغت نفقة هذا المارستان سنوياً مائة ألف دينار. وعين له أربعة وعشرين من أمهر الأطباء في البلاد من مختلف الملل. وقد زار هذا المارستان الرحالة ابن جبير بعد بنيامين بمدة وجيزة وروى كيف أن الأطباء يتفقدونه كل يوم ويطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه (ابن جبير ص١٧٩) وقد لحق هذا المارستان أذى كبير من حوادث الغرق التي كانت تصيب بغداد بين حين وآخر لكنه كان يجدد بعد كل حادث . وقد ظل عامراً إلى أن أنشأ الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣– ٦٤٠هـ و ١٢٢٦– ١٢٤٢م) المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة، وشيد فيها المارستان المستنصري ، فانصرفت العناية إلى هذا المستشفى وضؤل شأن المارستان العضدي.

إن لبرخت في تعليقه على طبعة أدلر من رحلة بنيامين ، توهم أن الرحالة يشير إلى المارستان المستنصري الذي شيد بعد زيارة بنيامين بثماني وسبعين سنة على الأقل.

(١) كان دار المارستان الخاص بالمجانين يؤلف جناحاً من المارستان العضدي. على أنه كان ببغداد مارستان كبير آخر خاص بالمجاذيب. وهو دير هزقل القديم الذي كان يقع على مرحلة إلى الجنوب في طريق واسط (اليعقوبي ص٣٢١ والعقد الفريد ج٣ ص٢٤٠ ومسالك الأبصار . ج١ : ٢١٨)

الإحسان. همه عمل الخير.

ويقيم ببغداد نحو (أربعين) ألف يهودي[١]. وهم يعيشون بأمان وعز ورفاهة في ظل أمير المؤمنين الخليفة. وبينهم عدد من كبار العلماء ورؤساء المثيبة وعلماء الدين. ولهم في بغداد عشر مدارس مهمة. ورئيس المدرسة الكبرى هو الرابي صموئيل بن علي[٢] الرّابي والغاؤون، رأس مثيبة «غاؤون يعقوب» . وهو ينتسب إلى سبط لاوي من آل موسى النبي (ع).

وأما رئيس المدرسة الثانية[٣] فهو ر. حنينة أخوه، شيخ اللاويين ونائب رأس المثيبة. ورئيس المدرسة الثالثة ر.دانيال[٤] ورئيس المدرسة الرابعة الحبر إلعازر. ورئيس المدرسة الخامسة ر. إلعازر بن

---

(١) في النسخة التي لدينا ورد عدد يهود بغداد ألف شخص.. ويظهر أن كلمة (أربعين) غفل عنها الناسخ، لأنها وردت في نسختي آشر وأدلر، وهذا هو الصحيح بالنظر لكثرة المدارس اليهودية التي يحصيها بنيامين في بغداد. وقد جاء في رحلة فتاحية الذي زار بغداد بعد بنيامين بنحو عشر سنين، أن عدد طلبة هذه المدارس يبلغ الألفين ، خمسمائة منهم في مدرسة رأس المثيبة. (رحلة ص٦٨ ب)

(٢) هو صموئيل بن علي اللاوي الملقب بابن الدستور، رأس مثيبة بغداد في خلافة المستنجد بالله وولده المستضيء بالله.. وكان رأس المثيبة في بغداد الزعيم الديني لليهود، أما رأس الجالوت فكان رئيسهم السياسي الذي يمثلهم عند الخليفة. (راجع الملحق الخاص في ذيل هذا الكتاب).

(٣) راجع كتاب S. Poznanski, Baby. Geonim ص١٥ وما والاها التفصيل عن هذه المدارس ورؤسائها. وكذلك مقدمة الدكتور إساف لرسائل صموئيل بن علي.

(٤) هو دانيال بن سعيد (سعدية) البغدادي. تولى نيابة رأس المثيبة بعد وفاة حنينة بن علي اللاوي.

صمح[١] رأس المجمع العلمي، ويرتقي نسبه إلى صموئيل النبي . وقد اشتهر هو وإخوته بالتجويد ورخامة الصوت والترتيل على الطريقة التي كان يرتل بها أجدادهم اللاويون في بيت المقدس . ورئيس المدرسة السادسة ر . حسداي الملقب بفخر الأحبار . ورئيس المدرسة السابعة ر .حجاي . ورئيس المدرسة الثامنة ر .عزرا صاحب سر المثيبة . ورئيس المدرسة التاسعة ر . إبراهيم ويكنى أبا طاهر[٢] . ورئيس المدرسة العاشرة والختامية (السيوم) ر .زكاي بن بستناي .

وهؤلاء الأساتذة العشرة يعرفون بالمعتكفين[٣] . لا عمل لهم غير النظر في مصالح أبناء طائفتهم . ويقضون بين الناس طول أيام الأسبوع، كل في مدرسته، خلا نهار الاثنين حيث يجتمعون في مجلس كبيرهم رأس مثيبة « غاؤون يعقوب » للنظر في شؤون الناس مجتمعين .

أما رئيس هؤلاء العلماء جميعهم، فهو الرابي دانيال بن حسداي

---

(١) من رأى بوزنانسكي أن إلعازر بن صمح ينتسب إلى أسرة ابن الدستور صموئيل بن على رأس المثيبة . وقد كان الترتيل من أخص مهام اللاويين في بيت المقدس .

(٢) من رأي بوزنانسكي أنه الرابي إبراهيم كوهين من علماء بغداد . وكان له اتصال وثيق بالعلاّمة الفيلسوف موسى بن ميمون .

(٣) بهذه الكلمة ترجمنا لفظة במלנים ومعناها المنقطعون أو العاطلون .

الملقب «سيدنا رأس الجالوت[١]». ويسميه المسلمون «سيدنا ابن داود». لأن بيده وثيقة تثبت انتهاء نسبه إلى الملك داود. وهو يستمد سلطانه من كتاب عهد يوجه إليه من الخليفة أمير المؤمنين عملا بالشرع المحمدي. وينتقل هذا المنصب إلى ذريته بالوراثة. وعند نصب الرئيس يمنحه الخليفة ختم الرئاسة على أبناء ملته كافة[٢]. وتقضي التقاليد المرعية بين اليهود والمسلمين وسائر أبناء الرعية بالنهوض أمام رأس الجالوت وتحيته عند مروره بهم. ومن خالف ذلك عوقب بضربه مائة جلده.

---

(١) كان منصب رأس الجالوت معترفاً به من خلفاء الدولة العباسية حتى خلافة القادر بالله (٣٨٠ – ٤٢٢هـ. و٩٩١ – ١٠٣١م) ففي أيامه استفحل شان الأمراء واضطربت أحوال الخلافة واختل توجيه منصب رآسة الجالوت. وكان آخر الرؤساء في عهد القادر الغاؤون شريرا ר׳שרירא גאון المتوفى سنة ١٠٠٠م. وولده ر.هاي ר׳האי גאון المتوفى سنة ١٠٣٨م. فلما استعادت الخلافة العباسية سابق سلطتها وتقاليدها ونفوذها بعدما تقلص ظل السلاجقة عن بغداد، أمر الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠ – ٥٥٥هـ و ١١٣٦ – ١١٦٠م) بإحياء مراسيم رآسة جالوت اليهود وإعادتها إلى ما كانت عليه، ووجه العهدة بهذا المنصب للعالم الثري سليمان بن حسداي. من آل سبط الملك داود من جانب أمه. فلما توفي سليمان خلفه بمنصبه ولده دانيال بن سليمان حسداي. أما منصب رأس المثيبة فكان لصموئيل بن علي الملقب بابن الدستور. وبعد وفاة دانيال نشب خلاف حول التولية بين ابني أخيه داود وصموئيل، وكانا يومئذ بالموصل، فانتهز ابن الدستور هذه الفرصة فضم رآسة الجالوت إلى منصبه. فأصبح يجمع السلطتين الروحية والسياسية على أبناء طائفته GR,. I V. (305-316 ومقدمة الدكتور أساف لرسائل صموئيل بن علي.)

(٢) راجع نص كتاب العهد الذي كان يوجهه خلفاء بني العباس إلى رؤساء اليهود في بغداد في الصفحة ٦٠٥ من الجامع المختصر لابن الساعي و Poznanski, Baby. Geonim. 37 والبحث عن رأس الجالوت بذيل هذا الكتاب.

وعندما يخرج رأس الجالوت لمقابلة الخليفة يسير معه الفرسان من اليهود والمسلمين . ويتقدم الموكب منادٍ ينادي بالناس : «اعملوا الطريق لسيدنا ابن داود[١]!» . ويكون الرئيس ممتطياً صهوة جواده وعليه حلة من حرير مقصب، وعلى رأسه عمامة كبيرة تتدلى منها قطعة قماش مربوطة بسلسلة منقوش عليها شعار الخليفة . وعندما يمثل في حضرة الخليفة يبادر إلى لثم يده . وعندئذ ينهض الخليفة وينهض معه الحجاب ورجال الحاشية، فيجلس الرئيس فوق كرسي مخصص لجلوسه قبالة الخليفة .

ويسري نفوذ رأس الجالوت على جميع طوائف اليهود المنتشرة في شنعار (العراق) وبلاد خراسان، وسبأ (اليمن) وبلاد ما بين النهرين (الجزيرة) وجبال أراراط (أرمينية) وبلاد اللان[٢] المحوطة بالجبال الشاهقة والتي لا ينفذ إليها سوى من الأبواب الحديد[٣] التي شيدها الإسكندر فتهدمت من بعده؛ وطوائف اليهود المنتشرين في سبيرية وبلاد التوغرميم (التركمان) وبلاد كرجستان (جورجية) حتى شواطئ نهر جيحون وحدود سمرقند وبلد الطيبات[٤] (التبت) وديار الهند .

---

(١) وردت هذه العبارة في الأصل باللغة العربية .

(٢) بلاد اللان أو الألانية في جنوب قفقاسية وكرجستان . وهي البلاد المعروفة اليوم باسم أذربايجان (Le Strange, L.E.K. 194)

(٣) هو سد الإسكندر المعروف اليوم بمضيق دربند . يسميه الأتراك « دمير قابي » وكان العرب يسمونه سد ياجوج ومأجوج أو باب الأبواب (المسالك والممالك لابن خرداذبة : ١٦٣) .

(٤) بهذه اللفظة ترجمنا عبارة ארץ טובות فالرحالة يقصد بها دون ريب بلاد التبت .

ففي هذه الأقطار كلها لا يعين الرّابيون والحزانون[١] إلا بمعرفة رأس الجالوت. وهم يشخصون إلى بغداد بعد نصبهم لمقابلة الرئيس، ويحملون إليه الهدايا والعطايا من أقصى المعمور. ويمتلك الرئيس العقارات الواسعة والمزارع والبساتين في جميع أنحاء بابل (العراق) وأكثرها مما ورثه عن أجداده. وأملاكه هذه مصونة، ليس من حق أحد أن ينتزعها منه. وله إيراد سنوي عظيم من الفنادق والأسواق والمتاجر عدا الهدايا التي تتوارد عليه من البلدان القصية. فهو على ذلك واسع الثروة، وعلى جانب عظيم من الحكمة والفقه بأحكام التوراة والتلمود.

ويجري الاحتفال بنصب رأس الجالوت الجديد بمهرجان مشهور. إذ يبعث إليه الخليفة بإحدى ركائبه الملوكية فيتوجه إلى قصر الخلافة، وفي ركابه الأمراء والنبلاء، ومعه الهدايا والتحف النفيسة للخليفة ورجال قصره. وعندما يمثل بين يدي الخليفة يتسلم منه كتاب العهد، ثم يضع أمير المؤمنين يده على رأس الرئيس الجديد[٢]، ومن ثم يعود إلى داره بموكبه الخاص وحوله الجماهير الغفيرة. وتنفخ أمامه البوقات وتقرع الطبول. وبعدها يحتفل بتجديد نصب رؤساء المثيبة بأن يضع الرئيس الأكبر يده على رأس كل منهم.

---

(١) مفردها الحزان. وهو الخطيب الذي يرتقي المنبر ويصلي بالجماعة.

(٢) كناية عن تقاليد كانت متبعة بين اليهود . وهي أن يضع الرئيس يده على رأس مرؤوسيه عند توليتهم المناصب المهمة. وهي تقاليد محفوظة من عهد موسى النبي (ع).

وبين يهود بغداد عدد كبير من العلماء وذوي اليسار. ولهم فيها ثمان وعشرون كنيسة. قسم منها في جانب الرصافة ومنها في جانب الكرخ على الشاطئ الغربي من نهر حدقل (دجلة) الذي يمر في المدينة فيشطرها شطرين.

وكنيسة رأس الجالوت بناء جسيم، فيه الأساطين الرخام المنقوشة بالأصباغ الزاهية المزوقة بالفضة والذهب. وتزدان رؤوس الأساطين بكتابات من المزامير بحروف من ذهب. وفي صدر الكنيسة مصطبة يصعد إليها بعشر درجات من رخام، وفوقها الأريكة المخصصة لرأس الجالوت أمير آل داود.

وتبلغ استدارة بغداد عشرين ميلاً[١]. وتمتد حولها الرياض والحقول وبساتين النخيل مما لا مثيل له في جميع العراق. ولها تجارة واسعة، يقصدها التجار من جميع أقطار العالم للبيع والشراء. وفي بغداد عدد كبير من العلماء الفلاسفة والمتفننين في جميع العلوم والمعارف والسحريات. وعلى مسيرة يومين منها:—

---

(١) يذكر الرحالة فتاحية الذي زار بغداد في حدود سنة (٥٧٩هـ-١١٨٣م) أن طول بغداد مسيرة يوم واحد واستدارتها مسيرة ثلاثة أيام. ويقول كذلك إنه شاهد في بغداد باباً من النحاس البراق ارتفاعه مائة ذراع وعرضه عشرة أذرع، عليه من الصور ما ليس باستطاعة أحد أن يصنع نظيره. وحدث أن سقط منه مسمار فلم يستطع أحد إعادته في مكانه. وبلغ من شدة بريق نحاس هذا الباب أن الخيل كانت تجفل عند اقترابها منه لانعكاس صورها عليها. ولذلك اضطروا إلى غسل النحاس بالخل فذهب بريقه. لكن جزأه الأعلى ظل على بريقه السابق (رحلة ص٧٣ب)

جاهيجان (زريران)[١] *Gahigan* هي رسن الواردة في التوراة. فيها نحو خمسة آلاف يهودي وكنيس كبير فيه قبر رابة[٢] . وتحت القبر غار فيه قبور لاثنى عشر من تلامذته. وعلى مسيرة يوم منها :-

---

(١) وردت هذه اللفظة مصحفة في أغلب نسخ الرحلة. ففي نسختنا « جاهيجان גאהיגאן » وفي نسخ أخرى جهياجين وجزيجان وجهيجة . وظن الرحالة بوكنغهام أنه يقصد بها بلدة الفلوجة الحالية. وهذا وهم واضح بالنظر لاتجاه طريق الرحلة (J.S. Buckingham, Travels In Mesopotamia, 1827. II . 426) ومن رأي الأستاذ يعقوب سركيس أن هذه اللفظة مصحفة عن « درزيجان » وهي قرية كبيرة يعين ياقوت موقعها تحت بغداد على دجلة بالجانب الغربي منها، وبها سميت المدائن، وأصلها درزنيدان فعربت على درزيجان... أما الأستاذ عباس العزاوي فيرى أنها محرفة عن « زريران » القديمة وموقعها في الأراضي المعروفة الآن بالسيافية في الجانب الغربي من دجلة بإزاء المداين. والرأي الأخير هو الأرجح لأن زريران كانت في أيام بنيامين على طريق القوافل بين بغداد والحلة . مر بها وأسهب في وصفها ابن جبير (رحلة ص١٦٩) وكانت هذه البلدة المرحلة الأولى من طريق الحج الكبرى التي كانت في تلك الأيام عند الكوفة قبل إيغالها في الصحراء. فكان المسافر من بغداد يمر بقرية صرصر بالقرب من مشهد سليمان الفارسي ثم يدخل زريران ومنها يصل قرية كانت تعرف بالفراش. وقد مر بها فتاحية حوالي سنة ١١٨٣ فحرفها بلفظة « فولاش » (رحلة ص٧٠) ومنها إلى قرية القنطرة فالحلة. وقد قطع ابن جبير هذه المسافة في ثلاثة أيام وهي المدة التي قضاها بنيامين بين بغداد وخرائب بابل. ورأي الأستاذ العزاوي يتفق مع المستشرق أوبرماير في أن جاهيجان محرفة عن زريران (Obermeyer, Land. Baby. 161)

(٢) عرف بهذا الاسم عدد من علماء التلمود في العراق منهم رابة بن حنة רבה בר חנה من الجيل الثاني للأمورائيم أساتذة التلمود. ومنهم رابه بن نحمني רבה בר נחמני (٢٧٠ – ٣٣٠م.) وآخرهم مار رابة الغاؤون מר רבה גאון رئيس مدرسة فومبديثة. ولا نعلم من منهم يقصده الرحالة.

خرائب بابل[١] *Babel* هي بابل الكبرى القديمة. لم يبق منها اليوم سوى الأطلال الدارسة. وتمتد هذه الخرائب إلى مسافة ثلاثين ميلا. ويشاهد فيها بقايا قصر بخت نصر. والناس تخاف الولوج فيه لكثرة ما به من عقارب وأفاعي. وفي بقعة تبعد نحو ميل واحد عن هذه الأطلال يقيم عشرون ألفاً من اليهود. ولديهم كنيس عتيق البنيان منسوب إلى النبي دانيال[٢] يؤمونه لإقامة الصلاة فيه، بناؤه من الحجر المتين المهذب والآجر. وفي بابل بقايا أتون النار الذي طرح فيه حننية وميشائيل وعزرية[٣]، على مقربة من قصر بخت نصر. وتسمى الأراضي المنبسطة التي حول بابل «بقعة دورة[٤]» وهي معروفة عند الجميع. وعلى بعد خمسة أميال منها :-

(١) هي بابل العظمى عاصمة حامورابي وكرسي إمبراطورية بخت نصر وسيدة الشرق القديم. كانت تدعى في أيام السومريين تنتيرة Tintira ومعناها روضة الحياة، وكا-دنجيره Ka-Dingira ومعناها باب الآلهة. ومن ثم سماها الساميون باب - أيلو. وتنص التوراة أن لفظة بابل בבל مشتقة من فعل בלל أي بلبل إشارة إلى تبلبل الألسنة فيها بعد بناء البرج المعروف ببرج بابل (تكوين ١١ :٩) وقد بلغت بابل أوج عظمتها في زمن بخت نصر الثاني ٥٦٢ق.م واستولى عليها كورش سنة ٥٣٨ ق.م. واتخذها الإسكندر عاصمة لإمبراطوريته الشرقية، ومن بعده لحق بها الخراب وأصبحت مجموعة من التلال عفا عليها الدهر. حتى كشفت عنها معاول النقابين والآثاريين في القرن الأخير.

(٢) عن كنيس النبي دانيال في بابل راجع (التلمود، عروبين : ٢١أ).

(٣) راجع الفصل الثالث من سفر النبي دانيال. ويقول الرحالة فتاحية إنه شاهد في موقع هذا الأتون بئراً فيها ماء يستحم به المصابون بالحمى طلباً للشفاء (رحلة ص٧٥).

(٤) السهل الذي نصب فيه بخت نصر صنمه (دانيال ٣ :١) ويظن المسيو أوبرت أنه سهل الدوير في الجنوب الشرقي من بابل.

الحلة[١] *Hilla* فيها نحو عشرة آلاف يهودي، عندهم أربع كنائس. أولاها كنيسة الرابي مئير وفيها قبره. والثانية كنيسة الرابي زعيري بار حامة وفيها قبره أيضاً[٢]. ويقيم اليهود فريضة الصلاة في هذه الكنائس كل يوم. ومنها على مسيرة أربعة أميال:—

برس نمرود[٣] *Burs Nimrod* أو برج التفرقة حيث بلبل الله

---

(١) كانت الحلة حتى القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) تسمى مدينة «الجامعين» – مثنى الجامع – وكان موقعها على الشاطيء الشرقي من نهر سورا. وفي سنة ٤٩٥هـ. (١١٠٢م) اختط سيف الدولة صدقة الأول بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي «حلة بني مزيد» على الشاطئ الغربي. وأصبح لجسرها أهمية كبيرة في طريق الحج. قال ابن جبير: «وألفينا بالحلة جسراً عظيماً معقوداً على مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط. تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد كالأذرع المفتولة عظماً وضخامة ترتبط إلى خشب مثبتة في كلا الشطين» (رحلة ابن جبير ص١٦٨ (Le Strange, L.E.K. 71-3

(٢) هذه الكنائس منسوبة إلى أربعة من رؤساء المثيبة في سورا. ويظهر أن قبورهم كانت معروفة في القرون الوسطى. إذ يذكرها كل من فتاحية (١١٨٣م) ويعقوب، رسول الرابي يحيئيل الباريسي (١٢٣٨–١٢٤٤م).

(٣) ظن بنيامين مثل غيره من قدماء الرحالين أن الأثر المعروف بالبرس أو البرز هو برج بابل الوارد ذكره في التوراة (تكوين: ١١:١ – ٩) والظاهر أن هذا الاعتقاد قديم جداً. فقد جاء في التلمود ما نصه عن بورسيف בורסיף: «قال الرابي يوحنان: إن هذا البرج (بابل) قد احترق ثلثه وساخ ثلثه في الأرض وبقي ثلثه الآخر قائماً. وقال الرابي أسي إن لفظة بورسيف مشتقة من בור שאפי» (سنهدرين ص١٥٩أ) وجاء في المدراش «أن موقع بورسيفه בורסיפה عند بابل» (براشيث ربة ٩:٣٨) ويقول ياقوت: «إن البرس موضع بأرض بابل به آثار لبخت نصر وتل مفرط العلو يسمى صرح البرس» ا.هـ وقد دل التحقيق الحديث أن هذا البرس، زقورة Ziggurat تدعى Entemen Anke ومعناها «بيت الحجر الأساسي للسماء والأرض» وكانت قائمة بمعبد مردوخ في بابل. وقد اكتشفت بجانب البرس بقايا معبد الإله نبو נבו رب الحكمة والآداب عند قدماء البابليين.

الألسنة. مشيد بالحجارة التي يسميها الناس هناك بالآجر. ويبلغ طول أساساته ميلين وعرضها مائتين وأربعين ذراعاً وارتفاعه مائة قصبة وبين كل عشرة أذرع صعوداً توجد طريق مفتولة تعرج بالصاعد إلى أعلى البناء. ومن قمته يمكن رؤية ما حوله إلى مسافة عشرين ميلا. لأن الأراضي المحيطة به منخفضة ومستوية. ويقال: إن صاعقة انقضت عليه من السماء فأحرقت أكثره. وعلى مسيرة نصف يوم منه:—

نفاحة[١] *Naphaha* فيها نحو مائتي يهودي. وفيها كنيس ر. إسحق نفاحة وحوله قبره. وهي على مسيرة ثلاثة فراسخ من:—

مرقد حزقيال[٢] *Ezekiel* على شاطئ الفرات. وهو بناء جسيم

---

(١) وردت هذه اللفظة في نسختنا «نفاح» נפח وفي نسخة المتحف البريطاني وردت في محلها لفظة كافري. لذلك اختلف المحققون في تعيين موقعها. ويقول إنوورث إنها محرفة عن «نفاطة» Nafata حيث منابع النفط والكبريت الكثيرة على الفرات بجوار هيت (Ains, Eu Exp. 1:443 ff.) وربما كانت الموقع المعروف باسم «عقلة نفاحة» على الفرات الأوسط Alois Musil., The Middle Euph. أما كافري فهي kaphri القديمة على الفرات، وإليها ينتسب غير واحد من علماء التلمود. وربما كانت «كافر» التي يقول ياقوت انها اسم علم لنهر الحيرة.

(٢) مرقد حزقيال أو «الكفل» من أهم وأقدس المزارات اليهودية في العراق. كان معروفاً منذ أقدم الأزمنة. ويظهر أن بناءه القديم كان على جانب عظيم من الفخامة، يصفه الرحالة فتاحية الذي زار العراق بعد بنيامين بنحو عشرين سنة بأنه «أجمل بناء تقع عليه العيون. جدرانه الداخلية موشاة بالذهب. وفوق القبر ضريح يرتفع نحو القامة مكسو بخشب الأرز المطعم بالذهب.... تعلوه قبة مذهبة مرصعة بالبلور تتدلى منها السجوف الجميلة. وتحت القبة ثلاثون قنديلا مرتبة بالزيت تضيء المقام ليلاً ونهاراً .... وللمقام النبي قوّام موكلون بالمحافظة عليه يبلغ عددهم المائتين. وهم يعيشون على النذور التي تتوارد من كل الجهات. ويصرف ما فاض عن الحاجة لإعالة

يحتوي على ستين صومعة، لكل منها برج . ويتوسط أكبر هذه الصوامع منبر، خلفه مرقد النبي حزقيال بن بوزي الكاهن، تعلوه قبة كبيرة هي آية في حسن الإنشاء. ويقال: إنها من بناء يكنية ملك يهوذا وثلاثين ألفاً من أتباعه بعدما سرحهم من الأسر الملك أويل مروداخ البابلي. ومرقد حزقيال على فرع من الفرات يدعى كيبار[1]. منقوش على حجارته اسم يكنية الملك وأتباعه وفي آخر الثبت اسم

طلاب العلم، وإعانة الأيامى وتزويج اليتيمات. » (رحلة: ٧١-٧٢) ويظهر أن هذا البناء لم يعمر طويلا بعد القرن الثاني عشر، إذ جدد عمارته أولجايتو خان محمد خدا بنده سلطان المغول (٧٠٤-٧١٣هـ. و١٣٠٤-١٣١٣م.) ويذكر المستوفي أن أولجايتو خان بنى فيه قبة ومنبراً (نزهة القلوب: ٣٢) وفي ترجمة لوسترنج استبدلت لفظة المنبر بالمنارة. وهذا أصح لأن المنارة لاتزال قائمة حتى اليوم. ويستدل من طرازها وطراز القبة التي فوق الضريح على أنهما من عهد المغول (راجع كذلك ما نقله الأستاذ العزاوي عن « عمدة الطالب » في كتابه تاريخ العراق بين احتلالين، ج١ : ٤٢٠) وعليه يكون القول بأن قبة ذي الكفل ومنارته من بناء البويهيين في غير محله. وفي العصور المتأخرة أضيفت إلى المرقد بنايات وغرف معدة لنزول الزوار في مواسم الزيارة . ويقول الرحالة نيبوهر Neibuhr الذي زار المرقد سنة ١٧٦٦م. إن أول من شيد هذه المباني يهودي من الكوفة يدعى سليمان. وفي أوائل القرن الماضي أضيفت بعض الأبنية من تركة المرحوم يعقوب صيمح أحد أثرياء يهود بغداد (نزهةالمشتاق : ١٩٩-٢٠٢) وتسهر على المرقد في هذه الأيام أسرة دانيال المعروفة في بغداد ولها فيه أوقاف. وبجوار مرقد النبي مدفن لآل دانيال فيه مثوى المرحومين صالح دانيال وولده مناحيم المحسن الشهير.

(١) هو نهر الهندية الحالي أحد فروع الفرات . كان يعرف قديماً باسم Nar Kabari أو النهر الكبير. وقد ورد هذا الاسم נהר כבר في نبوءة حزقيال (١ : ١) وأماكن أخرى.

حزقيال النبي. وهذا المقام يعظمه اليهود ويحجونه من أقاصي البلاد للتبرك به وإقامة الصلاة فيه.

ويحل موسم هذه الزيارة بين عيد رأس السنة وعيد الكفارة[1]. فتقام الأفراح والمهرجانات يحضرها من بغداد رأس الجالوت ورأس المثيبة، فتضطر الجموع الغفيرة إلى الإقامة في العراء، ويمتد مخيمهم إلى مسافة اثنين وعشرين ميلا. ويقيم الأعراب في هذا الموسم سوقاً عظيمة يبيعون فيها أنواع السلع من الحجاج.

وفي يوم عيد الكفارة تتلى فصول من أسفار موسى، من مخطوط كبير يقال إن حزقيال كتبه بيده. وفوق القبر قنديل يتقد ليلاً ونهاراً، يقال: إن النبي حزقيال كان أول من أشعله، وعليه قيِّم يتعهد تبديل الفتائل وتجديد الزيت كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

وتجاور المرقد دار من أوقاف النبي فيها خزانة كتب يقال: إن بعضها يرتقي تاريخه إلى عهد الهيكل الثاني. ومن جاري العادة، أن من يموت بلا عقب يقف كتبه على خزانة الدار هذه.

---

(١) هي الأيام العشرة الأولى من تشري في التقويم العبري. تقع في أواخر أيلول أو أوائل تشرين الثاني، ويسميها اليهود «أيام التوبة العشرة עשרה ימי תשובה» يحتفل في اليومين الأولين منها بعيد رأس السنة وفي اليوم العاشر بعيد الكفارة. ويؤيد الرحالة فتاحية حلول زيارة قبر حزقيال خلال هذه الأيام العشرة. أما في العصور الأخيرة إلى يومنا هذا فيكون موسم الزيارة في أوائل حزيران في عيد الأسابيع (العنصرة) الذي يسميه يهود العراق «عيد الزيارة» وفيه يزار مرقد العزير كذلك. ويبلغ عدد الزوار في بعض السنين بضعة آلاف.

وفي مقام النبي حزقيال طائفة من المجاورين[١]، مهمتهم العناية بالزوار القادمين من بلاد فارس ومادي ممن ينذرون حج قبر هذا النبي، فيكونون لهم أدلاء ومرشدين. ومن زوار هذا المرقد أيضاً جماعة من أتقياء المسلمين[٢]، يؤمونه لإقامة الصلاة فيه، له في قلوبهم حرمة كبيرة، ويسمونه بلغتهم «دار المليحة[٣]».

ولهذا المرقد أوقاف واسعة من العقار والضياع، يقال: إنها من تركة الملك يكنية. فلما تولى محمد (المقتفي[٤]) خليفة المسلمين على

(١) إن هؤلاء المجاورين لا يزالون يباشرون مهمتهم حتى يومنا هذا. ويعرفون بأهل اليشيبة (المثيبة) ولا يجوز أن يقل عددهم عن العشرة، يقضون أوقاتهم بتلاوة الكتب المقدسة بجوار المرقد، وينفق عليهم من أوقاف النبي.

(٢) يروي الرحالة فتاحية: «إن المسلمين يزورون مرقد حزقيال عند مرورهم به بطريقهم إلى حج مكة، وهي على مسيرة أربعين يوماً من المرقد، وهناك طريق أخرى إلى مكة يمكن قطعها في عشرة أيام لمن يعرفها (رحلة فتاحية: ٧١).

(٣) الأصح بر الملاحة أو بر ملاحة. قال ياقوت: «موضع في أرض بابل قرب حلة دبيس بن مزيد شرقي قرية يقال لها القوسنات. بها قبر باروخ أستاذ حزقيال وقبر يوسف الربان وقبر يوشع وليس يوشع بن نون وقبر عزرا وليس عزرا بناقل التوراة الكاتب. يزوره اليهود. وفيها أيضاً قبر حزقيال المعروف بذي الكفل يقصده اليهود من البلاد الشاسعة للزيارة».

(٤) الظاهر أن لفظة «المقتفي» أسقطها الناسخ من متن الرحلة سهواً. فالرحالة يقصد هنا الخليفة العباسي محمداً المقتفي لأمر الله (٥٣١-٥٥٥ / ٥٥٦هـ. و١١٣٦-١١٦٠م). ففي عهده تقلص حكم السلاجقة واستعادت الخلافة نفوذها السياسي. وكان المقتفي قد أرجع لليهود جميع حقوقهم ومراسيم رؤسائهم وأوقافهم أيضاً. (راجع حاشية ص١٣٦ من هذا الكتاب). ويؤيد ذلك ما أورده الرحالة فتاحية من أن الخليفة الذي كان على زمن رأس الجالوت سليمان بن حسداي والد رأس الجالوت دانيال كان قد أظهر عناية كبيرة بمرقد حزقيال (رحلة فتاحية ص٦٩ب).

البلاد، أيّدَ حق المرقد في هذه الأوقاف.

وعلى بعد نصف ميل من قبر حزقيال، قباب تحتها قبور حننية، ميشائيل وعزرية[١] وهذه الأبنية كلها محافظ عليها من اليهود والمسلمين. لا يمسها أحد بضرر حتى في أيام الحروب. وعلى مسيرة ثلاثة أيام من هنا:—

القوسنات[٢] *Kotsonat* فيها نحو ٣٠٠ يهودي. وبها قبور الصالحين الرّابيين بابة وهناء وسيناء ويوسف بار حامة. ولكل من هذه القبور كنيس تقام فيه الصلاة كل يوم. وهي تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن:—

عين شفاثة[٣] *Ain Sphata* قبر النبي ناحوم الألقوشي عليه السلام[٤] ومنها على مسيرة يوم:—

كفر الكرم[٥] *El-Karm* فيه قبور الرابيين حسداي وعقيبة ودوسة. وفي وسط الصحراء على مسيرة نصف يوم من هنا توجد قبور الرابيين

---

(١) راجع حاشية ٣ ص٣٠٦ من هذا الكتاب.

(٢) بلدة يعيِّن ياقوت موقعها غربي بر ملاحة (الكفل). والعلماء المدفونون فيها من كبار رؤساء المثيبة.

(٣) وردت هذه اللفظة في الأصل «عين شفته» وهي دون ريب شفاثة الحالية. وردت في تاج العروس شفاثي بفتح الثاء. كانت تسمى في زمن الفتح «عين التمر» وفيها نخل كثير تسقيه المياه الكبريتية الكثيرة في هذه القرية. (تاريخ البلدان العراقية لعبد الرزاق الحسني ص٦٧).

(٤) راجع حاشية ١ ص٢٨٩ من هذا الكتاب.

(٥) لم نتمكن من تعيين موقع هذه القرية بالضبط. وربما كانت عين التمر. والغالب؛ أن هذه المواقع مع ما فيها من قبور علماء التلمود كانت عامرة ومعروفة في القرن الثاني عشر. أما الآن فقد عفيت آثارها.

داود ويهوذا وأبايي وكردية وسحورة وإدة. وعلى مسيرة يوم:-

نهر ريجة[1] *Nahr Rega* فيه قبر صدقية ملك يهوذا[2] عليه السلام. فوقه قبة كبيرة . وعلى مسيرة يوم:-

الكوفة[3] *Kuffa* يقيم بها نحو سبعة آلاف يهودي. وفيها قبر يكنية ملك يهوذا حوله كنيس لليهود. وفيها أيضاً مسجد كبير للمسلمين، في رحبته مرقد الإمام علي بن أبي طالب صهر نبيهم

(١) هو نهر الملك القديم سماه بليني Narraga (Pliny, Hist. Nat. 6. 30)

(٢) هو آخر ملوك يهوذا. أسره بخت نصر وأعدمه (٥٨٦–٥٩٧ ق.م.).

(٣) الكوفة ، المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق . يسميها البعض «خد العذراء» مُصِّرتْ سنة ١٧ أو ١٨هـ. في أيام عمر بن الخطاب (رض) (ياقوت) . وكانت الكوفة حاضرة العراق في أيام خلافة الإمام علي بن أبي طالب (رض) وكانت في صدر الإسلام محط رجال العلم والفقهاء ورجال الحرب، وظلت محتفظة بشهرتها حتى القرن الثالث للهجرة . وكانت الكوفة كذلك من مراكز اليهود المهمة في العراق. أقام فيها عدد غفير من الجالية التي قدمت إليها من نواحي الحجاز وخيبر. وكانت لهم علاقة وثيقة مع المسلمين في القرن الثاني عشر. ويروى أن بعض أثرياء اليهود من بغداد ومنهم آل نطيرة בני נמירא كانوا يبعثون إلى الكوفة مقداراً من المال يوزع على العلويين وبني هاشم (راجع المقدمة على رسائل صموئيل بن علي ص٢٢) واشتهر من يهود الكوفة موسى بن إسرائيل الطبيب الكوفي. خدم أبا إسحق إبراهيم بن الهدي واختص بخدمته. ولد سنة ١٢٥ وتوفي سنة ٢٢٢هـ. وهرون جهذ بن شيرزاد (طبقات الأطباء ج١ : ١٦١ وتجارب الأمم لابن مسكويه ج٦ : ٨–٩)

محمد[١]، يحجونه للزيارة والتبرك. وعلى مسيرة نصف يوم منها:ـ

سورا *Sura* أو مثامحسية[٢] الواردة في التلمود. كانت في سالف عهدها مقر رأس الجالوت ورؤساء المثيبة. وفيها من قبور الصالحين قبر الغاؤون الرابي شريرا[٣] وولده الغاؤون الرابي هاي وقبر الغاؤون

---

(١) يقصد الرحالة مسجد الكوفة الشهير الذي خططه فاتح العراق سعد بن أبي وقاص في عام ١٧هـ (٦٣٨م) ولا تزال أطلاله قائمة إلى اليوم بظاهر ناحية الكوفة. أما قوله بأن فيه مرقد الإمام على بن أبي طالب فلا ينطبق على الواقع. فإنه وإن ذهب البعض إلى أن الإمام (رض) دفن في رحبة مسجد الكوفة، فإن إجماع الشيعة الإمامية بأن مرقد الإمام بالغري من نجف الكوفة لا يدع مجالاً للشك. فشيعة الإمام (رض) أعلم بمثواه الشريف. وحكاية اكتشافه في أيام هرون الرشيد معروفة. ولزيادة المعلومات راجع (معجم القبور. للعلامة السيد محمد مهدي الموسي الأصفهاني الكاظمي. طبعة بغداد، ص٢٦١ وما يليها).

(٢) سورا بلدة قديمة كان موقعها على شط الفرات الحالي وكان يعرف قديماً بنهر سورا. ويسميه ابن سرابيون بالصرات الأكبر. وقد أعاد حفره الحجاج بن يوسف. وكان عند سورا جسر شهير يعرف بقنطرة القاميغان. وكانت سورا من مدن الفرات التي نشأت فيها جماعات كبيرة من اليهود، تأسست فيها سنة ٢١٩م مدرسة كبرى أنجبت عدداً كبيراً من العلماء وكبار الأحبار، كانت فتاويهم الدينية ذات اعتبار عظيم عند الجاليات اليهودية في الشرق والغرب. وكان الجانب الثاني من سورا يدعى مثامحسية מתא מחסיא (راجع التلمود، عبوده زاره ٤٣ب وشبث ١١أ والفصل الملحق بذيل هذا الكتاب).

(٣) هو الغاؤون شريرا بن حنينه رأس المثيبة في فومبديثة. ولد سنة ٩٠٠م وتوفي في خلافة القادر سنة ١٠٠٠م. وخلفه ولده الغاؤون هاي آخر رؤساء المثيبة في فومبديثة وكانت وفاته سنة ١٠٣٤. وقد اشتهر هذان العالمان بالفقه والإفتاء (راجع البحث الخاص في ذيل هذا الكتاب).

سعدية[١] ور. صموئيل بن حفني الكاهن[٢] وصفنية بن كوشي بن النبي جدلية[٣] وقبور غيرهم من رؤساء الجالوت من آل الملك داود ورؤساء المثيبة الذين عاشوا فيها قبل خرابها. وعلى مسيرة يومين منها:—

شفياثيب[٤] *Shafjatib* هو الكنيس الذي جلب اليهود ترابه وحجارته من القدس. وبعد مسيرة خمسة أيام منها كانت العودة إلى الحلة حيث تجتمع القوافل المسافرة بطريق الصحراء إلى أرض اليمن.

---

(١) هو العلامة سعيد بن يوسف الفيومي رأس المثيبة في سورا. ولد في مصر سنة ٨٩٢م وتوفي في سورا سنة ٩٤٤م. وهو معدود بين كبار علماء اليهود وفلاسفتهم في القرون الوسطى. وبين مؤلفاته المعروفة القاموس المعروف ספר האגרון وترجمة عربية للتوراة وكتاب بالفلسفة عنوانه «الأمانات والاعتقادات» طبع في ليدن سنة ١٨٨٠م.

(٢) هو الغاؤون صموئيل بن حفني آخر رؤساء مثيبة سورا. توفى سنة ١٠٣٤م.

(٣) من أنبياء بني إسرائيل، كان معاصراً للنبي إرمية (٦٢٠–٦٠٩ ق.م.)

(٤) اسم كنيس ورد ذكره في التلمود בנישתא דישמיתיב (عبودة زارة ٤٣ ب) ويروي بعض المفسرين أن لفظتها مؤلفة من كلمتين بالآرامية שף ויתיב أي دمر وعمر، كناية على أنها عمرت بعد دمار بيت المقدس. وتروي الأساطير اليهودية أنهم نقلوا حجارتها وترابها من القدس. ويذكر الرحالة فتاحية أنه شاهد هذا الكنيس خراباً لم يبق منه واقفاً إلا بعض حيطانه (رحلة فتاحية ص٧٢). وكان هذا الكنيس حسب رواية التلمود في نهر دعة. ويرى الأستاذ يعقوب سركيس أن بنيامين زار قرية الشافية فظنها شفياثيب لتشابه اللفظتين. قال ياقوت: «الشافية من قرى واسط من ناحية نهر جعفر بين واسط والبصرة ويقال لها شيفية أيضاً».

وأرض اليمن[1] هذه، تمتد مسيرة واحد وعشرين يوماً عن شنعار (العراق) الكائن على تخومها الشمالية . وفي هذه الصحراء مضارب بني ركاب[2] من عشائر تيماء . وفي تيماء يقيم شيخهم وحاكمهم

---

(١) سبق أن بينا في مقدمة هذا الكتاب أننا نشك في كون بنيامين قد اخترق الجزيرة وبلغ الحجاز، وأن ما يرويه عن وجود قبائل يهودية في جزيرة العرب إن هو إلا صدى ما سمعه أو طالعه عن يهود قبل الإسلام، ومع أننا لا نستطيع أن نؤيد أو ننفي وجود بقايا من اليهود في الحجاز في القرن الثاني عشر للميلاد (السادس للهجرة) فإن بعض الرحالة في العصور المتأخرة يتحدثون عن بعض القبائل اليهودية أو من أصل يهودي في أنحاء الجزيرة، ويحدثنا دوتي الذي ارتاد الجزيرة سنة ١٨٧٥ عن قرية في نواحي خيبر أهلها مسلمون ظاهراً لكنهم في الحقيقة يهود متعصبون لا يخالطون غيرهم من القبائل المجاورة (C.M. Daughty, Arabia Deserta 129 ولزيادة الاطلاع راجع مادة Arabia في J.E.)

(٢) بنو ركاب أو الركابيون، قبيلة مديانية خالطت بني إسرائيل واقتبست عنهم معتقدهم وتوحيدهم . ورد ذكرها في أماكن عديدة من الكتاب المقدس רכבים בני רכב فكانت تنتسب إلى جدها الأكبر يونداب بن ركاب (٢ ملوك ١٠ :١٥) لكن أفراد هذه القبيلة لم يندمجوا ببني إسرائيل بل ظلوا محتفظين بتقاليد خاصة وتعاليم ورثوها عن أجدادهم. فكانواعلى ما وصفهم النبي إرمية، : لا يبنون بيتاً ولا يزرعون زرعاً ولا يغرسون كرماً ولا يشربون خمراً أو مسكراً وكانوا يسكنون في الخيام . (إرمية ٣٥ :٢ – ١٩) . جاء عنهم في قاموس الكتاب المقدس ما يأتي : ويروى عن حالتهم الحاضرة بعض أخبار مفيدة للغاية. فإنهم لا يزالون يقطنون في بلاد جبلية في المنطقة الحارة إلى الشمال الشرقي من المدينة، ويعرفون ببني خيبر وأرضهم تدعى خيبر. وليس لهم علاقات مع إخوتهم اليهود المشتتين في آسية ، بل يعتبرونهم إخوة كاذبين لأنهم لا يحافظون على الشريعة. ولا يمكنهم أن يرافقوا القوافل لأن ديانتهم لا تسمح لهم بالسفر يوم السبت مع أن بلادهم محاطة بالصحاري حتى يكاد لا يمكن الدخول إليها أو الخروج منها إلا مع القوافل. ولا يعلم تماماً إذا كان هؤلاء=

الكبير حنان. وهي صقع واسع الأرجاء، امتداده مسيرة ستة عشر يوماً بين الجبال الشمالية. وفيها القلاع الكبيرة الحصينة التي لا تخضع لأية سيطرة أجنبية . وأهلها يخرجون مع جيرانهم وأحلافهم من أبناء العرب للغزو والكسب في الأماكن البعيدة. وهؤلاء الأعراب يعيشون عيشة بدوية، يبيتون في الخيام ، لا يعرفون بناء البيوت ، دأبهم الغزو في أراضي اليمن.

واليهود هنا مرهوبو الجانب من جيرانهم ، لديهم الأراضي الواسعة. فيشتغل البعض منهم بالزراعة والبعض الآخر يرعى الماشية. ولرؤسائهم عليهم ضريبة الأعشار، يؤدونها للقيام بأود علمائهم الساهرين على مدارسهم وفقرائهم ونساكهم المعروفين بالبكائين[١] . وهؤلاء يعيشون حياة كلها تقشف وزهد. لا يذوقون لحماً ولا يشربون خمراً. لباسهم السواد ومأواهم الأكواخ والكهوف. يقضون جل أوقاتهم صياماً باستثناء أيام السبوت والأعياد. وهم دوماً عاكفون على إقامة الصلوات من أجل إخوانهم اليهود المشتتين في أنحاء المعمورة.

وحاضرة هذه البلاد « تناجم »(؟) حولها نحو أربعين مدينة ومائتي قرية ومائة ضيعة يقيم بها نحو ٣٠٠ ألف يهودي! وهي بلدة حصينة تبلغ مساحتها خمسة عشر ميلا بالطول ومثلها بالعرض. تتوسطها

=الأشخاص هم الركابيون أم شيعة من اليهود المحافظين على الشريعة » أ.هـ. ويروي الرحالة ولف Wolffأنه يقدر عدد الركابيين بجوار مكة بنحو ٦٠٠٠٠ نسمة (راجع مادة Rechabites في .J.E)

(١) راجع حاشية ٢ من ص ٣٠٥ في هذا الكتاب.

الحقول والمزارع وقصر الرئيس سليمان(؟) ومن هذه المدن أيضاً تلماس(؟) البلد الكبير حيث يقيم مائة ألف يهودي! ويشرف على البلدة جبلان شاهقان ، وفيها الحكماء وذوو اليسار. وهي تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن خيبر.

وفي خيبر تقيم جماعة من اليهود يقال: إنها من بقايا أسباط رأوبين وجاد ومنشة ، الذين أجلاهم سلمناصر ملك أشور، فهاجروا إلى هذا الصقع وشيدوا فيه المدن والقلاع. وهم في حرب دائمة مع جيرانهم، يعتصمون وراء الصحراء المترامية التي تبلغ مسيرتها ثمانية عشر يوماً، مما يجعلهم بعيدين عن متناول من يقصدهم من الأعداء. وخيبر مدينة كبيرة آهلة بنحو خمسين ألفاً! من اليهود، بينهم العلماء. وهم في إغارة مستمرة على شنعار (العراق) وأراضي الشمال وبلاد اليمن التي تبدأ عندها بلاد الهند[1]. ومنها على مسيرة خمسة وعشرين يوماً ، نهر فيرا(؟) الذي في أرض اليمن، حيث يقيم نحو ٣٠٠٠ يهودي وعلى مسيرة سبعة أيام منها :-

واسط[2] *Wasit* فيها نحو عشرة آلاف

(١) هذا القول يؤيده جغرافيو القرون الوسطى الذين كانوا يسمون جزيرة العرب وبلاد الحبشة «الهند الوسطى Middle India» . (راجع دائرة المعارف البريطانية ، مادة Arabia).

(٢) هي واسط الحجاج بن يوسف الثقفي . شرع ببنائها على مجرى دجلة القديم (الغراف الحالي) سنة ٨٤هـ. (٧٠٣م.) في خلافة عبد الملك بن مروان وفرغ منها سنة ٨٧هـ. قيل: إنها سميت بواسط لتوسطها بين البصرة والكوفة. وسمتها الأعراب في العصور المتأخرة بالمنارة . كان يهودها في أيام رحلة بنيامين يتبعون مثيبة سورا =

يهــــودي[١]، بينهــم القــاضي ر. نيـدان وعلى مـسيـرة خـمـسـة أيام منها:-

البـصـرة[٢] *Basra* موقـعهـا على شط دجلة[٣] . وفـيـهـا نحو عشرة آلاف يهـودي[٤] بينهـم العلمـاء والعظمـاء . وهـي تبـعـد مـسيـرة يومين عن:-

---

= ويؤدون لعلمـائهـا إتاوة سنوية قدرها ١٥٠ ديناراً. زارها يهـوذا الحريزي صاحب المقامات في حدود سنة ١٢١٧م. وسماها תיכונה أي المتوسطة (المقامة ٤٦) راجع كذلك (رسائل صموئيل بن علي ص٢١).

(١) في نسخة آشر ألفان.

(٢) البصرة من المدن الشهيرة في تاريخ العرب والمسلمين. موقعها اليوم ٣٨ ميلا جنوبي القرنة و٧٠ ميلا شمالي الفاو، وتبعد عن بغداد نحو ٣٠٠ ميل إلى الجنوب على خط مستقيم. يروي المسعودي أن بانيها عتبة بن غزوان بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) سنة ١٤ أو ١٦هـ. (٦٣٧م.) وكان موقعها القديم يدعى الخريبة قرب موقع يعرف بالأبلّة (بتشديد اللام). وكانت في عز أيامها بلد العلماء والفقهاء وفيها اجتمع إخوان الصفا وألفوا رسائلهم المشهورة فضلاً عن شهرتها التجارية الواسعة. كتب فيها عدد كبير من الرحالة الأوربيين في العصور المتأخرة، وحرفوا اسمها تحريفاً كثيراً. ومن أسمائها عندهم bassora , Busrah, Bura, Bulsorah, Busra . وهي اليوم ثغر العراق ومفتاحه البحري الكبير.

(٣) يعني شط العرب . وكان قديما يُعرف بدجلة العوراء. ورد ذكره في التلمود فرات ميسان פרת מישן (التلمود . يوما : ١٠أ)

(٤) أقام اليهود في البصرة منذ أول تأسيسها تقريباً. وأشهر من انتسب إليها منهم الطبيب مرجويه (٨٨٣م) والطبيب إسحق بن إبراهيم البصري اللاوي (القرن الثالث عشر) وماشاء الله الفلكي البصري (٧٠٠-٨٢٠م) والقرائي يفث بن سعيد (١١٦٠-١٢٠٠م) وغيرهم.

نهر سمره(١) *Samra* المتاخمة لبلاد العجم. يقيم بها نحو ألف وخمسمائة يهودي. وعندها قبر عزرا الكاهن الكاتب (ع) توفي فيها في أثناء قدومه من القدس لمقابلة الملك أرتحشستة(٢) . وعند قبره كنيس كبير لليهود وجامع للمسلمين. وهؤلاء يجلّون المقام ويؤمونه لإقامة الصلاة فيه. وهم واليهود على صفاء وولاء . وعلى مسيرة أربعة

---

(١) قال ياقوت : «سمرة قرية فيها قبر العزير النبي (ع) في أرض ميسان» أ.هـ. وقال الحريزي صاحب المقامات إن قبر عزرا الكاتب في موقع يدعى سمدا (كذا) (المقامة ٣٥) ومن المهم ذكره أن يوسيفوس يُعيِّن مرقد العزير في أورشليم (J.F., Ant., XI. 5.5) وفي رواية أخرى أن قبره في موقع من جنوب العراق يدعى زمزومو Zamzumu (BudgeN&T.I.171) ويذكر ياقوت في موضع آخر من معجمه أن قبر العزير مدفون في قرية عورتا من أعمال نابلس ولكن التقاليد اليهودية القديمة والحديثة تعيِّن قبر العزير في موقعه الحالي المعروف. وللرحالة فتاحية الذي زار هذا المرقد قرابة سنة ١١٨٠م وصف مسهب لهذا الضريح (رحلة ص٧٣) ومن غريب ما يرويه هذا الرائد في آخر رحلته «إن في بصرة بابل (كذا) قبر عزرا الكاتب ابن الرابي حنينة البغدادي חנינא בגרדאה» (ص٧٩) . فإذا صدقنا هذا القول يكون المرقد المعروف الآن بالعزير لغير عزرا بن سراية الكاتب كما هو مشهور. ويقول المستر ريج الذي زار هذا المرقد سنة ١٨٠٨ م : إن القبة التي عليه من بناء المثري اليهودي البصري الخواجا يعقوب هرون الذي اشتهر أمره في حصار كريم خان للبصرة سنة ١١٨٩هـ. (١٧٧٥/١٧٧٦م) ثم أصبح صيرفياً لسليمان باشا والي بغداد (Rich. Resid. In Kurdist., II. 389) وقد أطلعنا الأستاذ عباس العزاوي على وثيقة في كتابه «سبعة وزراء» (لا يزال مخطوطاً) فحواها أن باني تربة العزير الحالية هو الوزير أحمد باشا بن حسن باشا فاتح همذان أيام رجوعه من غزوة بني لام سنة ١١٥١هـ. أي قبل سليمان باشا بنحو أربعين سنة.

(٢) هو Artaxerxes II Longimanus ملك الفرس (٤٦٥–٤٢٥ ق.م) راجع (سفر عزرا ٤ :٧ ونحميه ٢ :١)

أيام منها :-

خوزستان[١] *Chuzistan* أو عيلام الواردة في التوراة. وهي كورة كبيرة لكن أكثرها خراب غير مأهول. وتتوسط هذه الخرائب قلعة شوشان[٢] . فيها بقايا قصر أحشويروش[٣]، وهو بناء قديم على جانب كبير من الفخامة والرونق. ويخترق المدينة نهر «أولاي» أحد روافد

---

(١) يطلق اسم خوزستان على الإقليم الواقع شرقي شط العرب، أي حوض الكارون والكرخة. وهو من أقدم الأقطار الفارسية تاريخاً وعمراناً. كان اليونان يسمونه Susianae . أما في التوراة (تك ١٤ : ١) فيعرف بعيلام. وكانت عيلام دولة ذات سيادة يقطنها شعب سامي (العيلاميون) في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد. ويعرف هذا القطر اليوم بالأهواز وعربستان (Le Strange , L.E.K. 232-247)

(٢) هي بلدة شوش القديمة Susa الواقعة أطلالها بين أعلى نهر الكارون والكرخة، على بعد ٣٠ ميلا غربي شوشتر (تستر) . كشفت الحفريات الحديثة عندها عن آثار قصر عظيم لداريوس، وهو القصر الذي احتفل فيه بزواج الإسكندر الكبير سنة ٣٢٤ ق.م. وفي شوشان جرت حوادث أستير وهامان المشهورة (راجع سفر استير في الكتاب المقدس) والمعتقد أن نهر أهوا אהוא الوارد في التوراة (سفر عزرا ٨ : ١٥ و٢١ و٣١) .يقصد به نهر الأهواز

(٣) هو الملك سرخس Xerxes الفارسي (٤٨٥-٤٦٥ ق.م.) كان من أعاظم ملوك الفرس، امتد حكمه على قول الكتاب المقدس من الهند شرقا وإلى بلاد الحبش غرباً (سفر أستير، ١ : ١ و١٠ : ١) اشتهر بحروبه ضد اليونان وانكسار أسطوله العظيم في معركة سيلاميس البحرية سنة ٤٨٠ ق.م.
(Rewi Hist. Of Herodotus, VII , J.F., Ant,. XI. V. L . C.D.)

حدقل (دجلة[١]) فيشطرها إلى شطرين يوصل بينهما جسر وفيها نحو سبعة آلاف يهودي. عندهم أربعة عشر كنيساً . في أحدها قبر النبي دانيال[٢] (ع).

ولقبر دانيال هذا حكاية طريفة. ذلك أن اليهود يقيمون بالجانب المعمور من المدينة حيث الأسواق والمتاجر وبيوت الموسرين. أما الجانب الثاني فيسكن فيه الفقراء الذين لا أسواق لهم ولا متاجر ولا رياض أو بساتين. فدفعهم الحسد إلى الاعتقاد بأن هذه الرفاهة التي تعم أهل الجانب الأول إنما جاءتهم ببركة النبي دانيال، وعندهم قبره. لذلك طالبوا بإلحاح أن ينقل مثوى النبي إلى جانبهم. فكان أن أبى أهل الجانب الأول تلبية هذا الطلب فنشبت بين رجال الفريقين فتن ومشاحنات دامت أمداً طويلاً، حتى أدركهم الملل، فاصطلحوا على أن يبقى ناووس النبي دانيال سنة حولية عند كل من الجانبين على التوالي.

وبقيت الحال على هذا المنوال حتى تغلب عليهم سنجرشاه بن

---

(١) هو النهر المعروف اليوم بالكارون. مصبه في شط العرب بالقرب من خرمشهر (المحمرة) كان العرب يسمونه « دجيل الأهواز » ويقال : إن لفظة كارون محرفة عن كوه رنك. وورد في التوراة باسم أولاي אולי (سفر دانيال ، ٨ : ٢ – ١٦) وسماه اليونان Eulaeus . إما الكرخة فمكان يعرف باسم Choaspes (Le Strange, L.E.K. 245-7)

(٢) يذكر الآثاري الشهير لايارد أنه شاهد قبر دانيال بين شوشتر ودزفول (Layard, Early Adventures II 295)

(ملك) شاه[1] الملك العظيم الذي كان يحكم خمساً وأربعين إمارة ، المعروف عند العرب بسلطان الفرس الكبير ومسيرة سلطنته أربعة أشهر وأربعة أيام، من شواطئ نهر سمرة إلى سمرقند ونهر غوزان[2] ونيسابور وبلاد مادي وجبال خفتون[3] وأراضي التبت ذات الغابات التي يكثر فيها غزال المسك.

فلما دخل هذا الإمبراطور سنجر ملك العجم مدينة شوشان. وشاهد كيف يتبادل أهلها نقل ناووس النبي دانيال عبر الجسر ويمشي خلفه خلق غفير من اليهود والمسلمين؛ قال لهم: إنه لا يليق بكرامة النبي مثل هذا العمل المزري. فأمر بأن يذرع النهر من كلا الجانبين بالتساوي، وأن توضع رفاة النبي في ناووس من زجاج، يعلق في منتصف الجسر بسلاسل من حديد ، وأن يقام فوق الموضع الذي كان النبي مدفوناً فيه، مصلى يؤمه من يشاء من يهود وغيرهم لإقامة فريضة الصلاة. وأمر كذلك بأن يحظر صيد السمك على بعد ميل من كلا طرفي الناووس إكراما للنبي. وهكذا يشاهد نعش النبي دانيال (ع) معلقاً

---

(١) هو السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي. ولي الحكم على خراسان سنة ٤٨٦هـ (١١٤٠م) واندحر في موقعته مع قبائل الغز سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) وكانت وفاته سنة ٥٥٢هـ. (١١٥٧م.). والظاهر أن لفظة «ملك» سقطت بالنسخ من متن الرحلة. (راجع المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ج٣ : ٢٨-٣٠)

(٢) قزيل أوزون. ويعرف الآن بسفيدرود (راجع الحاشية ٣ ص١٢٥ من هذا الكتاب).

(٣) جبل بنواحي الموصل . (ياقوت).

حتى اليوم[١]. وعلى مسيرة ثلاثة أيام من هنا:-

رودبار[٢] *Rudbar* يقيم بها نحو عشرين ألف يهودي[٣]. بينهم عدد من العلماء والموسرين وعلى مسيرة يومين منها:-

نهاوند[٤] *Nihavand* البلدة التي تقع عندها:

---

(١) يذكر فتاحية في رحلته (١١٨٠م) أنه شاهد ناووس النبي دانيال معلقاً فوق جسر شوشان. ويسرد في ذلك قصة شبيهة بما أورده بنيامين. ويقول: إن الناووس مصنوع من نحاس له بريق الزجاج وإنه معلق على ارتفاع عشرة أذرع عن الماء. وقد روى له اليهود أن كل سفينة تمر من هناك تغرق إذا كان ركابها من الأشرار وتمر بسلام إذا كانوا من الصالحين. لذلك يجتنب أصحاب السفن المرور من تحته. وفي الماء الذي تحت الناووس نوع من السمك في خياشيمه خزام من ذهب (رحلة فتاحية ص٧٣ب) وهناك رواية مفادها أن تيمورلنك الفاتح المغولي شاهد الناووس عند استيلائه على بلدة شوش (١٣٩٣م) وقرأ الكتابة التي عليه. فأمر بأن ينقل الناووس إلى سمرقند كرسي مملكته.

(٢) بلدة في منتصف الطريق بين همذان ونهاوند، كانت مشهورة بتصدير الزعفران (ياقوت) ويسميها المستوفي في نزهة القلوب« رودارود »(Le Strange, L.E.K. 173)

(٣) من الثابت تاريخاً أن اليهود كانوا في القرون الوسطى وفيري العدد في بلاد العجم، ويقول المقدسي في القرن الرابع للهجرة: «إن بخراسان يهوداً كثيرين ونصارى قليلين. وإن في الجبل (كوهستان) يهوداً أكثر من النصارى (ص٣٢٣ و٣٩٤). ويقال: إن اليهود كانوا يؤلفون أكثر من ثمن السكان (متز، الحضارة الإسلامية ج١: ٦٢، ٦٣). ومع ذلك يجب أن نتلقى بتحفظ التعداد الذي يورده بنيامين في المدن التي زارها من إيران.

(٤) بلدة تبعد أربعين ميلا عن همذان. كان لها شهرة كبيرة في وقائع الحشاشين. قيل: إن لفظتها محرفة عن نوح آوند. فتحها العرب سنة ١٩هـ. وسميت في أيام حكمهم «ماه البصرة» لأن خراجها كان يعود إلى البصرة (Le Strange. L.E.K. 197) وممن انتسب إلى نهاوند من اليهود بنيامين النهاوندي العالم القرائي الفيلسوف من القرن التاسع (GR., III. 211)

أرض الملاحـدة(١) التي تسكنهـا طائفـة لا تؤمن بدين الإسـلام. يعتصم أتباعها بالجبال المنيعة ويطيعون « شيخ الحشاشين » ويقيم بين ظهرانيهم نحو أربعة آلاف يهودي، يسكنون الجبال مثلهم ويرافقونهم في غـزواتهم وحـروبهم. وهم أشـداء، لا يقـدر أحـد على قتـالهم. وبينهم العلماء التابعون لنفوذ رأس الجالوت ببغداد. وهذه الأراضي تبعد مسيرة خمسة أيام عن:-

العمادية(٢) *Emadia* يقيم بها نحو خمسة وعشرين ألف يهودي. وهم جماعات منتشرة في أكثر من مائة موقع من جبال خفتيان(٣) عند تخوم بلاد مادي. ويهودها من بقايا الجالية الأولى التي أسرها شلمناصر

---

(١) هي المواقع التي يعرفهـا الأوروبيـون بوادي الحشـاشين The Valley Of Assassins وهم الإسماعيلية من أتباع الحسن بن الصباح. استفحل أمرهم في القرنين السادس والسابع للهجرة، حتى استأصل شأفتهم هولاكو المغولي فهاجر فريق منهم إلى الهند.

(٢) قلعة قديمة شهيرة في شمالي العراق تبعد نحو ١٦٨ كيلومتراً عن الموصل. كانت في العصر الآشوري تسمى أمات Amat. ويروي ياقوت أنها كانت حصناً للأكراد يدعى « آشب » وبعد خرابه عمّره عماد الدين زنكي بن آق سنقر وسماه باسمه. أما المستوفي فينسب بناءها إلى عماد الدولة الديلمي من القرن الرابع للهجرة (نزهة القلوب، طبعة لوسترنج ص١٠٥) وهو قول يخالفه جميع جغرافيي العرب.

(٣) خفتيان، حبتون خفتون أو هفتون، من جبال كردستان. جاء في معجم البلدان لياقوت: « حبتون جبل بنواحي الموصل. وهفتون بليدة من نواحي أربل تنزلها القوافل لمن يريد أذربيجان. وخفتيان قلعتان عظيمتان من أعمال أربل. إحداهما على طريق مراغة يقال لها: خفتيان الزرزاري والأخرى خفتيان سرخاب بن بدر. ويكتب في الكتب خفتيد كان. » ا.هـ. وقد وردت في رسائل صموئيل بن علي رأس مثيبة بغداد باسم خفتيد كان زرزان בפתירגאן זרזאן (رسائل ص٢٢)

ملك آشور ويتفاهمون بلسان الترجوم[١] ، وبينهم عدد من كبار العلماء.

والعمادية على مسيرة يوم من تخوم بلاد العجم. يؤدي يهودها الجزية للمسلمين شأن سائر اليهود المقيمين في الديار الإسلامية، وقدرها دينار أميري ذهباً[٢]، أو ما يعادل مرابطياً وثلث مرابطي[٣] ذهباً لمن بلغ منهم الخامسة عشرة من عمره.

وقبل عشر سنوات قامت في العمادية فتنة داود بن الروحي. وكان هذا قد تلقى العلم في بغداد عن حسداي رأس الجالوت وعن علي رأس مثيبة «غاؤون يعقوب». فتضلع بالتوراة والفقه والتلمود وسائر العلوم وبرع بلغة المسلمين وآدابهم ونبغ بفنون السحر والشعوذة.

---

(١) يقصد اللغة الآرامية الشرقية التي ما زال يهود كردستان يتفاهمون بها حتى اليوم.

(٢) يروي فتاحية أن يهود الموصل كانوا يدفعون جزية سنوية قدرها دينار ذهباً عن كل فرد. نصفه للسلطان والنصف الثاني لمرتبات رؤساء اليهود. (رحلة ص٦٥ب).

(٣) المرابطي Maravede عملة إسبانية كان المرابطون أول من ضربها. والمرابطي الذهب يعادل ١٤ شلناً بالعملة الإنكليزية . والمرابطي النحاس يساوي فلسين بالعملة العراقية.

فدخل في روعه أن يعلن العصيان على ملك العجم[١]، ويجمع حوله اليهود القاطنين في جبال حبتون ومقاتلة النصارى المتمكنين من أورشليم والاستيلاء عليها وطردهم منها. فشرع ينشر دعوته بين اليهود ويدعم دعوته بالبراهين الباطلة، كأن يقول لهم: «إن الله قيضني لفتح القدس وإنقاذكم من نير الاستعباد» فآمنت به جماعة من بسطاء اليهود وحسبوه المسيح المنتظر.

فلما استفحل أمره وطرق حديثه أسماع سلطان العجم، أرسل بطلب داود فمثل بين يديه من غير خوف أو وجل. فسأله السلطان:

– أمن الصحيح أنك ملك اليهود؟

---

(١) إن المصدر العربي الوحيد عن هذه الفتنة، حسبما نعلم، هو كتاب «بذل المجهود في إفحام اليهود» لصموئيل بن يحيى بن عباس المغربي الذي اعتنق الإسلام ببغداد سنة ٥٥٨هـ. (١١٦٢م.) أما المصادر اليهودية فكلها تستند في روايتها الحادث إلى رحلة بنيامين. وتختلف هذه المصادر في اسم بطل الفتنة. فبنيامين يسميه داود الروئي דוד דואי׳ ويقول ابن ويرغة في «سبط يهوذا» إنه «داود الداود» وفي (سلسلة التواريخ) لابن يحيى إنه «داود المنصور». وفي رواية أن لفظة «الروئي» محرفة عن «الرازي» نسبة إلى الري البلدة الفارسية المعروفة. أما صاحب «بذل المجهود» فيسميه مناحيم بن سليمان ويعرف بابن الروحي. والغالب أن اسم مناحيم مختلق، أطلقه هذا المسيح الدجال على نفسه لأن التقاليد اليهودية تقول: إن المسيح المنتظر يحمل اسم مناحيم أي «المعزي». وعليه يمكن البت أن الاسم الكامل لبطل هذه الفتنة «داود مناحيم بن سليمان بن الروحي.» (راجع تعليقنا عن تفاصيل هذه الفتنة في الفصل الملحق بذيل هذا الكتاب).

ويغلب على الظن أن هذه الفتنة حدثت في عهد قطب الدين مودود صاحب الموصل سنة ٥٥٦هـ ١١٦٠هـ. في خلافة المقتفي لأمر الله العباسي.

قال : نعم!

فأمر السلطان في الحال بالقبض على داود وزجه في السجن الكبير في طبرستان، المدينة الواقعة على شاطئ نهر قيزيل أوزون، ليرسف في أعماقه مدى الحياة. وبعد ثلاثة أيام كان السلطان يعقد مجلساً مع خواصه للنظر في قضية اليهود من أتباع داود، الذين شقوا عليه عصا الطاعة. فإذا داود يظهر فجأة في بلاط السلطان، وهو طليق من الأغلال والقيود. فكانت دهشة الجميع عظيمة. فسأله السلطان :

– كيف شخصت إلى هنا، ومن هو الذي أطلق سراحك؟

فأجابه داود :

– حكمتي ودهائي وحدهما. وأنا في الحقيقة لست أخافك، ولا أخشى وزراءك . فأمر السلطان حراسه بأن يقبضوا على داود. لكن هؤلاء كانوا يسمعون صوته ولا يرون شخصه. فهال السلطان هذا الأمر. وسمع صوت داود يقول :

– إنني الآن ذاهب في طريقي.

فشاهده الجميع وهو يبارح المكان. وتبعه السلطان وجنده ووزراؤه، حتى أشرفوا على شاطئ النهر. فرأوا داود ينشر طيلسانه فوق الماء ويعبر عليه إلى الجانب الآخر. فأمر السلطان جنده بأن يلحقوا به، وركبوا الزوارق وعبروا إلى الشاطئ الثاني. وشرعوا يبحثون عن داود دون جدوى. فعلموا أن الرجل ساحر يندر نظيره.

أما داود فإنه تمتم ببعض التعاويذ ونطق باسم الله الخفي[1]، فقطع بيوم واحد ما مسيرته عشرة أيام. فبلغ العمادية وقص على أتباعه ما حدث له، فأخذتهم الرهبة والدهشة من أمره. وبعد ذلك كتب سلطان العجم إلى أمير المؤمنين خليفة بغداد، يعلمه بما كان من أمر داود، ويسأله أن يوسط رأس الجالوت ورؤساء المثيبة ببغداد، لكي يؤثروا بنفوذهم على داود بن الروحي، فيكف عن أعماله وتمرده، وإلا فإنه سيأمر بالانتقام من جميع اليهود الموجودين في مملكته، ويفنيهم عن آخرهم.

وقد أصاب اليهود في بلاد العجم من جراء ذلك عسر شديد، فكتبوا من جانبهم إلى رأس الجالوت ورؤساء المثيبة ببغداد يستحثونهم لإنقاذهم من الهلاك المحقق، بأن يرشدوا داود إلى طريق الصواب، فيحقنوا الدماء البريئة.

وللحال حرر رأس الجالوت ورؤساء المثيبة كتاباً إلى داود، بينوا فيه خطله وأظهروا بهتانه. وختموا كتابهم بالعبارات التالية:

«ليكن معلوماً لديك أن موعد ظهور المسيح لم يحن بعد، وليس لدينا البراهين عن قرب ظهوره. وهذا أمر لا يأتي بالعنف ولا يتم بشق عصا الطاعة. وإنا لمطالبوك بالكف عما أنت فيه، وإلا حرمناك من جماعة بني إسرائيل».

---

(١) هو ما يسميه المتصوفة «شيم همفوراش שםהמפורש» . وعندهم أن هذا الاسم لا يطلع عليه إلا القلائل من المتوغلين في أسرار اللاهوت، وأن التلفظ به يمنح المرء قوة خارقة كالاختفاء عن الأنظار وقطع المسافات البعيدة بدقائق معدودة.

وأرسلت نسخة من هذا الكتاب إلى الرئيس زكاي ويوسف الفلكي الملقب ببرهان الفلك في الموصل[١]، لكي يبعثا بمثل فحواه إلى داود بن الروحي. فصدع رئيس الموصل وبرهان الفلك بالأمر، فوجّها إلى داود برسالة كلها إقناع ووعيد. لكنه لم يعدل عن زيغه وأباطيله.

فلما ولي الحكم زين الدين[٢] أمير التوغرمين (السلاجقة) وهو من أتباع ملك العجم دبر مكيدة للقضاء على داود بن الروحي. فأرسل بطلب حميه ومنحه عشرة آلاف دينار إن هو أجهز على صهره داود. فدخل عليه الرجل. وهو يغط بالنوم في فراشه، وذبحه وهكذا انتهى أمره وتخلص اليهود من شره.

لكن ملك العجم ظل ناقماً على اليهود المقيمين في مملكته. فكتب هؤلاء إلى رأس الجالوت يطلبون وساطته من أجلهم لدى ملك العجم، لما له من حظوة ومقام. فأرسل رأس الجالوت يترضى ملك العجم، وقدم له مبلغاً جسيما قدره مائة ألف دينار ذهباً، فأصدر الملك أمره بالعفو واستراحت البلاد[٣]. ومن جبل العمادية يقطع المسافر مسيرة عشرة أيام شرقاً إلى :-

---

(١) راجع ص١٢٧ من هذا الكتاب.

(٢) هو الأمير زين الدين علي بن بكتكين التركماني. ولي العمادية وما جاورها سنة ٥٣٩هـ. (١١٤٤م.) وتوفي سنة ٥٦٣ هـ - ١١٦٧م. راجع (الكامل لابن الأثير (ج٩: ٢١٨ في حوادث سنة ٥٦٣هـ.)

(٣) في رواية أن قسماً من يهود أذربيجان بقوا على اعتقادهم بهذا الدجال حتى بعد هلاكه، فصاروا يعرفون بالمناحمية Menahemids (GR., IV. 310)

همذان[1] *Ecbatana* هي مادي المدينة الكبرى الواردة في التوراة. فيها نحو خمسين ألف يهودي. وفي كنيستها قبر مردخاي وأستير[2] وعلى مسيرة أربعة أيام منها:-

طبرستان[3] *Tabaristan* الواقعة على شاطئ نهر غوزان

---

(١) همذان عاصمة ميدية الجنوبية القديمة. كانت تسمى Hangmatana, Ecbatana, Agbatans, Achmetha يقال : إنها تاسست سنة ٧٠٠ق.م. وكانت مصيفاً لملوك الماديين والبرثيين. وردت في التوراة أحمثا אחמתא (سفر عزرا ٦ :٢) . ويروي ابن حوقل (القرن الرابع للهجرة) أنها مدينة كبيرة ذات أربعة أبواب وسماها بعض العرب قلعة سروق ابن الفقيه. (ياقوت).

(٢) في همذان قبة قديمة لا تزال اليوم قائمة، تحتها ضريحان تقول التقاليد اليهودية إنهما لمردخاي وابنة عمه الملكة أستير.

أما ضريح أستير فمن خشب الصندل المنقوش ، عليه كتابة عبرية بالخط الآشوري المربع هذا نصها: «أمرت بإنشاء هذا الضريح السيدة الفاضلة جمال، أم العالمين الرئيسين الطيبين جمال الدولة حزقية وجمال الدولة يشوعة». ويشير تاريخ إنشائه إلى سنة ١٢٩١م. أي في حكم أرغون خان المغولي ووزيره سعد الدولة اليهودي.

وأما ضريح مردخاي فمن خشب الصندل أيضاً. عليه كتابة عبرية هذا نصها: «أمر بإنشاء هذا الضريح السيد التقي الطبيب أبو شمس بن أوحد طاب ذكره» . ويشير تاريخ إنشائه إلى سنة ١٢٩٧م. أي في حكم غازان خان المغولي.

(Ober., Land. Baby. 112)

(٣) تسمى طبرستان بلاد الجبل (كوهستان وقهستان) لوقوعها في منطقة جبال البرز وسماها المغول بعد فتحها مازندران. وممن انتسب إليها من اليهود، «ربن الطبري» الطبيب اليهودي المنجم. كان حكيماً طبيباً عالماً بالهندسة وأنواع الرياضة، نقل كتباً حكمية من لغة إلى لغة أخرى. وكان ولده علي طبيباً مشهوراً انتقل إلى العراق وسكن سر من رأى . وربن هذا كان له تقدم في علم اليهود. (تاريخ الحكماء لابن القفطي طبعة ليبزيج ص١٨٧)

(سفيدرود) . فيها نحو أربعة آلاف يهودي . وهي على مسيرة سبعة أيام من :-

أصبهان[١] *Ispahan* البلدة الكبيرة، كرسي المملكة . استدارتها نحو اثني عشر ميلا . وفيها نحو خمسة عشر ألفاً من اليهود . وهي مقر الرئيس سرشالوم الموكل بيهود العجم من رأس الجالوت ببغداد . وعلى مسيرة أربعة أيام منها :-

شيراز[٢] *Shiraz* أو مدينة فارس[٣] . فيها نحو عشرة آلاف يهودي .

---

(١) بلدة من أشهر مدن العجم، تسمى عندهم أصفهان أو إسبهان أيضاً . وسماها اليونان Aspadana موقعها في الناحية الشرقية الجنوبية من إقليم كوهستان، على نهر صغير يسمى زاينده رود. كانت مقسومة إلى قسمين . الأول يسمى « جي » أو شهر شتان، والثاني يسمى « اليهودية » لكثرة اليهود المقيمين فيه (يسمى اليوم جلفا) . ويقال : إن اليهود أقاموا فيها منذ عهد بخت نصر لمشابهة جوها جو القدس (الأعلاق النفيسة، لابن رسته . ص١٦٠ و Le Strange, L.E.K. 202-7) . ومن أشهر اليهود الذين انتسبوا إليها في القرون الوسطى، عبيد الله أبو عيسى إسحق بن يعقوب الأصبهاني المسيح الدجال مؤسس فرقة العيسوية . كان في زمان المنصور وابتدأ دعوته في زمن آخر ملوك بني أمية مروان بن محمد الحمار . وزعم أنه نبي وأنه رسول المسيح المنتظر . (الملل والنحل للشهرستاني . طبعة لندن ص١٦٨ و GR., III 431)

(٢) كان اليونان يطلقون لفظة Persis على الإقليم الذي يبدأ من أصبهان شمالاً وينتهي عند خليج البصرة جنوباً وكانت Persepolis أشهر مدن هذا الإقليم في موقع شيراز الحالية، ويقال : إن لفظة فارس Persia أو Persae أطلقت على بلاد العجم كلها نسبة إلى هذه المدينة، ويروي ياقوت أن باني شيراز هو الأمير محمد أخو الحجاج بن يوسف سنة ٦٤هـ (٦٨٤م) (Le Strane, L.E.K. 248-252)

(٣) يلاحظ هنا أن الرحالة يشط كثيراً في تقدير المسافة بين المدن التي يذكرها، فقد يكون ذلك لغلط بالنسخ، أو أن بنيامين لم يزر خيوة وسمرقند .

وعلى مسيرة سبعة أيام منها :-

خيوة[١] *Khiva* البلدة الكبيرة على شاطئ نهر غوزان. فيها نحو ثمانية آلاف يهودي. ولها تجارة واسعة، يؤمها التجار من جميع الأمم للبيع والشراء. وأراضيها على امتداد عظيم. وهي تبعد مسيرة خمسة أيام عن :-

سمرقند[٢] *Samarkant* البلدة المتاخمة لمملكة (العجم[٣]). فيها نحو خمسين ألف يهودي[٤]. بينهم عدد كبير من العلماء وذوي اليسار ، وعندهم الرئيس عوبدية الموكل بهم من رأس الجالوت ببغداد . وعلى مسيرة أربعة أيام منها :-

بلاد التبت[٥] *Tibet* فيها آجام يكثر فيها غزال المسك. ومنها يقطع المسافر مسيرة خمسة وعشرين يوماً، فيعود إلى :-

نيسابور[٦] *Naysabur* على شواطئ نهر غوزان (سفيدرود) .

---

(١) « خيواق » القديمة من إقليم سغديانة Sogdiana ، كانت في أيام تيمور حاضرة دولة خوارزم، وكانت تسقى من قناة تتصل بنهر جيحون Oxus ، كما أن قربها من ملتقى خطوط المواصلات مع آسيا الوسطى جعل لها أهمية تجارية كبرى (Le Strange, L.E.K. 450)

(٢) تقع سمرقند على بعد ١٥ ميلا شرقي بخارى على عدوة نهر صغير يدعى « سغد Sugdii » وكانت في عز أيامها عاصمة سغديانة وكرسي مملكة تيمورلنك (Le Strange, L.e.k. 463-5)

(٣) هذه اللفظة ناقصة في نسختنا.

(٤) هذا العدد مبالغ فيه.

(٥) إن المسافة التي يقدرها بنيامين لبلوغ بلاد التبت تجعلنا نجزم بأنه لم يزر بلاد الصين.

(٦) كانت نيسابور تدعى قديماً نوشابور نسبة إلى مؤسسها شابور الأول بن أردشير ببغان ويسميها بعض جغرافيي العرب إبراشهر أو إيران شهر (ياقوت و Le Strange, L.E.K. 260)

ويزعم يهودها أنهم من بقايا الأسباط الأربعة من بني إسرائيل التي أسرها شلمناصر ملك أشور. وهي أسباط دان وزبولون ونفتلي وآشر التي ورد عنها في التوراة: «وسبى ملك أشور بني إسرائيل إلى أشور، ووضعهم في حلح وحابور، نهر غوزان وفي مدن مادي». وهي بلاد واسعة الأرجاء تبلغ مسيرتها عشرين يوماً. وبها المدن والقرى تحميها الجبال من جهة ونهر غوزان من الجهة الأخرى.

واليهود هنا مستقلون. لا يدينون بالطاعة لغير رئيسهم يوسف أمركلة اللاوي ومن معه من كبار علماء الدين. وهم يشتغلون بالزراعة ويخرجون للغزو في بلاد الكاشيين (خراسان) بطريق الصحراء.

ولهؤلاء اليهود أحلاف من القبائل التي يسميها المسلمون «كفار الترك». وهم جماعات لا حصر لها من البدو. يعيشون في الصحراء ويعبدون الهواء، وطعامهم اللحم النيئ، يأكلونه من غير شواء. ولا يأكلون الخبز ولا يعرفون الخمر. وفي موضع الأنف في وجوههم ثقبان صغيران يتنسمون بهما الهواء. وهم إذا أكلوا لحما لا يفرقون بين الطاهر وغير الطاهر من الحيوان. وعلاقتهم باليهود يسودها الصفاء والوئام.

وقد أغار «كفار الترك» على بلاد العجم قبل ثمانية عشر عاماً[1]،

---

(١) يشير بنيامين هنا إلي موقعة سنجرشاه بن ملكشاه السلجوقي مع قبائل الغز. يروي أبو الفداء أن الأتراك الغز عاشوا بخراسان واسترقوا النساء والأطفال وخربوا المدارس وقتلوا الفقهاء وعملوا كل عظيمة. فجمع سنجر عساكره وسار إليهم في مائة ألف فارس. ووقعت بينهم حرب شديدة فانهزمت عساكر سنجر. وتبعهم الغز يقتلون فيهم ويأسرون، فأسر السلطان سنجر وأسر معه جماعة من الأمراء فضربوا أعناقهم=

بجيوش جرارة، فاستولوا على «الري» وأعملوا السيف في رقاب أهلها ونهبوا ما فيها ورجعوا بما غنموه إلى جبالهم . وكان هذا أول حادث في بابه في بلاد العجم.

فلما بلغت أخبار هذه المذبحة أسماع ملك العجم، ثار ثائره وأقسم ليبيدن هذه القبائل التي باغتت بلاده من وراء الصحراء، وليمحونهم من تحت السماء. فانتشر المنادون في طول البلاد وعرضها يطلبون الأدلاء لهداية الجيوش اللجبة في مسالك الصحراء. فشخص رجل بحضرة الملك وقال له: «إني دليلكم إلى مضارب القوم ، لأنني منهم». فوعده الملك بجزيل العطاء إن هو دلهم على السبل المؤدية إلى تلك الجبال السحيقة. فلما سأله عن مقدار المؤونة التي يحتاجها الجند في مسيرته ، قال: «تزودوا بما يكفيكم خمسة عشر يوماً من الزاد والماء.».

وخرجت الجيوش الجرارة تطلب مضارب القوم. وظلت تضرب في عرض البيداء خمسة عشر يوماً دون أن تعثر للأعداء على أثر. فأشرف

=فاستولى الغز على البلاد ، فنهبوا نيسابور وقتلوا الكبار والصغار، وقتلوا القضاة والعلماء والصلحاء الذين بتلك البلاد. ولم يسلم شيء من خراسان من النهب غير هراة ودهستان لحصانتهما....» (المختصر في أخبار البشرج ٣ :٢٨ – ٣٠ حوادث سنة ٥٤٨هـ. (١١٥٣م.) وفي رمضان من سنة ٥٥١هـ. (١١٥٦م) هرب السلطان سنجر من أسر الغز وعاد إلى دار ملكه بمرو، فكانت مدة أسره من سادس جمادي الأولى سنة ٥٤٨ إلى رمضان سنة ٥٥١هـ. (١١٥٣–١١٥٦م) (المصدر نفسه . حوادث سنة ٥٥١هـ.) ويستبان من قول بنيامين بأن هذه الموقعة قد سبقت زيارته لنيسابور بثماني عشرة سنة، إنه كان في إيران قرابة سنة ٥٦٦هـ. (١١٧٠م.)

الزاد على النفاد، وهلك بعض الجند والخيل جوعاً. فأحضر الملك دليل الجيش بين يديه واستوضح منه جلية الأمر. فأخبره هذا بأنه قد ضل الطريق. فغضب الملك وأمر بقطع رأس الدليل . ثم نادى المنادون يوصون الجند بالتقتير بالزاد، وأن يقاسم من يحمل شيئاً منه صاحبه. وذبحت الخيل لأطعام الجيوش خوفاً من هلاكه عن آخره.

وبعد مسيرة ثلاثة عشر يوماً أشرفوا عل جبال نيسابور حيث يقيم اليهود. وكان وصولهم إليها في يوم سبت. فضربوا خيامهم بين الرياض والبساتين المثمرة على عين ماء بالقرب من نهر غوزان، فعاثوا بالأشجار، يأكلون فاكهتها ويقطعون عيدانها، لكنهم لم يجدوا حولها أنسياً واحداً. وكانت المدن والقلاع تظهر لعيانهم عن بعد . فأوفد الملك رسولين من جنده لاستطلاع خبر القوم. ولما بلغ الرسولان شاطئ النهر، وجدا عليه قنطرة عظيمة فوقها الأبراج الحصينة ، وبرأسها باب ضخم محكم الإيصاد، و في عدوة النهر من الجانب الآخر مدينة كبيرة.

فصاح الرسولان تنبيهاً لمن على الجسر بحضورهما. فخرج إليهما رجل يسألهما عن هويتهما ووجهتهما، لكنهما لم يفقها حديثه . وبعده حضر ترجمان يفهم لغة الرسولين، فلما سألهما عن أمرهما وما يريدانه، أجابا: «إننا من عسكر ملك العجم وقد جئنا نستطلع شأنكم ونعرف الملك الذي يحكمكم». فقال الرجلان: «إننا يهود، لا نعرف لنا ملكا غير رئيسنا، وهو يهودي مثلنا.»

وعندها سألهما الرسولان عن قبائل الغز من كفار الترك. فأجاب اليهوديان: «إنهم أحلافنا. ومن آذاهم فهو عدونا».

فرجع الرسولان أدراجهما وأخبرا ملك العجم بما شاهدا وما سمعا، فاحتار الملك وخاف سوء المغبة. وفي اليوم التالي جاءه رسول أهل المدينة يدعو جيش العجم إلى الحرب والقتال فقال الملك: «إني ما حضرت إلى هنا لقتالكم، وإنما لمناجزة أعدائي كفار الترك. فإذا أبيتم إلا قتالي، فسوف أنتقم منكم بإهلاك جميع اليهود القاطنين في مملكتي، وهم كثيرون. وأنتم في هذا المكان أقوى مني. فأنا أسألكم بالمعروف أن تكفوا عن قتالي وتتركوني وشأني مع كفار الترك. وسوف أدفع لكم ثمن ما يحتاج إليه جندي من زاد وأرزاق.»

فلما سمع اليهود هذا الكلام، تشاوروا فيما بينهم، وقر رأيهم على مصافاة ملك العجم، حقناً لدماء إخوانهم من اليهود المقيمين في بلاده. فاستضافوا جند العجم في مدينتهم خمسة عشر يوماً وأكرموا وفادتهم غاية الإكرام.

لكنهم ظلوا أمناء على عهدهم مع كفار الترك، فأوفدوا إليهم سراً من يشعرهم بمقدم ملك العجم لمقاتلتهم. فاستعد كفار الترك، وأخذوا الأهبة للحرب والقتال، فنصبوا الكمين في مسالك الجبال ومضائق الشعاب، وحشدوا الجيوش الجرارة من جميع أنحاء تلك الصحراء. فما إن خرج ملك العجم بعسكره لمقاتلتهم حتى هاجموه من كل صوب، فانتصروا عليه، وأهلكوا عدداً غفيراً من جنده، ففر ملك العجم بمن كتبت له السلامة من أتباعه وعاد إلى بلاده.

وحدث أن فارساً من جند ملك العجم خدع يهودياً يدعى موسى، فاستصحبه إلى بلاد العجم، وهناك استرقه له عبداً. وبعد مضي مدة

من الزمن احتشد الناس بمهرجان عظيم، يتبارى فيه الرماة بحضور السلطان. فكان موسى مملوك الفارس العجمي بين المتبارين. فأظهر براعة بالرمي، لم يستطع أن يجاريه أحد فيها. فعجب السلطان من أمره فقربه منه وسأله عن حاله. فقص موسى على السلطان ما حدث له مع الفارس، وخديعته له واتخاذه عبداً رقيقاً.

وللحال أمر السلطان بإطلاق سراحه، وخلع عليه حلة نفيسة من حرير وأغدق عليه الهدايا والعطايا. ثم زين له البقاء في حاشيته واعتناق ديانته. ووعد بأن يجعله من كبار الأغنياء، وقيماً موكلا بقصره. لكن موسى رفض هذا العرض، وعندئذ أرسله السلطان إلى سرشالوم رئيس اليهود في أصبهان للعناية بأمره . وهناك تزوج من ابنة الرئيس.

هذا ما قصه علي «موسى» بنفسه.

وكانت عودتي من نيسابور إلى خوزستان المشرفة على نهر دجلة المنصب في بحر الهند وفي هذا البحر قطعت مسيرة ستة أيام إلى :-

جزيرة قيس[1] *Qais* أرض هذه الجزيرة شحيحة الماء، ليس فيها غير عين واحدة. وأغلب شرب أهلها من ماء المطر. وهي مركز تجاري مهم، يقصدها التجار للبيع والشراء ومقايضة ضروب السلع كالحرير والكتان والقطن والقنب والماش والحنطة والشعير والدخن والرز وسائر أنواع الحبوب والبقول ويأتيها تجار الهند بالعطور والتوابل . وأغلب سكان الجزيرة دلالون ووسطاء بين هذا

---

(١) قيس أو كيش، جزيرة في خليج البصرة، موقعها على مقربة من شواطيء إقليم لارستان في جنوبي إيران. كانت في القرون الوسطى من المراكز التجارية المهمة بين الهند والعراق. وفي رواية بنيامين ما يدل على تجارتها الواسعة في القرن الثاني عشر. لكنها فقدت أهميتها التجارية في العصور المتأخرة.

الحشد الغفير من التجار. ويقيم بهذه الجزيرة نحو خمسمائة يهودي. وعلى مسيرة عشرة أيام منها بطريق البحر:-

القطيف[١] *Katif* فيها نحو خمسة آلاف يهودي. وفيها أيضاً مغاص الجوهر المعروف بالدر[٢]. ففي الرابع والعشرين من شهر نيسان من كل عام، تتساقط قطرات المطر الكبيرة على سطح الماء، فيلتقمها المحار وينطبق عليها ويغوص في قعر البحر. وفي منتصف تشرين يحضر الغواصون فيربطون حول أحقائهم الحبال فيغوصون في الماء طلباً للمحار، يخرجونه ويفتحونه فيجدون الدر في جوفه. وعلى مسيرة سبعة أيام منها:-

خولام[٣] *Quilon* وهي أول بلاد المجوس عُبّاد الشمس والكواكب

---

(١) وردت في النص العبري للرحلة «قطيفة קטיפה». وهي اليوم ثغر صغير على شاطيء خليج البصرة مما يحاذي جزائر البحرين.

(٢) أسهب جغرافيو العرب ورحالتهم في القرون الوسطى بذكر مغاص اللؤلؤ في خليج البصرة. ورواية أغلبهم قريبة مما يرويه بنيامين. (راجع عجائب المخلوقات لزكرية بن محمد القزويني. مطبعة المعاهد بالقاهرة ص١١٣) ووردت لفظة الدر في النص العبري «بدولح בדולח» المذكورة في سفر التكوين (٢: ١٢) وترجمتها المألوفة بالإنكليزية Bdellium وبالعربية حجر المقل (بالميم المضمومة والقاف المهملة). لكن سعيد الفيومي المتوفى سنة ٩٤٢م. وهو أول من نقل أسفار موسى إلى العربية ترجمها بلفظة «الدر» وهو الأصح.

(٣) خولام أو كولم مدينة في أسفل شاطيء ملبار الغربي من الهند جنوبي بومباي. كانت في القرون الوسطى ثغر الهند التجاري بين بلاد العرب والصين. لكن شأنها تداعى في العصور المتأخرة، ونقل البرتغاليون تجارتها إلى كالكتا(قالقوط) وغوا من مستعمراتهم.

من أبناء كوش. جميع سكانها سود البشرة، لكنهم مشهورون بالأمانة والصدق في الأخذ والعطاء. فإذا دخلت سفينة فرضة المدينة طلع إليها ثلاثة من كتبة السلطان، وسجلوا أسماء تجارها في ثبت يعرضونه على السلطان. ثم يصدر أمان السلطان للتجار، فيتركون بضاعتهم في العراء، لا خوف عليها ولا حاجة بهم إلى من يحرسها. وفي سوق البلد حانوت كبير فيه مأمور موكل بجمع المفقودات . فمن ضاع له متاع راجع مأمور الحانوت وأعطاه علامة متاعه المفقود واسترده. وهذه عادة مستحبة سارية في جميع أنحاء هذه المملكة[١].

وإقليم هذه المدينة شديد الحرارة. يتحكم موسم القيظ فيها من شهر نيسان حتى تشرين. ويبلغ من شدة الحر أن الناس لا يقدرون على مبارحة دورهم نهاراً. فإذا ما أزفت الساعة الثالثة من النهار، أسرعوا إلى بيوتهم، يستجيرون بظلها حتى ساعة الغروب. وعندها يخرجون فيضيئون الشموع في الأزقة والأسواق ويزاولون أعمالهم.

وفي هذه البلاد يزرع الفلفل. وأشجاره كثيرة في حقول تحيط بالمدينة. والفلاحون يخططون مزارعهم فيعرف كل منهم حدود أغراسه. وشجرات الفلفل صغيرة تثمر حباً يكون في أول أمره أبيض. فإذا حان قطافه وضعوه في طواجن. ثم سكبوا عليه الماء الحار وفرشوه

---

(١) يحدثنا ابن بطوطة عن شدة سلطان كولم على السراق والدعار. ومما يرويه في هذا الباب أن السلطان شاهد يوماً أحد أبناء الملوك يأخذ حبة واحدة من العنب سقطت من بعض البساتين فأمر به أن يقسم نصفين، صلب نصفه عن يمين الطريق ونصفه الآخر عن يساره، وقسمت حبة العنبة نصفين فوضع على كل نصف منه نصف منها، وترك هنالك عبرة للناظرين (ابن بطوطة. الطبعة الأزهرية ج٢: ١١٩)

تحت أشعة الشمس حتى يجف وينقلب لونه إلى سواد. وفيها أيضاً أشجار القرفة والزنجبيل وضروب شتى من التوابل والأفاويه[١].

ومن عادة أهل هذا البلد أنه إذا مات منهم أحد لا يوارونه التراب، بل يضمخونه بأنواع الأطاييب والعقاقير ويضعونه في صندوق موصد حتى تستحكم يبوسته فيلتصق الجلد بالعظم، فيظل له مظهر الأحياء. وهكذا يحتفظون بأجداث آبائهم وأفراد أسرتهم بعد الممات مدة طويلة.

وأهل هذه المدينة كفار، يعبدون الشمس والنار. فتراهم عند مطلع الفجر يهرعون إلى معابدهم، وهي على مسافة نصف ميل من البلد، فيستقبلون الشمس المشرقة سُجّداً. وعندهم في معابدهم صنم على شكل قرص الشمس يدور بحيلة سحرية، فيسمع لدورانه ضجة عالية، ويخرون له على وجوههم ويحرقون أمامه البخور. هذه هي عاداتهم السقيمة، وبئس العادة.

وفي هذه المدينة عدد زهيد من اليهود لا يربو عددهم على المائة. وهم سود البشرة مثل غيرهم من السكان[٢]،لكنهم أتقياء، يعرفون

---

(١) كان للتوابل التي تصدرها الهند في القرون الوسطى شأن كبير عند الأوروبيين. ويقال: إن الفلفل كان يباع في أوروبة بما يعادل وزنه ذهباً.

(٢) هم يهود كوشين Cochin المنسوبين إلى الكورة المعروفة بهذا الاسم في ملبار من أعمال أيالة مدراس في الهند. وأصل هؤلاء اليهود من كرنكانور Cranganore قيل: إنهم لجأوا إليها بعد خراب بيت المقدس في القرن الأول للميلاد واستقروا بها. وفي سنة ٣٦٩م. أعطاهم الملك بكارة راي فارمة Pascara Ray Varma براءة موقعة من سائر الأمراء التابعين له يمنح بموجبها هؤلاء اليهود حقوقاً واسعة ويوكل بأمرهم =

شريعة موسى وكتب الأنبياء، وبعض التلمود والناموس. وعلى مسيرة اثنين وعشرين يوماً[١] منها :-

جزيرة كندي[٢] *Kandy* أهلها كلهم من عباد النار المجوس، يقيم بينهم نحو ثلاثة آلاف يهودي. ولهؤلاء المجوس معابد منتشرة في أنحاء البلاد يقوم على خدمتها كهان من أمهر الناس بالسحر والشعوذة. وفي صدر كل معبد صنم، أمامه حفرة فيها نار تتأجج، لا يخبو لها أوار ليلاً أو نهاراً. وهذه النار مقدسة عندهم ، يسمونها «إلهوتا» وبها يحرقون أنفسهم. فكثيراً ما ينذر الوجهاء والكبراء إحراق أنفسهم بهذه النار المتأججة بكامل رضائهم.

وتتم مراسيم الاحتراق بمهرجان عظيم، يستعد له من تحدثه نفسه بالأمر استعداداً كبيراً. فيتقاطر عليه المهنئون، يطوبونه ويبشرونه بالسعادة الأبدية. وإذا حل اليوم المضروب، أركبوه حصاناً مطهماً وسارت خلفه وقدامه الجماهير الغفيرة، تضرب بين أيديهم الأطبال والأنفار، حتى إذا ما بلغ حفرة النار، ألقى بنفسه فيها بين التسبيح والتهليل.

=رئيسهم الربن يوسف. وفي العصور الأخيرة ضؤل شانهم في كرنكانور فهاجروا إلى كوشين. والظاهر مما حققه العلماء أن أصل هؤلاء السودان من اليهود ، إما أن يكون من بلاد اليمن أو من متهودة الهنود (راجع J.E. مادة Cochin)

(١) كذا في نسختنا . وفي نسخة ادلر أربعة أيام. وهو الأصح.

(٢) وردت في نسختنا «كنديج» وهي كندي عاصمة جزيرة سرنديب (سيلان) القديمة موقعها في وسط الجزيرة على بعد ٧٥ كيلومتراً من كولومبو العاصمة الحالية. وكانت دولة كندي قد بلغت في العصور الوسطى شأواً بعيداً من الحضارة . وفيها اليوم بقايا معابد بوذية وبرهمية قديمة.

وبعد مضي ثلاثة أيام، يحضر كهنة المجوس إلى أهل المحروق فيوصونهم بإعداد البيت إعداداً حسناً، لأن ميتهم سيعود لإملاء وصيته بحضور بعض الشهود من أهل البلد. فإذا حانت الساعة المضروبة، يحضر الشيطان بهيئة الشخص المحروق فيبادر أهله وخلانه إلى السؤال عن حاله في الآخرة، فيجيب على سؤالهم إنه بخير. ويقول لهم: إن أصحابه في الآخرة يرفضون إدخاله في زمرتهم إلا إذا وفى بما عليه من ديون لأصحابه وأبناء عشيرته. وحينئذ ينطق بكيفية توزيع تركته على أولاده بعد أن يشرح ما له وما عليه من طلب ودين عند بعض الناس، فيكتب الشهود وصيته، ومن ثم ينصرف إلى غير ما عودة. ويتم هذا كله بفضل ما يقوم به الكهنة من السحر والشعوذة، فيدخلون في روع أشياعهم أن دينهم هذا يفوق كل معتقد آخر في العالم أجمع. وعلى مسيرة أربعين يوماً من كندي:-

أرض الصين[1] *Chine* في أقصى المشرق ، ووراءها البحر المتجمد .

---

(١) سواء أكان بنيامين قد بلغ الصين برحلته أو لم يبلغها (راجع مقدمة عزرا حداد) فإنه أول رحالة أوروبي يذكرها باللفظة العربية المعروفة. والرأي السائد أن «أرض سينيم ארץ סינים» الواردة في نبوءة أشعيا (٤٩ : ١٢) تشير إلى أرض الصين. وتدل وثائق تاريخية من القرن التاسع للميلاد على أن اليهود عرفوا الصين وأقاموا بها منذ أقدم الأزمنة وأنهم كانوا يتجرون فيها بالحرير. وفي رواية أنهم دخلوا الصين في أيام حكم أسرة هان المالكة (٢٠٠-٢٢٦ ب.م) . ويسمى اليهود باللغة الصينية Tiao Kiu Kiaou ومعناها «الذين ينقون العروق» إشارة إلى كون اليهود يقتلعون العروق من اللحم قبل طبخه وفقاً لتعاليم شريعتهم . وفي الصين اليوم بقايا معبد قديم في كاي فونغ فو يرجع بناؤه إلى مهاجرة اليهود في العصور القديمة.
(راجع مادة China في .J.E).

وعندما تدخل الشمس برج الجبار. يهتاج البحر من عصف الرياح الشديدة، وتطوح بالمراكب نحو البحر المتجمد حيث تستقر في مكانها، لا تستطيع حراكا، حتى ينفد الزاد من الركاب، فيهلكون جوعاً عن بكرة أبيهم. وقد هلكت على هذه الشاكلة مراكب لا حصر لها. ويدبر سكان هذه البلاد حيلة يتخلصون بها إذا اهتاج البحر في أثناء سفرهم. وحكاية هذه الحيلة أنهم يحملون معهم جرباناً من جلود البقر. فإذا عصفت الرياح وأنذرتهم بقرب الهلاك، دخلوا هذه الجربان ومعهم سكين ماضية، وربطوها من الداخل ربطاً محكماً لكي لا يتسرب الماء إليها. ورموا بأنفسهم في لجة اليم.

فيهجم على هذه الجربان طائر عظيم الخلقة يدعى طائر الرخم[1]، ظناً منه أنها جيفة حيوان. فينشب مخالبه الحادة فيها ويحملها إلى اليابسة فيطرحها فوق قمة جبل أو في بطن واد ليأكلها. وعندئذ يخرج من في الجراب سكينه التي يحملها معه فيشق الجلد ويخرج فيستولي الرعب على الطائر ويلوذ بالهرب . وبهذه الحيلة يتخلص الركاب من الهلاك فيعودون إلى الأماكن المأهولة . وعلى مسيرة ثلاثة أيام من الصين :-

---

(١) في متن الرحلة ورد اسم هذا الطائر غريفان גריפן محرفة عن لفظة Gryphon اللاتينية ومعناها طائر الرخم أو طائر الرخ الذي نقرأ عنه في أقاصيص البحارة العرب في القرون الوسطى. ولا شك في أن بنيامين متأثر بمثل هذه الأقاصيص. ويروي ماركو بولو أنه شاهد هذا الطائر في بحار الصين، يدفعه الهواء من ملبار إلى مدغشقر وأنه أضخم من النسر، يحمل الفيل بين مخالبه ويرتفع به في الهواء فيطرحه حتى يتهشم ويشرع في أكله. وهذه الأوصاف تنطبق على طائر العنقاء الذي يذكره القزويني في عجائب المخلوقات (ص٣٦٧).

بنغالة[١] *Bengal* مسيرتها خمسة عشر يوماً. وفيها نحو ألف يهودي. وعلى مسيرة سبعة أيام منها بطريق البحر:—

خولان[٢] *Chulan* ليس فيها يهود. وعلى مسيرة اثنى عشر يوماً منها:—

زبيد[٣] *Zebid* فيها عدد يسير من اليهود . وتبعد مسيرة ثمانية أيام عن الهند البرية[٤] المسماة:—

عدن[٥] *Aden* موقعها في إقليم تلسار الوارد ذكره في التوراة.

---

(١) وردت في متن الرحلة مصحفة بلفظة جنغالة גינגלה في جميع النسخ التي اطلعنا عليها. والرحالة يقصد دون ريب بلاد البنغال المعروفة في الهند. يسميها ابن بطوطة بلاد بنجالة. ويروي «أنها بلاد متسعة كثيرة الأرز ولم أر في الدنيا أرخص أسعاراً منها. لكنها مظلمة؟ وأهل خراسان يسمونها دوزخست ومعناه جهنم». (رحلة ابن بطوطة ج٢ :١٤٧).

(٢) ينتقل بنيامين فجأة إلى أرض اليمن بعد مسيرة سبعة أيام فقط، وهذا ما يؤيد وجهة نظرنا في أنه لم يزر الصين. وخولان مخلاف من مخاليف اليمن منسوب إلى خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة الذي ينتهي نسبه إلى مالك بن حمير بن سبأ . فتح سنة ١٣ أو ١٤هـ. في أيام عمر بن الخطاب (ياقوت)

(٣) مدينة مشهورة في اليمن . أحدثت في أيام المأمون، وبإزائها ساحل المندب. (ياقوت)

(٤) راجع الحاشية ١ من ص ٣٨٢ في هذا الكتاب.

(٥) قال ياقوت : «عدن مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. رديئة، لا ماء بها ولا مرعى وشربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو يوم. وهذا الموضع مرفأ مراكب الهند. والتجار يجتمعون إليه لأجل ذلك.» ا.هـ أما تلسار תלשר الواردة في التوراة (٢ ملوك ١٩ : ١٢ وإشعيا ٣٧ :١٢) فموقع في الجزيرة يظن المنقب رولنسن أنه قرب أورفة وحران. ويقول لايرد إنه عند تلعفر من أعمال الموصل. وفي رواية التوراة أن قبيلة تدعى «بني عدن בני עדן» كانت تقيم بتلسار. وهذا ما جعل بنيامين يخلط بين بني عدن ومدينة عدن.

أراضيها وعرة المسالك . فيها عدد غفير من اليهود[١] يقيمون في المعاقل الحصينة على رؤوس الجبال، لا يخضعون لغير رؤسائهم. ويخرجون للغزو في بلاد النوبة، فيعودون بالغنائم إلى معاقلهم. وبعضهم يزور مصر وبلاد العجم. وعلى مسيرة عشرين يوماً منها :ـ

أسوان[٢] *Asuan* الواقعة في طرف الصحراء عند شواطئ نهر فيشون[٣] المعروف بنهر النيل. ومخرج هذا النهر بلاد يسكنها الزنوج، عليهم ملك يدعى «سلطان الحبش» . وهم متوحشون يشبهون الحيوان بجميع الوجوه. فطعامهم الحشائش النامية على شاطئ النيل ومناخهم شديد الحر. لذا يعيشون في الأراضي المكشوفة، عراة الأبدان. وعاداتهم مستقبحة تخالف سائر أحوال البشر. فهم يطأون من النساء أخواتهم أو أية امرأة تتيسر لهم.

وأهل أسوان يخرجون لصيد العبيد في أراضي هؤلاء الزنج. وهم إذا خرجوا حملوا معهم الخبز والزبيب والتين. فيجتذبون الزنوج ويرغبونهم حتى يتبعوهم، ثم يبيعونهم في أسواق النخاسة بمصر وما

(١) أقام اليهود في عدن واليمن منذ أقدم الأزمنة وأمرهم في جزيرة العرب قبل الإسلام معروف . وفي رواية أن النبي إرمية قاد إلى أطراف اليمن ٧٥٠٠٠ من اليهود بعد خراب بيت المقدس في أيام بخت نصر. وأنهم استقروا بها وأبوا العودة إلى فلسطين عندما طلب إليهم ذلك عزرا الكاتب (العزير) (راجع .J.E مادة .GR., III 73 ff) Yemen

(٢) قال ياقوت : «أسوان وسوان وأصوان. مدينة كبيرة وكورة في آخر صعيد مصر، وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه. » ا.هـ.

(٣) سفر التكوين ٢ : ١١

جاورها من البلدان. وهؤلاء هم السودان من بني حام. وعلى مسيرة اثني عشر يوماً من أسوان :-

حلوان[١] *Haluan* فيها نحو ثلثمائة يهودي. ومنها تخرج القوافل إلى القفار المسماة بالصحراء. وهي واسعة الأرجاء، مسيرتها خمسون يوماً. وفي طرف هذه الصحراء :-

الزويلة[٢] *Zavila* أو حويلة الواردة في التوراة من إقليم غانة[٣]. وفي الصحراء كثبان الرمل التي إذا عصفت بها الرياح أثارتها وغطت القوافل السيارة فأهلكتها. وتحمل هذه القوافل السلع التجارية المتنوعة. منها الحديد والنحاس وأنواع الفاكهة والبقول والملح من مصر، فتعود إليها بالذهب والجواهر الكريمة . وهذه الصحراء واقعة إلى الجانب الغربي من كوش المعروفة بالحبش. وعلى مسيرة ثلاثة أيام من حلوان :-

قوص[٤] *Kuts* موقعها في أقصى الحدود المصرية وفيها من اليهود

---

(١) حلوان قرية من أعمال مصر، بينها وبين الفسطاط نحو فرسخين من جهة الصعيد مشرفة على النيل . (ياقوت)

(٢) الزويلة بلدة تسمى زويلة السودان مقابل أجدابية في البر بين السودان وإفريقية... ويجلب من زويلة الرقيق إلى ناحية أفريقية وما هنالك. (ياقوت) . أما حويلة الواردة في التوراة (تكوين ٢ : ١١) فيتفق أغلب المحققين في أنها كانت على شواطيء الإحساء من جزيرة العرب، كانت في الأزمنة الغابرة ذات شهرة بتصدير الذهب (قاموس ك.م.) وهذه إحدى هفوات بنيامين لتشابه الأسماء.

(٣) غانه مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان ، يجتمع إليها التجار، ومنها يدخل في المفازات إلى بلاد التبر (ياقوت) .

(٤) قوص مدينة كبيرة عظيمة، قصبة صعيد مصر. بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً. وهي محطة التجار القادمين من عدن (ياقوت) .

نحو ٣٠،٠٠٠[١] وتبعد قوص مسيرة خمسة أيام[٢] عن:-

الفيوم[٣] *Fayum* أو فيثوم الواردة في التوراة، التي شيدها أجدادنا العبرانيون القدماء . وفيها بقايا من بنيانهم ذلك . ويقيم بها مائتا يهودي وعلى مسيرة أربعة أيام منها:-

مصر[٤] *Mizraim* البلدة القديمة الواقعة على شاطئ نيلوس المعروف بنهر النيل . فيها نحو ألفي يهودي[٥] ، لهم كنيسان . الأول ليهود فلسطين ويسمى «كنيس الشاميين» والثاني ليهود بابل ويسمى

---

(١) كذا في نسختنا . وفي نسخة أدلر ٣٠٠ وهو الأصح .

(٢) في نسخة أدلر ٣٠٠ ميل .

(٣) الفيوم بلدة في الجهة الغربية في مصر، بينها وبين الفسطاط أربعة أيام (ياقوت) . أما فيثوم الواردة في التوراة (سفر الخروج ١ : ١١) فبلدة في أرض جلسان (الدلتا) كانت إحدى مدن المخازن التي شيدها بنو إسرائيل في مصر على عهد الفراعنة . سماها هيرودوتس في تاريخه Patomos (ج٢ : ١٥٨) واكتشف آثارها المسيو نافيل سنة ١٨٨٣ في موضع يعرف اليوم بتل المسخوطة (E. Naville, The Store City Of Pithom And The Route Of The Exodus. E,d. 1933 P.6) وأشهر من انتسب إلى الفيوم من اليهود في القرون الوسطى سعيد بن يوسف الفيومي רסעדיא גאון (٨٩٢-٩٤٢م .) ويعقوب بن نثانيال الفيومي الذي وجه إليه موسى بن ميمون «رسالة اليمن אגרת תימן المشهورة» .

(٤) هي مصر القاهرة المعزية المحروسة . شيدها المعز لدين الله محمد الفاطمي سنة ٣٦١هـ . فلم تلبث أن أصبحت حاضرة أفريقية المسلمة وأدركت المقام الذي بلغته بغداد في عز أيامها .

(٥) يتصل تاريخ اليهود بمصر اتصالاً وثيقاً . فقد كان في القطر المصري أيام الفتح العربي نحو أربعين ألفاً منهم . وبلغوا رقياً علمياً وسياسياً في أيام الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية فكان منهم الوزراء والكبراء والأطباء والعلماء الأعلام .

« كنيس العراقيين[١] » . وتختلف هاتان الجماعتان في كيفية تقسيم التوراة . فقد جرت عادة يهود العراق أن يقسموا أسفار موسى (ع) إلى سور بعدد أسابيع السنة، يتلون منها سورة في كل أسبوع ويختمونها في دورة العام، جرياً على عادة يهود الأندلس[٢] . أما يهود فلسطين فيقسمون كل سورة إلى ثلاثة فصول يتلون منها فصلا في كل أسبوع ويختمونها في دورة ثلاثة أعوام . ويجتمع أبناء الطائفتين مرتين في العام لإقامة الصلاة مجتمعين . الأولى في يوم « مهرجان التوراة[٣] » والثانية في عيد نزول التوراة[٤] .

---

(١) كانت كنيسة الشاميين بجوار خوخة خبيصة . وكان مكتوباً على بابها بالخط العبري إنها بنيت في القرن الأول قبل الميلاد . ويروي المقريزي أن بهذه الكنيسة نسخة من التوراة لا يختلفون في أنها كلها بخط عزرا النبي الذي يقال له بالعربية العزير . ولا تزال هذه الكنيسة قائمة اليوم في حي اليهود بالفسطاط تزورها الناس . أما التقاليد اليهودية فتنسب بناء هذا الكنيس إلى العالم اليهودي الأندلسي الكبير أبي إسحق إبراهيم بن مئير بن عزرا الطليطلي المتوفي سنة ١١٦٧م . أما كنيسة العراقيين فكانت بقصر الروم في زقاق اليهود وقد عفيت الآن آثاره . (كتاب الانتصار ج٤ : ٣٦١ وموسى بن ميمون لإسرائيل ولفنسون ، حاشية ص١٦) .

(٢) لا تزال هذه الطريقة في تلاوة التوراة متبعة بين يهود العراق وينسج على منوالها اليهود قاطبة . والظاهر أن العلاّمة موسى بن ميمون هو الذي رجّحها على طريقة يهود فلسطين ـ ولفنسون : ١٨) .

(٣) هو عيد שמחת התורה آخر أيام عيد المظلة ويقع في أوائل تشرين الأول .

(٤) هو عيد العنصرة أو الأسابيع חג מתקדה ويقع في أوائل شهر حزيران .

أما عميد يهود مصر فهو الناغيد[١] نثانيال[٢]، رأس المثيبة، رئيس الجماعات اليهودية في القطر المصري، الموكل بترسيم الربانيين والأئمة في الكنائس اليهودية . وهو كذلك أحد عمال الملك الكبير المقيم في قلعة «صوعن» كرسي المملكة العربية.

وسلطان مصر من الشيعة العلوية[٣] ، أتباع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الخارجين على سلطة أمير المؤمنين الخليفة العباسي الذي يحكم في بغداد . وبين الملكين منافسة دائمة ومقام سلطان مصر في قلعة صوعن[٤] (الفسطاط). وهو مثل خليفة بغداد، لا يخرج من قصره إلا مرتين في العام، الأولى في يوم العيد والثانية في يوم وفاء النيل.

---

(١) الناغيد הנגיד لفظة عبرية تعني الزعيم والأمير، كانت تطلق على رؤساء اليهود في مصر والأندلس. وتقابلها لفظة رأس الجالوت ריש גלותא التي كانت تطلق على رؤساء اليهود في العراق.

(٢) هو نثانيال بن صموئيل . واسمه العربي الشيخ الموفق شمس الرياسة أبو العشائر هبة الله بن زين بن حسن بن أفرايم بن إسماعيل بن جميع الإسرائيلي . كان من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين والأكابر المتعينين. وكان مولد ابن جميع بفسطاط مصر. وخدم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وحظي في أيامه وكان رفيع المنزلة عنده (عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج٢ :١١٢) .

(٣) يقصد الدولة الفاطمية ، وكانت زيارة بنيامين لمصر، على ما يظهر ، في وزارة صلاح الدين الأيوبي ، قبل أن ينفرد بالحكم ويؤسس الدولة الأيوبية.

(٤) صوعن بلدة مصرية قديمة ورد ذكرها في التوراة צוען מצרים (عدد ، ١٣ : ٢٢ ومزامير ١٢:٧٨ وأشعيا ١١:١٩ وحزقيال ١٤:٣٠) يقول المؤرخون : إنها بلدة طانس القديمة Tanis (صان الحالية) غير أن اليهود اصطلحوا على تسمية الفسطاط بها.

وقلعة صوعن محاطة بالأسوار المنيعة. أما مصر (القاهرة) فلا سور لها، لأن نهر النيل يستدير بها من كل جانب. وهي مدينة واسعة الأرجاء. فيها الأسواق والفنادق، وبين يهودها عددمن كبار الأغنياء والعلماء(١).

والقطر المصري كثير الجفاف، لاينزل فيه مطر ولا تتساقط فيه ثلوج. ومناخه شديد الحر. ويفيض نهر النيل مرة في العام، قرابة شهر أيلول، فتغمر مياهه من الأراضي، ما مسيرته خمسة عشر يوماً. فتبقى المياه فوق الأرض شهري أيلول وتشرين لإسقائها وإروائها.

وبظاهر المدينة جزيرة تحيط بها المياه(٢). وفيها عمود من رخام أبيض، أقامه المهندسون البارعون بحكمة وإتقان. ويبلغ ارتفاع القسم الظاهر فوق الماء من هذا العمود اثنى عشر ذراعاً. وهو مفصل على درجات تشير إلى مبلغ ارتفاع مياه النيل، عليه حارس موكل باعطاء

---

(١) اشتهر بين يهود مصر في القرون الوسطى عدد من العلماء والكبراء، أشهرهم، أبو الفرج يعقوب ابن كلس وزير المعز لدين الله الفاطمي، ومنشا بن إبراهيم وزير العزيز، وأبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي، وأبو سعد التستري، وموسى بن إلعازر طبيب المعز، والرئيس صموئيل بن حنينة أبو منصور والرئيس يحيى سرشالوم זוטא שר שלום والرئيس أبو المعالي وصهره أبو عمران موسى بن ميمون عبد الله، ويوسف بن عكنين (أبو الحجاج يوسف بن يحيى بن إسحق بن شيمون النبتي المغربي) وأفرايم بن شمريا المصري وغيرهم (GR., IV 324 وتاريخ الحكماء للقفطي ص٢٢٩ وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ج٢: ٢١٣ والحضارة الإسلامية لمتز. ج١: ٩٥)

(٢) هي جزيرة الروضة التي كانت ولا تزال أجمل مغاني القاهرة. ولا يزال مقياس النيل فيها قائماً، والاحتفال بوفاء النيل عيداً قومياً في المملكة المصرية. ويرجع تاريخ إقامة المقاييس على نهر النيل إلى السلالة الثانية عشرة المصرية (٣٥٠٠ سنة ق.م.)

البشائر مياومة عن مقدار ارتفاع الماء. فينادي بالناس: «الحمد لله! إن النيل قد ارتفع اليوم كذا وكذا قياساً». ومتى استوفى الماء قياسات العمود، علموا بأن الفيض قد بلغ الغاية، وأنه قد غمر من الأراضي ما مسافته خمسة عشر يوماً. وعندئذ يبادر الفلاحون وأصحاب المزارع إلى حفر الخلجان والقنوات فيدخلها الماء الوفير، ويدخل معه السمك الكثير، يبقى في الخلجان بعدما تنحسر عنها المياه، فيأخذه الفلاحون ويأكلونه ، ويكبسون ما فاض منه بالملح، فيبيعونه من التجار الذين ينقلونه إلى الأطراف وهذا السمك سمين، لذيذ، والناس هنا تستعمل سمنه للإضاءة. وماء النيل كثير العذوبة ملائم للهضم.

ويقول العارفون بأسباب فيض النيل، إن الأمطار الغزيرة تتساقط في أرض كوش (الحبش) والحويلة (زويلة) فيفيض النيل من سيلها ويغمر الأرض. أما إذا قل فيضه فلا يكون للناس زرع في ذلك العام ، ويصيب البلد قحط شديد.

ويزرع الفلاحون حقولهم في شهر حشوان (تشرين الثاني) عندما تنحسر المياه فيحصدون الشعير في آذار والحنطة في نيسان. وفي موسم الصيف تكثر عندهم أثمار الإجاص والجوز والقثاء والقرع والخروب والفول والذرة والحمص وسائر أنواع الفواكه والبقول مثل الرجلة والهليون والعنب والخس والكزبرة والهندباء والكرنب والعناب. فتفيض الأرض بالخيرات. وتعمر الحدائق والبساتين، تسقيها مياه الخلجان المتشعبة من النيل.

والنيل يفترق على مسافة من مصر إلى أربعة فروع. يجري الأول باتجاه دمياط، أو كفتور الواردة في التوراة ، فيصب في البحر. ويتجه الثاني نحو الرشيد القريبة من إسكندرية فيفيض في اليم. والثالث ينصب بالقرب من أشمون المدينة الكبيرة . أما الفرع الرابع فيجري باتجاه حدود مصر. وهذه الفروع الأربعة عامرة بالمدن والقرى والضياع، والمسافرون يغدون ويروحون فيما بينها براً ونهراً. وبالإجمال ليس في العالم كله بقعة آهلة بالسكان، كثيرة الزروع مثل مصر الواسعة ، المليئة بالخيرات.

وعلى بعد فرسخين من مصر الجديدة، توجد أطلال مصر القديمة. فيها دوارس الآثار والمباني العتيقة وفيها بقايا الأهراء التي شيدها يوسف الصديق (ع) لخزن الحبوب وهناك الأهرام التي بناها السحرة* مما يندر نظيره بين مباني العالم. وهي مشيدة بالحجارة المتناهية ضخامة ومتانة.

وبظاهر المدينة الكنيس الكبير لسيدنا موسى[1] (ع) يقوم على حراسته رجل يعرف بالشيخ أبي نصر. وتبلغ استدارة أطلال مصر

(١) كان موقع هذا الكنيس بالقرب من هرم الجيزة. وتذكر التقاليد اليهودية، أن هذا هو الموقع الذي وقف فيه موسى النبي (ع) وبسط كفيه نحو السماء لاستنزال الضربات العشر على فرعون وآله. ويعتقد العامة أن الكنيس من بناء النبي موسي، في حين أن تاريخه يرجع إلى القرن الأول للميلاد. وبالقرب من هذا الكنيس شجرة دائمة الخضرة يعتقد يهود مصر أن النبي موسى غرز عصاه في هذه البقعة فنبتت في موضع غرزها هذه الشجرة. وكان من عادة اليهود زيارة هذا الكنيس في عيد العنصرة (الأسابيع) من كل عام (GR., IV. 325)

* ارتبطت بالأهرام خرافات كثيرة ،والرحّالة هنا ينقل ما يتداوله الناس ،وهو على أية حال لم يزعم كغيره أن اليهود هم الذين بنوها.(عبد الرحمن)

القديمة ثلاثة أميال. وعلى مسيرة ثمانية فراسخ منها:—

بلبيس[1] *Belbis* أو أرض جاسان القديمة. وهي مدينة كبيرة فيها نحو ثلاثة آلاف يهودي. وعلى مسيرة نصف يوم منها:—

عين شمس[2] *Rameses* أو رعمسيس القديمة. فيها أطلال باقية من بناء العبرانيين القدماء على شكل أبراج متطاولة في الارتفاع. وعلى مسيرة يوم منها:—

أبو تيج[3] *Aboutig* فيها نحو مائتي يهودي. وعلى مسيرة نصف يوم منها:—

بنها[4] *Benha* يقيم بها نحو ستين يهودياً. ومنها إلى :—

سمناط[5] *Semnat* وفيها نحو مائتي يهودي. وعلى مسيرة أربعة فراسخ منها:—

---

(١) مدينة بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ على طريق الشام (ياقوت) أما أرض جاسان ארץ גשן الواردة في التوراة (تكوين ٤٥ : ١٠) فيقصد بها دلتا النيل.

(٢) قال ياقوت : «عين شمس اسم مدينة فرعون موسى بمصر، بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ . كانت مدينة كبيرة وقصبة كورة أتريب. وهي الآن خراب وفيها آثار قديمة وعواميد يسميها العامة مسال فرعون.» ا.هـ أما رعمسيس الواردة في التوراة (خروج ١ :١١ و١٢ :٣٧) فيظن أنها عند قرية أبي خشب على بعد ٤٠ ميلا من السويس (قاموس ك.م.) إلا أن التقاليد اليهودية تقول: إنها عين شمس.

(٣) وتسمى أيضاً بوتيج . بلدة في الصعيد الأدنى من غربي النيل . وهي عامرة نَزِهَةٌ ذات نخل كثير وشجر وثير (ياقوت).

(٤) شعبة من النيل. وأكثر عسل مصر الموصوف بالجودة مجلوب منها (ياقوت).

(٥) هي سمنوع الحالية فى فرع دمياط. بينها وبين المحلة ميلان (ياقوت).

الدميرة[1] *Damira* فيها نحو سبعمائة يهودي. وعلى مسيرة خمسة أيام منها :-

المحلة[2] *Mahalla* فيها نحو خمسمائة يهودي. ومنها إلى :-

إسكندرية[3] *Alexandria* هي نو أمون أو أمون نو الواردة في التوراة. شيّدها الإسكندر المقدوني وجعلها من أجمل المدن وأمنعها

---

(١) الدميرة قرية كبيرة بمصر قرب دمياط. وهي دميرتان، إحداهما تقابل الأخرى على شاطيء النيل في طريق من يريد دمياط (ياقوت)

(٢) هي المعروفة اليوم بالمحلة الكبرى. يذكر ياقوت أنها عدة مواقع أكبرها تسمى محلة دقلة بين القاهرة ودمياط.

(٣) هي المدينة الكبرى التي اختطها الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ق.م. في موضع قرية مصرية قديمة تدعى راكوتيس Rhacotis في بقعة منخفضة بين بحر الروم وبحيرة مريوط Lacus Mareotis أتم بناءها بطليموس الثاني فيلدلفوس Ptolemy II Philadelphus (٢٨٥ - ٢٤٧ق.م.) فاصبحت كرسي دولة البطالسة وأعظم ثغور البحر المتوسط، ولا تزال حتى اليوم محتفظة بمركزها الجغرافي الممتاز. وتسميها التقاليد اليهودية نو أمون נא אמון (ناحوم ٣ :٨) وأمون نو אמון נא (إرميا ٤٦ :٥٥) نسبة إلى الإله أمون المصري . وقد أقام اليهود فيها منذ أول تأسيسها في حيِّهم الخاص في شرقي المدينة الذي يدعى Regio Judaeorum وأصبحت مركز ثقافتهم الهيلانية، حتى إنهم شيَّدوا فيها مقدساً من طراز هيكل القدس وكنائس فخمة من الطراز الهيلاني (J.F., XIII. III3) وحلت اللغة اليونانية عندهم محل العبرية. وفيها ترجمت التوراة إلى اليونانية بأمر بطليموس الأول فيلدلفوس (سنة ٢٧٠ ق.م.) وهي الترجمة المعروفة بالسبعينية Septuagint نسبة إلى ٧٢ عالماً أتموا ترجمتها في ٧٢ يوماً (J.F., XII . II 10 ff) وفيها نبغ الفيلسوف اليهودي يديدية الإسكندراني المعروف باسم فيلون Philo - Judaeus (٢٠ ق.م. - ٥٥م.) (J.F., Ant., XVIII. VII.I) وكان في الإسكندرية جالية كبيرة من اليهود أيام الفتح العربي (سنة ١٦هـ) . وكان لهم مركز معروف في حكم الدول الإسلامية.

فأطلق عليها اسمه. وبظاهر المدينة مدرسة أرسطو أستاذ الإسكندر[١]. كانت مؤلفة من عشرين قسماً يقصدها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم لدرس فلسفة أرسطو. وبناؤها واسع جميل، معقود على أساطين من رخام.

ومدينة إسكندرية مشيدة على طيقان معقودة، تحتها الكهوف والمغاور . وشوارعها مستقيمة لا يحد البصر آخرها لطولها. فالشارع الممتد من رشيد إلى باب البحر ينوف على الميل طولاً . وفي مرساها رصيف يمتد في البحر إلى مسافة ميل[٢] أيضاً.

وفي إسكندرية برج مرتفع يدعى «المنارة» ويسميه العرب «منار الإسكندرية[٣]» وقديماً كان في أعلى البرج مرايا من زجاج، تراقب

---

(١) كانت هذه المدرسة تحتوي على مكتبة الإسكندرية الشهيرة. تأسست سنة ٢٨٤ ق.م. واحترقت مرة سنة ٤٧ ق.م وأخرى سنة ٢٥٠م. (H.S. Williams, H.H.W. VIII. 163)

(٢) هو الرصيف المسمى في خطط إسكندرية القديمة Heptastadium كان يوصل ما بين المدينة وجزيرة فاروس Insula Pharus حيث المنار الشهير. وكان طوله حسبما رواه الأقدمون نحو ١٥٠٠ يردة (J.F., Ant . XII. II. 12)

(٣) هي منارة الإسكندرية الشهيرة، إحدى عجائب الدنيا السبع القديمة. كانت قائمة على الزاوية الشرقية من جزيرة فاروس Pharus . عند مدخل ميناء الإسكندرية . شيده المعمار اليوناني Tostratos Cnidos سنة ٢٩٠ وفرغ منه سنة ٢٨٠ق.م. بأمر الملك بطليموس الثاني فيلادلفس (٢٨٥-٢٤٧م.) وكان ارتفاع المنار نحو ٤٥٠ قدماً. له قاعدة مربعة ووسط مثمن وقمة مستديرة، يستدل على ذلك من روايات الأقدمين الذين شاهدوه، ومن قطعة نقد نحاسية اكتشفت حديثاً، كانت مضروبة في الأسكندرية على عهد الإمبراطور تراجان (٩٨-١١٧م.) وعليها صورة المنار واضحة. وكان في أعلى المنار موقد ينبعث منه الدخان نهاراً وألسنة اللهيب ليلاً =

بوساطتها مراكب القرصان القادمة من أنحاء الروم وبلاد المغرب، من مسافة خمسين ميلاً عن الشاطئ ، فتتخذ الأهبة لمنازلتها. وحدث بعد وفاة الإسكندر بعصور عديدة، أن قدم إسكندرية مركب يقوده ملاح رومي ذو حيلة ودهاء يدعى تيودرس، وكانت بلاد الروم يومئذ محكومة من مصر. فأحضر الرومي لملك مصر تحفاً وهدايا نفيسة من فضة وذهب وأثواب الحرير، وألقى مرساه بإزاء المنار، في الموضع الذي ترسو السفائن القادمة من وراء البحر. ثم تودد إلى حارس المنار وصار يأدب له المآدب، يدعو إليها أعوانه أيضاً حتى توثقت عرى الصداقة بين الاثنين.

وفي ذات يوم كان حارس المنار وأعوانه يعاقرون الخمر عند الملاح الرومي، فأغرقوا بالشراب حتى تولاهم سبات عميق. فانتهز الملاح فرصة نومهم فصعد إلى أعلى المنار ومعه عبيده فحطموا المرايا ولاذوا بالفرار في جنح الظلام. وبعدها صار الروم يغيرون بسفنهم الكبيرة فاستولوا على جزيرتي إقريطش (كريت) وقبرص فدخلتا في حكم الروم إلى يومنا هذا. فلم يعد بإمكان أهل مصر الوقوف بوجه الروم.

=تعكسها مرايا كبيرة لهداية السفن. وإن ما شاهده بنيامين وابن جبير من المنار كان في أخريات أيامه. ولما زاره ابن بطوطة سنة ٧٥٠هـ. وجده قد استولى الخراب عليه بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه. وبعده بقليل أصاب المنار زلزال قوض أركانه وذهب بمعالمه. وفي سنة ١٤٨٠م. شيدت في موضع المنار قلعة قايتباي المعروفة عند مدخل الإسكندرية.

ولا يزال منار الإسكندرية يهدي السفائن الغادية والرائحة، ويشاهد عن بعد مائة ميل نهاراً[١] وفي الليل ينبعث منه نور يهتدي به الملاحون.

وإسكندرية بلدة تجارية فيها أسواق لجميع الأمم. يؤمها التجار من الممالك النصرانية[٢] كافة. من البندقية، والأنبرذية وطسقانية وأفولية وأمالفي وصقلية وقلورية وورومانية وخزرية والبجناقية وهنغارية وبلغارية وراغوسة وخرواتية وصقلابونية وروسية وألمانية وسكسونية والدانمرك وكورلندة والنورجة وفريزية وأسكوتية وإنكلترة وويلز وفلندر وهينولت ونورمندية وفرنسة وبواتو وأنجو وبرجونية وبروفنسية وجنوة وبيزة وغسقونية وأرغون ونبارة وعدوة الغرب وإفريقية وجزيرة العرب

(١) كذا. ويروي ابن جبير أنه كان يظهر على أكثر من سبعين ميلا. والرأي المتفق عليه من المحققين ٢٥ ميلا.

(٢) يعد هذا الثبت الذي يورده بنيامين للبلدان الشرقية والغربية التي كانت تتجر مع إسكندرية من الوثائق الاقتصادية المهمة للقرون الوسطى، كما يدل على ما كان لهذا الرحالة من نظرة تجارية عميقة، إذ نراه هنا غير ذلك الجوال الذي يبحث عن قبور الصالحين للزيارة والتبرك. وأغلب الظن أنه تعرف إلى بعض ربابنة السفن وتجار إسكندرية فتيسر له الحصول على هذه المعلومات. وفيما يلي ثبت الأسماء الأعجمية بالإنكليزية تسهيلا لتعيين مواقعها:-

Venice, Lombardy, Tuscany, Aefula, Amalfi, Sicily, Calabria, Rumania, Chazaria, Patzinakia, Hungary, Bulgaria, Ragusa,في صقلية, Croatia, Slavonia, Russia, Germany, Saxony, Denmark, Courland, في سواحل البلطق الشرقية, Norway, Friesland, في هولندة, Scotland, England, Wales, Flanders, في بلجيكا, Hainault, في هولنده, Normandy, France, Poitou, Anjou, Burgundy. Provence, Genoa, Pisa, Gascony, Aragon, Navarre.

ونواحي الهند وزويلة والحبشة وليبية واليمن والعراق والشام واليونان المعروفين بالروم والترك.

وتأتيها من الهند التوابل والعطور بأنواعها فيشتريها تجار النصارى. ولتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم، وهم في ضجة وجلبة يبيعون ويشترون.

وبظاهر المدينة، على شاطئ البحر، يشاهد عمود كبير من رخام. عليه صور الطير والحيوان وكتابات ورموز قديمة، ليس بميسور أحد اكتناه طلاسمها[1]، ويقال: إنها قبر ملك عاش قبل الطوفان، يبلغ طوله خمسة عشر شبراً بالطول وستة أشبار بالعرض.

ويعيش في إسكندرية نحو ٣٠٠٠ يهودي. وعلى مسيرة يومين منها:-

دمياط[2] *Dimiatta* أو كفتور الواردة في التوراة. فيها نحو مائتي يهودي وتبعد مسيرة ثلاثة أيام عن بحيرة التماسيح. ومنها إلى:-

سنباط[3] *Sanbat* حيث يزرع الكتان. وأهلها ينسجون منه الأثواب الناعمة ويتجرون بها مع جميع أنحاء العالم. وعلى مسيرة

---

(١) لعله يقصد هنا حجر الرشيد المعروف الذي أصبحت كتاباته مفتاحاً للرموز الهيروغليفية.

(٢) مدينة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل، مخصوصة بالهواء الطيب. ومن شمالي دمياط يصب ماء النيل إلى البحر الملح في موقع يقال له أشتوم. (ياقوت). أما كفتور فقد وردت في (تثنية ٢ :٢٣ وإرمية ٤٧ : ٧ وعاموس ٩ :٧) زعم البعض أنها كريت ويرجح أنها في الوجه البحري من مصر (قاموس ك.م.)

(٣) سنباط ويقال لها أيضاً سنبوطية. بليد حسن في جزيرة قوسينا في نواحي مصر (ياقوت).

أربعة أيام منها :-

إيلة[١] *Ailat* أو إيليم الواردة في التوراة. فيها مضارب الأعراب الذين يسكنون الصحراء. وعلى بعد يومين منها :-

رفيديم[٢] *Rephidim* سكانها من العرب وليس فيها يهود. تبعد مسيرة يوم عن طور سيناء، وهو جبل صغير في قمته دير للرهبان السريان. وفي أسفله قرية صغيرة تدعى «الطور» يتفاهم أهلها بالآرامية. تبعد عن مصر مسيرة خمسة أيام وعن بحر القلزم مسيرة يوم واحد. وبحر القلزم فرع من بحر الهند. ومنها كانت عودتنا إلى دمياط وتنيس أو حانيس[٣] الواردة في التوراة ، حيث يقيم نحو أربعين يهودياً. وهي جزيرة يستدير بها البحر.

وهنا انتهى مقامنا في أرض مصر فركبنا البحر. وبعد مسيرة عشرين يوماً بلغنا :-

---

(١) إيلة مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام وهي آخر الحجاز وأول الشام (ياقوت) . وكانت إيلة في غابر العصور ثغراً تجارياً مهماً على خليج العقبة. ورد ذكرها في التوراة אילת (١ ملوك ٩ :٢٦–٢٨) كمدينة ذات شأن تجاري كبير. وهي غير إيليم التي ينوه عنها بنيامين. فإن هذه كانت إحدى المحطات التي وقف عندها الإسرائيليون في صحراء التيه (خروج ١٥ : ٢٧).

(٢) إحدى المحطات التي وقف عندها بنو إسرائيل في صحراء التيه (خروج ١٧ :١) يرجح أنها كانت في وادي فيران عند موضع يسمى حصى الخطاطين.

(٣) تنيس جزيرة في بحر مصر قريبة من البر بين الفرما ودمياط (ياقوت) . أما حانس (إشعيا ٣٠ :٤(فبلدة كانت في مصر السفلى سماها اليونان Daphne . ويرجح أن موقعها كان في تل دفنة في دلتا النيل.

مسينة[١] *Messina* هي أول جزيرة صقلية. موقعها عند مضيق لونير[٢] الذي يفصلها عن قلورية (كلابرية) . يقيم بها نحو مائتي يهودي وهي بلدة كلها خيرات ورياض وبساتين. وفي مينائها يجتمع حجاج النصارى قبل إقلاعهم إلى القدس ، بالنظر لموقعها الممتاز. وعلى مسيرة يومين منها :-

بلرمو[٣] *Palermo* البلدة الكبيرة التي تبلغ استدارتها ميلين بالطول ومثلها بالعرض. يقيم بها نحو ١٥٠٠ يهودي مع كثير من النصارى والمسلمين.

وتكثر في هذه المدينة العيون والوديان وحقول الحنطة والشعير. وبساتين الأشجار المثمرة مما لا مثيل له في جميع مدن صقلية. وفيها

---

(١) هي Messana القديمة الواقعة على رأس صقلية الشمالي الشرقي. كان اليونان القدماء يسمونها Zancle أي المنجل لاستدارة فرضتها. ولم تعرف باسمها الحالي إلا في سنة ٤٩٤م. ومن أسمائها القديمة أيضاً ممرتينة Mamertinae (C.D.)

(٢) هو مضيق مسينه الحالي. وكان يعرف قديماً باسم Fretum Siculum .

(٣) هي بلدة Panormus القديمة. استولى عليها الرومان سنة ٢٥٤ ق.م. والوندال سنة ٤٤٠م. والعرب سنة ٨٣٢م. ثم دخلت في حكم النورمان سنة ١٠٧٢م. وكانت هذه المدينة مركزاً من مراكز الثقافة العربية والجسر الذي عبرت عليه حضارتهم إلى القارة الأوروبية. وكان لعلماء اليهود فيها شأن كبير في نقل الآثار العربية إلي اللاتينية. نخص بالذكر منهم فرج بن سالم المعروف باسم Farrachius أو Farragut الذي نقل كتاب «الحاوي» للرازي إلى اللاتينية سنة ١٢٧٩م. بعنوان Liber Contiens وموسى البلرمي الطبيب الشهير. وكان العرب قد أنشأوا في صقلية معامل مهمة لمنسوجات الحرير كانت لها شهرة في أوروبة. (Legacy Of Islam, 221, 325, 349)

قـصـر الملك ولـيـم[١]، ومـقـر الوصـي علـى عـرشـه. وتعـرف هـذه البـلدة بالحصينة *Al Hacina* وفيها خزان كبير للماء يعرف بالبحيرة *Al Buhira* تحتوي من ضروب السمك الشئ الكثير. فيخرج إليها الملك للنزهة، بقوارب أنيقة موشاة بفضة وذهب وتخرج معه نساء قصره. وهذا القـصـر بناء فخم. جدرانه ذات نقوش بديعة مموهة بالذهب والفضة. وبلاطته من رخام ملون بجميع الألوان المعروفة.

وهذه البلدة من أعمال جزيرة صقلية، حيث يحتشد حجاج النصارى. أما سائر مدنها فسراكوزة وكتانية ومرسالة وبترالية وترباني. وتبلغ استدارة الجزيرة مسيرة ستة أيام. وفي ترباني يوجد المرجان[٢] المعروف.

وكان سفرنا من هذه الجزيرة بطريق البحر. وبعد مسيرة ثلاثة أيام بلغنا روميه، ومنها سافرنا بطريق البر إلى لوكا، وهي على مسيرة اثني عشر يوماً من بردين[٣] بطريق جبل موريان[٤] والمفاوز الإيطالية. وعند بردين تبدأ تخوم ألمانية الواقعة بين الجبال والهضاب.

وتقيم أغلب الجاليات اليهودية في ألمانية على ضفاف نهر الراين[٥]

---

(١) هو وليم الثاني الملقب بالصالح، ملك صقلية (١١٦٦-١١٨٩م) انتقل إليه العرش وعمره اثنتى عشرة سنة فتولى الوصاية عليه اسطيفان أسقف بلرمو والملكة الوالدة. ويقول ابن جبير الذي زار صقلية سنة ١١٨٣ إن مقر الملك «غليام» كان في مسينة (ص٢٧١)

(٢) يسمي الإدريسي صقلية بجزيرة المرجان. والمرجان لفظة فارسية لنبات بحري يسميه العرب «البَسد» بفتح الباء وإهمال السين.

(٣) Verdun, (٤) Mt. Maurrienne, (٥) Rhine,

من كولونية[1] إلى رجنسبورغ[2] ومسيرتها خمسة عشر يوماً. ويسمي اليهود هذه المملكة أشكناز[3] وفيها مدن عظيمة بها جماعات مهمة من اليهود. وأهم هذه المدن متز وتريفس الواقعتان على ضفاف الموزيل وكوبلنز وأندرناخ وبونة وبنجن ومونستر وفورمس.[4]

وفي هذه المدن عدد كبير من العلماء. والجاليات اليهودية فيها على علاقات طيبة بعضها مع البعض الآخر. وأفرادها كرماء مضيافون، يقرون الضيف ويكرمون وفادته.

وهم على ما هم فيه من ضيق شديد، يشد بعضهم أزر بعض ويجددون الأمل في أن يوم الخلاص لا بد آت مثل رجع البصر[5]. فيتبادلون الرسائل لتقوية العزائم والتمسك بشريعة موسى (ع). وبينهم جماعة يرتدون السواد ويقيمون الصلوات من أجل إخوانهم[6].

---

(١) Cologne, (٢) Regensburg,

(٣) ينقسم اليهود حسب مواطنهم وطريقة لفظهم العبرية وإقامتهم بعض الطقوس الدينية إلى قسمين: يهود ألمانية وأوروبة المركزية والشمالية ويعرفون بالأشكنازيم אשכנזים، ويهود أسبانية وأوروبة الجنوبية، والشرقين الأدنى والأوسط مع شمالي إفريقية ويعرفون بالسفارديم ספרדים وليس بين الفريقين أي خلاف بالمعتقد.

(٤) Treves, Moselle, Coblenz, Andernach, Bonn, Bingen, Munster, Worms, Metz,

(٥) كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر من أشد العصور عسراً وضيقاً ليهود أوروبة المركزية، فقد اجتاحتهم الجيوش الصليبية وأعملت السيف بعدد كبير من الجماعات اليهودية في حوض الراين. ولا تزال الصلوات تقام حتى اليوم على أرواح شهداء تلك العصور المظلمة في كنائس اليهود في أوروبة.

(٦) راجع الحاشية ١ من ص ٢٥٦ في هذا الكتاب.

وهناك من المدن غير التي ذكرناها شتراسبورغ وفورسبورغ ومنترن وبمبرغ وفرايزنغ[١] في أقصى حدود ألمانية. ووراء هذه الحدود تقع بوهيمية حيث مدينة براغ وتسمى تلك البلاد صقلبونية[٢]، وأهلها يبيعون أولادهم للخدمة في مختلف الأمم والشعوب.

ووراء تلك البلاد تقع أراضي روسية. وهي واسعة الأرجاء تمتد من نواحي براغ إلى كييف، المدينة الكبرى الواقعة عند حدود المملكتين. والمسافة بينهما وعرة المسالك، كثيرة الغابات، فيها نوع من الحيوان يسمى «فيفرجس[٣]» يؤخذ منه أجود الفراء المعروف بالأرمين. ويشتد البرد شتاء في هذه الأنحاء، بحيث لا يقدر أحد على مغادرة مسكنه. تلك هي مملكة روسية.

أما فرنسة، ويسميها اليهود صرفث[٤]، فتمتد من مدينة أو سير إلى مدينة باريس العاصمة، مسيرة ستة أيام. وتقع باريس على ضفة نهر السين. يحكمها ملك يدعى لويس[٥] وفيها عدد من كبار علماء

---

(١) Freising, Bamberg, Mantern, Wurzburg, Strassburg,

(٢) هي بلاد الصقالبة. وكان الصقلب يؤلفون جيوش المرتزقة عند أغلب ملوك أوروبة. وكان لهم شأن يذكر في قصور ملوك المسلمين في الاندلس. ولفظة Esclave أو Slave الإفرنجية، ومعناها المملوك، مأخوذة من لفظة Slav أو Sclav أي صقلب.

(٣) نوع من الفنك يسمى Vaiverges يؤخذ منه الفرو المعروف Ermine.

(٤) يطلق اليهود لفظة أشكناز אשכנז على المانية وسفاراد ספרד على أسبانية وصرفت צרפת على فرنسة.

(٥) هو لويس السابع ملك فرنسة الملقب بالصغير Louis Le Jeune ولد سنة ١١٢٠

اليهود ذوي الشهرة الواسعة، يعكفون على درس التوراة . وهم كرماء، يحسنون إلى ضيوفهم، وعلاقتهم بسائر إخوانهم على خير ما يكون من الصفاء.

رحمهم الله ورحمنا، مصداقاً لما جاء عنا وعنهم في كتابه المقدس. آمين.

﴿انتهت رحلة بنيامين﴾

رابعاً

ملحقات من وضع المترجم *

عـــزرا حـــداد *

---

* لابُد من مراجعة الدراسة في صدر الكتاب لأن المترجم يهاجم الطائفة السَّامرية وطائفة القرّائين لأنه غير متفق معهما، وهو يكتب من وجهة نظره الدينية – وفي الدراسة في صدر الكتاب توضيحات كافية. (د. عبد الرحمن الشيخ)

ملحقات

١- السامريون.

٢- القراؤون.

٣- غاؤونية بغداد ورئاسة الجالوت في القرن الثاني عشر للميلاد.

٤- فتنة داود بن الروحي.

السامريون

السامريون أو السامرية، فرقة دينية نشأت في فلسطين بعد سقوط مملكة إسرائيل باستيلاء تغلث فلاسر ملك آشور على مدينة السامرة عاصمتها، سنة ٧٣٨ ق.م. فقد جرى هذا الفاتح على عادة كان ملوك الآشوريين يتبعونها في غزواتهم، فأجلى الإسرائيليين عن مواطنهم إلى نواحي الخابور وشمالي إيران، وأحل في محلهم قبائل جاء بها من أطراف بابل وكوثة وعوة وحماة وسفروايم[١]. فسمى اليهود هؤلاء المهاجرين بالكوتيينכותים وسماهم اليونان بالسامريين[٢] ، فغلب الاسم الأخير عليهم.

ويروي الكتاب المقدس أن هؤلاء الأجانب الذين استوطنوا السامرة وما جاورها، نقلوا إليها الأوثان التي كانوا يعبدونها في مواطنهم الأصلية. فكان البابليون يعبدون الوثن «سكوت بنوت מכות בנות» والكوثيون «نرغلנרגל» وأهل حماة «أشيما אשימא» والعويون الصنمين «نبحز وترتق נבחז ותרתק» وكان أهل سفروايم يقدمون الأضاحي البشرية إلى مولوخ ، الذي يسمى عندهم «أدرملخ وعنملخ אדרמלך וענמלך» . فسلط الله عليهم سباعاً أخذت تفتك بهم، فطلبوا حماية رب المهجر الجديد الذي استوطنوه، ورفعوا أمرهم إلى ملك أشور،

---

(١) كانت كوثة على بعد ١٥ ميلا شرقي بابل. عوة ، على قول روبنسن، بنواحي هيت. وسفروايم بين هيت وبابل (قاموس ك.م.)

(٢) J.F., Ant., IX . XIv . 3

فأمر بأن ينقل إليهم أحد الكهنة من أسرى الإسرائيليين ليعلمهم عبادة « يهوه » إله إسرائيل، فصاروا يعبدونه، حسب عقليتهم الوثنية ، إلى جانب أربابهم وأصنامهم(١).

وكان طبيعياً ألا يقبل الإسرائيليون هؤلاء الغرباء إلى حظيرتهم، بل كانوا يعتبرونهم وثنيين مشركين، ويسمونهم « شومرونيم שומרונים »أي السامريين .فقبل السامريون بهذه التسمية ،وإن كانوا أولوها بمعنى« شمرنيم שמרנים أي المحافظين، ادعاءً منهم أنهم كانوا المحافظين على شريعة موسى وأحكامها، وأن ديانتهم هي الدين الموسوي الأصلي(٢).

وبمرور الأيام، ازداد بعد الشقة بين اليهود والسامريين، واستفحل أمر هؤلاء بعد ما أجلى بخت نصر اليهود إلى بابل (٥٨٦ق.م.) إذ أنشأ السامريون لنفسهم إدارة مستقلة في فلسطين ، حتى إذا ما أذن كورش ملك الفرس لليهود بالعودة (٥٣٨ق.م) وشرعوا بتجديد بناء هيكل القدس (٥٢٠ق.م.) أثار السامريون ضجة كبيرة وقدموا احتجاجاً إلى ملك الفرس، فصاروا سبباً في تأخير البناء مدة(٣). فحنق اليهود حنقاً شديداً على السامريين، فحرموا الزواج من بناتهم، وأجبروا المتزوجين بالسامريات منهم على طلاقهن.

وعلى هذا قام السامريون من جانبهم بحركة مقابلة. فشيدوا هيكلاً مضاهياً لهيكل القدس فوق جبل الجرزيم (الطور)، وأقاموا عليه كاهناً

---

(١) راجع (٢ ملوك. ١٧ : ٢٤-٤١)

(٢) Rev. Th. Walker, In His Steps. II. 549 Bent., W.P.L., 129

(٣) سفر عزرا ، ٤ : ١ – ٢٤.

من بعض كهنة اليهود الناقمين واتخذوا أسفار موسى كتاباً مقدساً لهم، ورفضوا ما سواها من أسفار اليهود، وبذلك تم الانفصال بين اليهود والسامرية إلى غير ما عودة[١].

وفي سنة ٣٣٠ق.م. اجتاحت جيوش الإسكندر أراضي فلسطين، فأدخلت إليها البدع والتقاليد الهيلانية ووثنية الإغريق، وأخذ اليهود يقاومون هذه البدع المخالفة لدين التوحيد، فذاقوا من جراء ذلك اضطهاداً شديداً من ملوك السلوقيين. أما السامريون فقد أظهروا تساهلا تجاه الوثنية الهيلانية، فنالوا بذلك عطف السلوقيين . واستغلوا هذا العطف ضد اليهود، بأن كرسوا معبدهم للإله جوبيتر الهيلاني *Jupiter Hellenius*[٢] الأمر الذي أثار نقمة اليهود عليهم، فلقبوهم بفرقة المجاذيب[٣].

فلما ثار اليهود لمعتقدهم وكيانهم بزعامة المكابين، وتخلصوا من ربقة السلوقيين (القرن الثاني ق.م.) ، وجدوا الفرصة الملائمة للانتقام من السامريين فغزوهم بقيادة يوحنة هرقنوس المكابي **John Hyrcanus** واستولوا على السامرة ودمروها وهدموا معبد السامرية على جبل جرزيم بعد مرور نحو ثلثمائة سنة على إنشائه (١٩٠ق.م.) فجعلوا من يوم انتصارهم هذا على السامريين عيداً كانوا يحتفلون به كل عام، يعرف بيوم جرزيم[٤].

---

(١) J.F., Ant XI. VIII. 7

(٢) المصدر نفسه J.F., XII . V.

(٣) j.b. Sirach, Ecclesiasticus. L. 25

(٤) التلمود، تعنيث، الفصل ٩ GR., I. 415,

لكن العداء المستحكم بين السامريين ومناوئيهم اليهود، ظل كامناً كمون النار في الحجر وكان السامريون يتحينون الفرص للإيقاع بخصومهم ويستغلون التطورات السياسية لتنفيذ غايتهم. فعندما اجتاح فلسطين القائد الروماني بومبي، قابله السامريون بترحاب وتعاونوا معه في الاستيلاء على القدس (٦٣ق.م.) ، فكافأهم بأن أعاد إليهم استقلالهم ويسر لهم إعادة بناء هيكلهم.

وبعد قرن من السنين قام اليهود بثورتهم الكبرى ضد رومية، فكان أول عمل قام به الثوار أنهم أغاروا على السامريين ودمَّروا هيكلهم مرة أخرى . فثأر السامريون لأنفسهم بأن انضموا إلى الجيش الروماني الذي قدم لإخماد الثورة بقيادة إسبازيان، فصاروا يدلونه إلى مواطن الضعف في وسائل دفاع اليهود والسبل السرية المؤدية إلى معاقلهم، وعندئذ أعاد إسبازيان بناء بلدة شيكيم وأطلق عليها اسم ***Flavia Neapolis*** (نابلس) فصارت إدارتها رومانية . وفي سنة ١٣٢م. جدّد القيصر أدريان معبد جوبيتر فوق الجرزيم، وهو المعبد الذي مازالت أطلاله قائمة حتى اليوم، فأراد بذلك أن يصرف الأنظار عن هيكل اليهود في القدس بعد تدميره.

ومن غريب أمر هؤلاء السامريين، أنهم على الرغم من الجفاء الذي كان مستحكماً يومئذ بينهم وبين اليهود، وعلى تساهلهم في قبول البدع الهيلانية، لم يتحمسوا لظهور النصرانية ولم يقبلوا بها. لذلك لحق بهم الأذى الذي أصاب اليهود بعد القرن الرابع للميلاد، عندما أصبحت النصرانية دين الدولة الرسمي في الإمبراطورية الرومانية. فقد

سن القيصر تيودوروس ومن بعده جستنيان الأول القوانين الصارمة ضد السامريين، فاضطر عدد كبير منهم إلى اعتناق الديانة الحاكمة، فتحول هيكل جوبيتر فوق الجرزيم إلى كنيسة للعذراء (٥٣٠م.) فكادت السامرية أن تفنى عن آخرها[١].

وفي فترة الاضطهاد الذي كان يهدد السامريين بالاضمحلال، نشأ بينهم مصلح كبير يدعى «بابا ربة בבא רבא» فعقد مجلساً مؤلفاً من سبعة حكماء، ثلاثة منهم يمثلون الأحبار وأربعة يمثلون العوام. فدوّن هذا المجلس التشريعي قواعد الطريقة السامرية وتقاليدها الموروثة، حفظاً لها من الاندثار؛ كما أن حدة الجفاء المستحكم بين السامريين واليهود كانت قد خفت بتأثير موجة الاضطهاد التي غمرت الفريقين، فقربت المصائب بينهما، فلم يعد اليهود ينظرون إلى السامرية نظرهم إلى نحلة وثنية مثلما كانوا يفعلون في السابق، سيما وأن السامريين كانوا بمرور الزمن قد تركوا أوثانهم القديمة. فاعتبروهم فرقة يهودية ذات صبغة خاصة، بل صاروا يمتدحون تمسكهم ببعض الشعائر الموسوية وحرصهم الشديد على تطبيقها[٢]. لكن هذا التقارب لم يلبث أن وقف عند حد معين. وفصلت الأمور الذي يحل لليهودي أن يتعاطاها مع السامري بفصل خاص ألحق بالتلمود يعرف بفصل الكوتيين (السامريين) מסכת כותים.

وفي القرن السابع للميلاد تقلص ظل الروم عن فلسطين بفضل الفتح

---

(١) GR., II. 374, III. 27

(٢) التلمود، براخوث ص٤٧ ب وقدوشين ١٧٦أ

الإسلامي. فاستفاد اليهود والسامريون على السواء من تسامح المسلمين تجاه معتقد الشعوب المحكومة منهم فأصبح السامريون في عداد أهل الذمة. وفي أيام الدولة الفاطمية أصاب السامريون عزا ورفاهة. فكان يحكمهم عامل سامري من صفورية يدعى «تقوى بن إسحق» (أواخر القرن العاشر للميلاد). ويحدثنا مؤرخو العرب عن وجود جماعات مرفهة منهم في الشام ومصر. وهناك رسالة من سنة ١٢١٤م. تدل على الشأن الذي بلغته هذه الطائفة في نابلس(١).

والظاهر أن الحملة الصليبية التي أهلكت عدداً غفيراً من اليهود والمسلمين في فلسطين لم تؤثر كثيراً على السامريين. فقد وجد بنيامين الذي زار مواطنهم قرابة سنة ١١٧٠م. نحو ألف عائلة منهم في نابلس و٢٠٠ في قيسارية و٣٠٠ في عسقلان و٤٠٠ في دمشق، كما يحدثنا عن احتفالهم بعيد الفصح على شكل ماهو معروف عنهم في الوقت الحاضر. أما قوله بأن الكتابة السامرية تنقصها ثلاثة أحرف فلا صحة له. وكل ما هناك هو أن السامريين قد احتفظوا بالخط العبراني القديم. في حين اقتبس اليهود الخط الآشوري المربع بعد عودتهم من سبي بابل(٢).

والسامريون موحدون، لا ريب في توحيدهم. واعتقادهم راسخ في أنهم من بني إسرائيل من آل يوسف الصديق. وهم لا يعترفون بغير أسفار موسى الخمسة من الكتاب المقدس، يتبعون نصوصها ومنطوقها

(١) اليعقوبي ٣٢٩ و Adler, Chroni. Samari. 92-93

(٢) راجع حاشية ٢ ص٢٤٥ من هذا الكتاب.

الحرفي، شأنهم بذلك شأن القرائين في عدم اتباعهم أحكام التلمود. فهم شديدو الحرص على حرمة السبت. لا يرى عندهم فيه نار أو نور. ويصومون يوم الكفارة مثل سائر اليهود، لكنهم يتشددون به فلا يستثنون منه حتى الأطفال والمرتضعين. وفي عيد الفصح يحجون جبل الجرزيم فينحرون الأضاحي مثلما كان يفعل الإسرائيليون قديماً على جبل القدس. وهم يسمون الحجر الذي ينحرون عليه أضحيتهم بالصخرة، تشبهاً بالصخرة المعروفة في الحرم الشريف.

والسامريون مثل سائر اليهود، يؤمنون بيوم القيامة وبوجود الملائكة، وظهور المسيح في آخر الأيام لكنهم يزعمون أنه سيكون من آل يوسف، على حين يعتقد اليهود أنه من آل داود. وباعتقاد السامرية أن هذا المسيح المنتظر سيموت عندما يبلغ العشرين بعد المائة من عمره. وبعد دفنه تقوم القيامة ويحل يوم الدين.

وقد عني بأخبار هذه الفرقة عدد كبير من الرحالة الأوروبيين في القرون الوسطى والحديثة. وفي سنة ١٥٨٤م. عثر العلامة سكاليجر Scaliger في القاهرة على تقويمين قديمين للسامريين كما وجد في غزة مخطوطات خاصة بهم فوضع على إثر ذلك أول رسالة علمية في السامرية وتاريخها وتقاليدها . وبعده بربع قرن نشر عالم إيطالي النص الأصلي لنسخة التوراة السامرية كان قد عثر عليها في دمشق ، فأثار نشرها اهتمام المحققين، وكتبوا عنها البحوث المطولة. ولا يزال النقابون يعثرون بين حين وآخر على آثار وكتابات سامرية قديمة، فيها ما يلقي

ضوءاً جديداً على تاريخ هذه الطائفة التي استطاعت أن تحافظ على كيانها أكثر من عشرين قرناً.

ويقيم اليوم أبناء هذه الفرقة في نابلس وضواحيها، وقد تقلّص عددهم إلى نحو خمسين عائلة. وهم يحترفون بعض المهن الصغيرة ويبيعون العاديات التي يزعمون قدمها، للسياح والزوار الذين يقصدونهم من أوروبة وأمريكا. بل إن السامريين أنفسهم قد أصبحوا أكثر شبهاً بالآثار القديمة التي يبيعونها، وقد لا يمر وقت طويل قبلما يسدل الستار نهائياً على آخر أبناء هذه الطائفة السامية القديمة.

القراؤون

القراؤون ويعرفون بالعنانية أيضاً، فرقة من اليهود أسسها في العراق عنان بن داود المتوفي في حدود سنتي ٧٩٠-٨٠٠م. بنتيجة خلاف نشب حول توليته منصب رأس الجالوت. وحكاية هذا الخلاف، أن رأس الجالوت صموئيل بن حسداي توفي سنة ٦٧١م. من غير أن يعقِّبَ ولداً يخلفه في منصبه وعلى هذا عقد علماء اليهود مجلساً برئاسة الأخوين يهوداي البصير بن نحمن عميد مدرسة سورا ودوداي بن نحمن عميد مدرسة فومبديثة (الأنبار). وكان عنان أرجح المرشحين لتولي هذا المنصب السياسي العلمي الخطير. لكن عددا من أعضاء المجلس ذكروا عنه فساد السيرة وسوء الأخلاق وقلة التقوى، فرجحوا عليه أخاه الأصغر حنانية بن داود. فثارت نقمة عنان على هذا

القرار الذي عده غمطاً لحقوقه، وقرر الخروج على الرّابيِّين وشجب تعاليمهم ورفض تلمودهم.

وكان العراق يومئذٍ، في خلافة أبي جعفر المنصور، يحفل بمختلف الميول والنزعات الفلسفية، بفضل احتكاك الفكر الإسلامي بثقافة الفرس واليونان. وكان بعض علماء اليهود قد تأثروا بآراء المعتزلة وأصحاب « الكلام » من المسلمين ، فصاروا ينتقدون تعاليم الرّابيِّين ويتحفزون للخروج على أحكام التلمود وقيوده. وكان على رأس هذه الحركة الفكرية الجديدة ثلاثة من علماء اليهود هم الرّابيُّون إفرايم، وأليشع المعلم، وحنوكة، فوجدوا بثورة عنان ضالتهم المنشودة، بالنظر لمقامه ونفوذه الذي كاد أن يرتفع به إلى رئاسة الجالوت، فنصبوه على رأس حركتهم، وصاروا يعرفون بالقرائين הקראים أو بني المقرأ בנימקרא[١] إشارة إلى تمسكهم بالمعنى الحرفي للتوراة ورفضهم ما عداها من كتب التشريع الإسرائيلي[٢] وتمييزا لهم عن اليهود الربانيين الذين يتبعون تعاليم التلمود في شرح وتفسير أحكام التوراة.

وكان طبيعياً أن تقوم قيامة الرّابيِّين على عنان وأصحابه. فانبروا يكافحون بدعته ويقاومون نحلته بما أوتوا من حول وطول، قبلما يستفحل أمرها ويشتد ساعدها. فرفع رأس الجالوت قضية عنان إلى الخليفة أبي جعفر المنصور. وكان الخليفة يومئذ يتوجس شراً من

---

(١) المقرأ لفظة عبرية يعني مدلولها الحرفي « القراءة » يطلقها اليهود على التوراة. وهي على هذا تقابل لفظة « القرآن » العربية.

(٢) GR., III. 187

أصحاب البدع الفكرية والمذهبية الجديدة، ويرى فيها مصدراً للفتن والقلاقل في مملكته الفتية. أما من ناحية اليهود، فقد تذكر الخليفة الشقاق الذي تركته بينهم فتنة أبي عيسى إسحق بن يعقوب عبيد الله الأصبهاني[١] في أول حكمه. فوجد في دعوة عنان فاتحة شغب وشحناء في وقت كانت الدولة بحاجة إلى الاستقرار بين مختلف عناصرها، لذلك أمر بحبس عنان بن داود بتهمة ثورته على رأس الجالوت، صاحب السلطة الشرعية على أبناء ملته[٢].

ويروي مؤرخو الفرقة العنانية أن زعيمهم داود في أثناء مكوثه في السجن، تلاقى مع الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت، وكان يومئذ سجيناً مثله لأسباب لا محل لشرحها هنا[٣] فقصَّ عليه عنان قصته، فأشار عليه الإمام بأن يدّعي أنه ليس ثائراً على رأس الجالوت، وأنه صاحب دين قائم بنفسه لا علاقة له بدين اليهود، لذلك فإن من حق جماعته أن تتمتع بحرية المعتقد شأن سائر أهل الذمة في المملكة الإسلامية. ويقال كذلك إن أصحاب عنان كانوا قد بذلوا من جانبهم المال الوفير لإنقاذ رئيسهم، فآل الأمر إلى إطلاق سراحه، لكن الخليفة اشترط عليه أن يبتعد وأتباعه عن مقر رأس الجالوت، وأن يجعل مقامه فلسطين[٤].

---

(١) الملل والنحل، لمحمد الشهرستاني. ص١٦٨ . طبعة لندن.

(٢) GR., III 188

(٣) ضحى الإسلام، لأحمد أمين. ج٣ : ٣١٦ وما يليها.

(٤) GR., III 188

وفي القدس شيد عنان لجماعته كنيساً ظل قائماً حتى أيام الحروب الصليبية . ووضع كتابين ضمنهما أحكام طريقته، الأول يدعى «كتاب الفرائض» والثاني «كتاب الفذلكة» . وكان في جميع ما يكتبه ويقوله يتهجم على التلمود وتعاليم الرّابيّين ، ويتهمهم بتزييف الشريعة الموسوية بتفسيرها على وجه يخالف ما جاء في نص التوراة. فازدادت الشقة بعداً بين القرائين والرّابيّين. على أن هؤلاء المنشقين على التلمود لزعمهم أنه ثقيل القيود والأحكام ، لم يلبثوا أن قيدوا أنفسهم بنواميس أشد صرامة وأثقل قيوداً من بنود التلمود. لأن ابتعادهم عن الاجتهاد والسير بمقتضى تطور الأحوال والزمان جعلهم جامدين على القديم، متمسكين بأمور عفا عليها الدهر وأبطل مفعولها تقدم الأفكار وتطور الحياة الاجتماعية. لكنهم فعلوا ذلك مندفعين بنزوة التعصب الشديد ضد الرّابيّين وكراهيتهم لهم. ومن المأثور عن عنان قوله: «لو كنت أحمل أرباب التلمود في بطني، لقتلت نفسي وقتلتهم معي.»[١].

وتولى زعامة القرائين بعد وفاة عنان، ولده شاؤل فحفيده يوشية. لكن الفرقة لم تستطع أن تحتفظ بوحدتها، فانشقت على نفسها وتفرعت إلى شيع وجماعات عديدة. وكان الرّابيّون لا يتركون فرصة إلا استغلوها لمهاجمة بدعة القرائين. فاتهموهم بالكفر والزندقة والمروق عن الدين ، وعدوهم غرباء عن اليهودية وحرموا الاتصال بهم والتزوّج من بناتهم . وقد اشتهر العالم الفيلسوف سعيد الفيومي الرّابي الشهير

---

(١) GR., III 188.

(٧٩٢-٩٤٢) بشدة بلائه في إفحام القرائين ودحض مفترياتهم على التلمود وأحكامه.

غير أن هذه المعارك المنطقية، وكان للرّابيِّين فيها اليد الطولى، لم تحل دون انتشار القرائية واشتداد ساعدها. فقد امتدت فروعها من فلسطين إلى سورية وأصبح لها في العراق أتباع وأشياع. واتجهت نحو الشرق، فكان لها في خراسان والجبل دعاة وأنصار. ثم بلغت شواطيء البوسفور وانتقلت إلى شبه جزيرة القرم . أما في الغرب فاستوطنت مصر وإسكندرية، ومنها تسربت إلى إسبانية سنة ٩٥٠م. وقد بلغ من انتشارها في مصر أن أصبح القراؤون فيها في القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) يفوقون الرّابيِّين عداً. أما في إسبانية فقد أثار انتشار بدعة القرائية بين يهودها ضجة كبيرة فاشتد الكفاح وعظمت الفتنة بين الفريقين. فرفع كبير اليهود يهوذا بن عزرا الشكوى من القرائين إلى الأذفنش (الفونسو) ملك قشتالة، فأصدر الأمر بطرد القرائين (١١٥٠-١١٥٧م).

وفي القرن الرابع عشر بلغت القرائية أوروبة الشمالية؛ فصار لها أتباع على شواطيء البلطيق في لتوانية. ونشأت طائفة منهم في تروكي من أعمال فلنو في بولندة ، بقيت محتفظة بكيانها حتى أواخر القرن الثامن عشر. ثم ظهرت طائفة منهم في غاليسية وفلهينية. أما في القرم فقد نبه شأن القرائين وظهر بينهم الأدباء والعلماء والمؤرخون. وعندما ضمت روسية القيصرية إقليم القرم إلى إمبراطوريتها سنة ١٧٨٣م. أعلن القراؤون أنهم لا يرتبطون واليهود بصلة قرابة أو دين

فتحاشوا بذلك شر القوانين الصارمة التي سنتها روسية ضد اليهود.

ولما اشتد اضطهاد الروس لليهود في القرن التاسع عشر بدافع التعصب الديني؛ أعلن رئيس القرائين في روسية إبراهيم فركوفتش؛ إن أتباع القرائية هم من أسباط بني إسرائيل المفقودة؛ هاجروا إلى القرم منذ القرن السابع قبل الميلاد، وإنهم على هذا، لم يكونوا في فلسطين عندما صلب السيد المسيح. وظل هذا شأن القرائين في روسية حتى نشوب الثورة البلشفية سنة ١٩١٧.

ويدل آخر إحصاء للقرائين (١٩٣٣) أن عددهم في العالم لا يزيد على اثني عشر ألفاً. يقيم عشرة آلاف منهم في القرم، والباقون منتشرون في استانبول وبولندة ومصر وفي بعض أنحاء كردستان[١].

ومن أخص الأمور الدينية التي يخالف القراؤون بها سائر اليهود، تركهم قواعد التقويم اليهودي في تعيين مواسم الأعياد. فالشهر لا يثبت عندهم إلا إذا قرر الشهود العدول رؤية الهلال، وبذلك نشأ اختلاف بين أيام أعيادهم وأعياد اليهود. ومنها تشددهم الصارم بحرمة السبت وتمسكهم الحرفي بمنطوق الآية القائلة: «ليلزمن كل مكانه، لا يخرج أحد من مكانه في اليوم السابع[٢]». فهم لذلك لا يأخذون بالتسهيلات الكثيرة الواردة في التلمود عن أحكام يوم السبت. فلا يجيزون فيه التنقل داخل حدود البلد الذي يقيمون فيه ولا يسمحون بإجراء فريضة الختان أو القيام ببعض الأمور التي

---

(١) راجع .J.E مادة karaite

(٢) سفر الخروج، ١٦:٢٩

تستدعيها الضرورة الاجتماعية أو الصحية ، كالإضاءة واستدعاء الطبيب أو إحضار الدواء وطبخ الطعام لمريض. فهم يقضون ليلة السبت في ظلام دامس ويمتنعون نهاراً عن كل حركة مهما كانت بسيطة، ويفرضون على أنفسهم قيوداً ثقيلة لا تجيزها مقتضيات الحياة ولا يجيزها الشرع الإسرائيلي، مما يطول شرحه.

غاؤونية بغداد ورئاسة الجالوت
في القرن الثاني عشر للميلاد

منذ أن استقر اليهود في العراق بعد سبي بابل، كانوا يوكلون بأمرهم عميداً يرجعون إليه في أمورهم وينيطون به تنظيم شؤون جماعاتهم الغفيرة التي كانت منتشرة في مدن الفرات ودساكره وقراه. وكان اليهود يطلقون على هذا العميد لقب «ريش جالوتا ריש גלותא» وهي لفظة بالآرامية تعني رأس الجالية، وعنها أخذ العرب لفظة رأس الجالوت. وتقول التقاليد اليهودية إن أول من تقلّد منصب رئاسة الجالوت على يهود العراق هو يكنية ملك يهوذا الذي أسره نبوكدنصر ملك بابل في حدود سنة ٥٧٧ ق.م. ثم أطلق سراحه الملك أويل مروداخ في السنة السابعة والثلاثين من إسارته ونصبه رئيسياً على أبناء ملته المقيمين في شرقي الفرات كافة[١].

وعندما استولى الفرس على العراق، منحوا الجالية اليهودية فيه نوعاً من الحكم الذاتي، فصار رأس الجالوت يتمتع بالسلطة الواسعة على أبناء ملته. فقد أصبح من واجبه الإشراف على أمور طائفته وسير إدارتها والأخذ بما يؤول إلى إصلاحها وصلاحها، وتعيين قضاتها ومراقبة استتباب العدل والانتظام في محاكمها، وتعيين مقدار الرسوم والضرائب الواجبة على الأفراد وجبايتها باسم الحكومة، وضمان تنفيذ القوانين التي تصدرها الدولة، وتحسين العلاقات بين الجالية اليهودية

(١) ٢ ملوك، ٢٨: ٢٧-٣٠ وإرمية ٥٢: ٣١-٣٤.

والسلطة الحاكمة، ومعاقبة من يخالف أنظمتها، والاقتصاص من الخارجين على أحكام الدين، إلى غير ذلك من الشؤون الإدارية والدينية والاجتماعية. وكانت التقاليد تقضي بأن يكون رأس الجالوت من آل الملك داود (ع) وأن ينتقل منصبه إلى الذكور من ذريته . وإذا مات بلا عقب انتقل منصبه إلى من فيه الكفاءة من أبناء أسرته.

أما في الشؤون الدينية، فكان يهود العراق يرجعون إلى علماء فلسطين، يتلقون فتاويهم ويقدمون إلى مدارسهم العلمية المال اللازم لتمشية أمورها وإعالة طلابها. وكان قد نشأ في فلسطين طبقة من العلماء يعرفون بالتنائيم תנאים باشروا شرح أحكام التوراة وتدوين قوانينها وتبويب شرائعها في مجموعة تعرف بالمشنة משנה وكان الفراغ من تدوينها في طبرية سنة ٢٠٠م، بعناية الحبر الكبير يهوذا بن شمعون الملقب بالربن الأقدس[١] (١٣٥–٢٢٠م).

ثم نشأت في فلسطين طبقة ثانية من الأحبار يعرفون بالأمورائيم אמוראים أي الأساتذة المحدثين، أخذوا يدرسون المشنة ويعلقون عليها التعليقات الضافية ويشرحون متونها شرحاً وافياً يتناول شرائع اليهود وتقاليدهم وطقوسهم وتاريخهم. وقد جمعت هذه التعليقات والشروح في مجموعة صارت تعرف بالتلمود الأورشلمي תלמוד ירושלמי. وكان الفراغ منه في أواخر القرن الثالث للميلاد.

ولما اشتد ضغط الرومان على أحبار اليهود في فلسطين، فلم يعد بمستطاعهم الاستمرار على الدرس والبحث بحرية وأمان، اضطر عدد

---

(١) راجع الحاشية ٣ من الصفحة ٢٦٣ في هذا الكتاب.

كبير منهم إلى الهجرة إلى العراق، فنشأت على الفرات مدارس كبرى للأموراثيم في نهردعة (بجوار عنة) أولاً، ومن بعدها في سورا (بجوار الحلة) وفي فومبديثة (بجوار الأنبار). وفي هذا المحيط الذي كان يسوده الأمان والحرية الدينية المطلقة، استطاع الأموراثيم أن يشرحوا المشنة شرحاً أكثر تفصيلا وأعم موضوعاً مما اضطلع به علماء فلسطين. فصارت مجموعة الشروح العراقية تعرف بالتلمود البابلي תלמוד בבלי. ومن مشاهير أحبار يهود العراق الذين عنوا بوضع هذا التلمود، هو الحبر «أبا أريخا אבא אריכא» مؤسس مدرسة سورا المتوفى سنة ٢٤٧م. والحبر مار صموئيل الفلكي צמואל ירחינאי (١٦٥-٢٥٧م) مؤسس مدرسة فومبديثة. وكان ختام التلمود البابلي سنة ٤٩٩م بعناية الحبرين أشي المتوفى سنة ٤٢٧م وربينه بن هناء المتوفى سنة ٤٩٠م. وبهما انتهى دور الأموراثيم.

ومن بعدهم نشأت في العراق طبقة من العلماء يعرفون بالسبوراثيم רבנן סבוראי أي الأساتذة الشارحين، استمر نشاطهم العلمي في سورا وفومبديثة من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٥٥٠م. وكان أهم أعمالهم التعليق على التلمود وتنظيم أبوابه وفصوله بالشكل المعروف إلى يومنا هذا.

* ثم نشأت طبقة أخرى من العلماء يعرفون بالغاؤونية גאונים[١]. كانت أهم أعمالهم إصدار الفتاوى الدينية ليهود الشرق والغرب، وكانت الأسئلة تتوارد عليهم من جميع الأقطار، وفتاويهم نافذة الكلمة عند جميع الطوائف يراجعون في شؤونهم الإدارية رؤساء

---

(١) راجع الحاشية ٢ ص١٩١.

الجالوت كما بينا، أما أمورهم الدينية فكان ينظر بها رؤساء المدرستين العلميتين في سورا وفومبديثة. وكانت المدرسة تسمى عندهم «مثيبتا מתיבתא» وعنها أخذ العرب لفظة «المثيبة» وكانت مثيبة سورا أعلى مقاماً من مثيبة فومبديثة وكان لرئيسها حق الأفضلية في المرتبة الدينية وفي انتخاب رأس الجالوت.

وقد أصاب اليهود في أواخر أيام الدولة الساسانية اضطهاد شديد، واعتدي على حريتهم الدينية من جراء تعصب المجوس أتباع مزدك. وبلغ الاضطهاد أشده في حكم الملك قباذ الثاني، فقتل رأس الجالوت مار زطرة الثاني (٥٢١م) وتوقف التدريس في مثيبتي سورا وفومبديثة.

فلا بدع إذا وجدنا يهود العراق يستقبلون جيوش العرب الفاتحين استقبال المحررين. فارتفع عن كاهلهم نير الفرس الذي كان يتهددهم بالهلاك والدمار. فقد ضمن الخلفاء الراشدون لأهل الذمة، ومنهم اليهود، الأمان والحرية الدينية. ولم يعودوا ملزمين بأكثر من جزية يدفعونها إلى بيت المال. وفي خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) تولى رئاسة الجالوت بستناي بن حنيناي سليل رؤساء الجالوت الأقدمين من آل داود، فأقره الخليفة في منصبه بكتاب عهد وجه إليه، فعادت لليهود حريتهم الدينية وانتظمت إدارتهم الداخلية (٦٤٠م.)[١] ويروي مؤرخو اليهود أنه عندما مر أمير المؤمنين الإمام

---

(١) G R., Lll 125

علي بن أبي طالب (رض) بمدينة فيروز شابور (الأنبار) خرج لاستقباله مار إسحق رأس مثيبة فومبديثة بجمع غفير من اليهود يبلغ تسعين ألفاً، لعرض الولاء والإخلاص، فأكرم أمير المؤمنين وفادته وأقره في منصبه وأعطاه الحقوق نفسها التي كان يتمتع بها جاثليق النصارى[١].

واستمرت الحالة على هذا المنوال طوال أيام حكم الدولة الأموية في الشام. ولما تأسست الدولة العباسية وعمرت بغداد سنة ٧٦٣م. (١٤٦هـ.) انتقل إليها مقام رأس الجالوت ليكون على مقربة من قصر الخلافة، وظلت مدرستا سورا وفومبديثة توجهان اليهود في أمورهم الدينية. وقد أدرك اليهود عزاً وبسطة في العيش في صدر الدولة العباسية، غير أن حالتهم ساءت كثيراً في خلافة المتوكل، إذ إنه أغلظ معاملة أهل الذمة وأجبرهم على لبس الغيار.

ومنذ ذلك الحين انحط مقام رأس الجالوت وتسرب الضعف إلى مدرستي سورا وفومبديثة[٢] وألغى نظام الوراثة في تعيين رأس الجالوت وتدخل الغاؤونيمْ في أمر انتخابه فنشبت من جراء ذلك قلاقل وفتن كثيرة بين اليهود أنفسهم ساعدت على تردي أحوالهم.

وقد زادت الحالة سوءاً بعد الانحطاط الذي عانته الخلافة العباسية من تدخل الأمراء المتغلبين . فقد مرت بالعراق شدائد ومحن في حكم البويهيين والسلاجقة، ولحق باليهود ما لحق بسائر سكان البلاد من

---

(١) G R., III 125.

(٢) المصدر نفسه .

تخاذل وتقهقر، فصارت موارد مدارسهم الكبرى تتضاءل يوما بعد الآخر إلى أن أغلقت نهائياً في خلافة القادر بأمر الله (٩٩١-١٠٣١م.) وكان آخر رؤساء مدرسة سورا الغاؤون هاي بن شريرا المتوفى في حدود سنة ١٠٣٨م. وآخر رؤساء مدرسة فومبديثة صموئيل كوهين بن حفني المتوفى سنة ١٠٣٤م. ومن ثم انتقل مركز اليهود العلمي إلى الأندلس.

وبعد فترة دامت مائة سنة، آل عرش الخلافة العباسية إلى المقتفي لأمر الله محمد. (٥٣١-٥٥٥/٥٥٦هـ. و١١٣٦-١١٦٠م.) وكان من أعظم خلفاء بني العباس، إذ إنه قضى على نفوذ السلاجقة وأعاد للخلافة عزها وسؤددها ونفوذها السياسي إلى جانب نفوذها الديني. فقرر هذا الخليفة الحازم إعادة رئاسة الجالوت إلى سابق ماكانت عليه من رفعة ومقام . فأناط هذا المنصب بالثري العالم البغدادي سليمان بن حسداي، سليل آل الملك داود من جانب أمه، ووجّه إليه كتاب عهد ولاه به الرئاسة على جميع الطوائف اليهودية في شرقي الفرات. ومن ثم فتحت في بغداد مدارس علمية عديدة أهمها مثيبة «غاؤون يعقوب ישיבת גאון יעקב» عهد برئاستها إلى الحبر الرّابي إبراهيم، ومن بعده انتقلت إلى علي بن إسرائيل اللاوي (١١٥٢-١١٦٠م.) وهكذا نشأ جيل جديد من رؤساء المثيبة يعرفون بغاؤونية بغداد، ظلت مستمرة إلى أن سقطت الدولة العباسية.

وبعد وفاة رأس الجالوت سليمان بن حسداي، انتقل منصبه إلى ولده دانيال، في خلافة أبي المظفر المستنجد بالله يوسف (١١٦٠-١١٧٠م.)

وانتقلت رئاسة المثيبة إلى الرابي صموئيل بن علي بن إسرائيل اللاوي الملقب بابن الدستور (١١٦٠-١٢٠٨) وفي أيام هذين الرئيسين كانت زيارة بنيامين لمدينة بغداد قرابة سنة ١١٦٨م. فوجد الجماعة اليهودية فيها تنعم بالرفاهة والعلم والثراء في ظل الخلافة الوارف، فأسهب بوصف مدارسهم وموكب رأس جالوتهم بعبارات تنم عن إعجابه واغتباطه بما شاهده[١].

وفي سنة ١١٧٤م. توفي رأس الجالوت دانيال من غير أن يخلّف ولداً يرث منصبه. فنشب على إثر ذلك خلاف بين داود وصموئيل ولدي أخيه، وكانا يومئذ في الموصل، حول التولية. فانتهز ابن الدستور رأس المثيبة هذه الفرصة، فضم منصب رأس الجالوت إلى منصبه. وبذلك أصبح رأس المثيبة المرجع الوحيد ليهود العراق والبلاد التي في شرقي الفرات، في أمورهم الإدارية والدينية. وقد اكتشفت في السنوات الأخيرة بين مخطوطات مكتبة لننغراد مجموعة من الرسائل التي وجهها الرئيس صموئيل بن علي إلى رؤساء اليهود في البلدان الداخلة في نفوذه الديني ، تعد من أهم المصادر لتأريخ يهود العراق في القرن الثاني عشر للميلاد[٢].

إن مؤرخي اليهود لا يكادون يذكرون شيئاً عن رؤساء المثيبة الذين خلفوا صموئيل بن علي (ابن الدستور) . والأثر العبري الوحيد الذي لدينا عنهم هو ديوان شاعر يهودي عاش في بغداد في حدود سنتي

---

(١) راجع الحديث عن بغداد ص ٢٩٩-٣٠٤

(٢) راجع ص١٦٨

١١٩٥ـ١٢٥٠م. يدعى إلعازر بن يعقوب البغدادي. ضمن ديوانه قصائد في مديح رؤساء المثيبة. أما في المصادر العربية فيعود الفضل في تعريفنا بهم إلى اثنين من مؤرخي بغداد في ذلك العهد، أحدهما أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين المعروف بابن الساعي في كتابه «الجامع المختصر»، والثاني أبو الفضل عبد الرزاق بن الفوطي البغدادي في كتابه «الحوادث الجامعة».

ويستفاد مما أورده ابن الساعي أن الذي خلف ابن الدستور في رئاسة المثيبة هو إلعازار بن هلال بن فهد ثم ولي من بعده دانيال بن إلعازار بن هبة الله الذي ولي رئاسة المثيبة في التاسع من شهر ذي القعدة سنة ٦٠٥هـ. (٩/١٢٠٨م) في خلافة الناصر لدين الله العباسي. وقد أورد هذا المؤرخ نص كتاب العهدة الذي وجهه إليه الخليفة، ندرجه فيما يلي، لأنه من أهم الوثائق الخاصة بتأريخ يهود العراق في ذلك العهد[1]:

(١) الجامع المختصر ص٢٦٦ - ٢٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمد لله الواجب شكره. الغالب أمره. العلي شأنه. القوي سلطانه. السابغة نعمته. المتفرد بالجلال والاقتدار. المصرف على مشيئته مجاري الأقضية والاقتدار. الدال على وحدانيته ببديع فطرته. المانع لعجائب صنعته من أن يتقدر في الأوهام كنه معرفته. الهادي إلى سبل الرشاد من يشاء من خلقه. الهامي سحاب فضله على كل مقر بربوبيته عارف بحقه. الذي اصطفى محمداً (ﷺ) وآله من أكرم أرومة وأعلى محتد وجرثومة. وأشرف العرب منصباً وأعزها قبيلا. وأوضحها في المكارم سبيلا. وأرسله إلى الأحمر والأسود نبياً . واختاره من أصناف الأمم عربياً. وأيده بالحكم أمياً. وجعله منصوراً بملائكته محمياً. وأتبعه بالبرهان الساطع . والدليل القاطع. ونسخ بشريعته الملل السالفة والشرائع. فلم يزل (ﷺ) وآله ، بأمر الله صادعاً . ولأنف الباطل جادعاً. ولما أنزل الله مبلغاً. ولجهده في نصح الأمة مستفرغاً . فصلى الله عليه وعلى آله وعلى سلالة عمه ووارثه وصنو أبيه العباس الذي طهره الله من الأدناس. وفرض مودتهم وطاعتهم على جميع الناس. الخلفاء الراشدين. وأئمة الحق المجتهدين. صلة لا انقشاع لغمامها. ولا انقطاع لتواصل دوامها. والحمد لله الذي أصار إلى خليفته في أرضه. ونائبه في خلقه. الإمام المفترض الطاعة على سائر الأنام. الناصر لدين الله أمير المؤمنين، ووارث الأنبياء والمرسلين. حجة الله على الخلق أجمعين. من مواريث أنبيائه ومآثر خلفائه في أرضه

وأمنائه. ماهو أحق بحيازة مجده. وارتداء علائه. وأخذ ميثاق طاعته على الأمم في الأزل. وألزم الأواخر منهم ما ألزم الأول. وفرض على الخلق الاقتداء به والإئتمام . وجاز له وراثة الخليفة عن الخليفة والإمام عن الإمام. زاد الله شرفاً إلى شرفه . وأدام على العالمين ما منحهم به من شمول عدله، وحصانة كنفه. فالمسلم والذمي والمعاهد في ظل أياديه الشريفة وادعون. وفي رياض الأمانة راتعون . ومما يكلؤهم من عين رأفته اليقظى هاجعون. لا يكدر لهم شرب ولا يذعر لهم سرب. وحكم عدله يوجب النظر العام في مناظر أمرهم. وجوامع مصالحهم. ورعاية جمهورهم. لما وكله الله تعالى إليه من سياسة عباده. وناطه بشريف آرائه واجتهاده.

ولما ضرع دانيال بن إلعازار بن هبة الله في ترتيبه رأس مثيبة اليهود ، عوضاً عن إلعازار بن هلال بن فهد الدارج على قاعدته ، وجاري عادته، وانتهى ما يتحلى به عند أهل نحلته، ويتصف به. واستحقاقه لما ضرع فيه بحسن طريقته منهم، وسلامة مذبه، رسم – أعلى الله تعالى المراسم الشريفة المقدسة المعظمة الممجدة المكرمة النبوية الأمامية الطاهرة الزكية الناصرة لدين الله، زادها الله جلالاً ممتد الرواق، ونفاذاً في الأقطار والآفاق – ترتيبه رأس مثيبة اليهود على عادة الدارج المشار إليه، حيث كان ابن الدستور رأس مثيبة أيضاً. وأن يكون له النظر في ما كان للدارج النظر فيه والولاية عليه، في جميع الأماكن التي جرت عادته بتوليها والتصرف فيها. وأن يتميز عن نظرائه وأشكاله باللبسة التي عهدت لأمثاله، وسبيل طوائف اليهود وحكامهم بمدينة السلام

وأكناف العراق، الانتهاء في ذلك إلي المأثور به والرجوع إلى قوله في توسط أمورهم، والعمل بموجبه. وأن يخرجوا إليه من الرسوم التي جرت عادة من تقدمه بها بالأماكن التي كان يتصرف فيها من غير معارضة له في ذلك، مع قيامه في ما يأتيه ويذره بشرائط الذمة والتزامه ومحافظته بالامتثال وبواجب الاعتصام والإجلال ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة.

وكتب في تاسع ذي القعدة من سنة خمس وستمائة. والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الذي ختم النبيين، وهو سيد المرسلين المصطفى على سائر الخلق أجمعين، صلاة دائمة إلى يوم الدين.»

والظاهر أن رئاسة دانيال بن إلعازار كانت قصيرة الأجل، لم تستمر أكثر من عام واحد. إذ يذكر ابن الساعي في حوادث سنة ٦٠٦هـ (١٢١٠م) خبر تولية هبة الله بن أبي الربيع الطبيب الفيلسوف، رئاسة المثيبة في خلافة الناصر أيضاً، وهو في الستين من عمره[١].

ومن بعده ولي الرئاسة أبو الفتح إسحق بن الشويخ. ذكر ابن الفوطي تاريخ وفاته في حوادث سنة ٦٤٥هـ (١٢٤٧/٨م) أما تاريخ توليته فقد أغفلته الرواية العربية. غير أن بوزنانسكي يعين لذلك سنة ١٢٢١م (٦١٨هـ) فيكون ابن الشويخ قد عاصر أربعة من خلفاء بني العباس هم الناصر والظاهر والمستنصر، وتوفي في السنة الثانية من خلافة المستعصم. والمظنون أنه الرئيس إسحق بن إسرائيل الذي

(١) الجامع المختصر ص٢٨٣

يتحدث عنه يهوذا بن سليمان الحريزي صاحب المقامات الذي زار بغداد في حدود سنة ١٢٢١م (٦١٨هـ.)[١]

وقد لفت نظرنا الأستاذ الدكتور مصطفى جواد إلى نسخة شمسية، لجزء من مخطوط قديم لعبد الرزاق بن الفوطي، صاحب الحوادث الجامعة، عنوانه «مجمع الآداب في معجم الألقاب» جاء في الورقة ٢٩٠ منه ترجمة طريفة لابن الشويخ هذا نصها: «فخر الدولة أبو الفتح إسحق ابن أبي البركات ابن الشويخ الإسرائيلي البغدادي، رأس المثيبة. كان حبراً عالماً بأحكام التوراة، عارفاً بالنجوم والحساب، مشكور الطريقة، جميل الأخلاق. قد تأدب واشتغل وحصل النحو واللغة.

حضره جماعة من اليهود يتألمون من نواب صاحب الديوان معلى ابن الدباهي. فكتب إليه في المعنى. فوقع تاج الدين بقلمه على رأس رقعته: «يحقق حال رافعوها!». فلما وقف فخر الدولة عليها، كتب على الرقعة وأعادها إليه:

مذ كان همكم إسعاف مفتقر وجبر منكسر وبسط منقبض
حكى يراعكمو بالطرس فعلكمو فليس ينكر منه رفع منخفض

فقضى حوائجهم في الحال. توفي في عاشر شهر رمضان سنة ٦٤٥، وحمل إلى جبل الطور، وكان قد جاوز الثمانين.»أهـ.

وفي ديوان إلعازر بن يعقوب البغدادي قصيدة في رثاء رأس المثيبة إسحق بن الشويخ تدل على ما كان لهذا الرئيس من مقام جليل في قلوب يهود بغداد. ويستبان من أبيات هذه القصيدة أنه كان لابن

---

(١) Poznansky, Baby. Geon. 42

الشويخ ولد يدعى إلعازر[١].

وولي رئاسة المثيبة بعد ابن الشويخ دانيال بن صموئيل كوهين بن أبي الربيع يذكر ابن الفوطي توليته في حوادث سنة ٦٤٥هـ. (١٢٤٧م.) في وزارة مؤيد الدين محمد بن العلقمي ، وقاضي القضاة عبد الرحمن بن اللمغاني[٢]. أما بوزنانسكي فيعين تاريخ توليته سنة ١٢٤٠م. (٦٣٨هـ.)[٣] . ويمكن التوفيق بين القولين إذا فرضنا أن ابن أبي الربيع ولي رئاسة المثيبة قبل وفاة ابن الشويخ الذي ربما كان قد اعتزل منصبه لشيخوخته أو لمرض ألم برجله كما يظهر من ديوان إلعازر البغدادي[٤].

ومن بعده ولي الرئاسة عالي بن زكرية الأربلي. يذكر ابن الفوطي توليته في حوادث سنة ٦٤٨هـ. (١٢٥٠م.)[٥] ويسميه بوزنانسكي « علي الثاني » تمييزاً له عن علي بن إسرائيل اللاوي الذي سبق ذكره[٦]. وفي ديوان إلعازر البغدادي قصائد في مدحه يستبان منها أن ولده زكرية كان يشغل منصب نائب رأس المثيبة على عهده[٧].

عند هذا الحد تقف المصادر العربية عن رؤساء اليهود. فقد اضطربت الحال يومئذ في بغداد من جراء اقتراب جيوش المغول، وأصبح

---

(١) ديوان إلعازر بن يعقوب البغدادي ص٩٦ طبعة القدس ١٩٣٥ .

(٢) الحوادث الجامعة ص٢١٨ .

(٣) Poz., Baby. Geon. 46

(٤) ديوان، القصيدة ١٠٤ ص٣٧ .

(٥) الحوادث الجامعة : ٢٤٨

(٦) Poz., Baby. Geon, 49

(٧) ديوان ، القصيدة ١٨٦، ١٨٢ ص٦٧-٦٨ .

ابن الفوطي وأمثاله في شغل عن ذكر رأس مثيبة بغداد، في وقت أمسى مصير الخلافة نفسها معلقاً في كفة الأقدار. والذي نفهمه من ديوان إلعازر البغدادي أن الذي تولى رئاسة المثيبة بعد عالي بن زكرية، يدعى صموئيل بن دانيال كوهين ابن أبي الربيع[١]. وفي عهده دخل المغول مدينة بغداد سنة ٦٥٦هـ. (١٢٥٨م.) فانتهت الخلافة العباسية وقضي على مراسيمها وأسبل الستار على غاؤونية بغداد ومدارسها التي ازدهت قرناً كاملاً من السنين[٢].

(١) ديوان، القصيدة ١٧٣ ص٦١ وPoz., Baby. Geon. 52

(٢) لفت نظرنا الأستاذ العزاوي إلى رأس جالوت ورد ذكره في النسخة الشمسية لمعجم الألقاب لابن الفوطي، جاء عنه ما يلي: «فخر الدولة هرون بن يوسف بن دانيال الداودي رأس الجالوت. وهذا من أولاد داود النبي (ص) وله نسب متصل إليه، ولم أر لآل إسرائيل نسباً متصلاً كنسبه. كتبته من إملاء صفي الدولة بتبريز سنة ٧٠٦» ا.هـ.

فتنة داود بن الروحي
مسيح العمادية الدجال

ليست الفتنة التي أثارها في العمادية داود بن الروحي المسيح الدجال، فريدة ببابها في تاريخ اليهود. فقد ظهر عندهم في مختلف العصور، غير واحد ممن ادعى النبوة وزعم أنه المسيح المنتظر . وكان ظهور أمثال هؤلاء الدجالين، في أغلب الأحيان، يعقب إحدى موجات الاضطهاد التي كانت تطغى على اليهود بين وقت وآخر. فكان السذج منهم ينجرفون وراء مثل هذه الدعوات بدافع الضيق الشديد، وكثيراً ما كان ظهور أولئك الأدعياء سبباً في إراقة الدماء وأخذ البريء بجريرة المذنب، فضلاً عن رد الفعل السيء الذي كانت تخلّفه في النفوس مثل هذه الأوهام عندما يظهر زيفها وينكشف بطلانها.

ومن أشهر أولئك المسيحين* الأدعياء الذين نشأوا بين اليهود في الشرق الإسلامي خلال القرون الوسطى، دجال يُدعى سيرينيوس ظهر في الشام[١] .في آخر خلافة عمر بن عبد العزيز وأول خلافة يزيد الثاني (٧٢٠ – ٧٢٤م) وآخر يدعى عبيد الله أبا عيسى إسحق بن يعقوب الأصبهاني الذي ابتدأ دعوته في زمن آخر ملوك بني أمية مروان بن محمد (٧٤٤–٧٥٠م)[٢] ومنهم أيضاً داود بن الروحي موضوع بحثنا.

---

(١) GR., III. 170 - 173, 427 - 431

(٢) GR., III. 176- 178, 431- 433 والملل والنحل للشهرستاني ص١٦٨ طبعة لندن.

* المسيحيون هنا تعني الذين ادّعوا أنهم المسيح المنتظر ،ولاتعني أنهم نصارى أو على العقيدة المسيحية.

إن مؤرخي اليهود لا يكادون يذكرون عن داود بن الروحي أكثر مما أورده بنيامين في رحلته[1]. فهو أول من روى هذه الحادثة، وعنه أخذ كل من كتب عنها من المتقدمين والمتأخرين. أما المصادر العربية فلا تعرف شيئاً عن هذا الحادث. والمرجع الوحيد الذي يتناوله بشيء من التفصيل، رسالة عنوانها «بذل المجهود في إفحام اليهود[2]» من تصنيف السموءل بن يحيى المغربي الطبيب الذي اعتنق الإسلام في بغداد سنة ٥٥٨هـ. (١١٦٢م) وارتحل عنها إلى أذربيجان حيث خدم بيت بهلوان وأمراء دولتهم، وتوفي في مراغة سنة ٥٧٠هـ(١١٧٤م) وعلى هذا يكون قد شاهد حوادث هذه الفتنة عن كثب، فأدرجها بفصل خاص من رسالته، لأنه وجد في موضوعها وسيلة للطعن في اليهود.

أما تاريخ وقوع الفتنة فيمكن تحديده في سنة ١١٦٠م، في خلافة المقتفي لأمر الله العباسي. وهذا ظاهر من قول بنيامين «وقبل عشر سنوات قامت في العمادية فتنة داود بن الروحي» ولما كان من المقرر أن بنيامين زار إيران قرابة سنة ١١٧٠م. وجب أن يكون التاريخ الذي نعينه لوقوع الحادث صحيحاً. كذلك يستبان مما أورده بنيامين أن داود كان قد تلقى العلم في بغداد عن حسداي رأس الجالوت وعن علي رأس المثيبة. ولما كان علي بن إسرائيل اللاوي قد تولى رئاسة المثيبة من سنة ١١٥٢ إلى سنة ١١٦٠م. أمكن القول بأن داود بن الروحي قام

---

(١) راجع الحاشية ١ من ص٣٢٧ في هذا الكتاب.

(٢) طبعت بمطبعة الشرق الإسلامية في القاهرة سنة ١٩٣٩.

بحركته في حدود هذه السنة [١] أما السموءل بن عباس فيكتفي بالقول «وهو جرى في زماننا» أي قبيل اعتناقه الإسلام سنة ١١٦٢م. وإذا كان بنيامين وابن عباس يتفقان في منشأ هذه الفتنة وأسبابها، فإنهما يختلفان في أسلوب روايتها. فالأول ينسب إلى ابن الروحي الخوارق والمعجزات، في حين يتحامل الثاني عليه بالطعن والمذمات. أما وقد طالع القارئ رواية بنيامين في متن الرحلة (ص١٥٤-١٥٧) نرى من المناسب أن نلخص فيما يلي رواية ابن عباس، لتكوين فكرة شاملة عن مسيح العمادية الدجال:

نشأ داود بن سليمان المعروف بابن الروحي في سواد الموصل قرابة منتصف القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد). وكان شاباً وسيما ذا جمال في صورته . فلما بلغ أشده انتقل إلى بغداد حيث تفقه بعلوم اليهود في مدارسهم الكبرى، كما برع في علوم العرب ولغتهم، يضاف إلى ذلك، على قول بنيامين، إتقانه فنون السحر والشعوذة.

ومن ثم عاد إلى العمادية حيث اتصل بصاحب قلعتها فأصبح من أصدقائه المقربين ، لتوهم الوالي فيه ديانة كان يتظاهر بها. فطمع هذا المحتال في جانب الوالي واستضعف عقله فتوهم أنه يتمكن من الوثوب على القلعة وأخذها، وأنها تبقى له معقلاً حصيناً، ودخل في روعه أنه المسيح المنتظر. فكانت أول خطوة اتخذها لتحقيق غايته أنه كتب إلى

---

(١) يختلف مؤرخو اليهود الأقدمين في تاريخ هذه الفتنة. فداود غانز يقول: إنها كانت في سنة ٤٨٩٥ للخليفة (١١٣٥م.) وابن يحيى صاحب سلسلة التواريخ يقول: إنها كانت في سنة ٤٩٢٥ للخليفة (١١٦٥م.).

يهود العجم والقرائين في نواحي أذربيجان وما والاها، اعتقاداً منه أنهم أكثر سذاجة من سائر اليهود، وذكر في كتابه أنه قائم على إنقاذهم، وخاطبهم بأنواع المكر والخديعة. فمن بعض فصول كتبه التي يقول ابن عباس أنه رآها، ما هذا معناه: «ولعلكم تقولون: هذا لأي شيء قد استفزنا، لحرب أم لقتال؟.... لا. لسنا نريدكم لحرب ولا لقتال. بل لتكونوا واقفين بين يدي هذا القائم، ليراكم هناك من يخشاه من رسل الملوك الذين ببابه... وينبغي أن يكون مع كل واحد منكم سيف أو غيره من آلات الحرب، يخفيه تحت أثوابه»[1].

ويستمر ابن عباس في روايته، إن يهود الأعاجم وأهل نواحي العمادية (كذا) وسواد الموصل قد استجابوا إلى دعوة داود، ونفروا إليه بالسلاح المستتر، حتى صار عنده منهم جماعة كثيفة. وكان الوالي لحسن ظنه به يظن أن أولئك القادمين إنما جاءوا لزيارة ذلك الحبر الذي قد ظهر لهم، بزعمه في بلده إلى أن تكشفت له مطامعه، وكان حليما عن سفك الدماء، فقتل صاحب الفتنة المحتال وحده. أما الباقون فتناجوا مدبرين، بعد أن ذاقوا وبال المشقة والخسارات والفقر.

ثم ينتقل السموءل بن يحيى بن عباس إلى حديث لم يتطرق إليه نيامين، ونعني به أثر هذه الفتنة التي قامت في العمادية، في يهود بغداد وصداها بين عامتهم، فيقول:

---

١) بذل المجهود، ص٦١ – ٦٢.

«ولما وصل الخبر إلى بغداد، اتفق هناك شخصان من محتالي اليهود ودواهيهم، فرووا عن لسان داود كتباً إلى يهود بغداد، يبشرهم بالفرج الذي كانوا قديماً ينتظرونه، وأنه يعين لهم ليلة يطيرون فيها أجمعين إلى بيت المقدس. فانقاد إليهما بعض السذج من اليهود وذهبوا بأموالهم وحليهم إلى ذينك الشيخين، ليتصدقا به على من يستحقه بزعمهما. وصرف اليهود جل أموالهم في هذا الوجه. واكتسوا ثياباً خضراء. واجتمعوا في تلك الليلة على السطوح، ينتظرون الطيران. بزعمهم ، على أجنحة الملائكة إلى بيت المقدس وارتفع من النساء بكاء على أطفالهن المرتضعين، خوفاً أن يطرن قبل طيران أولادهن، أو يطير أطفالهن قبلهن، فيجوع الأطفال بتأخر الرضاع عنهم. فتعجب المسلمون هناك مما اعترى اليهود حينئذ ، بحيث أحجموا عن معارضتهم، حتى تنكشف آثار مواعيدهم العرقوبية. فما زالوا متهافتين إلى الطيران إلى أن أسفر الصبح عن خذلانهم وامتناعهم، ونجا ذانك المحتالان بما وصل إليهما من أموال اليهود وانكشف لهم وجه الحيلة؛ فسموا ذلك العام «عام الطيران» وصاروا يعتبرون به سنين كهولهم والشبان».

هذه هي خلاصة ما يرويه السموءل بن عباس عن فتنة داود بن الروحي. أما عن عاقبة هذا الدجال فهناك روايات متباينة. فابن عباس يقول: إنه مات مقتولاً بيد صاحب العمادية . ويروي بنيامين أنه قضى مذبوحاً بيد حميه أثناء ما كان غارقاً في نومه. وهناك رواية منسوبة لموسى بن ميمون مفادها أن داود الداود (كذا) عندما انكشفت حيلته

وقبض عليه وعرف بمصيره المحتوم، خاف أن ينكل الوالي به ويعذبه قبل قتله. فعمد إلى حيلة تخلص بها من التعذيب الذي كان ينتظره. فزعم بحضور الوالي أنه إذا قطع رأسه لا يلبث أن يعود إلى الحياة. وعلى ذلك أمر الوالي بجز رقبته. فعاجلته المنية وانتهى أمر هذه الفتنة[١].

(١) إصحاح داود ج ١ ص ٥٠ ب وسبط يهوذا ص ٢٥

المحتويات

 طبعت لدى شركة أبوظبي للطباعة والنشر [بن دسمال]

هدية العدد

يطلعنا على المسار الذي سلكه الرحالة بنيامين التطيلي، وهو الطريق الشمالي، بادئاً من مدينة سرقسطة الأندلسية التي لم تكن تحت الحكم الإسلامي، حيث الملجأ والملاذ ليهود سائر أوروبا في العصور الوسطى، هرباً من الجور والظلم الأوروبي، وارتماءً في (حضن) الحكومات الإسلامية، فلم يتجه جنوباً، ولم يعبر مضيق جبل طارق؛ لأنّ رحلته كان لها غرضها الذي نطالعه من بين مداد سطور هذه الرحلة التي لم تسجّل فيها إلاّ دليل التعارف بين اليهود، ليعينهم على سفرهم عندما يعزمون على الرحيل.





منشورات المجمع الثقافي

Cultural Foundation Publications

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة - ص. ب 2380 - هاتف 6215300

ABU DHABI U A E P O BOX 2380 TEL 6215300 Cultural Foundation

Email: nlibrary@nt1.cultural.org.ae

http://WWW.Cultural.org.ae